

وجوهٌ عرفتُها
رياض عبد الله حلّاق
مقالات - دراسات - ترجمات - نقد

وجوهٌ عرفتُها

إهـــــــداء ٢٠١٠

الاستاذ الدكتور خالد عزب

وُجُوهٌ عَرَفْتُها

مقالات - دراسات - ترجمات - نقد
كتبها المؤلف ونشرها في مجلتي الضاد والكلمة
وعدد من مجلات الوطن العربي

رياض عبد الله حلاق

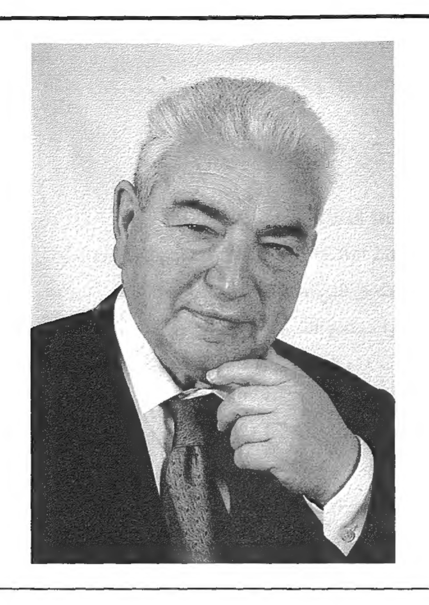
صاحب مجلة الضاد ومديرها المسؤول



هديّة مجلة الضاد إلى قرّائها ونصرائها
في الوطن والمهجر
لمناسبة بلوغها سنتها الثمانين

بدلاً من الأعداد ٧ - ٨ - ٩ / ٢٠١٠

طُبع في دار الضاد للطباعة والنشر – حلب ٢٠١٠
هاتف: ٤٦٦٤٣٢٣ – ٤٤٤٦٩٨٦
فاكس: ٢١٢٣٤٣٠ (٢١) (٩٦٣ +)
ص.ب: ٦٤٤٤
E-mail:aldad@scs-net.org
www.addadonline.com
E-mail:info@addadonline.com



رياض عبد الله يوركي حلاق

عُمْــري أنــا هــاوٍ إلى الــسبعينا ... والــروحُ تــرقصُ في ذُرا العــشرينا
نَثَــرَ الزمــانُ ثُلوجَــهُ في هــامَتي ... لكــنّ قلــبي مــا يــزالُ أَتُونــا

الإهداء

إلى تلك الباقة العطرة الفوّاحة بأريج الياسمين.

إلى تلك القمم الباسقة في سماء الفكر والأدب والإبداع.

إلى تلك المشاعل التي أضاءت طريق العلم والمعرفة.

إلى مَن بَنَوا مجتمع التقدّم العلمي والتحرّر الفكري.

إلى أصحاب هذه الترجمات والدراسات، رجالاً شجعاناً، وأعلاماً عظاماً، وصروحاً شامخة.

إلى مَن أعطَوا أُمّتهم خلاصة فكرهم وفنّهم ورسالتهم لتحيا هذه الأُمّة حرّة عزيزة كريمة.

إلى مَن كتبوا اسم "حلب" بحروف من ذهب في سجلّ حواضر العالَم فرَنَتْ إليها الأبصار.

إليهم جميعاً أُهدي هذا السِفْر الفكري لأنّهم جديرون بالتكريم والتقدير والاعتزاز.

رياض



عبد الله يوركي حلاق

أأبا رياضٍ، يا أبا الضاد التي ... أسْكَنْتَها في العينِ والأحشاءِ
اهنأْ، فإنّ الضادَ بعدكَ لم تَزَلْ ... أجفانُها تَعصى على الإغفاءِ
هيَ لا تزالُ كما عَهِدْتَ جناحَها ... متوثِّباً أبداً لِلَثْمِ ذُكاءِ
هيَ لا تزالُ كما أردتَ شِفاهَها ... عربيةَ الإنشادِ والإنشاءِ
الضادُ ظلَّتْ للوئامِ رِسالةً ... فجزاكَ عنها اللهُ خَيرَ جزاءِ

رياض

شكر وامتنان

إلى الإخوة المناصرين الذين أحبّوا الضاد (لغة ومجلّة) وأسهموا في طباعة هذا الكتاب، مادّياً ومعنوياً:

سيادة الدكتور رياض نعسان آغا – وزير الثقافة.

نيافة المطران يوحنّا إبراهيم مطران حلب على السريان الأرثوذكس.

عناية الشيخ عبد اللطيف سعود البابطين، الرياض – السعودية.

عناية الشيخ عبد العزيز سعود البابطين رئيس مجلس أُمناء مؤسّسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري – الكويت.

السيّد بول نصري بيدو، مونتريال – كندا.

السيّد فيصل فهد المعجل (شركة معجل للأدوية) – الكويت.

رابطة المغتربين السوريين في بروكسل – بلجيكا.

السيّد جورج فتحي أنطاكي.

السيّد ليون زكي.

السيّد إدوار مكربنة (شركة مكربنة وشركاه).

السادة فريد وكميل وأنطوان غفريل شوحا.

السيّدة أُمَيّة الزعيم.

السيّد المهندس إلياس عبّود خضري.

السيّد سليم قولتقجي.

السيّد بشر يازجي.

إلى الأديبين الأستاذين اللذين سطّرا تقديم الكتاب: المحامي عصام كرم نقيب المحامين في بيروت سابقاً، ومحمود فاخوري – حلب.

إلى الأديب والأخ والصديق جورج مراياتي الذي ضحّى بوقته الثمين فنسّق هذا الكتاب واضعاً عليه لمساته وأتمّه بحلّته النهائية.

إلى نجلي عبد الله رياض حلاّق الذي أشرف على طبعه وإخراجه.

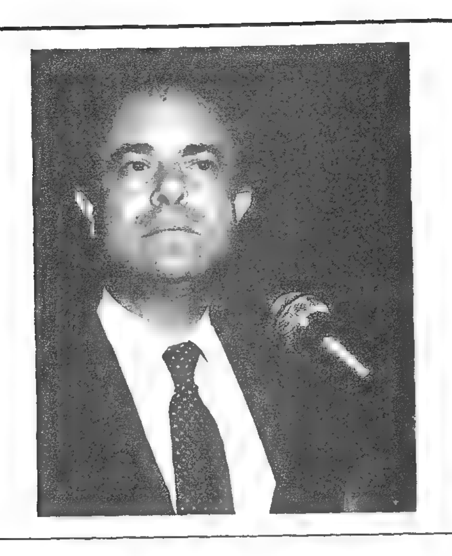
إلى جميع التقنيين والعاملين في دار الضاد للطباعة والنشر الذين اهتمّوا بطباعة الكتاب وجمعه وتجليده وتوزيعه.

إلى مركز "هارموني" الذي تولّى تنضيد الصفحات وإخراجها، وساعده مركز "هافتون" لعمليّات الفرز الإلكتروني.

إلى جميع الذين ساعدوني في الوصول إلى رسوم الشخصيّات التي رغبتُ في أن يضمّها الكتاب، سواء من أرشيف الضاد أو من سواه، رغم الصعوبات التي ترافق ذلك.

إلى جميع هؤلاء أقدّم خالص الشكر وعاطر الامتنان، وأسأل الله لهم الصحّة الباسمة والسعادة الدائمة.

رياض



تصدير

وجوهٌ مُشرقة وقلمٌ مُشرق
فهنيئاً لطُلاّب البهيّ السنيّ!

بقلم الأديب عصام كرم

في كلام لجان بولـهان، في ١٩٣٢، قبل أن يتولّى، رسمياً، إدارة إن. دار. إف "المجلّة الفرنسية الجديدة"، أنّ المجلّة ليست إنساناً، ولا كائناً آخَر من الكائنات الحيّة.. مثلهم تولد فتيّة وتموت هرمة. قد تقضي المصاقبة بأن تولد هرمة وتموت فتيّة.. المجلّة، "**الضاد**".. قُسط لـها أن تولد فتيّة.. وأن تظلّ فتيّة. لأنَ الناجل تعهّدها برفيف قلبه

وبؤبؤ عينيه، وبريشة جمعت الشهامة إلى الإناقة مثلما جمعت العلم والفكر إلى لغة تتجدّد مع تمسّكها بتراث الأصالة... كيف اقتعاد **أبي حيّان**! وتهادت "**الضاد**" إلى النجل يتـوفّر عليها بالمترف مستهدياً المتلد البديع.

رياض عبد الله حلاّق يستأنس بذاكرته... فتُطلع له، ولنـا، تاريخـاً غنيـاً بالعطايـا. فكان كتابه "**وجوهٌ عرفتُها**" شيئاً غير كُتُب السيرة. لأنّه أرّخ مرحلـة تـداخلت وجوههـا مع النهضتين الأدبيتين في دنيا العـرب... نهـضة القـرن التاسـع عـشر. ونهـضة القـرن العشرين. وليس كثيراً القول إنّ كتّاب اليوم ما يزالون تلاميذ هاتين النهضتين.

الأدب العربي، في مطلـع القرن التاسع عشر، كان في حاجـة إلى عمليـة اسـتنهاض. لأنّ الجفاف كان اعتراه... فصار يابساً، مكدوداً. هـذه مرحلـة تعـود إلى العبـث البربـري بوضاءة الحضـارات. **هولاكـو**، حفيـد **جنكيـز خـان**، اجتـاح بغـداد في سنـة ١٢٥٨. **وتيمورلانك**، حفيـده الآخَـر، خرّبهـا مـرّتين. مـرّة في ١٣٩٢. ومـرّة في ١٤٠١. بانتهـاء الخلافة العبّاسية، ومن قبل، منذ مقتل الخليفة العبّاسـي العاشـر، **المتوكّـل**، نـصل لـون الأدب العربي. وضمرت الريشة العربية.. فكان على العـرب أن ينتظـروا القـرن التاسـع عشر ليستعيدوا عهدهم بالوميض يتحوّل إلى بارقة.. والبارقة تصير نُوراً يعيد الوهج إلى الأدب العربي.

"**الضاد**"، في العهدين، عهد الناجل وعهد النجل، تطلّعت إلى الحلا. فالأناقة والجَمال اجتمعا فيها على تناسق مع رصانة تبدأ كلمة عصماء وتنتهي بسمة طفل في وجـه مـنير. هكذا كانت على يد المؤسّس، **عبد الله يوركي حلاّق**. وهكذا هي علـى يـد حامـل الأمانـة، **رياض عبد الله حلاّق** تتحلّق عليه نخبة طلاّعة مؤمنة بـأنّ الاسـتمرارية بنـت المـستوى، وبأنّ الريّان ليس دائماً داني القطاف. **زهـير بـن أبـي سُـلمى** كـان صـاحب الحوليّـات. القصيدة تشغله سنة كاملة حتّى يقول: "أمِنْ أُمّ أوفى دمْنةٌ لم تَكلّـم". وتهافـت الـرواة على عطائه... وآخر مَن اجتمع له الشعر، ورواية الشعر، **كُثَيِّر**. فهو كـان راويـة **جميـل**. وجميل كان راويةَ **هُدْبة**.. **هُدْبة بن خشْرم**.. **وهُدْبة** كانَ راويـة **الحطيئـة**. **والحطيئـة** كـان راوية **كعب بن زهير**. وكعب كان راوية أبيه.

كتاب **رياض عبد الله حلاّق "وجوهٌ عرفتُها"** يذكّرني بكلّ هذا. لأنّ **رياض عبد الله حلاّق** نثر كنانته... فوجد فيها الألق والسنى. وجد السيرة، والقصّة، والشعر، ووجد الظرف والبيان... فغمس من كلّ هذا الجنى المراع وأعطانا، بالفكر المتعافي والقلم المتصافي، رواء وبراعات. فالتأريخ، عنده، تأريخ مرحلة متمادية الفناء. والأشخاص، عنده، محطّات نقرأ فيها سيرة شخصية مثلما نقرأ فيها تاريخ حلاوات.

يوم أطلّ **دين براون** من خلال السينما، كان للخرافة أن تستمرّ، وكان يستمرّ التفتيش عن كيفية الطلوع من عالم أكمد... غير شفّاف. **دين براون**.. وهو ظاهرة من ظواهر سطحية العولمة، لا يهتمّ لقيمة التاريخ. للتاريخ في ذاته. لأنّ التاريخ، في ذهنه، وهذا ليس بعيداً عن الواقع أحياناً، إنّما كُتب بريشة الأقوياء. لذلك... هو تصوّر نفسه كاتب تاريخ بريشة المهزومين الخاسرين.

لا هذا. ولا ذاك.

التاريخ واقعة لا يبدّلها كاسب. ولا يغيّر في صيرورتها هزيم. والواقعة وجود يفرض الوفاء لحقيقته. على أن يجري الكاتب على ما شاء من مذاهب يوم يؤوّل الواقعة. هذا وفاءٌ للتطلُّع. وهذاك وفاءٌ للتطلّع... ليطلع منهما، متناسقين متمازجين، ما تطمئنّ إلى تناقله الأحقاب.

وليس صحيحاً أنّ التاريخ ليس موجوداً، كمِثْل ما ليس صحيحاً أنّ للتاريخ نهاية. فالتاريخ معرفة. والمعرفة تتجدّد، وتلد، بالدقائق والثواني. الغنوصية... باليونانية... تعني المعرفة. والغنوصي هو العارف الواقف في مواجهة الكون لا يريد أن يؤمن بقدْر ما يريد أن يعرف. أفلا يُستغرب، من هنا، كيف أنّ الإغريق سمّوا مَن ليس منهم بربرياً.. حتّى الروماني؟ الإغريقي... يوم انكسر، عسكرياً، أمام الروماني.. ظلّ ينظر إليه النظرة الدُّون. والروماني المنتصر ظلّ تلميذ الإغريقي المنكسر يقلّده ويأخذ عنه... فسمّى بربرياً مَن لا يؤمن بالقيم الرومانية.

يا الله! كم أخذني كتاب **رياض عبد الله حلاّق "وجوهٌ عرفتُها"**... كم أخذني إلى ملاعبة الذاكرة. والذاكرة آفاق. وكتاب **رياض** فتح آفاقاً وسيعة حلوة المدارك يانعة

البهجة. فمدارس النقد والتقويم نقد.. وكتابة السيرة، وكتابة التاريخ، نقد... مثْل مدارس الهندسة. لا تخترع شيئاً. لكنَها تعرف كلّ شيء عمّا يخترعه الآخَرون.

ورياض عبد الله حلاّق، مثْل كلّ كاتب يحترم نفسه، عرف كيف يحمل مسؤولية كتاب يحمل اسمه. مدركاً أنّ الوجود الحقّ إنّما هو لإنسان عنده شيء يقوله للناس... بالريشة. بالإزميل. بالوتر.

والكتاب كائن نبيل. . يشعر بأنّ عليه أن ينقذ الحقيقة... لأنّ الحقيقة تموت. والمكتبة تموت. تحترق فتموت فيها حضارة.. لا الحضارة. وتموت حقيقة... لا الحقيقة... وتموت كُتُب.. لا المكتبة. ولا الكتاب.

.. ويا رياض!

قلمك ابن جَلا. وذاكرتك دنيا ترتع في سعة. ومعرفتك زاخرة.

ألا... دامت للضاد مكنات حملها صاحب "الضاد"!

وكانت لنا معك، دوماً، لقاءات على البهيّ السنيّ!

المقدمة

"وجوهٌ عرفتُها" ثمرةُ حياة وفيضُ خاطِر!

بقلم الأديب الباحث محمود فاخوري

لا جرَمَ أنّ حياة الأدباء – بما فُطروا عليه من حسّ مرهف، وبصيرة واعية، وعين نافذة – غنيةٌ بمجرياتها، حافلة بتجاربها. وهذا ما يجعل كتاباتهم متوّجة بالنضج، ومكتوية بنار المعاناة، إذ يرسلون نظراتهم فيما حولهم، متأمّلين دائبين. ومتطلّعين إلى الأمثل فيما يرجون وما يعالجون، سواء في ذلك الظواهر الاجتماعية، والأمور الفكرية والثقافية، والجوانب الوطنية والقومية والإنسانية.

وعلى هذا المَهْيَع تجري أقلامهم، وفي تلك الأحياز والأجواء تحلّق أفكارهم وأمانيهم، لتفرغ بعد ذلك على الصحائف والأوراق، وتتلقّفها الأيدي كتاباً حيناً، ومجلّة أو جريدةً حيناً آخَر، على مدى عقود من السنين.

ثمّ يعود فريق من الأدباء إلى ما نثرته يراعتهم من أحاديث نُشرت في الدوريّات، أو دراسات وأبحاث وخطرات حوتها بطون المجلاّت في مناسبات مختلفة، فيعيدون النظر في ذلك كلّه، وينقّحون ويرتّبون، ليجمعوا ما دبّجته أقلامهم هنا وهناك. في كتب تجلّي تجاربهم في الحياة، وتكشف النقاب عن نظراتهم إلى الحياة والناس، وتشفّ عن ثقافاتهم وأفكارهم.

ومن هذا القبيل ما صنعه **طه حسين** في كتابه "حديث الأربعاء" و**أحمد حسن الزيّات** في "وحي الرسالة" و**عبد الله يوركي حلاّق** في "قطاف الخمسين"، وكذلك الأمر فيما صدر من بعض كتب **العقّاد** و**المازني** و**الرافعي** وغيرهم من الأدباء والنقّاد

والباحثين، ولكلِّ منهم وجهته الخاصّة فيما يختار ويجمع من آثاره، ومذاقه المعيّن فيما يصطفي ويؤثر.

وعلى هذا سار الأديب **رياض عبد الله حلاّق**، صاحب مجلّة "**الضاد**" بحلب ومديرها المسؤول، حين عاد إلى ما كتبه خلال خمسة عقود من السنين من مقالات ودراسات أدبية وتاريخية، ونقدية واجتماعية وتعريفية، نُشرت في مجلّتَي "**الضاد**" و "**الكلمة**" وغيرهما من مجلاّت الوطن العربي، وإلى الأعداد الخاصّة التي كانت أصدرتها الضاد لعدد من الشخصيّات في عهده، واختار من ذلك كلّه - وهو كثير جداً - جملة أنيقة في معناها ومبناها ضمّها هذا الكتاب الذي يجده القرّاء على حبل الذراع أو على طرف الثمام. والذي وسمه بـ "**وجوه عرفْتُها**".

والأستاذ **رياض عبد الله حلاّق** لم يدلف إلى هذا الميدان، ميدان الكتابة، إلاّ بعد أن هيّأ نفسه له، وأتقن أدبيّات اللغة العربية ومسالكها، وأحبّها حبّاً جمّاً أخذ عليه تفكيره واستأثر باهتمامه. ولا غرو فقد تربّى على عيني والده الأديب الشاعر **عبد الله يوركي حلاّق** مؤسّس مجلّة "**الضاد**" - وهو أشهر من أن يعرّف هنا - والذي عُرف بحبّه العميق للعربية والعروبة والأصالة. ومنه سرى ذلك إلى نجله **رياض** الذي يقول في بعض ما قرأتُ له: "لعلّه من الإنصاف أن أعتزَّ بأنّي مدين لوالدي بحبٍّ الفصحى والأدب والعروبة. فقد زرع في قلبي منذ صغري بذور المعرفة، وجعلني أعشق الكتاب، وأكبَّ على المطالعة ليل نهار، ووضع بين يدي كتباً تمتاز بالأسلوب السهل المشوّق، والمعنى الجميل الجذّاب".

يُضاف إلى ذلك ينبوع آخَر اتّكأ عليه **رياض**، ذلك هو تلك الرحلات الواسعة التي قام بها، والأسفار العديدة التي زار فيها معظم الدول العربية والدول الأوروبّية غير مرّة، ومعها الصين وكندا والولايات المتّحدة الأميركية وفنزويلاّ، وقضى أيّاماً وأسابيع حافلة في تلك الربوع، وكان وهو هناك - سفيراً للعربية والعروبة - وللأدب والوطن، ولقي من العرب المغتربين، أقارب وأصدقاء ونصراء، حفاوةً بالغة واهتماماً كبيراً.

وتوّج الأستاذ **رياض** ذلك كلّه بما اكتسبه من تجارب كثيرة في الحياة ثقفت

أفكاره وعمّقت نظراته وتأمّلاته، وفتحت عينيه على آفاق جديدة من المعرفة والاطّلاع والممارسة.

وأعانه على ذلك صحبته للضاد سنوات طويلة حافلة بالمعاناة والخبرة والتمكّن، ولا سيّما حين أصبح مديرها المسؤول منذ نحو خمسة عقود من السنين، وصاحب امتيازها ورئيس تحريرها منذ نحو ثماني عشرة سنة، يغنيها بجهده وقلمه، مستقطباً في الوقت نفسه أقلام جميع الأدباء والشعراء والمفكّرين ومَن إليهم، من القطر العربي السوري والوطن العربي، والمهجر الأميركي، ممّن كانوا يرفدون المجلّة بنتاجاتهم المختلفة.

فلا عجب أن تكون حصيلة ما أجملتُ الحديث عنه، تلك المجموعة الجميلة التي تضمّنها هذا الكتاب من المقالات والدراسات والترجمات وما يتّصل منها.

إنّه الحديث عن شخصيّات أجنبية وعربية – وفي طليعتها رؤساء دول – ممّن عرفهم المؤلّف شخصياً أو من خلال قراءاته لهم. وإنّ معظم مَن تناولهم في الدراسة كانت معرفته بهم من خلال تذوّقه نتاجهم ومن خلال لقائهم في حلب الشهباء أو في مواضع إقامتهم.

يكتب **رياض عبد الله حلاّق** نثراً ويزيّن شعراً، ممثّلاً الزمن الذي كتب فيه، وبذلك يتّخذ أحياناً صفة الوثائقية فالتأريخ والتوثيق معاً. فتشعر وأنت تسرّح بصرك وبصيرتك في هذا الكتاب أنّك في بستان تتنقّل فيه بين الأشجار والأطيار والمياه العذبة. فتوقن بعد ذلك صدق ما قاله القدماء في تعريف الأدب. "**إنّه الأخذ من كلّ علم بطرف**"، وما قاله المعاصرون "**الأدب متعة وفائدة**".



الرئيس حافظ الأسد
فقيد الأمة العربية

نبت من قلب الشعب، كما تنبت الدوحة الوارفة من قلب الجبل الأشمّ، وعاش بقرب إخوانه الكادحين، وتحسّس ما يعانون من ضيق وشقاء وحرمان، فتألّم لآلامهم، وبات وكلّ أمانيه في الحياة، أن يتمكّن من إنصافهم وإيصالهم إلى حقّ إنسانيتهم في الوجود.

انتسب فتىً يافعاً إلى حزب البعث العربي الاشتراكي وناضل في صفوفه. وكان أكثر ما يحزُّ في نفسه، وينكّد عليه عيشه، احتلال فرنسا لبلاده، وسطوة المحتلّين على مقدّرات

سورية وخيراتها. وفي عام ١٩٤٨، حين نشب القتال بين العـرب وإسـرائيل، رأى **الأسـد** بعينيه الخيانة المتمثّلة في السلاح الفاسد، وخضوع بعض الزعمـاء العـرب لأوامـر لنـدن وباريس، فثارت في أعماق روحه الحَميّة العربية، والغضبة المـضريّة. فانتـسب إلى الكلّيـة الجوّية وكان ضابطاً مقداماً، وطيّاراً باسلاً مغواراً. وقد شـكّل حركـة الـضبّاط الأحـرار وكلّهم من العرب الأباة الخلّص، التوّاقين إلى تحرير الأرض المغتصبة. والتفّـت الجمـاهير حول القائد البطل، ومنحته الحبَّ الخالص والثقة الوطيدة، ومشت وراءه في سبل التحرير والبناء والوحدة والحرّية والاشتراكية.

إنّ شخصية الرئيس **الأسد**، هي شخصية عربية عالمية، إنسانية مناضـلة في سـبيل قضية مقدّسة هي العروبة بكلّ معانيها وقضاياها. فالرئيس **الأسد** رَجـل سـلام وعـدل، وهو مناضل شعبي ذو رؤية واضـحة جعـل مـن سـورية قـوّة قـادرة علـى التـصدّي للإمبريالية والصهيونية.

الرئيس **الأسد** بطل سياسي وعسكري من الطراز الأوّل يتعامل مع الحقائق الدولية ويجابه العدوّ الصهيوني من خندق متقدّم، عُرف بصموده واستبساله على مرّ السنوات، وقد تمتّع بمركز قوي ومؤثّر كما تمتّع بشخصية ذكية وتكتيكية من الدرجـة الأُولى، إنّـه أذكى وأسرع الزعماء وأكثرهم واقعية. يتحلّى ببراعة فائقـة وقـدرة خارقـة علـى تـأثير الأحداث في الشرق الأوسط.

ثلاثون عاماً كانت مسيرة مناضل حقيقـي وسياسـي بـارع محنّـك، مـسيرة قائـد تاريخي، عرف كيف يحوّل الأحداث ويتحكّم بمجرياتها لصالح وطنه وأُمّته. إنّها ثلاثـون عاماً حافلة بالتضحيات، زاخرة بالإنجازات والعطاءات. ثلاثون عاماً كان سمتهـا القـرار الشجاع والموقف المبدئي الثابت كالجبل الأشمّ.

ثلاثون عاماً أكسب فيها **القائد الأسـد** بـلاده الاحـترام والتقـدير وصـان حرّيتهـا وكرامتها، ورفع من شأنها وأعلى قدرها. لـهذا اكتسب الاحترام والتقدير من كلّ زعمـاء دول العالم وقادته.

لقد رسّخ قائدنا العظيم، معظم جهوده للنهوض بالواقع العربي، والعمل على تعزيز تضامنه بكلّ السبل المتاحة، لأنّه بالتضامن والوحدة تستعيد الأُمّة العربية ألقها ومكانتها

تحت الشمس. وبالوحدة والقوّة تستطيع الأُمّـة أن تحـبط مخطّطـات العـدوّ الـصهيوني الطامع في أرض العرب وثرواتهم. وقـاد الأُمّـة إلى تحقيـق الانتـصارات وتأهيلـها للعـب دَورها في التاريخ إلى جانب الأُمم الأُخرى لبناء مجتمع الحرّيـة والمـساواة. وبهـذا دخـل القائد الخالد الرئيس **حافظ الأسد** التاريخ من أوسع أبوابه بقوّة الفعـل، وكفـاءة القـرار، وعمق التـأثير. وجسّد الإرادة الوطنيـة والرؤيـة القوميـة والانطلاقـة المـشرّفة في حيـاة شعبنا وأُمّتنا.

في عهده الزاهر بدأ تاريخ سورية الحديث. وفي ظلّ قيادته الحكيمة انطلقـت مـسيرة الصمود والتحرير وبناء مجتمع الكفاية والعدل، وحقبة الاسـتقرار والازدهـار. فتنـامى البناء من كلّ جانب ونهضت سـورية الحديثة، دولة المؤسّسات، قوية منيعة تـشمخ فيهـا الصروح الحضارية والإنجازات العظيمة والانتصارات الوطنية والقومية.

ثلاثون عاماً وسـورية تشهد التطـوّر العلمـي والاقتـصادي والـصناعي والزراعـي والثـقافي والاجتمـاعي والرياضي، وتنعم بالأمن والأمان وتحقيق التقـدّم المرمـوق فـــي كلّ مجـال.

وفي العاشر من حزيران عام ٢٠٠٠، فُجع الوطن العربي على حين غرّة من أقـصاه إلى أقصاه، وفُجعت سورية الأسد برحيل سيّد الوطن العربي وحامي حماه. وحـين نعـت سورية وجميع محطّات التلفزيون العربية والأجنبية **حافظ الأسد**، لم يصدّق النـاس أنّـه توفّي حقاً، لا لأنّه فوق الموت، فالموت مكتوب على سائر البشر ومختلف المخلوقات، وقـد توفّي من قبله الأنبياء والمرسلون وعظماء الأرض. بل لأنّ هذا الـسائر إلى أحـضان ربّـه، كان أملاً حيّاً خافقاً في القلوب، ماثلاً في الخـواطر. متجـسّداً في الـضمائر، وكـان في نظـر الكثيرين أقوى من أن يسلم نفسه، ويغمض جفنيه عن هذه الدنيا بهذه السرعة.

أمّا الآن وقد وقع ما لم يكن في الحسبان، وشُيّع جثمان **حافظ الأسد** بمـا لم يُـشيّع به جثمان ملك ولا عظيم ولا قائد من قبل. فما عسانا أن نقول؟

أنقول: "إنّ **حافظ الأسد** ليس فوق الكلمات فحسب، وإنّما هو فوق فكـر المفكّـرين، وأسمى من خيال الكتّاب المبدعين".

والحقُّ، أنّ الفكر والشعر والنثر، وكلّ ما في الخيال من بُعد وعمق وانطـلاق ومـا في

البيان من دقّة وبلاغة وتحليل، يعجز عن وصف هذا القائد الفذّ، ويقصر عن الإحاطة بجوانب حياته الحافلة بجلائل الأعمال، والإشادة بفضله على شعوب أُمّته، وعلى كثير من الشعوب المجاهدة من أجل نيل حرّيتها واستعادة أراضيها.

كان **حافظ الأسد** إنساناً بكلّ ما في الإنسانية من نبل وفضل وبذل، وكانت المثالية النادرة متجسّدة في إنسانيته البارزة. ولم يكن يريد الشرّ، حتّى لمَن أضمر له العداء والحقد. كان إيمانه راسخاً بالله وبالعروبة، وكان خلقه العربي الأصيل، يعصمه عن كلّ شائبة، ويبعد عنه كيد الحاسدين ودسائس المستعمرين، وقد شهد الأعداء قبل الأصدقاء، بصفاء سريرته، وروعة مناقبه، وحميد سجاياه.

كان **حافظ الأسد**، بطلاً قومياً، مخلصاً لعقيدته، ومعتزّاً بتاريخ قومه، هادفاً لاستعادة مجد أجداده العرب. وكان **الأسد** قوي الإرادة، صلباً كالفولاذ في مواقفه الوطنية، لا يزايد ولا يساوم، في حقّ بلاده، ولا يلين لباغٍ مهما علا مكانه، وامتدّ سلطانه. وكانت هذه الصفات، تزيد ثقة العرب به، وتجعله رمز نضالهم، وموضع إجلالهم واحترامهم. لأنّه رفض الهزيمة ولم يحنِ رأسه، ولم يوقّع وثيقة الاستسلام، بل ظلّ يطالب بحقّ أُمّته في استعادة أراضيها المغتصبة من قبل العدوّ الصهيوني. مثبتاً أنّ العربي الحرّ، لا يطأطئ رأسه إلاّ لله وحده.

وإذا كان **حافظ الأسد** قد غاب عنّا، فعزاؤنا أنّه لا يزال بيننا، بمبادئه القومية، وأفكاره السليمة، ومفاخره الخالدة على الزمن. وإنّ إنساناً مثالياً، وبطلاً عربياً **كالأسد**، لا يمكن أن يموت، ولا يقوى أن يطويه النسيان ولكنّه ينتقل من حياة فانية إلى حياة باقية، ويظل حيّاً في القلوب والضمائر، وفي سجلاّت المروءات والبطولات والكرامات.

إنّه حيٌّ في فؤاد كلّ عربي شريف، وفي وجدان كلّ مناضل أبيّ لا يستكين. حيٌّ بالأُمّة التي أيقظها، وبالجولان التي حرّرها. وبالشعب الذي فتح عيونه على نُور الحقّ المبين. حيٌّ بماضيه المجيد، وبمنجزاته الشامخة، وبرسالته السامية التي أدّاها على أشرف وجه، وأنبل قصد، وأقوم سبيل. حيٌّ ببذور الوحدة العربية التي غرسها في تربة بلاده، وفي عقيدة أُمّته.

فإلى جنّات الخلد، أيّها القائد الخالد، فقد كافحت وناضلت من أجل عزّتنا، ونحن نعاهدك أنّنا سنكون أوفياء لمسيرتك المظفّرة التي سيتابعها، بكلّ عزيمة وثبات، نجلك الفريق بشّار **حافظ الأسد** الذي طوّقناه بحبّنا فغمرَنا بفيض حبّه. فهو على العهد باقٍ، وعلى النهج سائر، ونحن من خلفه سائرون هاتفون: "**إنّ هذا الشبل من ذاك الأسد**". ومنشدون:

يظلُّ ذكْركَ رمزَ المجد للأبد — يا فخرَ أُمّتنا يا حافظَ الأسدَ

وذاك بَشّارُ رمز العزّ والشممِ — يسعى كما البرقُ أضوى قاتمَ الجَلَدِ [1]

(الضاد، العدد الخاصّ ٦/ ٢٠٠٠، ص٥-٩، والكلمة، الأعداد ١-٢-٣/ ٢٠٠٠)

---

[1] الجلد: السماء، القبّة الزرقاء.



نعم لسيّد الوطن بشّار الأسد

كان يوم السابع والعشرين من شهر أيّار ٢٠٠٧، يوماً أغرَّ في تاريخ القطر العربي السوري. ففي صباح ذلك اليوم المشرق، هبَّ شعبنا والفرح يغمره، واتّجه بشبّانه وكهوله وشيوخه وصباياه ونسائه، إلى صناديق الاقتراع، ليقول كلمته في القائد الفذّ الذي أحبّه.

كانت كلمة واحدة منبعثة من أعماق القلوب المُحبّة الوفية، هي كلمة – نعم – قالها الشعبُ السوري الأبيّ لسيّد الوطن. وبايعه مبايعة ثانية نبعت من صميم الروح

والوجدان. وعاهده على الولاء الدائم والتمسّك بالأهداف المُثلى التي أوصلتنا إلى ما ننشده من عزّة وكرامة.

قلنا:

نعـم وألـفُ نعـم للقائـد الأسـد ... خُذْ من فؤادي نعم خُـذْها مـن الكبـد

خُذْ من عيوني نعم، يا فخرَ أُمّتنا ... واهنأْ بشعبٍ حباكَ الحبَّ للأبـد

عرفـتُ قائـدَنا والعـربُ تعرفـهُ ... أحنى على الشعبِ مـن أُمٍّ علـى ولـدِ

مـا قـامَ إلاّ بإحـسانٍ ومكرُمـةٍ ... وعن طريقِ الهدى والعدلِ لم يحـدِ

عرينـهُ في قلـوبِ العُـربِ أجمعهـمْ ... عاشَ العرينُ، وعاشتْ صولةُ الأسـدِ

فـإنْ نبـايعْ نبـايعْ قائـداً بطـلاً ... في أصـغريه سـدادُ الحـقِّ والرُّشـدِ

وفي يديـهِ مـوازينُ النُّهـى رجحـتْ ... وفرّقـتْ بـينَ أهـلِ الصدقِ والفنـدِ

هـذي جمـاهيرُ بـرِّ الشامِ قاطبـةً ... جاءتـكَ معلنـةً تأييـدها الأبـدي

قلنا نعم وألف نعم للرئيس بشّار الأسد، حبيب العروبة وابنها البارّ، والمتصدّي الراسخ للصهيونية والإمبريالية ودعاة التخاذل والانقسام.

قلناها بكلّ ما في نفوسنا من قناعة وعرفان للجميل وثبات على العهد.

وكنّا نعلم ونحن ندلي بأصواتنا، أنّنا نختار أفضل رَجل لحمل أكبر مسؤولية. فليست رعاية الدولة بالشيء الهيّن، ولا إدارة دفّة الأحكام بالأمر اليسير، فمَن كان كسيّد الوطن الرئيس بشّار الأسد، محبّاً لشعبه، مخلصاً لأُمّته، ساعياً لوحدتها، يعلم ما ينبغي له أن يفعل في سبيل الله، وسورية، والوطن العربي كلّه.

لهذا كلّه هرع الشعب السوري، نساءً ورجالاً، إلى صناديق الاقتراع وقال للرئيس بشّار الأسد:

نعـم وألفُ نعم يا بشّار، يا حبيب الملايين.

نعـم لَمن أحبَّ العروبةَ والوحدة والأخلاق العربية الأصيلة النبيلة.

نعـم لَمن زرع في تربة وطنه بذور المحبّة والمساواة والفداء.

نعـم إلى الأبد للرئيس المفدّى بشّار الأسد.

ومَن أجدر بثقة الشعب من الإنسان الحرِّ الأبيِّ، الذي نبتَ من قلب الشعب، ودافع عن كرامة الشعب، وكرَّس حياته للنضال من أجلِ الشعب، ومشى بالجماهير حثيثاً نحو السؤدد والمجد؟

ومَن أولى بقيادة الشعب ورعاية شؤونه؟ ومَن أحقُّ في المحافظة على عرين العروبة وحمايته والذود عن حقوقه وكرامته، إلاّكَ يا أسدنا المغوار؟

فاقبلْ، أيّها الرئيس المفدّى، ما اتّفقت عليه جماهير الشعب وما اجتمعت عليه الأُمّة، وفاءً منها للجميل وعربوناً للحبِّ والولاء، بتجديد المبايعة، لتبقى مقاليد الرئاسة بين يديك الأمينتين معزَّزة مصونة مكرّمة.

فإنّ الله معك.. والشعب كلّه ملتفٌّ من حولك.. والعروبة تدعمك.. فسرْ على بركة الله، يا رئيسنا الغالي، لتصنع لأُمّتنا تاريخها الجديد..

وإنّنا لنجدّد الدعم المطلق والتأييد اللامحدود لقراراتك المُثلى ولمواقفك النبيلة.

واسلمْ، رعاك الله، بالعمر المديد، محفوفاً بالنصر المؤزّر، يا عماد الوطن ودرع الأُمّة المنيع.. لتحقّق على يديك الأمينتين آمال الجماهير وتطلّعاتها في تحرير الأرض وفي الوحدة والحرّية والاشتراكية.

(الضاد، العدد ٦/٧/٢٠٠٧، ص٣-٤)

لقــاء القــائد

القائد النزيه الحكيم الغيور على مصلحة أُمّته، والـهادف إلى تحقيق آمال شعبه، هو ذلك القائد الذي يسعى بنفسه إلى الشعب، ويختلط بـه، ويـصغي إليـه بـوعي واهتمـام، ليطّلع على ما يطلبه، وليدرس ما يبسط أمامه من مقترحات ضرورية بنّاءة هادفة.

هذا ما جسّده حقيقةً رئيسنا المفدّى الدكتور **بشّار الأسد** حين بدأ بزيارة محافظات القطر، ليقـف علـى إنجازاتهـا وتطوّراتهـا وليلتقـي الفعّاليـات الاقتـصادية والتجاريـة والصناعية والزراعية والثقافيـة، ويـستمع إليهـا وليحـلّ مـشكلاتها. وبهـذه الزيـارات الميدانية يجسّد وحدة الشعب العربي السوري والتفافه حول قائده ورئيسه، وبذلك ملـك قلوب الجميع محبّة ووفاء.

وفي السابع عشر من شهر تمّوز ٢٠٠٤ قام السيّد الـرئيس **بـشّار الأسـد** بزيـارة حلب لتدشين المرحلة الأُولى من المشروع الرابع لجرّ مياه نهر الفرات إلى مدينة حلب.

وحضر التدشـين السادة رئيس مجلس الوزراء وعـدد مـن الـوزراء والمـسؤولين في الحزب ومحافظ حلب وعدد من المحافظين.

وقد شاهد سيادته عرضاً وثائقياً عن مراحل إنجاز المشروع الحيـوي واسـتمع إلى شرح مفصّل عن أهمّيته ومراحل إنجازه ثمّ تفقّد المصافي وصالة محرّكات الضخّ وغرفـة القيادة والتحكّم [1].

كما زار السيّد الرئيس **بشّار الأسـد** مـشروع المدينـة الـصناعية في الـشيخ **نجّـار** واستمع من المسؤولين فيه إلى ما تمّ إنجازه منذ زيارتـه الأُولى للمدينـة والمعوّقـات الـتي تقف أمام سير العمل ونسب الإنجاز المتحقّقة في كلّ مرحلة من مراحله الثلاث.

والتقى السيّد الرئيس مع عـدد مـن المـستثمرين واطّلـع علـى التـسهيلات المقدّمـة والعقبات الإدارية التي تحول دون التقدّم المطلوب لتحقيق هذا المشروع.

---

[1] شهد يوم السبت ٥ كانون الثاني ٢٠٠٨ لحظات لا تُنسى في تاريخ حلب، إذ قام السيّد الرئيس بتدشين مـشروع تأهيل وإحياء نهر قويق في حلب الذي عادت المياه إليه. وزار محطّات المشروع بدءاً من المآخذ في مشروع مسكنة الذي يتغذّى من بحيرة الأسد على الفرات.

بعد ذلك قام سيادته بجولة في عدد من المنشآت في المدينة لمستثمرين عرب وأجانب. وأعطى سيادته التوجيهات التي تساهم في تسريع الأعمال لاستكمالها.

ثمّ عاد مرّة أُخرى إلى حلب في العشرين من تمّوز وعقد اجتماعاً مطوّلاً في مجلس مدينة حلب وعالج معظم الأمور ووضع النقاط على الحروف. كما استقبل الفعّاليات الاقتصادية والتجارية والأدبية.

وكان لمجلّة "الضاد" حظّ كبير من هذه الزيارة، إذ تشرّف صاحبها **رياض عبد الله حلاّق** ونجله **عبد الله** رئيس تحرير المجلّة بمقابلة السيّد الرئيس في قصر الضيافة بحلب لمدّة ساعة كاملة. تمَّ خلالها إعطاء السيّد الرئيس فكرة مفصّلة عن مولد مجلّة الضاد وتاريخها الطويل وعلاقتها بالمهجر وأدبائه. وعن احتفال أسرة "الضاد" باليوبيل الماسي للمجلّة احتفالاً مهجرياً وعربياً ومحلّياً.

وكانت مقابلتنا له ساعة لا تُنسى فهي من ساعات العمر التي نعتزُّ بها ونفخر. ونتمنّى أن تكثر زياراته الميمونة إلى حلب الشهباء، مدينة سيف الدولة، ومقام **المتنبّي** **وهنانو والجابري** ليستقبله الحلبيون كلّهم استقبالاً شعبياً يتجلّى بأروع وأشرف معاني المحبّة والتأييد، ذلك أنّنا رأينا في شخص الرئيس **بشّار الأسد** حافظاً لكرامة الأُمّة، مصلحاً يتوخّى حرّية الشعب، وقائداً صنديداً شجاعاً، ينشد تحرير الأرض السليبة، وبطلاً وحدوياً مقداماً، يدأب على تحقيق الوحدة العربية الشاملة التي طالما حلم أجدادنا وآباؤنا، وسعوا إليها وضحّوا من أجلها.

أخذ الله بيد رئيسنا المفدّى ورفاقه الميامين في قيادة دفّة السفينة إلى شاطئ البرّ والأمان والسلام.

(الضاد، العدد ٨/ ٢٠٠٤، ص٣-٤)



زيارة البابا يوحنا بولس الثاني إلى سورية
أيـام لا تُنسى

الزيارة التاريخية لقداسة البابا يوحنّا بولس الثاني إلى سورية وهـي الأطـول بـين زياراته التي فاقت التسعين زيارة، إلى دول العالم والتي استغرقت أربعة أيّام، حدث فريد عاشته سورية بكلّ فعّالياتها وفئات شعبها.

أربعـة أيّـام خالدات استقبلنـا فيها قداسـة البابـا يوحنّـا بـولس الثـاني الحـبر الأعظم للكنيسـة الكاثوليكيـة رئيـس دولة الفاتيكـان. وقـد جاء إلينا حاجّاً علـى خطـا القدّيس بولس...

السوريون بأجمعهم، مسيحيين ومسلمين، على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم، تكاتفوا مرحّبين بزائرهم الكريم وضيفهم الأثيل، الذي حمل وهن السنين وتحدّى معالم الشيخوخة [١] كي يحتفل معهم بما حدث على طريق دمشق "درّة الشرق" منذ ألفَي سنة، ويستقي من "ينابيع الإيمان" في أنطاكية، ويقدّم "الإجلال للتقليد السوري بكامله مع وحدته الغنيّة بالتنوّع"، ويعلن للعالم بأسره "الإسهام العظيم الذي أدّته سورية في تاريخ المسيحية" والتعايش الرائع الذي يشدُّ أبناءها بعضهم ببعض. هؤلاء الذين يعيشون متحابّين، عاملين على رفعة وطنهم وازدهاره، وفخورين بماضيهم العريق وبحضارات أجدادهم العديدة التي خلّفت لهم إرثاً تاريخياً غنياً، جعل من بلدهم سورية وطناً للتسامح والمحبّة وملجأ للمضطهَدين وملتقى للأديان السماوية التي انتشرت فيها عبر التاريخ ودون انقطاع".

زار قداسة البابا "أرض التاريخ"، والتقى "إخوة وأخوات في الإيمان بالربّ الواحد"، واقتسم معهم خبز وملح حياتهم اليومية، ووجّههم التوجيه الأبوي مشدّداً على الأمانة الخلاّقة وعلى ما استودعهم الله من عطايا، وأصغى إليهم بدَوره بكلّ ما أوتي من لطف وانفتاح، بوجه يطفح بالبِشر، وحكمة لا تنطق إلاّ بالحقّ، وبجرأة نبوية ورؤية إنسانية مفعمة بالرجاء. وفي هذا كلّه كانت سورية، حكومة وشعباً وفعّاليات دينية وروحية، الشاهد الحريص على إظهار ما تحمله الأرض، ويزخر به القلب من محبّة وتكريم لزائر مهد الرسالات، وموطن التآخي وموئل الإبداع.

لقد رسمت زيارة قداسته لوحة لا أجمل منها ولا أروع، ستبقى في كيان الذاكرة الإنسانية وضّاءة متألّقة في تناسق ألوانها وعميق موضوعاتها وتفرّد تطلّعاتها. ولعلّ مَن يقرأ تلك الكلمات والخطب التي أُلقيت في اللقاءات فيستعيد ما جاء فيها بتأنٍّ وتأمّل وتفكير، ومَن يسترجع شريط المواقف والعواطف التي بدت من الضيف والمضيف على نحو في غاية الودّ والتقدير، لعلّه يفهم سرَّ نجاح هذه الزيارة الحلم، ويدرك فكرها الرئيس والهامّ، نعني به: **الدعوة إلى السلام.**

[١] رَحَل يوحنّا بولس الثاني مأسوفاً عليه في ٢ نيسان ٢٠٠٥، وخلفه في ١٩ نيسان ٢٠٠٥ البابا بندكتُس السادس عشر (الكَردينال جوزيف راتزنغر).

وكيف لا ينجح مشروع يكون فيه السلام شعاراً، والوفاق نهجاً!؟ المحبّة ثمرة السلام، والسلام العنوان الصحيح للإيمان. هذا ما أكّدته سورية وضيفها غير مرّة "فاسم الإله الواحد هو اسم سلام ودعوة إلى السلام"، "والدين الحقّ لم يكن في يوم من الأيّام إلاّ دعوة للتلاقي والتكامل.."، "وفي جوابه على نداءات الإنسان العميقة يغني الدين العائلة الإنسانية ويوحّدها في مسيرتها عبر التاريخ..".

"إنّنا في سورية نسير على نهج القائد الخالد **حافظ الأسد**، يقود مسيرة أُمّتنا وشعبنا سيادة الرئيس الدكتور **بشّار الأسد** الذي يستلهم من إيمانه بالله تعالى ثباته على المبادئ والمثل النضالية، ورعايته للقيم الروحية والدينية، وت سيخه للوحدة الوطنية الرائدة التي ننعم بها في هذا الوطن، حيث نداء الإيمان يرتفع من بيوت الله، مساجد وكنائس، يزكي النفوس، ويبعث في القلوب عبق التقوى، والعمل الصالح".

وإذا كان صاحب القداسة "يجسّد بوجوده على الكرسي البابوي قمّة المسؤولية في الحفاظ على قيم المحبّة والتسامح والمساواة بين البشر".. فإنّ الشعب السوري، ممثّلاً بشخص رئيسه وقائده الدكتور **بشّار الأسد**، مدرك مسؤوليته ووعيه التامّين لما يعنيه مفهوما العدل والسلام "فالأرض لأهلها، والمنازل لأصحابها، واللاجئون لأوطانهم والحقوق تقرّها الشرائع السماوية والتاريخ والقرارات الدولية".

ولا شكّ في أنّ قداسة البابا الآتي من بلد بعيد عرف ما في سورية الحبيبة إلى قلبه، وما تعيشه سورية التي طالما تاق إليها فكراً وروحاً، وصلّى لها مراراً وتكراراً.. ولأنّه كذلك مضى في كلماته من أوّلها في خطاب الاستقبال إلى آخرها في خطاب الوداع متحدّثاً ومحقّقاً فيما نستطيع أن نصنّفه في ستّة عناوين رئيسة:

١- **الحجّ إلى سورية الأرض المقدّسة**: يفتتح قداسته الزيارة معلناً أنّه يأتي إليها حاجّاً في إطار حجّه الذي قرّر القيام به بمناسبة الاحتفال باليوبيل الكبير، ذكرى مرور ألفي عام على ميلاد السيّد المسيح. وهو لا ينفكّ يذكّر بما أراده لها واصفاً أو متكلّماً عن نفسه.. إنّ الحجّ في مفهومه "توجّه إلى أماكن الأصول المشتركة استجابة لنداء الله.." وبه نتخطّى المألوف لنرتقي نحو منابت إيماننا فنكتشفه مجدّداً وتنفتح أمامنا فرص جديدة لرؤى مشتركة.

٢- **الكنيسة في سورية، اهتداء ورسالة:** يردّد البابا في جلّ كلماته ما عرفته أرض سورية منذ فجر المسيحية من حياة مسيحية مزدهرة، والذي يبقى حاضراً في ذاكرة الكنيسة الجامعة. دمشق مكان لقاء **بولس** بالربّ ودعوته، وسورية أرض القدّيسين والشهداء والنسّاك واللاهوتيين والمرسَلين. وكنيسة سورية مدعوّة، بدافع محبّة الله، إلى الشعور بالانتماء العميق وإلى ملاقاة الإخوة والعمل المشترك في سبيل بناء الإنسان.

٣- **كنائس شقيقة نحو كمال الوحدة:** يولي قداسة البابا الشأن المسكوني أهمّية كُبرى في كلّ زيارة يقوم بها.. وهو في سورية ينطلق منذ لحظة وصوله إلى مركز بطريركية الروم الأرثوذكس الأنطاكية، ملتقياً البطاركة والأساقفة ورؤساء كنائس الشرق الحاضرين، ومؤكّداً تعميق روح الحوار المسكوني داعياً إلى الله كي تزول العوائق وتتحقّق "السبل الأكثر ملاءمة التي تقود إلى الشركة الكاملة".

٤- **مسيحيون ومسلمون معاً أمام الله:** للمرّة الأولى في التاريخ يدخل البابا مسجداً، هنا في دمشق، جامع **بني أُمَيّة** الكبير.. بعراقته وصلته ببدايات الإسلام، وبإحدى مآذنه التي تسمّى "**مئذنة عيسى**" وبضريح **يوحنّا المعمدان** "**النبيّ يحيى**". ولقد تابعت الملايين هذه الزيارة، فللعلاقات المسيحية الإسلامية شأن كبير في إقرار العدالة والسلام في العالم، وهو، أي البابا، مغتبط بما رآه في سورية من احترام سائد بين المسلمين والمسيحيين وشهادة صادقة للوحدة التي تجمعهم من دون إخفاء ما يميّزهم أو التنكّر له.

٥- **سوريون متأصّلون في بلدهم:** يخصّص البابا فقرة هامّة في أثناء حديثه إلى رؤساء الكنائس بعد القدّاس الكبير لموضوع الهجرة باعتباره أحد الهموم الكُبرى للرعاة، وأكثر شواغلهم إثارة للقلق. وهو يدعو إلى نبذ القلق وتعزيز الثقة بمستقبل الوطن والعمل بجهد من أجل الخير العامّ في انفتاح على قضايا المجتمع وهمومه، وهذه كلّها "علاقة صدق عبادتنا لله".

٦- **الشباب أمل الكنيسة وأمل سورية ودعامتها:** لا يمكننا أن ننسى أنّ قداسته أوّل مَن أطلق فكرة "الأيّام العالمية للشباب"، وهو لهم خير نصير وصديق.. البابا مع الشباب، ينادي، يصفّق، يبتسم، وهم يحلّقون في فضاءات الحرّية والفرح.. "اشهدوا

لإنجيل المحبّة، ابنوا حضارة المحبّة".

وبعد، فماذا يسعنا أن نقول فيما رأيناه وسمعناه على هامش هذه الزيارة؟ إنّ شريط الصور يتتابع في مخيّلتنا الآن حتّى ليتعذّر أن نتوقّف عند صورة واحدة وحسب إذ ثمّة صور أُخريات تترى تحاكيها تعبيراً وجَمالاً.

أنتحدّث عمّن نظّموا هذا اللقاء فجاء كما جاء؟

أم عن إعلامنا السوري الذي واجه الاتّجاه المعاكس، فأبلى البلاء الحَسَن، وشهد الشهادة الحقّ، وسطّر الصفحات الناصعة في سفْر إعلام سورية الحديث؟

أم عن الجهود السورية التي تضافرت طوال الحدث، بدءاً من أصغر طفل في الروضات الدمشقية وحتّى أكبر شيوخ القنيطرة الأبية؟

أم عن علائم الإعجاب والدهشة التي ارتسمت على وجوه الوافدين إلى سورية مع قداسته أو المتابعين الزيارة في العالم كلّه؟

أم عن تلك الكلمات الطيّبة الواحدة الواعدة التي فاه بها مسؤولون ورجال دِين، مسلمون ومسيحيون، في أثناء ما أُجري معهم من مقابلات؟

أم عن هتاف أحد المصوّرين البولونيين المرافقين لقداسته في لحظة الوداع: تحيا سورية، جميلة هي سورية!؟

أم عن تلك الآلاف المحتشدة في كلّ مكان ومناسبة ترفع في يدها الأعلام السورية والبابوية، وتنثر حبّات الأرز وطاقات الورود.. وتزغرد.. وتطير فرحاً؟

أم عمّا رواه لنا أصدقاؤنا في بلاد الاغتراب، من أنّ الكثيرين من أبنائنا هناك توقّفوا عن عملهم طوال الزيارة، وتحمّلوا فوارق التوقيت وجلسوا إلى الشاشات الصغيرة يتابعون وعائلاتهم بتأثّر بالغ، كاملَ أحداث هذه الزيارة، ويسرّون بوفد فيا آراب VIA ARAB الذي شارك باسمهم عرفاناً بالجميل، وتضامناً مع أفراح الوطن الأُمّ؟

أم عن تلك الوفود الحلبية من رجال دِين إسلامي ومسيحي ومؤمنين على اختلاف اعتباراتهم، التي آلت على نفسها أن تشارك في الزيارة فمضت غير آبهة بالمسافات كي تترجم اللحظة حضوراً فاعلاً ووداً أصيلاً؟..

أم عن تلك اللافتات المعبِّرة التي ارتفعت في سماء الفيحاء تحمل من العبارات أصدقها ومن الكلمات أحلاها!؟

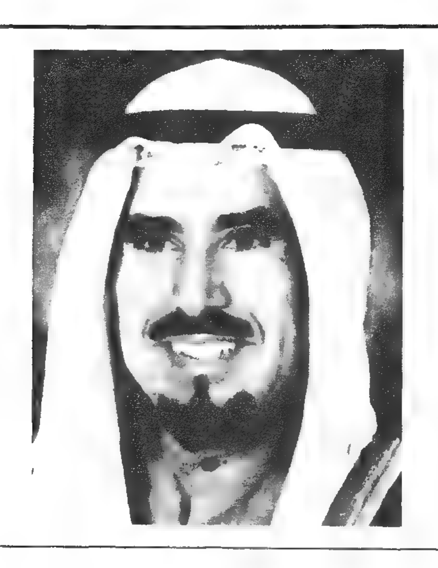
البابا لن ينسى ما رأى" هذا ما ردَّده كلّ مَن عاين ورأى. ونحن أيضاً لن ننسى ما حملته إلينا هذه الأيّام الأربعة ألقاً وعنفواناً وفخراً واستنهاض همم...

وإذ نختم فليس أجمل من أن نعيد قول سيادة رئيس البلاد الدكتور **بشّار الأسد** في حديثه الوداعي لقداسة البابا:

"**سنظلّ جميعاً نذكر زيارتكم التاريخية وخطواتكم المباركة إلى أرض التاريخ..**".

ولعلّ فيه الإيجاز والبلاغة، ومنه المعبر إلى اليقين.

(الضاد، العدد الخاصّ المزدوج ٥و٦/٢٠٠١، ص٣-٦)



جابر الأحمد الصباح
في ذمّة الله

خسرت الأُمّة العربية والإسلامية صاحب السموّ أمير الكويت الشيخ **جابر الأحمد الصباح**، وذلك فجر يوم الأحد ١٥ كانون الثاني ٢٠٠٦. وقد أعلنت الكويت الحداد لمدّة أربعين يوماً على الراحل الغالي، كما أعلنت الدول العربية والإسلامية كافّة الحداد لمدّة ثلاثة أيّام.

وقد شيّعت دولة الكويت حكومة وشعباً بعد ظُهر الأحد ٢٠٠٦/١/١٥ جثمان الفقيد الراحل الشيخ **جابر الأحمد الصباح** إلى مثواه الأخير في مقبرة الصليبخات غرب

مدينة الكويت العاصمة. وكان في مقدَمة المشيّعين الشيخ **سعد العبد الله السالم الصباح** أمير دولة الكويت الجديد والشيخ **صباح الأحمد الجابر الصباح** رئيس مجلس الوزراء ورئيس مجلس الشعب والسادة الوزراء والشعب الكويتي بأسره، كما شارك في التشييع عدد من الملوك والرؤساء ورؤساء وفود من الدول العربية والأوروبيّة والأجنبية. كما توجّه السيّد الرئيس **بشّار الأسد** إلى الكويت لتقديم التعازي إلى أمير الكويت بوفاة الشيخ **جابر الأحمد الصباح** باسمه وباسم الشعب العربي السوري.

وُلد حضرة صاحب السموّ أمير الكويت الشيخ **جابر الأحمد الصباح** في الكويت عام ١٩٢٨، وهو النجل الثالث للشيخ **أحمد الجابر** أمير الكويت (١٩٢١-١٩٥٠) الذي شهدت البلاد في عهده أحداثاً كباراً أخطرها انعكاسات الحرب العالمية الثانية على المنطقة، وأهمّها تفجّر النفط في أرض الكويت. فاعشوشبت الأحلام واخضوضرت الأمنيات، حيث سعى الشيخ **أحمد الجابر** إلى تحديث البلاد وتطوير أساليب الحياة فيها.

وفي كنف **أحمد الجابر** ترعرع الشيخ **جابر الأحمد**، واستقى من أبيه أمانة الحكم ورؤيته للحياة. وتلقّى الشيخ الصغير علومه في مدارس الكويت النظامية، ثمّ عمد الأب إلى تعليم ابنه على أيدي معلّمين خاصّين.

وبعد إتمامه العقد الثاني من عمره ترأس الشيخ **جابر** الأمن العامّ في مدينة (الأحمدي) عام ١٩٤٩ في بداية تشكيل ملامحها الأولى، وبعد أن تمّ تخصيصها لسكن الموظّفين والعاملين في شركة النفط. فأمضى فيها سنوات عشراً أسّست مفاهيمه وصقلت خبرته، فوضعته التجربة على دروب خدمة البلاد والوطن.

حاز ثقة خاله الشيخ **عبد الله السالم** أمير الكويت آنذاك، الذي أدرك حُسْن رؤية الشيخ الشابّ ورجاحة عقله المبكّرة فأسند إليه رئاسة دائرة المالية عام ١٩٥٩ مع بدايات تنامي العوائد النفطية وازدهار خزينة الدولة.

وفي عام ١٩٦٢ أصبح وزيراً للمالية في أوّل تشكيل وزاري عرفته الكويت بعد استقلالها. فعمل على النهوض بأعبائه الكبيرة وحرص منذ تولّيه مسؤوليّاته على التخطيط وتنظيم شؤون البلاد، وتمتّع بروح المبادرة وموهبة التأسيس وبناء الصروح.

وبعد أن عُيّن عام ١٩٦٥ رئيساً للوزراء أُسندت إليه عام ١٩٦٦ ولاية عهد الشيخ **صباح سالم الصباح**، فراح يضرب أمثلة واقعية وناطقة في البناء وتشييد وطن المستقبل، طوال عهد أفاء عليه الشيخ **صباح السالم** بظلال وارفة من الحبِّ والعطاء الصادق.

نهضت الكويت في تلك الفترة نهضة لفتت أنظار العالم إليها، وتلألأت قلادة في جيد الخليج، وتنوّعت مناشط الحياة فيها، وازدهرت الدروب وعلت الصروح شامخة في البلاد وأصبحت الكويت ورشة حياة في الاقتصاد والثقافة والرياضة والسياسة وسائر مناحي الحياة.

تولّى صاحب السموّ الشيخ **جابر الأحمد الصباح** مقاليد الحكم في ٣١ كانون الأوّل ١٩٧٧، فكان امتداداً لتاريخ أبيض، حروفه بناء ونماء في صروح الكويت، واختار سموُّه الشيخَ **سعد العبد الله السالم** ولياً أميناً لعهده.

ومن مكتبه في (قصر السيف) المطلّ على الخليج الذي شهد هجرة " العتوب" إلى هذه المنطقة، مضى صاحب السموّ **جابر الأحمد الصباح** يقود مسيرة النهوض مشرفاً إشرافاً مباشراً على العديد من الإنجازات الكُبرى، فاهتمّ بالفكر والأدب والفنون والعلوم ورعى أنشطتها وحثّ عليها. وأصبحت "مؤسّسة الكويت للتقدّم العلمي" التي يرأس مجلس إدارتها واحدة من الشواهد الكثيرة في عهده.

ويعتبر صاحب السموّ **جابر الأحمد الصباح** الناهض الأوّل بالاقتصاد الكويتي، بوقوفه وراء أغلب المؤسّسات والمشاريع الاقتصادية لدولة الكويت، والتي يقصد من ورائها تنويع الدخل القومي، وتأسيساً على هذا كانت الاستثمارات الخارجية للعوائد النفطية. فحفظ سموّه بذلك مستقبل الكويت كما حافظ على حاضرها.

سار على نهج آبائه وأجداده وحرص على زيارة مجالس أهل الكويت ودواوينهم، حيث كان يقود سيّارته بنفسه وسط موكب أميري رمزي قليل العدد، ممّا عرّض حياته للخطر حين استغلّت حفنة من الأشرار سجية حكّام الكويت الذين تعوّدوا المضي يومياً إلى مكاتبهم في قصر الحكم بدون احترازات أمنية مضاعفة، وحاولت عصابة الشرّ باعتدائها الآثم تفجير الموكب الأميري، غير أنّ الله كتب السلامة للأمير.

قاد الأمير **جابر الأحمد الصباح** سفينة الكويت وسط عاصفة من الأحداث الجسام نجمت عن تداعيات الحرب العراقية الإيرانية، التي ما إن وضعت أوزارها حتّى التفت النظام العراقي إلى الكويت في لحظة غادرة، فاجتاحت جيوشه الكويت في الثاني من آب عام ١٩٩٠.

ومثلما كُتبت السلامة للأمير من محاولة اغتياله الأُولى، كُتبت السلامة للكويت بخروجه سالماً منها، بعد أن حاصر الغزاة مقرّ إقامته في قصر (دسمان) حيث جرت هناك معركة فداء باسلة، سقط فيها شهداء كثيرون دفاعاً عن أميرهم ووطنهم.

ومن مدينة "الطائف" في المملكة العربية السعودية قاد الشيخ **جابر الأحمد** ومعه الشيخ **سعد العبد الله السالم الصباح** مسيرة التحرير، وألقى سموّ الأمير خطاباً مؤثّراً في هيئة الأُمم المتّحدة جعل العالم كلّه يصفّق للكويت في شخصه. وكأنّ تلك الأكفّ المصفّقة قد قرعت ناقوس التحرير، واحتشدت جيوش الأشقّاء والأصدقاء الشرفاء في تحالف لم يشهد التاريخ له مثيلاً، فزلزلت جيوش الحقّ الأرض تحت أقدام القوّات العراقية وطردتها، لتعود حمائم الحرّية ترفرف في سماء الكويت.

لا يذكر التاريخ **جابر الأحمد الصباح** من دون الإشارة إلى سعيه الدؤوب وراء إقامة "مجلس التعاون الخليجي" الذي يضمُّ دول الخليج العربية. فلقد سعى سموّه إلى إنشاء هذا المجلس منذ كان ولياً للعهد حتّى تحقّق الحلم عام ١٩٨١.

إنّه حاكم ولع منذ شبابه الأوّل ببناء الصروح الكُبرى وشغف بالأدب والعلم والفنون والثقافة، وتمتّع بأسلوب متباسط مع الحياة، وخصّه الله برؤية مستقبلية ثاقبة، فكان غصناً مثمراً في شجرة **(آل الصباح)** الوارفة الظلال.

وكان أمير الكويت الثالث عشر حتّى وافته المنيّة فجر يوم الأحد **٢٠٠٦/١/١٥**. رحمه الله عداد حسناته الكثيرة. وتعزيتنا في خلفه الأمير الرابع عشر لدولة الكويت سموّ الأمير **صباح الأحمد الجابر الصباح**، حفظه الله.

(الضاد، العدد ٢٠٠٦/١، ص٧-١٠)



صباح الأحمد الجابر الصباح
أميراً لدولة الكويت

رَجل يرى الكثيرون بعينيه، ويتحدّث الكثيرون بلسانه، ويقرأ الكثيرون بأوراقه، بل إنّ بلداً بأكمله يتحدّث حين يتحدّث **صباح الأحمد الجابر الصباح**.

الكويت في قلبه وخاطره ودمه، فباسمها ينطق ومن أجلها يصمت. وفي بهو تاريخها الحديث جعل له ركناً يتحدّث عنه ويحكي تجربته الثرية.

عَرَفَتْه الدبلوماسية شيخاً لـها، يحمل في عباءته أسراباً من حمام أبـيض يطلقهـا في

عتمة الأجواء المعكّرة الملبّدة فترفرف الحمائم بين المتحاربين وتشرق في ظلمة الخصومات شموس الاتّفاق.

وُلد قرب مدفأة الحياة في عام ١٩٢٩ وتربّى في حضن والده الشيخ **أحمد الجابر**. فعرف كيف يقتحم الحياة بابتسامة معهودة في محيّاه حتّى أصبحت من سماته الواضحة المعروفة.

المدرسة "المباركية" كانت بيت علمه الأوّل الذي لقّنه حروف الحياة الأُولى. وبعد ذلك عهد به والده الأمير إلى معلّمين خاصّين فتحوا في دروبه الصغيرة قنوات علم وبصيرة وأزمنة مختلفة.

في ذلك الزمن من عمر القرن العشرين، كان الفتية ينضجون مبكّراً حيث لا مساحات للصبا، فتدرك عقولهم مبلغ الرجال قبل أعمارهم. وفي ذلك الوقت عرف **صباح الأحمد الجابر الصباح** وهو في سنوات يفاعته أنّ كاهله الصغير موعود بحمل مسؤوليّات كبيرة غير المسؤوليّات التي ستحملها كواهل أقرانه من الفتيان.

عام ١٩٥٤ يشهد بدايات خطواته إلى ساحة العمل والخدمة العامّة، فالبلاد في حاجة إلى سواعد أبنائها لتعلية صروح النهضة والبناء. ويتمُّ تعيينه عضواً في "اللجنة التنفيذية العُليا" التي عهدت إليها مهمّة تنظيم دوائر الدولة الرئيسية.

ومنذ ذلك العام القصي لم يهدأ ولم تتوانَ حركته ولم تتقاعس همّته. فتتعدّد المواقع التي شغلها، حتّى صار أحد رجال نهضة الكويت الحديثة التي ابتدأت مع الانتعاش الاقتصادي الناتج عن عائدات النفط الذي بدأ تصدير أُولى شحناته عام ١٩٤٦ في عهد والده أمير الكويت، آنذاك، الشيخ **أحمد الجابر**.

كانت "دائرة الشؤون الاجتماعية والعمل" أُولى مسؤوليّاته التي تولاّها عام ١٩٥٥ حيث أُنشئت هذه الدائرة بغرض القيام بمهمّة الرعاية الاجتماعية والنهوض بالمجتمع لمواجهة التحوّلات الكُبرى التي شهدتها البلاد.

يعدّ الشيخ **صباح الأحمد الجابر الصباح** راشد المسيرة الإعلامية الكويتية، حيث ترأس في تلك الحقبة "دائرة المطبوعات والنشر"، وهي نواة وزارة الإعلام. فقاد سفينة

الإعلام الكويتي في أوّل إبحارها. ويشهد ذلك الزمن صدور مجلّة "العربي" عام ١٩٥٨ عن "دائرة المطبوعات والنشر" في الكويت، ولتحتفظ هذه المجلّة بموقع الصدارة في المكتبة العربية على مدى عقود تليها عقود ولتكون الأشهَر بين مثيلاتها.

في عام ١٩٥٩ انضمّ الشيخ **صباح الأحمد الجابر الصباح** إلى "المجلس الأعلى لإدارة البلاد". وقد أُنيطت بهذا المجلس مهمّة تحديث وتطوير العمل في الدوائر الحكومية القائمة ودراسة سبل الارتقاء بها من أجل التمهيد للانتقال بالمجتمع إلى الحياة العصرية الواعدة، خاصّة بعد ارتفاع الدخل القومي للبلاد وتنامي عوائد النفط.

في الوزارة الأُولى التي أعقبت استقلال الكويت وجاءت مترافقة مع "المجلس التأسيسي" حمل الشيخ **صباح الأحمد الجابر الصباح** مهامّ "وزارة الإرشاد والأنباء" التي جاءت تطويراً لدائرة المطبوعات والنشر.

وضع **صباح الأحمد الجابر الصباح** اللبنات الأُولى في صرح الإعلام الكويتي الحديث من خلال وزارة الإرشاد والأنباء التي آلت إليها مطبعة الحكومة والإذاعة بعد أن كانت الإذاعة تابعة لدائرة الأمن العامّ في السنوات التي سبقت الاستقلال. واستحدث التلفزيون وألحقه بوزارة الإرشاد والأنباء التي تولّت إصدار تراخيص الصحف والمجلاّت ومنح امتيازات إصدارها. وصار من مهامّها الإشراف العامّ على أمور النشر في البلاد إلى جانب قيامها بإصدار المطبوعات الثقافية.

عرفت وزارة الخارجية الشيخ **صباح السالم صباح** (حاكم الكويت الثاني عشر) كأوّل وزير لها وواضع لبناتها الأُولى، وفي عام ١٩٦٣ رفعت وزارة الخارجية الستار عن مسيرة وزيرها الجديد الشيخ **صباح الأحمد الجابر الصباح** لتشهد أروقة الدبلوماسية العالمية دأبه وحركته الدائمة حتّى تعبت الأرض من ملاحقة خطواته، فألفته النجوم في الفضاء وجاورته في أسفاره الكثير من أجل الكويت وأُمّته العربية وقضايا الإنسان عامّة.

في أوّل عهده في وزارة الخارجية انضمّت الكويت إلى "الهيئة العامّة للأُمم المتّحدة" وأصبحت العضو رقم (١١١) في المنظّمة الدولية ليجاور عَلَمها أعلام الدول الأُخرى.

أصبح الشيخ **صباح الأحمد الجابر الصباح** (إمام) الدبلوماسية الكويتية وواحداً من الوجوه السياسية البارزة على مستوى العالم. وبحكم ذلك الموقع المتميّز يكون شاهداً على كثير من الأحداث الساخنة التي شهدتها الساحة السياسية محلّياً وإقليمياً وإسلامياً وعالمياً. وكذلك يكون وراء كثير من الجهود السياسية التي تهدف إلى خدمة الإنسانية وإرساء دعائم السلام على سطح الكرة الأرضية والنأي بالبشرية عن الكوارث والحروب والدمار.

اقترن اسمه بالكثير من المساعي الحميدة وحمل في عباءته حمائم السلام لحلّ الأزمات التي تنشب في بعض البلاد العربية، أو بين بلد عربي وآخَر. فقام بمهمّة الوساطة بين الفرقاء المختلفين. ونجح في كثير من جهوده الخيّرة، شفيعه في ذلك خبرته الكبيرة وتجربته الطويلة في عالم السياسة والدبلوماسية. ونزعته للخير منذ أن كان رئيساً فخرياً "للجنة الشعبية لجمع التبرّعات" التي شكّلتها مجموعة من تجّار الكويت لمساعدة ثوّار الجزائر وضحايا العدوان الثلاثي على مصر لتستمرّ اللجنة عنواناً للعمل الخيري في الكويت.

ترأس الشيخ **صباح الأحمد الجابر الصباح** بتكليف من مجلس الجامعة العربية كثيراً من الوفود واللجان التي تعمل في حلّ النزاعات، اعتماداً على حنكته السياسية والمكانة العالية التي يحتلّها في نفوس الفرقاء السياسيين في العالم العربي. وضمن هذا الإطار دخلت الكويت الكثير من المهمّات الصعبة والشاقّة والخطرة من أجل حقن الدم العربي في الأردنّ واليمن ولبنان وغيرها، حيث بسطت الكويت ممثّلة في **صباح الأحمد الجابر الصباح** أياديها البيض لإخوتها العرب.

وقفت حكمته كرَجل دولة وراء العديد من الإنجازات المشهودة في الساحة المحلّية كما وقفت وراء العديد من المشاريع التي تبنّتها الكويت لنصرة قضايا الإنسان العربي. ومن أجل النهوض بالبلاد العربية، فقد أنشأت الكويت "لجنة مساعدة الخليج والجنوب العربي"، وأوكلت رئاستها إلى الشيخ **صباح الأحمد الجابر الصباح**، فحقّقت اللجنة أهدافها السامية عبر سنوات متواصلة من العطاء، أقامت فيها العشرات من المشاريع

التنموية في اليمن ودول الخليج، ووفّرت لشعوبها سبل الطبابة والتعليم وغيرها من احتياجات الإنسان.

وعلى مدى عمره السياسي الطويل لم يغب الشيخ **صباح الأحمد الجابر الصباح** عن ساحة الخدمة العامّة باستثناء خروجه من التشكيل الوزاري الذي صدر في أوّل حكومة بعد التحرير عام ١٩٩١، ليعود بعدها في تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٩٢ إلى موقعه في ساحات البناء والقيادة نائباً أوّل لرئيس مجلس الوزراء ووزيراً للخارجية.

الشيخ **صباح الأحمد** رَجل حلم به قَدَر الكويت.

(الضاد، العدد ٢/٢٠٠٦، ص٣-٧)



أبو حيّان التوحيدي
أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء

احتفلت الأوساط الأدبية والفكرية في القاهرة، بمرور ألف عام على وفاة **أبي حيّان التوحيدي**. ألف عام مرّت على من وَصفه **ياقوت الحموي** بأديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء.

كانت ولادة **التوحيدي** بين ٣١٠هـ و٣٢٠هـ في مدينة شيراز أو نيسابور أو واسط. ثمّ انتقل إلى بغداد في تاريخ مجهول. أمّا نسبته "**التوحيدي**" فيقول **ابن خلكان**: "لكنّ أباه كان يبيع التوحيد في بغداد وهو نوع من التمر". ونقل **السيوطي** عن **ابن حجر** قوله: "يُحتمل أن تكون إلى التوحيد الذي هو الدين. فإنّ المعتزلة يسمّون أنفسهم أهل

العدل والتوحيد". ويذهب **الذهبي** إلى أنّه: "هو الذي نسب نفسه إلى التوحيد".

درس **أبو حيّان** النحو في بغداد على يد **أبي سعيد السيرافي**، وعلى **علي بن عيسى الرماني**، وتفقّه بالمذهب **الشافعي**، وأخذ على القاضي **ابن حامد المروروزي**. وسمع الحديث من **أبي بكر بن عبد الله الشافعي**، وأخذ التصوّف عن **جعفر الخلدي** [١].

في إطار المعلومات المتوفّرة لدينا عنه، يمكن القول بأنّ أوّل مؤلّفاته هي "الهوامل والشوامل" ثمّ ألّف "الإمتاع والمؤانسة" ثمّ "الصداقة والصديق". وفي غضون ذلك ألّف "أخلاق الوزيرين" ومن ثمّ "البصائر والذخائر" الذي بدأ بتأليفه نحو سنة **٣٧٥هـ** وأتمّه في خمسة عشر عاماً، ثمّ "المقابسات". وقد كانت كتب "الهوامل، الإمتاع، المقابسات" صورة صادقة للحياة الاجتماعية وللوسط الفكري في بغداد في القرن الرابع الهجري. وله العديد من الرسائل الموضوعة في مواضيع متعدّدة مثل "العلوم"، "الكلام"، "الحياة"، و"الكتابة" إلى بعض المفكّرين والوزراء.

دفعته الأزمة النفسية التي عاش فيها نتيجة اتّهامه بالزندقة، ومحاصرته من قِبَل السُلطة إلى إحراق كتبه في أواخر حياته، فضاع من آثاره الكثير. وقد أرجع هو سبب إحراق كتبه لقلّة جدواها وضنّاً بها على مَن لا يعرف قدْرها بعد موته.

كان **أبو حيّان التوحيدي** عالماً موسوعياً شملت كتبه ومعارفه كلّ شيء. كتب في الأدب وفي العلوم والبلاغة والفلسفة. وكان يغلب عليه الاهتمام بمشاعر الإنسان وهواجسه وأشواقه وتجاربه. وكان شديد الإحساس بالحياة، كما كان شديد الالتفات إلى ذاته منقّباً عمّا خفي من مشاعرها. وقد ساعده ذلك على تحليل مشاعره وأفكاره وأفكار الناس ومشاعرهم، ومن ثمّ بالإبانة عنها بالكلمة الرقيقة الموحية. وربّما كان هذا سرّ فشله وشعوره بالشقاء والتعاسة [٢].

لم يُعرف **للتوحيدي** نشاط في السياسة، ولا دَور إنساني في مصالح الدولة. إنّه من بين الشخصيّات الفكرية القليلة التي عاشت وفق مفهومها الخاصّ وشخصيتها الخاصّة.

---

[١] ياقوت الحموي، معجم الأدباء.

[٢] زكريّا إبراهيم: أبو حيّان التوحيدي، أديب الفلاسفة، وفيلسوف الأدباء، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

وكانت تمتاز شخصيته بمجموعة من السمات:

١- الشعور بالفردية عبر اقتناعه بتميّزه العلمي والأدبي الذي لم يكن يوازيه إلاّ إحساسه بالحرمان وسوء الاعتراف، هذا الشعور الذي لا يتوافق أبداً مع سنّة التبعية والتزلّف.

٢- شعور باللاتوافق مع العصر الذي كان يعيش فيه، إلى حدٍّ التنافر الصريح المعلن، الذي دفع السُلطة في ذلك الوقت إلى اتّهامه بالزندقة، ونفيه من بغداد. وقد عُدَّ من زنادقة الإسلام الثلاثة مع **المعرّي** و**الراوَندي**.

لقد دفع به ذلك التنافر إلى التصوّف. وساعده على ذلك حالة الفقر الشديد الذي كان يعيش فيه. إنّ تصوّف **التوحيدي** من ذلك النوع الذي يحرّكه التنافر مع المجتمع، ويظهر معه وجه التصوّف كمؤشّر من المؤشّرات الاقتصادية، في حين أنّ سلوكه التقشّفي كان يعمل على إسقاط الوسائل والغايات المحسوسة، حتّى يُخلي له المجال للمطالبة بالمطلق، كأعظم وأجلّ طلب. وقد يرى بعضهم في هذه الدعوة تأثّراً بالحلولية **الحلاّجية**.

ولا تزال مسألة تصوّف **التوحيدي** مسألة عالقة غير محسوسة، فالدكتور **يوسف زيدان** يرى أنّ **التوحيدي** "نظر إلى الصوفية لا كواحد منهم، بل باعتبارهم طائفة من أهل زمانه"، فهم له "الاضروف" أو "هذه الطائفة". وقد أورد أخبارهم في معرض المسافرة وتصوير ثقافة العصر، لا من حيث كونه أحدهم[٢].

اغتراب التوحيدي

لقد ميَّز **التوحيدي** بين نوعين من الغربة:

١- **الغربة المكانية المؤقّتة** المرهونة بالانتقال وارتحال الغريب وهجرته عن أهله.

٢- **الغربة النفسية**، وهي الغربة الحقيقية، وهي غربة دائمة عميقة. فالغريب هو الذي يحمل غربته في داخله، وهو متمرّد على المكان الذي يحلُّ فيه وتمتلكه الغربة الدائمة بالترحال.

---

[٢] يوسف زيدان، التوحيدي والصوفية، مجلّة الهلال المصرية، تشرين الثاني١٩٩٥.

وقد عبّر عن تلك الغربة بالقول: "قد قيل الغريب مَن جفاه الحبيب"، وأنا أقول: "الغريب مَن واصله الحبيب، بل الغريب مَن تغافل عنه الرقيب، بل الغريب مَن نودي من قريب".

السؤال المطروح الآن هو: إلى أيّ حدٍّ يمكن النظر إلى **أبي حيّان التوحيدي** على أنّه فيلسوف "وجودي"؟

تمكن الإجابة عن هذا السؤال إذا انطلقنا من اعتبار:

١- الوجودية مذهب فلسفي عصبه الأساسي حياة الوجود وليس مجرّد التفكير في الوجود. **وأبو حيّان** ينتمي إلى هذا التيّار الذي لا يمارس التفلسف بوصفه عقلياً مجرّداً، وإنّما بوصفه تجربة معيشة.

٢- إنّ الوجود البشري هو محور لتساؤل **التوحيدي** وأساس فلسفته، بمعنى أنّ **التوحيدي** ينطلق من الإنسان لا من الطبيعة، فهو في فلسفته عن الذات أكثر ممّا في فلسفته عن الموضوع.

٣- تتّسم الوجودية من حيث هي اتّجاه فلسفي بالموضوعات التي تدرسها مثل "الموت"، "الخطيئة"، "العبث"، "الاغتراب". **والتوحيدي** بهذا من أكثر الفلاسفة اهتماماً بهذه المشكلات.

٤- شخصية **التوحيدي** شخصية وجودية، بمعنى أنّها تتّسم بطابع درامي حادّ، وتمتلئ بمشاعر متناقضة، بالتمرّد والضياع. وهي شخصية غريبة وعجيبة، ذات نهاية تراجيدية وهي أقلّ ما يُقال عنها تجسّد بمعنى حقيقي شخصية "اللامنتمي"[٤].

العلم والمعرفة عند التوحيدي

يفرق **التوحيدي** بين العلم والمعرفة. فالعلم أخصّ بالمقولات الكلّية والمعاني الكاملة في حين أنّ المعرفة أخصّ بالمحسوسات والمعاني الجزئية. ويربط **التوحيدي** العلم بالعمل. وهو يرى أنّ العلم يراد للعمل، والعلم يراد للنجاة، فإذا كان العامل قاصراً عن العلم، كان العلم كلاً على العالم. وقد ارتكز مفهوم العلم عند **التوحيدي** على أسس هي:

---

[٤] حسن محمّد حسن حمّاد: الاغتراب عند أبي حيّان التوحيدي- مجلّة فصول القاهرية- صيف ١٩٩٥.

- المعرفة العقلية: فقد عدَّ العقل أداة سبر الأغوار وعدّة كشف للمجهول وميزان الحكم ومعيار الحقيقة.

- المحور الفكري: فقد آمن **التوحيدي** بنسبة الحقيقة النسبية في المعرفة الإنسانية، وبالتالي آمن بما يترتّب على ذلك من حقّ الاختلاف المشروع بين البشر، وحتمية الحوار بينهم. ولم يقتصر إيمان **التوحيدي** بالحوار على قناعته النظرية بذلك فحسب، بل إنّ هذه القيمة تجسّدت على أنّها منحى وأسلوب في بنية نصّه نفسها.

فهذا المفكّر يكاد ينفرد في تراثنا بانتهاجه في تآليفه ومصنّفاته وصوغ أفكاره منهج الحوارية. وتحوّل الحوار لديه إلى جدل خلقي عميق بين تيّارات ومذاهب وأفكار مجموعة مؤلّفي عصره في العلوم والفلك والحكمة.

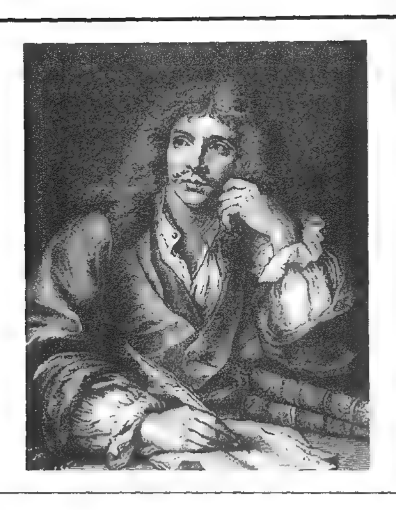
التوحيدي الأديب

إنّ أدب **التوحيدي** بصفة عامّة يصعب فيه الفصل النهائي بين الأدب والبحث والفلسفة المحضة. والصواب هو عدم الفصل بين آثار **التوحيدي** الفلسفية، وآثاره الأدبية، لأنّ في "المقابسات" من الأدب، كما في "الإمتاع والمؤانسة" من الفلسفة.

صحيح أنّ **التوحيدي** لم يفرد كتاباً خاصّاً بالنقد الأدبي، غير أنّه مهتمّ بالقيم الجَمالية للنثر والشعر. وقد ترك لنا في كتبه الكثير من النظريات النقدية القيّمة المثبوتة هنا وهناك.

فقد نظر إلى الشعر واعتبر أنّ أركانه هي أربعة: "مديح رافع، وهجاء واضع، وتشبيب واقع، وعتاب نافع". وقد رأى في قضية اللفظ والمعنى أنّه يساوي بينهما والصلة بينهما وثيقة جداً فلا فرق.

(في الذكرى الألفية لوفاة التوحيدي، الضاد، العدد ١/١٩٩٦، ص٣٦-٤١)



موليير Molière

وُلد **جان باتيست بوكلان**، الذي اختار فيما بعد اسم "موليير"، بباريس سنة ١٦٢٢ من أب يشتغل بالتجارة ويعيش في يسر وسعة. وفقد أُمّه وهو في العاشرة من عمره، وتعهّده أبوه تعهّداً حَسَناً، فاختار له كلّية "الجزويت" في كليرمون. فدرس الآداب القديمة، وكانت الكلّية تُعنى باللاتينية أكثر ممّا تُعنى بالإغريقية. واتّصل بالفيلسوف **جاسندي** وتأثّر بكثير من آرائه الحرّة.

وبعد أن انتهى من دراسته في الكلّية قضى عاماً في دراسة البلاغة، وعامين في دراسة الفلسفة. وكان في أثناء دراسته للفلسفة ينعم بقسط من الحرّية مكّنه من التردّد على دُور التمثيل. فشهد بعض المسرحيّات الهزلية الشعبية. وقد استهواه المسرح،

ولـكنّه لـم يفكّر في إنهـاء دراسـته، فـالتحق بكلّيـة الحقـوق بمدينـة "أورليـان" ونـال إجازتها. ومع هذا فقد أراد لـه أبوه أن يخلفه في تجارته وأن يتّـصل بالقـصر كمـا كـان متّصلاً به في صورة متعهّد. وقد شغل هذه الوظيفـة مـدّة ضـاق فيهـا بحيـاة القـصور والسير في ركاب الملوك ومزاحمة الحجّاب والخدم على إرضاء سيّد القصر، وأبت طبيعته الفنّية ذلك.

وشاء لـه القدر أن يتعرّف بأسرة "**بيجار**" التي تحترف التمثيـل. فـربط مـصيره بمصيرها، وأرسل إلى والده وهو في الحاديـة والعـشرين مـن عمـره ينبئـه بتخلّيـه عـن وظيفته بالقصر، ورغبته في العمل بالتمثيل. وسأله أن يـردّ عليـه شـيئاً مـن المـال الـذي خلّفته لـه والدته. فغضب الأب غضباً شديداً لـهذه العزيمة ولكنّه لم يحرمه مـيراث أُمّـه فأعطاه بعض المال ونفض منه يديه.

وقد أنفق موليير هذا المال في دعم حياته المسرحية، ولكنّه بـاء بالإخفـاق وتراكمـت عليه وعلى شركائه الديون، وكاد طالعه النحس أن يفضي به إلى السجن.

وأخيراً اعتزمت الفرقة أن تجرّب حظّها في الأقاليم، فغادرت بـاريس، وظـلّ **مـوليير** بعيداً عن تلك المدينة العظيمة، يجوب أرجاء فرنسا كلّها مدّة اثني عشر عاماً. وقد أفادتـه هذه السنوات في حياته المسرحية فائدة جليلة، لأنّه تمرّس بأصول الفنّ المسرحي، وعرف كثيراً من العادات واللهجات وشتّى ضروب الحياة، ممّا كان لـه أكبر الأثر في كتاباته.

وقد عرف في هذه الحقبة موهبته على حقيقتها، وأنّه لا يصلح للأدوار الجدّية، وأنّـه خُلق للتمثيل الـهزلي. ولم يفكّر حتّى ذلك الوقت في التـأليف المـسرحي. ثـمّ أخـذ يكتـب فصولاً قصيرة لتسلية الجمهور وبعث الضحك. ولم تكـن هـذه الفـصول ذات بـال مـن الوجهة الفنّية. ولكنّها أطلعته على مقدرته في إثارة الضحك، وأخيراً كتب ملهاة "المشدوه L'étourdi" من خمسة فصول. ومُثّلت بمدينة "ليون" أوّل الأمر، ولاقت نجاحـاً عظيمـاً حينما مُثّلت بباريس بعد ذلك. وقد رأى مـوليير أنّ باسـتطاعته أن يكتـب للمـسرح، وأن يسخّر ثقافته الواسعة، وتجاربه الكثيرة لخدمة الأدب، وألاّ يكتفي بالتمثيل.

وأخيراً انتقلت الفرقة إلى باريس في عـام ١٦٥٨، وهـو في الـسادسة والـثلاثين مـن عمره وقد سبقته إليها شهرته وصيته. وفي القصر مثّـل مـوليير لأوّل مـرّة بعـد عودتـه

"**نيكوميد** Nicomède" **لكورني** Corneille، والطبيب العاشق. وقد صادفت الأخيرة نجاحاً عظيماً وضحك الملك لها ضحكاً لم ينسه بقية حياته، وأمر بأن تُخصّص إحدى قاعات فرساي لهذه الفرقة التمثيلية الناجحة.

وأخذ **موليير** يزداد حماسة في إنتاجه الأدبي، ويخرج المسرحية تلو المسرحية، حتّى استطاع في مدى خمسة عشر عاماً بقيت له من حياته، أن يؤلّف ثماني وعشرين ملهاة، مع أنّه كان مشرفاً على إدارة الفرقة، ويقوم بتمثيل أصعب الأدوار في مسرحيّاته، ولذلك لم تحتمل بنيته كلَّ هذا المجهود فقضى نحبه في شباط عام ١٦٧٣، وهو يمثّل دَوره في آخِر مسرحيّاته "مريض الوهم".

(الضاد، العدد المزدوج ١ و١٩٦٣/٢، ص٧٢-٧٣)



ألفونس دي لامَرتين
شاعر وأديب ورَجل دولة

وُلد الشاعر الإبداعي الملهَم **ألفونس دي لامَرتين** Alphonse de Lamartine عام ١٧٩٠. وأمضى سني طفولته العشر الأولى في مزرعة "ميللي" قرب "ماكون" بين والديه وأخواته الخمس. واستقى تربية عائلية مليئة بالتديُّن وبالإحساس الرقيق، وتربية طبيعية ريفية مليئة بذكريات جَمالية لا تُمحى.

في عام ١٨٠٠ أُرسل إلى مدرسة بيبيه Pupier الداخلية في مدينة ليون. وبعد سنتين انهزم منها، لأنّه وجدها والمدينة سجناً لا يُطاق (حسب قول **جان جاك روسو** في كتابه

إميل، أو التربيـة الطبيعيـة) فأُدخـل مدرسـة دي بيلـي De Bellay للآبـاء اليـسوعيين، فأعجبته فيها الحياة العائلية الحافلة بالتقوى وحرّية التنزُّه في الـهواء الطلق، وأخـذ يقـرأ مؤلّفـات الكتّـاب اليونـانيين والرومـانيين القـدماء. وتـدرّب علـى العقليـة الاتّباعيـة "الكلاسيكية". لكنّه سرعان ما شُغف بكتـاب شـاتوبريان "عبقريـة الـدين المـسيحي" وبكتب الشعراء الإبداعيين من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، من إنكليـز وإيطـاليين وألمان، مثل: شكسبير وولتر سكوت ودانتي وشيللر وجوته، واكتسب عقلية إبداعية نيّرة جذّابة ساحرة.

وارتبط دي لامَرتين بصداقة متينة مع دي فيريو ودي فينيي اللذين قدّما له الأخوّة الصادقة والنصح والتشجيع.

بعد الدراسة، عاش ثلاث سـنوات مـن عـام ١٨٠٨ إلى ١٨١١ عيـشة أرسـتقراطي عاطل منصرف إلى التأمّل والقراءة ونظم الأشعار الدينية. وفي عـام ١٨١١ أراد والـده أن يبعده عن بنت طبيب العائلة التي شُغف بها، ولم تكن من مستواهم الاجتماعي، فأرسـله إلى إيطاليا. وهناك حدثت تلك الثورة النفسية التي وهبت فرنـسا والعـالم، أعظـم شـاعر إبداعي عاطفي. فإنّ أجواء الفـنّ الرفيـع في جميـع الميـادين ومـشاهد الطبيعـة الخلاّبـة ومصادفة غرازييلا ابنة صيّاد السمك، الفاتنة الجَمال، في نابولي الـتي فتنتـه بـسحرها، وقراءة قصّة بول وفـرجيني[1] لبرنـاردين فتّحـت حواسّـه ومـشاعره وبـدّلت تفكـيره ورسّخت عبقريته في حبّ الطبيعة وجَمالاتها وانعكاسها في الشخصية والـنفس البـشرية (الأنا) وما يخلّفه هذا الحبّ فيها من عواطـف لا حـدود لـها، ولكنّهـا لا تـشفي غلـيلاً. ففتحت له تلك العواطف الآفـاق العريـضة، وأبـواب مـا وراء الطبيعـة الغامـضة، وأخـذ يستشفُّ منها عالماً جديداً خالـداً يجـد فيـه مَـن أحبّـتهم نفـسه، ويـسعى وراء الجَمـال الحقيقي الشافي بلهفة دائمة إلى الحياة السعيدة الخالدة إلى الله عزّ وجلّ.

وفي عام ١٨١٤، دخل حرس الملك لويس الثـامن عـشر في بـاريس، ولفـت الأنظـار بقوامه وجَماله وحُسْن قيافته. وفي عام ١٨١٦ سـاءت صـحّته فـذهب يـستحمّ في ميـاه

---

[1] عرّبها مصطفى لطفي المنفلوطي بعنوان "الفضيلة".

"أكس ليبان" المعدنية في بحيرة لوبورجه Le Bourget. ويا للمصادفة الحزينة والسعيدة معاً، الحزينة لأنّها جمعته بجولي شارل، تلك العروس المكلومة بوفاة "عريسها"! فاتّحدت روحه بروحها لفشلهما في الحبّ وانهيار آمالهما وفقدان صحّتهما، وأيقظت جولي في شاعرنا الأهواء العاصفة، وفتّقت جروحه، وفتحت قلبه على الآمال الجديدة. وبعد ليالٍ عديدة قضياها على البحيرة تواعدا بالمكاتبة وباللقاء في الصيف المقبل. وبعد أن كتب إليها ثلاث رسائل ظلّت بلا جواب، هرع في الشهر الحادي عشر لفراقهما، إلى "أكس ليبان"، فعلم أنّها غادرت هذه الحياة الفانية. وقد سبّبت له وفاتها أزمة عاطفية وأخلاقية ذهبت معها كلّ آماله بالسعادة، وخلقت فيه حبَّ الانفراد والانطواء ووفرة الشجون. لكنّ تلك المصادفة، كانت سعيدةً أيضاً، لأنَّ فشله الثالث في الحبّ، وآلامه ويأسه، كانت مفتاح عبقريته على أجمل ما أبدع الفنّ العاطفي من نفثات شعرية تنفذ إلى أعماق الروح فتذيبها عاطفةً ورقّةً وحناناً، وتنعشها إيماناً ورجاء ومحبّة. وقد سمّى تلك الروائع "التأمّلات" جاءت في ثلاث وأربعين نفحة خالدة، تحفظ الذكريات اللذيذة الخاطفة وتحدّد العاطفة الدينية، وتحثُّ على السعي وراء الخالد، والتوق إلى ما وراء الطبيعة، إلى الله. من هذه البدائع "البحيرة Le Lac" و"العزلة L'isolement" و"الخريف L'automne" و"الوادي Le vallon" و"اليأس Le désespoir" و"الخلود L'immortalité".

في عام ١٨١٨، سعى لامَرتين أن يقلّد فولتير بالشعر المسرحي، فنظم مسرحيته "شاول" عبّر فيها بشخص شاول عن وضع قلبه الثائر، وبشخص داود عن وضع قلبه المستسلم. لكنّ المسرحية لم تنجح. فعدل عن السير في طريق المسرح، ونظم ملحمة "كلوفيس" وأراد أن يجمع فيها البدائع الأفلاطونية بالمعجزات المسيحية، فلم يفلح في ذلك أيضاً.

وفي عام ١٨٢٠ نشر تأمّلاته الرائعة، وقد قفز عددها من ٢٤ قصيدة في عام ١٨٢٤ إلى ٤٣ قصيدة في عام ١٨٢٦. وقد لاقت هذه التأمّلات نجاحاً باهراً وشاملاً، وشُغفت بها القلوب، وطارت شهرته وامتدّت شعبيته بين الملوك والأمراء، وبخاصّة بين النساء اللواتي كنَّ يقضينَ الليالي في قراءتها والتمتّع بما فيها من رقّة العاطفة وجَمال الصور.

وفُتحت أبواب السياسة في وجه لامَرتين، فعيّنته الحكومة أمين سرّ لسفير فرنسا في

نابولي. وفي تلك السنة (١٨٢٠) تزوَّج **لامَرتين** فتاة إنكليزية هي **ماريا آنّا إليزا بيرش**، ووُلد له منها صبيٌّ في روما. وفي عام ١٨٢٢ توفّي ابنه وولَدت له زوجته بنتاً سمّياها **جوليا**.

كما زار بلاد الشرق حيث زار اليونان وسورية وفلسطين مع زوجته وابنته الوحيدة **جوليا** التي توفِّيت في بيروت ودُفنت هناك. كما زار حلب وبقي فيها مدّة واستمتع بجَمالها وروعة بيوتها العربية. ونظم قصيدة "النرجيلة" لسيّدة شاهدها جالسة قرب البركة، رائعة الجَمال تدخِّن نرجيلة. وسكن خلالها في منطقة الكتّاب وزار آثار حلب [٢].

وفي عام ١٨٢٣ نشر التأمّلات الجديدة وأشهرها الشاعر المحتضر Le Poète mourant والمصلوب Le Crucifix. وفي عام ١٨٢٤ نظم "موت سقراط" وهي قصيدة فلسفية تبحث في خلود النفس ووفاة سقراط دفاعاً عن الإيمان بوحدة الله. وبين ١٨٢٥ و١٨٢٨ عُيِّن قائماً بالأعمال في فلورنسا، ونظم الأنغام المنسجمة الشعرية والدينية Les Harmonies Poétiques et Religieuses ومنها قصيدة الله Dieu وميللي أو مسقط الرأس ونشرها عام ١٨٣٠، وعلى أثرها انتُخب عضواً في المجمع العلمي. وفي عام ١٨٤١ فشل في النيابة.

وما بين عام ١٨٣٤ وعام ١٨٤١ انتُخب نائباً في أثناء غيابه، وداوم على حضور جلسات المجلس النيابي، وساهم في المناقشات بنشاط وحماسة. وكان خطيباً مصقعاً تتّسم خطبه بالبلاغة والبيان المشرق. وفي سنة ١٨٣٦ نظم ملحمة "جوسلين Jocelyn" أو "قصّة حُبّ" في ثمانية آلاف بيت من الشعر. ونظم في عام ١٨٣٨ "سقوط ملاك".

---

[٢] في معرض هامّ حمل عنوان "ألفونس دو لامَرتين ورحلته إلى الشرق ١٨٣٢-١٨٣٣"، أقامه الباحثان حسين عصمت المدرِّس وأوليفيه سالمون بحلب في ٣-٧ أيّار ٢٠٠٩، تبيَّن اقتناع الباحثَين التامّ والموثّق بأنّ القصيدة المذكورة كُتبت في بيروت من وحي الواقع الحلبي ثمّ أُرسلت إلى حلب. وقد نُشرت القصيدة للمرّة الأُولى في العام ١٨٣٤ تحت عنوان "عربية شابّة تدخِّن النرجيلة في بستان بحلب". وقد أكّد الباحثان أنّ لامَرتين أبدى رغبته في عدّة كتابات له في الحضور إلى حلب وزيارتها لما سمعه عنها من أصدقائه، ولكنّه لم يزرها!! وهذا ما يعارض مقولة عدد من الباحثين والدارسين والشعراء الأجانب والعرب ومَن نقل عنهم من معاصرين. وقد أرسل إلينا الباحث المدرِّس مداخلة خاصّة بعنوان "لامَرتين وحلب" بالفرنسية، وفيها بحث كامل عن هذا الموضوع (راجع "الضاد"، العدد ٢٠٠٩/٧، ص٢١).

ومـا بـين ١٨٣٩ و١٨٤١ نظـم المجموعـات الـشعرية الخـشوعية Les Recueillements ومارسييز السلام. ومن مؤلَّفاته النثرية نذكر "سـفرة إلى الـشرق" عـام ١٨٣٨. وهـذا المؤلَّف يقع في مجلَّدين يتضمَّنان صفحات جميلة في وصـف سـورية وبـيروت. وفي عـام ١٨٤٣ ألَّف "غرازييلا Graziella". وفي عام ١٨٤٧ وضع الجيرونوان عن الثورة، وثورة ١٨٤٨ والإصلاح ١٨٥٢. وفي سنة ١٨٤٨ ذاع صيته في جميع أنحـاء فرنـسا وأوروبّـا، وبلغت شعبيّته أوجها، فشكّل الحكومة المؤقّتة مع Ledru – Rollin. وألَّف قصّة "رفائيـل Raphaël" و"المسامرات Les Confidences" وهي قصّة حياته. وبعد صمت طويل، فاجـأ عشّاق أدبه في عام ١٨٥٧ بأناشيد الروح، وهي مثال في فنّ التفكير الروحي.

وعلى أثر هذه الرفعة إلى قمّة الشهرة، مُني بـسرعة الانهيـار. فقـد رشّـح نفـسه للرئاسة، فلم يحصل إلاّ على ١٨٠٠٠ صوت ضـدّ منافـسه نـابليون الثالـث الـذي نـال ٥١٠٠٠ صوت. وعندما عادت الإمبراطورية، هجر السياسة، لكنّ الديون كانت قد ركبته، فأخذ في شيخوخته يجدُّ لوفاء ديونه كرَجل شريف. وقد نهكه التعـب، ونـسيه مواطنـوه فتوفّي في باريس عام ١٨٦٩. وكان قد رفض مسبقاً أيّة حفاوة في مأتمـه، ودفـن في قـبر شيَّده لأُمّه كتب عليه: "تأمّلْ، هذه نهاية الأدباء والشعراء والعباقرة: فقرٌ وبؤس".

إنّ أشعار لامَرتين، تعبير حيٌّ ومنسجم عن روحه وتأثّراته الطبيعيـة وإحـساساته المرهفة العذبة الناعمة، فتأمّلاته أحلامٌ سرّية وصوفية جذّابة وفاتنـة. لقـد دخـل الحيـاة مغرماً بالمثالية والتديّن، مؤمنـاً بالفـضيلة والـسعادة، وسـعى وراءهـا في المجتمـع، فلـم يجدها، بل وجد كلَّ مرارة وفشل، وكلَّ معاكـسة في الحـبِّ وفي الـسياسة. وفقـد ولديـه، فاستولت عليه اللنخوليا، ولم يـرَ تعزيـةً إلاّ في ارتمائـه في أحـضان الطبيعـة: "هـا هـي الطبيعة تناديك وتحبّك، فارتمِ بين ذراعيها المفتوحتين لك في كلّ حين". وأخـذ يطلـب مـن الطبيعة عزاءً وسلوى، فشعر بشيءٍ من السكينة، لكنّه لم يجد مَن أحبّهم. وخامره بعـض الشكّ بتأثّره بالفلسفة العقلية. غير أنّه رجع في الحال، إلى الإيمان بعد تأرجح بـين العقـل والوحي. قال: "الشاهد الأزلي لوجود الله بيننا، هو الطبيعـة. والـشاهد الأزلـي لنـا هـو العقل" (جوسلين). لكنّه بقي مضطرباً لشعوره بالتوق إلى مشاهدة الكـائن العظـيم دون التوصّل إلى معرفته. "إنّني أموت حسرةً لعدم تمكُّني من تـسمية مـا أعبـده". علـى أنّـه

يستسلم لهذا الشوق فيقول: "ولا يهمّني أن يكون شوقي هذا عديم الفائدة. حيث إنّي أجد تعزيةً بالتوجُّه إلى العلا". ثمّ تثيره وفاة **جوليا** فيعود ويستسلم لله بقوله: "إنّه الله يسحقك يا نفسي، فكوني قويّة، وقبّلي يده في ألمك".

أمّا رسالته في جوسلين فهي التأمّل في الثورات والتقدُّم الاجتماعي، وهي رسالة سياسية ودينية مسيحية واجتماعية، تقوم على الإحسان وعمل الخير وإظهار عظَمة الله في خلائقه والتضحية في سبيل البشرية.

كلُّ هذه التناقضات بين الإيمان والشكّ والاضطراب النفسي والشوق للكائن العظيم والعقل والوحي والعبادة لله والطقوس الخارجية والمعاملة البشرية، لم تمنع تلك الروح من التوقان إلى الله. يقول **لامَرتين**: "علّني في حدود هذه الكرة، إذا تركت جثّتي للأرض، يتراءى لناظري ما حلمت به طويلاً". ويقول. "يا صديقي، كي نطير إليه، فلنأخذ أجنحة الموت". وفي مكان آخَر يحنُّ لذكرى البحيرة فيصرخ: "اختطفيني أيّتها العواصف الشمالية كما اختطفتها".

إنّ قصيدته "البحيرة" تعدُّ لؤلؤة الأدب الفرنسي والأدب العالمي في كلّ الأزمنة. وقد ترجمها شعراً الشاعر **نيقولا فيّاض** ترجمة رائعة. كما أنّ قصيدته "الخلود" هي فعل إيمان بالحياة الخالدة وبالله، ينعش الأرواح الظمأى إلى الحبّ، إلى الخلود، إلى الله.

لامَرتين من أصل عربي

لقد ظهرت طبعة جديدة منقّحة من كتاب "**حياة لامَرتين الغرامية**" من تأليف **لوكاس دوبريتون**. وممّا يستوقف النظر في هذه الطبعة، تحقيق المؤلّف لأصل شاعر فرنسا الأكبر حيث يقول: لمّا نفض **لامَرتين** يده من السياسة، رأى أن يحقّق أمنيةً طالما جاشت بنفسه، وهي السياحة إلى ربوع الشرق على ظَهر سفينة شراعية. وكان الغرض من هذه السياحة، هي أن يحقّق الشاعر أصله. وبعد أن عاد من سياحته، روى أنّ ١٥٠ عربياً أُسروا في حروب الفرنجة، وحُملوا إلى فرنسا، واستوطنوا قرية "ماكونيه" وشاد بعضهم القصر التاريخي الذي وُلد فيه **لامَرتين**، والذي لا يزال قائماً إلى اليوم. وكان شاعر فرنسا يعتقد أنّه من نسل هؤلاء الأسرى العرب الذين استوطنوا قريته "ماكونيه"!!

شَوقي ولامَرْتين

نظمتُها لمناسبة الندوة الاحتفالية "شوقي ولامَرتين" التي أقامتها في
باريس مؤسّسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين (٢٠٠٦)

اخفضْ جَناحكَ في حمى النُبغاء — واخشعْ أمامَ مآثرِ العُظماء
إنّ الحضارةَ من صنيعِ ذوي النُهى — لا من صنيعِ قواضبٍ عمياء
المجدُ ريشةُ مبدعٍ.. ثمراتُها — دفءُ القلوبِ وغيبةُ الظُّلَماء
العبقريّةُ ما لها وطنٌ.. ولا — إرثٌ من الأجداد والآباء
لا غربَ يصدحُ: إنّها من تربتي — أو شرقَ يشدو: إنّها من مائي
هي نفحةُ الربِّ الذي بسمائه — يُعطي ترابَ الأرضِ عطرَ سماء
وجواهرُ الإبداعِ مثلُ الشمسِ إذْ — تجري على الأزمانِ والأرجاء
يا بُلبلَ الشرقِ المغرِّدَ حكمةً — وعواطفاً كُسِيَتْ أجلَّ رداء
إيهِ أميرَ الشعرِ.. حسبكَ رفعةً — صارَت إليكَ إمارةُ الشعراء
غنَّيتَ للشرقِ الحبيبِ قصائداً — خضراءَ في السرّاء والضرّاء
قد كان شعرُكَ بسمةً في عُرسه — وبحزنه قد كانَ قطرَ بُكاء
ولكمْ رأينا فيه أجداداً لنا — بعدَ المماتِ غَدَوا من الأحياء
مجنونُ ليلى في الصَحارى هائمٌ — وحُسامُ عنترةٍ على الصحراء
شوقي، أيا وترَ النبوغِ بشدوه، — وترُ القصيدِ صحا من الإغفاء
ونفضتَ عن أشعارنا ثوبَ البِلى — وبعثْتَ في المغْنى جديدَ دماء
أنتَ المجدِّدُ في حياةِ قصيدنا — فسما لهُ بيديكَ خيرُ لواء

إيهِ الامَرتينُ، يا صدقَ الهوى — إنّي أنادي.. هل سمعتَ ندائي؟
إنّي من البلدِ الذي أحببتَهُ — في شرقنا.. إنّي من الشهباء
هل تذكرُ الشهباءَ أرضَ محبّةٍ — وتودّدٍ وتسامحٍ.. وإخاء
فيها المسيحُ مع النبيِّ محمّدٍ — أخَوانِ في الضرّاء والسرّاء
فيها الهلالُ مع الصليبِ توائمٌ — فكلاهُما لأخيه خيرُ غطاء

فيهـا الغريـبُ كأنَّـهُ مـن أهلـها
وكـأنَّ أهليهـا مـن الغربـاء

حبُّ الـورى.. كـلُّ الـورى مـن طبعهمْ
لا فـرقَ بـين قـريبهمْ والنـائي

يـا بلـبلاً وهـجُ العروبـةِ جـذرُهُ
منحَ الـهوى الظمـآنَ نهـرَ غنـاء

إن كنـتَ قيثـاراً فرنـسيَّ اللغـى
فمُعَـرَّبٌ في النـبضِ والإيحـاء

قـيسٌ يُغنّـي إذ تُغنّـي رقّـةً
وتوَهُّجـاً وأسـىً ونبـعَ صـفاء

(جـولي) بقلبـكَ مثْـلُ ليلـى عنـدَهُ
ظمـأً لنبـعِ الوصـلِ دونَ لقـاء

مـا زالَ في شـطِّ الـبحيرةِ آهـةٌ
تَـسبي قلـوبَ النـاسِ في الأمـداء

(جـولي) وشـطآنُ الـبحيرةِ مثْلُهـا
خلَّـدْتَها بحروفـكَ الخـضراء

سـتظلُّ أغنيـةُ الـبحيرةِ مـا جـرى
قمـرٌ.. ومـا أسْـرَتْ ركـابُ ذُكـاء

يـا سـيِّدَ الإبـداعِ مـا غنَّـى الـهوى
أبـداً كمثْـلِ غنَـاكَ في الغـبراء

إنّـا نظرنـا للـشداة.. فلـم نجـدْ
لـكَ بيـنَهمْ في الـشدوِ مـن نظـراء

كـلُّ البلابـلِ في الـسفوحِ مطارُهَـا
إلاّكَ فـوقَ القمّـةِ الـشمّاء

أيـن الـسياسةُ لم يعـدْ لـكَ مـشعلٌ
منهـا يجـودُ علـى المـدى بـضياء

والمجـدُ كـلُّ المجـدِ رهـنُ فنـاء
إلاّ اليراعـةَ مجـدُهَا لبقـاء

ويظـلُّ شـدوكَ آسـراً قلـبَ الـورى
في كـلِّ صـبحٍ قـادمٍ.. ومـساء

وتُقَـسِّمُ الأهـواءُ وحـدةَ أرضِـنَا
فتـصيرُ آلافـاً مـنَ الأجـزاء

والنـاسُ.. كـلُّ النـاسِ.. في أصـقاعهمْ
هـمْ إخـوةٌ في أعـينِ الأدبـاء

فجمـيعهمْ أهـلٌ، أبـوهمْ آدمٌ
والكـلُّ كـانوا مـن بـني حـوّاء

بشطوطِ شـدوكَ تلتقـي سـفنُ الـورى
يحيَـوْنَ أحبابـاً بـلا أعـداء

الـسلمُ في قلـمِ الأديـبِ وقلبـهِ
لا في سـيوفِ الطعـنِ في الـهيجاء

فاخـشعْ وصـلِّ ببـابِ كـلِّ يراعـةٍ
إنَّ اليراعـةَ بـابُ كـلِّ رجـاء

"شوقي" و"لامَـرتينُ" قـد جَمَعَتْكُمـا
بـاريسُ جمـعَ محبّـةٍ ووفـاء

"للبـابطينَ" يـدٌ بعطـرِ لقاكُمـا
ولَكَـمْ لـهمْ عطْـرُ اليـدِ البيـضاء

شـكْرُ القـصيدِ لفـضْلِهمْ.. وجـزاهمُ
ربِّـي عـنِ الآدابِ خـيرَ جـزاء

(الكلمة، الأعداد ١-٢-٣/٦/٢٠٠٦، ص٣-٧، والضاد، العدد ١٢/٦/٢٠٠٦، ص٦٤-٦٥)



ألفريد دي فينيي Alfred de Vigny

ألفريد فكتور كونت دي فينيي، وُلد عام ١٧٩٧ في مدينة لوك من أب مقدَّم في الجيش، ومن أُمّ ممتازة بذكائها وتقواها، وحبّها الفنون الجميلة. وقفت حياتها على تهذيب ابنها الذي درس في مدرسة هيكس الداخلية في باريس. فكان في أصله وأرستقراطيته ونجاحه موضع هزء رفاقه واضطهادهم.

ومنذ صغره استطاع ترجمة **هوميروس** من اليونانية إلى الإنكليزية. وفي السابعة عشرة، دخل الفرقة الحمراء الملكية، فزوّدته أُمّه بدفتر صغير، سجّلت له فيه مبادئ الشرف والحفاظ على نبل العائلة والتعلّق بالملكية. فكان مثال الوجه النبيل والحياة الفخورة الصامتة. وأصبح عام ١٨١٦ في الحرس الملكي قبلة الأنظار بجَماله وأناقته

ولطفه وشرفه.

لكنّه ملَّ حياة الحراسة وأخذ يقرأ التوراة وكُتب الإبداعيين: **شاتوبريان ومدام دي ستال وشيللر وجوته وشكسبير**. ودخل النوادي الأدبية يقرأ أشعاره العاطفية. وتوثّقت صلاته مع الرئيس **فيكتور هيجو**. وشُغف في نادي لنسلو بالحسناء **دلفين جه** Delphine Gay لكنّ والدته لم توافق على زواجه منها. وتزوّج وهو في رتبة مقدّم من **ليديا لنبوري** ابنه إنكليزي غريب الأطوار، وحصل على تسريحه من الجيش عام ١٨٢٧ واعتكف في بيته للمطالعة والتأليف.

لقد أبدع **دي فينيي** في مؤلّفاته، لكنّه مثْل **لامَرتين** فشل مرّتين في ترشيح نفسه للنيابة وستّ مرّات لعضوية المجمع العلمي حتّى عام ١٨٤٥ حيث دخل المجمع.

مات **دي فينيي** عام ١٨٦٣ من سرطان في المعدة ذاق منه أمرّ العذاب بعد حياة فاشلة وصحّة متداعية وسوداوية، مع تعقّد نفساني زاد في تشاؤمه وفلسفته التحمّلية son stoïcisme فالدنيا بنظره سجن، والإنسان محكوم عليه ويستحقّ الإشفاق. ولا مَن يرحم. فالله عادل. والطبيعة صمّاء. والاعتراض عديم النفع. فالأنين والبكاء والتوسّل جبن. والحُبّ خيانة وكذب. والشعر لا يُلطّف الآلام بل يزيدها. والطبيعة عديمة الاكتراث بالإنسان. أقول للبشر: (أنا لا أسمع تنهّداتكم ولا نداءاتكم. وأكاد لا أشعر بمرور المهزلة البشرية).

غريبة من هذا العبقري مثل هذه الأفكار، وعجيبة في نفسه النبيلة والشريفة والفخورة والصامتة مثل هذه الآراء! فأفكاره رصينة وفلسفية ونافذة، لكنّها متشائمة صابرة، مع أنّ مؤلّفاته أفضل من مؤلّفات جميع الإبداعيين باستثناء **لامَرتين**. وإذا كان **فيكتور هيجو** جدّد قصائد المدح و**لامَرتين** المراثي، فإنّ **دي فينيي** قد جدّد القصّة القصيرة ذات المعنى العظيم والعميق. لقد كان المبدع الحقيقي في المدرسة الإبداعية وأكبر مفكّر بين أبناء عصره.

كان إبداعياً بسوداويته وشعره الغنائي وخياله وتفهّمه للمسرح. واحتلّ مكاناً مرموقاً بفلسفته وقوّة عقله وسعة نفوذه. ففلسفته **بَسكالية**، وقصائده مبتكرة بديعة

نادرة عميقة وجديدة برمزيتها الدقيقة وفلسفتها المؤثِّرة.

له مؤلَّفات كثيرة في الشعر والنثر والمسرح. وتُعدّ قصائده في منتهى الروعة والإبداع، لما تتّسم به من فكر عالٍ وجزالة مشرقة ومشاعر إنسانية صافية.

من نفثات العبقري المبدع ألفريد دي فيني:

قضيب الخيزران

لقد فاق **دي فيني** جميع العباقرة الإبداعيين تشاؤماً في مسرحيته ستيلو وشاترطون، وفلسفة ورمزية في قصائده (القديمة والحديثة والأقدار Les Destinées) وتأثيراً بقوّة عقله ونفوذه. فقصائده صافية ومبتكرة، بديعة ونادرة، عميقة ومؤثِّرة، تعبِّر بأسلوب ممتاز عن أفكار قوية بصورة شعرية صحيحة.

أمّا مؤلَّفاته النثرية، فقد امتازت بدقّة الوصف وسلاسة التعبير وعمق التأثير. وهذه الحادثة المقتطفة من عبودية الجندية وعظَمتها، على لسان الضابط **أرنو** لشاهد على قولنا.

بعد انتصارات الإمبراطور الباهرة، تكتّلت الدول بغية قهره، واحتلّت مدينة دانس. فتجمّعت قوّات المعسكرين حول إبرني Eperney. وكانت مهمّة قوّات **نابليون** القضاء على وحدة روسية توصد طريقها إلى دانس.

ويا لها من فاجعة يحزّ وصفها القلوب لولا نتائجها المحمودة!

يقول **دي فيني** على لسان الضابط **أرنو**:

(فتّشتُ الأسلحة وأمرت بإفراغ البنادق من رصاصاتها. وفي العاشرة والنصف ليلاً، أمرت بارتداء المعاطف وإخفاء البنادق تحتها. ثمّ فتّشت المسلك المؤدّي الى المعسكر الروسي وأرسلت أقوى رجالي المتمرّسين على مباغتات الروس. وأوصيت بعدم إحداث ضجّة. فقضوا على الحرّاس بصمت تامّ رهيب.

وكان حارس الذخيرة واقفاً مسنداً ذقنه إلى بندقيته، يتأرجح ويكاد يقع من التعب والنعاس. وفجأةً أمسكه أحد شجعاني، وكمّ فاه، وضغط على جسمه حتّى كاد يشطره، بينما اثنان آخَران كبّلاه وقذفا به في الأدغال.

وتقدّمت بخطوات وئيدة. ولا أكتم أنّني للمرّة الأُولى في المعارك شعرت بقشعريرة تسري في جسمي لمهاجمتي جنوداً نائمين. كانوا ملتحفين بمعاطفهم يضيئهم مصباح مغشّى. فاشتدّت دقّات قلبي وخشيتُ أن تكون عن جزع أو عن جبن، فهجمت، ودخلت المعسكر قبل جنودي وأشرت عليهم أن يتبعوني. فارتموا على الأسلحة وعلى الجنود كالذئاب الكواسر على القطيع. ويا لها من مجزرة رهيبة صامتة كانت فيها الحراب تنفذ، والبنادق تقتل، والركب تقطع الأنفاس، والأيدي تخنق. وما كانت الأصوات تلفظ، حتّى تقطعها نعال الجنود، ولا ترتفع الرؤوس إلاّ وتتلقّى الضربة القاضية.

أمّا أنا، فقد ضربتُ بسيفي ضربةً هائلة في كتلة سوداء. ونفذ السيف فيها وعلق. فانتصب في وجهي شبح ضابط طويل القامة، قوي البنية، أبيض الشَعر، وقذف صرخة كقصف الرعد لمشاهدته ما فعلت. وضربني ضربة نجلاء بين عيني وسقط جثّة هامدة تحت ضربات حراب جنودي. أمّا أنا فسقطت قاعداً بجانبه وقد دوّخني صوابه. وإذ بي أسمع صوتاً لطيفاً عذباً حنوناً تحت المعطف يردّد: بابا، بابا... وفهمت فعلتي، وكشفت بسرعة عصبية عن أحد الضبّاط الذين لم يتجاوزوا الرابعة عشرة، والذين كانوا يساقون إلى هذه المدرسة الرهيبة.

كان شَعره الطويل المجعّد ينساب على صدره بشقرة ونعومة شعور النساء. لوى رأسه نحو صدري، إنّه يريد أن يتابع لذّة نومه. وكانت شفتاه ناهيتين ورديتين، كشفاه المولود الجديد، وعيناه كبيرتين زرقاوين منفتحتين عن جَمال طفولي بريء. فرفعته بذراعي ووقع خدّه على خدّي المدمّى. وكأنّه يريد أن يدفن رأسه وخدّه على كتف أُمّه طلباً للدفء، وجثم تحت صدري كأنّه يريد الاختباء من قاتليه. وكان وجهه الهادئ يعبّر عن الحنان البنوي والثقة وراحة النوم اللذيذ وكأنّه يناجي بقوله: (لنسترحْ بسلام).

فصحتُ حزيناً: أهذا عدوّ؟ وكلّ ما وضعه الله من عواطف أبوية في أحشاء كلّ إنسان تأثّر فيّ واهتزّ. فضممته إلى صدري بحنان. وإذ دخل العقيد وصاح: أهنّئك، لقد أتممت مهمّتك بسرعة البرق، لكنّك جريح!

قلت: انظر! ما الفرق بيني وبين القاتل؟ أجاب: تمجّد اسم الربّ. إنّها المهنة.

وسقط الولد في ثنايا المعطف، فلقّحته، وأفلت من يده المزيّنة بالخواتم قضيباً من الخيزران وقع على يدي. فأخذته وقصدت، مهما حصل لي من الأخطار مستقبلاً، أن لا أحمل سلاحاً سوى هذا القضيب. ولم تتمالكني الشجاعة أن أسحب من صدره سيفي القاتل).

مرّت الأعوام، وفي عام ١٨٣٠ كان الضابط أرنو على جسر نهر السين يشير بقضيب الخيزران إلى جهة باسّي Passy. وإذا بفتى عاري الرأس حاف يرقص على إيقاع قطعتين من الخزف، وصل إليه، أخرج من صدره مسدّساً، صوّبه إلى قلب الضابط. تلافاه الضابط بضربة قضيبه لكنّ (الكلّه) كانت خرجت وأصابت فخذه. وبُترت ساق ضابط حضر عشرين معركة ظافرة، وجُرح عشرة جروح، وامتُحن سنين طويلة بالحديد والنار والجليد، وذلك من قفزة ضفدعة [1] من مجاري نهر السين كانت كافية لتقتله. وطلب العناية بالفتى. وقال: نحن في حالة حرب. وليس الفتى قاتلاً أكثر ممّا كنت أنا في دانس، حين قتلتُ الفتى الروسي.

(الكلمة، الأعداد ١-٢-٣/ ٢٠١٠، ص٢١-٢٤)

---

[1] رعاع باريس.



الشاعر المبدع فيكتور هيجو Victor Hugo

حياته

هو رئيس الشعراء الإبداعيين، وأحد أعظم شعراء فرنسا في القرن التاسع عشر. وأكبر مناصر للمضطهَدين والبؤساء. وُلد في مدينة بيزانسون عام ١٨٠٢ من أب ضابط في الجيش أصبح لواءً، ومن أُمّ تقية جداً من مدينة نانتْ في مقاطعة بريتانيا.

قضى طفولته، كما يقول بين ثلاثة معلّمين (الحديقة وكاهن عجوز وأُمّي) [1] حتّى

[1] تشكّل الطبيعة والدين والعاطفة ثلاثة مصادر للإبداع.

سنّ العاشرة. كان يلحق والده في تنقّلاته في إيطاليا وإسبانيا، وقد أفادته هذه الأسفار بحيث رسمت في مخيّلته أجمل اللوحات الطبيعية وأشغفته بحبّ الأشياء الشرقية.

وبعد العاشرة عاد إلى باريس، وعاش مع أُمّه في دير قديم (ألفويانتين) الذي تغنّى به. وأُدخل معهد كورديه Cordier الداخلي، ومعهد **لويس الكبير** لتحضير البوليتكنيك (معهد الرياضات العسكرية وجميع الفنون). لكنّ الشعر لازمه واستحوذ منذ الخامسة عشرة على جميع مشاعره. فأرسل إلى المجمع العلمي أُولى نفثاته الشعرية في مسابقة، وحصل على جائزة المسابقة. وفي السابعة عشرة حصل في مدينة تولوز، في ألعاب الزهور على جائزة أجمل قصيدة. فاستولت عليه روح الطموح، وأخذ يردّد (أريد أن أكون **شاتوبريان** [٢] أو لا شيء). وأنشأ مع إخوته صحيفة أسماها (صائنة الأدب) درّبته في جميع أنواع الآداب. وكان وقتئذ ملكياً وكاثوليكياً. وأوّل ما لفت الأنظار إليه رثاء **الدوق دي بيري** عام ١٨٢٠ وهو في الثامنة عشرة. وتزوّج في سنّ العشرين من رفيقة طفولته **آديل فوشي**، وأنجب منها بنتين وصبيين. وبدأ يسلسل نفثاته الشعرية البديعة ومسرحيّاته القوية بحيث منحه **الملك لويس الثامن عشر** وسام الشرف ووهبه معاشاً شهرياً. وأصبح رئيس المدرسة الإبداعية في مقدّمة مسرحيته (كرومويل) ونجاح مسرحية (هرناني)، وأصبح عضواً في المجمع العلمي في سنّ الثانية والأربعين.

وبعد ذلك، دخل السياسة دون مبدأ معيّن. فكان يهتزّ ويميل مع الريح: تارةً ملكياً كاثوليكياً وتارةً جمهورياً محافظاً، أحياناً من حزب الأحرار، وأحياناً اشتراكياً مرّاً. وأصبح عام ١٨٤٨ نائباً عن باريس. وفي عهد **نابليون الثالث** نفى نفسه عن باريس ثماني عشرة سنة، واحدة في بروكسل والباقية في جرزي وكرنزي لطعنه في **نابليون الصغير**. وعاد إلى باريس عام ١٨٧٠ بعد سقوط الإمبراطورية. وانتُخب نائباً وعضواً – للحياة – في مجلس الشيوخ وتوفّي في ٢٢ أيّار من عام ١٨٨٥. فشيّعته مدينة باريس حكومةً وشعباً بأبّهة واحتفال فخم. ونُقل رفاته من قوس النصر إلى البانيتون [٣] مقبرة العظماء. وترك سبعة ملايين من النقد المتداول. وأراد أن يُنقل إلى قبره في عجلة الفقراء.

---

[٢] شاتوبريان: أوّل الإبداعيين في وصف الطبيعة والعواطف البشرية وتجديد العاطفة الدينية بعد القرن الثامن عشر.

[٣] البانيتون. كنيسة قديمة حوّلتها الثورة إلى مقبرة العظماء، من فلاسفة وشعراء وأمراء.

مؤلّفاته

إنتاجه الأدبي في الشعر والنثر خمسة عشر مجلّداً وثماني مسرحيّات وستّ من القصص العريضة الاجتماعية والعاطفية الشهيرة. إنتاجه أقوى وأوفر وأغنى وأفخم ما يمكن مصادفته من الإنتاجات الفرنسية، وأكثرها تنوّعاً وتأثيراً في النفس من حيث الأفكار والإنشاء وقوّة الخيال ورقّة العاطفة وبراعة الأسلوب في استعمال أدقّ الاستعارات وأبدع التشبيهات وأروع المجازات والمتناقضات وأطرف الكنايات مع موسيقية ساحرة ناعمة أو ناشطة حماسية حسب متطلّبات الأفكار.

لقد كتب في جميع أنواع الشعر والنثر. في الشعر الغزلي والملحمي والنقدي والفلسفي والمسرحي، وفي النثر التاريخي والقصصي والاجتماعي والأدبي والخطابي. وكان من الخطباء النارين في الندوة. ولنا في خطابه بمناسبة ذكرى مرور مئة عام على وفاة الفيلسوف **فولتير** ما يكفي لمعرفة مقدرته الخطابية (راجع في "النظرات"، الجزء الثاني **لمصطفى المنفلوطي** تعريب هذا الخطاب الرنّان).

مجموعات قصائده

ومن قصائده العاطفية الغنائية من عام **١٨٢٢** حتّى **١٨٢٦** القصائد المدحية والراقصة مجموعة تعبّر عن فعل إيمان ملكي وكاثوليكي منها قصيدة: (إلى عمود ساحة فاندوم) تعبّر عن تمجيد آثار الإمبراطور **وآل بوربون** وتمجيد الإنجيل المقدّس، مع ذكريات مليئة فنّاً وبلاغة. والقصيدة (الجزيرتان) أعني كورسيكا والقدّيسة هيلانة يصوّر فيها **نابليون الأوّل** وأعماله المجيدة ثمّ نهايته المؤسفة وقصيدة (مطرة الصيف اللذيذة) في وصف الطبيعة.

في عام **١٨٢٩** نظم (القصائد الشرقية Les orientales) في كفاح اليونان ضدّ الأتراك من أجل استقلال بلادهم. مؤلّف شهير بألوانه الزاهية، وقوّة الإيقاع ودقّة الوصف. منها كيّو Chio في خراب الجزيرة، ونار السماء Le feu du ciel، والجنّ Les djinns، ومازبّا Mazeppa وهي قصّة رمزية عن العبقري الذي يتألّم ثمّ يصل إلى المجد.

في عام **١٨٣١** نظم (أوراق الخريف Les feuilles d'automne) فيها يعبّر عن أسفه

على الشباب الزائل ويُظهر طموحه إلى معرفة أسرار الكون، ويتشبَّث بأهداب الدين ويُظهر إشفاقه على البؤساء وبغضه للظلم وللظالم ويكشف لنا عن كنانة قلبه ونفسه. منها (الدعاء) عرَّبها **المنفلوطي**، وقصيدة (مضى من العمر سنتان) وقصيدة (ما يُسمَع فوق الجبل) يعبّر فيها عن سماعه لصوت البحر المفرح وصوت البشرية المحزن، قصيدة فلسفية فيها يقارن بين الطبيعة الهانئة اللامبالية والإنسان المضطرب. وقصيدة (إلى مسافر) رثاء من ثلاثة أجزاء:

أً- رأيت الكثير وسمعت الكثير وأعطيت الكثير.

٢ً- تسأل عن أحبابك: أبيك وأمّك وإخوتك. كلّهم مسافرون أيضاً.

٣ً- الأموات تنساهم القلوب سريعاً وأسرع ممّا تنحلّ أجسامهم في القبور.

في عام ١٨٣٥ نظم (أغاني الشفق Les chants du crépuscule) أجمل قصيدة فيها (الجرس). حديث على شاطئ البحر مع جرس المساء ويأس الشاعر لإفراغه كأس الأطماع مع انتقاد العائلة المالكة التي مدحها سابقاً ونداء لصالح بولونيا ولمصلحة الطبقة الفقيرة وإعطاء درس للعظماء بعد الانتصار. انكسار ونفي وموت في قصيدة **نابليون الثاني**. ثمّ (أعراس وولائم Noces et festins) بمعنى سعادة العظماء زائلة.

في عام ١٨٣٧ نظم (الأصوات الداخلية Les voix intérieures) يعبّر فيها عن واجب الشاعر **هيجو** أن يمزج صوت الإنسان بصوت الطبيعة وصوت الأحداث. وفيها قصيدة (البقرة La vache) أوّل مثال في الفنّ الرمزي عند الشاعر **هيجو** يظهر فيها الطبيعة أُمّ الخليقة ومرضعة البشر، ومنها قصيدة (إلى قوس النصر) عودة إلى أمجاد الإمبراطورية (والله دوماً هناك) قصيدة فيها يمجّد العناية الإلهية بأنغام سحرية ويُعَدِّد إحساناتها إلى خليقتها.

في عام ١٨٤٠ نظم (الأشعّة والظلال Les rayons et les ombres) فيها يلقي نظرة على قصر فرساي وحدائقه فيشعر بألم شديد يعبّر عنه في قصيدته (حزن أولمبيو Tristesse d'Olympico) ويتمعّن في فكرة القدر والمصير، فيجد أمامه هوّة مرعبة لا يُسبَرُ غورها، ويعود إلى رسالة الشاعر في إنارة الشعوب ومساندة البائسين.

أجمل مجموعة من قصائد **فيكتور هيجو** هي (التأمّلات المعجبة أو الانخطافات Les Contemplations)، وهي مؤلّفة من مئة وستّ وخمسين قصيدة، فيها يرسم الشاعر قصّة أبوّته الطبيعية والمتبنّية ووطنيته أو أبوّته نحو أبناء وطنه، وحتّى أبوّته الشاملة نحو العالم أجمع. ويعبّر عن آلامه لفقده ابنته البكر **ليوبولدين** مع زوجها – وقد غرقت في النهر، فأراد أن ينقذها فغرق معها – وعن آلامه لبؤس أبناء وطنه، وبؤس البشرية بأسرها.

وفي عام ١٨٥٣ نظم أحدّ وأشدّ القصائد النقدية في مجموعة (العقوبات Les châtiments). وفي عام ١٨٦٥ نظم (أغاني الشوارع والغابات Chansons des rues et des bois). ولولا أنّ فيها قصائد (البذّار Le semeur) و(الحصّاد Le moissonneur) و(الليل La nuit) الرائعة في معناها ومبناها لكانت المجموعة كلّها نقطة انحطاط أدبي وخلقي في جبين **فيكتور هيجو** قائد الشعب ومنارة البشرية.

وفي عام ١٨٧٢ نظم (السنة الهائلة L'année terrible) يصف فيها انقلاب ١٨٥٢.

وفي ١٨٧٧ نظم (فنّ الجَدِّية L'art d'être grand-père) فيها ينشد الطفولة نغمات عذبة. فالطفولة فجر الحياة ويرى في حفيديه **جورج وجان** ذكريات طفولته المفرحة. ومن المؤسف أن يدخل في هذه المجموعة بعض الحقد على الدين ورجال الدين، حيث صبّ جام غضبه على مَن قاموا بمحاولة الثاني من كانون الأوّل ١٨٥٢ ومَن شاركوهم، والعهد السياسي الذي أنتجه الانقلاب.

ثمّ نظم أقوى ملحمة فريدة من نوعها (أسطورة الأجيال La lègende des siècles) مؤلّفة من ثلاثة أجزاء: الأوّل في عام ١٨٥٩ والثاني ١٨٧٧ والثالث ١٨٨٣. تابع فيها قصّة الجنس البشري منذ خليقته، وكيف ازدهرت البشرية جيلاً بعد جيل، وأعطى عن كلّ عصر صورة، بقصيدة رمزية، منها **قابيل** يصوّره مرتاعاً وعين الله تتبعه في الأبراج والحصون وحتّى في القبر سائلة: (أين أخوك؟) أجمل صورة رمزية عن تعذيب ضمير المجرم... وأُخرى غيرها وكلّها تنضح بقوّة العبقرية وهي أمثلة في الفنّ الرائع.

لنسمع ما قاله الكاتب والشاعر الإنكليزي **زوَ ينْبورن** أحد المعجبين بالمنفى في

جزيرة جرزي عن (العقوبات): (بين المقدّمة Nox الليل والخاتمة Lux النُور، الثماني والتسعون قصيدة تجري وتدوّي وتنير وتحطّم كأمواج البحر وتغنّي أنغامها المنسجمة الصاعدة والنازلة بقوّة موسيقية وتنوّع موحّد رتيب كمياه الشواطئ التي كُتبت عليها. ومع أنّ **هيجو** يغالي في تهجّماته على العهود التي يجعل منها مركّباً من جميع الجرائم وجميع المخازي لكنّها مليئة بلاغة).

وله في عام ١٨٧٨ (البابا) و١٨٧٩ (الشفقة الفائقة) و١٨٨٠ (أديان وديانة) و١٨٨١ (أربع رياح الفكر) و١٨٨٢ (توركيمادا). وهنالك قصّة حياته ومجموعة خطابات بعنوان (أعمال وأقوال) سياسية. وبعد وفاته، طُبعت له (نهاية إبليس) و(الأفكار المشؤومة) و(المسرح الحرّ)، و(الله) – أغزر إنتاج شعري عرفه التاريخ.

مجموعات رواياته المسرحية

ومن مسرحيّاته (كرومويل) ١٨٢٧ (هرناني) ١٨٢٨ (ماريون دي لورمْ) ١٨٣١ (الملك يلهو) ١٨٣٢ (لوكريس بورجيا) و(ماري تيدور) نثريتان ١٨٣٣ (روي بلاس) ١٨٣٨ و(البُرغراف) ١٨٤٣ وهذه سقطت وسقطت معها المدرسة الإبداعية الأساسية.

وكلّ هذه المسرحيّات كانت خالية من الدراسات النفسية والبشرية، وكأنّها مجموعة رنّانة من لوحات خطابية زاهية، وكلّها تبحث في شخص الرّجل المنحوس المنكود الحظّ الذي لا يفهمه أحد. على أنّها تحوي مفاجآت مذهلة، ولغة من أفخم ما نطق به شاعر أو خطيب فرنسي، ومن أرقّ ما حمل الإنسان من مشاعر.

مجموعاته القصصية

لكنّ **فيكتور هيجو** فاق جميع القصصيين في أغلب قصصه الاجتماعية الرائعة. مثل (نوتردام دي باريس) ١٨٣٥ و(البؤساء) ١٨٦٢ وفيها نفحات الملحمة.. ونابليون الصغير (عن نابليون الثالث) هجائية لاذعة ١٨٥٣ و(وليم شكسبير) ١٨٦٤ و(الرَجل الضاحك) ١٨٤٩ و(ثلاثة وتسعون) ١٨٦٦ و(عمّال البحر) ١٨٧٤.

وكان **فيكتور هيجو** خطيباً ألمعياً في جماهير الشعب، وصحافياً أديباً في صائنة

الأدب، وصحافياً سياسياً في صحيفة Le rappel.

ولم ترَ ولن ترى فرنسا أضخم من إنتاجه وأكثر من تنوّعه، إذ كانت مؤلّفاته تتدفّق كالنبع تارةً جارية صافية، وتارةً هادرة صاخبة، ودائماً قوية ومزهرة ونيّرة.

رسالته وعبقريته

رسالة الشاعر **هيجو** والشعراء عامّة تظهر من مقدّمة مجموعة قصائده الغزلية حيث يقول: (الشاعر مرشد الشعوب والمبشّر بالمستقبل بإيحاء من الحقيقة الأزلية، وعليه أن يسير أمام الشعوب نُوراً ساطعاً يدلّها على الطريق، وأن يجعل جميع خيوط القلب البشري تهتزُّ تحت أنامله مثل أوتار القيثارة، وأن لا يكون صدى إلاّ لكلام الحقّ، لكلام الله).

أنكر عليه العبقرية بعض الاتّباعيين وبعض عظماء الأدباء من رجال الدين. معتبرينه متوسّط الذكاء وضعيف الذوق ومتذبذباً لتعريفهم، العبقرية: تفوّق في القوى العقلية أو امتلاك الذكاء والخيال والإحساس والذوق بأعلى درجة. لكنّ الجميع مجمعون على أنّه ملك أقوى خيال، وأرهف شعور عرفه شاعر أو كاتب أو خطيب أو رسّام، وإنتاجه أغزر إنتاج متنوّع عرفه تاريخ الأدب الفرنسي. وما انفجار هذا النبع الصافي والهادئ والصاخب والهادر، إلاّ من فاجعة وفاة ابنته الحبيبة (أزمة عاطفية حادّة) ومن منفاه الظالم بعيداً عن وطنه وعائلته (أزمة سياسية غاضبة) ومن مشاهدته البؤس والشقاء البشري. وهو مجبول بالحنان الأبوي الصرف، وبالوطنية الصادقة وبالحبّ الشامل والأبوّة الكاملة للبشرية جمعاء.

نستطيع، إذاً، أن نقول إنّ **فيكتور هيجو** عبقري [٤] بغزارة مؤلّفاته [٥] وتنوّعها وبقوّة خياله النادر المثال ورهافة شعوره ونعومته. عبقري في قدرته الخلاّقة

---

[٤] يعرّف بعضهم العبقرية بقوله: (هي مجموعة كبيرة من المؤلّفات مطبوعة بطابع الخيال والشعور والذكاء والذوق، بالرغم من بعض نقاط الضعف في إحدى هذه القوى، إذاً ضعفه في الذكاء والذوق لا يمنع عنه العبقرية.

[٥] كلّ مجموعة من قصائده تتألّف من أربعين حتّى الثماني والتسعين قصيدة، كما في (العقوبات)، وكلّ قصيدة من الخمسين إلى ما فوق المئة والخمسين بيتاً. و(التأمّلات المعجبة) تتألّف من عشرة آلاف بيت شعر، ومئة وستّ وخمسين قصيدة.

وديناميكيته المبدعة، وفي فرض نفسه رئيساً للإبداعيين وإدخالـهم المعركة وإيصالـهم إلى النصر. عبقري في مهاجمته وجَلْده كبريـاء المغتـصبين والمـستبدّين وفي منـع الظلـم عـن البائسين ونداءاته لعمل الخير وتشييد جمهورية الحقّ والعدل على أنقاض الإمبراطوريات الزائلة والممالك العابرة، وعلى أسس الاشتراكية الحقّة. عبقري في سـعيه لكـشف أسـرار الكون وسرّ اللانهايـة (سـألج سـرّ بيـت المقـدس المجهـول، وأصـل إلى أبـواب الـرؤى السماوية). عبقري في لغته، فقد أبدع عالماً من الرموز والصور والمجـازات والمتناقـضات، وخلق مفردات جديدة، وشيَّد قصوراً شـامخة مـن المؤلّفـات البديعـة الفريـدة بـصفاتها وتنوّعها وسعتها المدهشة.

(الكلمة، الأعداد ١٠-١١-١٢/٢٠٠٩، ص١٠-١٥)



سليمان البستاني
الأديب العالِم

للبستاني منزلة سامية في الأدب لا يسمو إليها إلاَ مَن خصّه الله بمواهب نادرة. ويكفيه فخراً أن يكون واضع حجر الزاوية في بناء النقد الأدبي الحديث ومؤسّس مدرسة أدبية عصرية، من تلاميذها أمراء النقد في الأقطار العربية الذين لم يتمكّنوا من مجاراة أستاذهم مع ادّعائهم أنّهم "خلقوا" النقد الأدبي في اللغة العربية ووضعوا "أسسه الثابتة" وابتكروا قواعده المحكمة!

ومنزلته الأدبية تظهر جلية في مؤلّفاته، وقد طبع منها: ترجمة الإلياذة ومقدّمتها الفريدة، الجزء العاشر والجزء الحادي عشر من دائرة المعارف (وضعهما بمعاونة نسيبيه **نجيب ونسيب بطرس البستاني**) وعبرة وذكرى (درس فيه الأحوال السياسية

العثمانية قبل الدستور وبعده) و"ستينوغرافيا" (درس فيه طريقة الاختزال، وهو الأوّل من نوعه في اللغة العربية). ومن مؤلّفاته التي لم تُطبع بعد: ديوان شعره، ورحلاته ومذكّراته وتاريخ العرب في ألفي صفحة.

وهو أوسع أدباء عصره ثقافة، كان عالماً أعظم منه أديباً وسياسياً. ومن دواعي الفخر أن نقول إنّ اللغة العربية لم تعرف نابغة، قبل سليمان البستاني اللبناني، قرن العلم الواسع بالأدب العربي العالمي وكان مجلّياً في الميدانين، حائزاً قصب السبق في الشوطين، جمع إلى الأدب العربي آداب الشعوب الأعجمية، وتضلّع من العلوم الطبيعية والرياضية والتاريخية والجغرافية والسياسية. وكثيراً ما خطب في مجلس المبعوثان بعدّة لغات ليفهم أقواله النوّاب على اختلاف عناصرهم وبلادهم لأنّه كان يحسن اللغات العربية والسريانية واليونانية والفارسية واللاتينية والإنكليزية والفرنسية والإيطالية والتركية ويلمّ بالعبرية والألمانية والروسية والهندية [1].

وعلمه وأدبه ظاهران في تعريب الإلياذة وشرحها والتعليق عليها، وخصوصاً في مقدّمتها التي تقع في مئتي صفحة كبيرة. وقد قسمها واضعها خمسة أقسام درس فيها حياة هوميروس (القرن ٩ ق.م) ونسبه وأدبه والإلياذة وقيمتها وسلامتها من التحريف. ومن المعروف أنّ بعض العلماء يزعمون أنّ هوميروس (ناظم الإلياذة) شخص وهمي وأنّ الإلياذة مجموعة قصائد متفرّقة لشعراء كثيرين ضاعت أسماؤهم. فأسهب البستاني في هذا القسم من المقدّمة واستعرض آراء هؤلاء العلماء وجادلهم وفنّد حججهم وردّ براهينهم وأبطل زعمهم. فتراجع المذهب الوولفي [2] أمام الحجّة والعلم والمنطق وظهر أنّ أتباعه – وعددهم في أوروبّا كبير – لا يستندون في مذهبهم إلى آراء تثبت أمام نور العلم الساطع.

ثمّ يقابل المؤلّف في القسمين الأخيرين من المقدّمة الشعر العربي بالشعر اليوناني، واللغة العربية باللغة اليونانية، وجاهلية العرب بجاهلية اليونان، وملاحم العرب (الشعر الجاهلي) بملاحم الأعاجم. ويستعرض خصائص اللغة العربية واحدة واحدة "كتعدّد

---

[1] وقد انتدبته مرّة عمادة جامعة اكسفورد ليكون خطيب الحفلة السنوية.

[2] نسبة إلى وولف الالماني المتوفّى سنة ١٨٢٤.

المعاني للفظ الواحد وتعدّد الألفاظ للدلالة على مسمّى واحد". ويتكلّم على فقر اللغة العربية وغناها معاً. ويخصّ حالة اللغة في عصر الانبعاث بكلمة مقتضبة وافية. ثمّ يتنبّأ عن مستقبل اللغة والشعر، فتحقّق الأيّام بعض نبوءته قبل أن يخمد الموت أنفاسه.

ومَن يطالع مقدّمة الإلياذة يعجب بغزارة علم واضعها وبعد نظره وثاقب فكره وأسلوبه العربي الخلاّب وتعابيره البليغة وإخلاصه المجسّم للعلم والفنّ والتاريخ.

وقد عرف المجمع العلمي في أثينا قَدْر هذه المقدّمة فقرّر ترجمتها وضمّها إلى إلياذة أكبر شعرائهم. فاقترن اسم النابغة اللبناني باسم النابغة اليوناني وسُجّلا على صفحة واحدة في سفر الخلود.

ونحبُّ أن نعتقد أنّ أدباءنا المجدّدين سيرجعون يوماً إلى الصواب ويعكفون على دراسة البستاني فيعترفون بفضله على اللغة العربية وبأدبه "التوجيهي القومي"، فيرفدون أدبنا قدراً جليلاً من الفوائد تزيد لغتنا ألقاً وتوهّجاً ونماء.

(الضاد، العدد ٣/ ٢٠٠٤، ص٣-٥)



المؤرّخ الكبير جرجي زيدان

نشأ فقيراً في بيت غضب عليه "السلطان". فهجر المدرسة قبل أن يتقن دروسه الابتدائية، وأكبَّ على المطالعة والدرس ليلاً حتّى أصبح أستاذاً كبيراً ومؤرّخاً ثقة تسند إليه إدارة الجامعة المصرية مهمّة تدريس تاريخ مصر في العصر الإسلامي. ولم يلفظ النَفَس الأخير إلاّ بعد أن أصبح أديباً عالمياً ووضع حجر الزاوية في أكبر دار للطباعة العربية [١].

نشأته

هو جرجي بن حبيب، بن زيدان، بن خليل، بن شاهين، بن ميخائيل الكفوري [٢].

---

[١] استندنا في تدوين سيرة حياته إلى مقدّمة كتاب "ذكرى جرجي زيدان".

[٢] جاء في مقال لجرجي زيدان (ترى قسماً منه في مقدّمة كتاب ذكراه) أنّ والده قطن في قرية عين عنوب من قضاء

وُلد في بيروت في ١٤ كانون الأوّل سنة ١٨٦١ وتلقّى دروسه في إحدى مدارسها الابتدائية. ولم يتمكّن من الانتقال إلى غيرها ليتابع الدروس الثانوية، فغادر مقاعد المدرسة – ولمّا يبلغ الثانية عشرة من سنيه – وأخذ يساعد والده في أعماله. غير أنّ ميله الغريزي إلى العلم والأدب جعله لا يدع فرصة إلاّ استفاد منها بمطالعة ما تصل إليه يده من الكتب، أو بتقرّبه من رجال العلم.

ومع مساعدته والده في أشغاله درس اللغة الإنكليزية في مدرسة ليلية – خمسة أشهر – وكان يتابع دروسه منفرداً في أواخر الليل. وكان لا يعرف التعب ولا يكلّ من العمل، وكثيراً ما كان يصل ليله بنهاره. وانتظم في سلك جمعية شمس البرّ الأدبية فكان وجوده فيها باعثاً على تضاعف رغبته في طلب العلم. وكان يحضر اجتماعات أركان النهضة الأدبية في بيروت ويتألّم إذ يرى نفسه عاجزاً عن الاشتراك في مجادلاتهم الأدبية والعلمية أو مجاراتهم في تدبيج المقالات وإلقاء الخطب والمحاضرات. ويزداد ألمه النفسي إذ يتطلّع إلى المستقبل فيراه أسود قاتماً وسبل العلم أمامه مغلقة الأبواب، ولا مال لديه يساعده في طلب العلم في المدارس العالية خصوصاً وقد أصبح عاجزاً عن شراء الكتب ليتابع دروسه منفرداً.

لكنّ ضيق ذات يده لم يقف حاجزاً بينه وبين ما كان يطمح إليه. فعقد العزيمة على دخول الفرع الطبّي في الجامعة الأميركية غير عابئ برأي أصدقائه التلاميذ الذين أشاروا عليه بالعدول عن هذا المسلك الصعب لأنّه يقتضي وقتاً طويلاً لدرس العلوم الإعدادية لا يقصر عن سنتين فضلاً عن أربع سنوات أُخرى لدرس الطبّ. ودرس العلوم الإعدادية كلّها على أحد أصدقائه في مدّة شهرين ونصف الشهر حتّى آن افتتاح المدرسة، فتقدّم للامتحان ونجح ودخل كلّية الطبّ، ونال شهادات الامتياز في السنة الأُولى مع أنّه كان يتعاطى أشغالاً خاصّة تساعده على النفقات.

"وحدث في أثناء السنة التالية في المدرسة ما حمله على الخروج منها مع معظم التلاميذ". وسافر إلى وادي النيل ليتابع دروسه الطبّية في مدرسة القصر العيني. لكنّه

عاليه بلبنان ولا يعلم إلى أية أسرة ينتسب. ونحن نعلم أنّ زيدان هو أحد فروع أسرة الكفوري العديدة. انظر كتاب "الغرر الدرّية في تاريخ الأسرة الكفورية" للخوري بطرس الكفوري.

صرف نظره عمّا ذهب لأجله، وتولّى – بعد وصوله – إنشاء جريدة الزمان، وهي حينئذٍ الجريدة اليومية الوحيدة في القاهرة.

وفي سنة ١٨٨٤ سارت الحملة النيلية إلى السودان لإنقاذ الجنرال غوردون باشا. وذهب زيدان برفقتها مترجماً بقلم المخابرات. فشهد المواقع وقاسى الأهوال. وبعد مضيّ عشرة أشهر عاد مع الحملة إلى مصر فنال ثلاثة أوسمة مكافأة له على خدمته وشجاعته [٢].

وعاد إلى بيروت ١٨٨٥ فدرس فيها العبرانية والسريانية من اللغات الشرقية وانتُخب عضواً عاملاً في المجمع العلمي الشرقي.

وسافر إلى إنكلترا ١٨٨٦. وبعد رجوعه إلى القاهرة تولّى إدارة أشغال مجلّة المقتطف. ثمّ استقال وانصرف إلى الدرس والتأليف. وفي شهر أيلول ١٨٩٢ أصدر مجلّة الهلال وتولّى كلّ أمورها إدارة وتحريراً ومراسلة إلخ. حتّى إذا ما اتّسع نطاقها عهد بإدارتها إلى شقيقه متري واستخدم غيره للأعمال الأُخرى وانقطع هو إلى إنشاء المقالات وتأليف الكتب التي كانت حجر الزاوية في بناء النهضة التاريخية الأخيرة.

أمّا مجلّة "الهلال" فقد كانت أوسع المجلاّت العربية انتشاراً. وهي أوّل مجلّة عربية قرّرت إدارات المدارس المصرية وضعها بين أيدي طُلاّبها. وأوّل مجلّة أكثرت من الأبحاث الشرقية العربية الإسلامية، ومن المواضيع الأخلاقية الفلسفية الاجتماعية. وأوّل مجلّة فتحت باباً للنقد والتقريظ. وأوّل مجلّة أبطلت نعوت التفخيم المبتذلة. وأوّل مجلّة شُيِّدت لها دار خاصّة دُعيت باسمها تصدر عنها كلّ يوم من أيّام السنة جريدة أو مجلّة. "الهلال – المصوّر – كلّ شيء – الدنيا المصوّرة – الكواكب – Images".

زيدان المؤرِّخ إمام مؤرِّخي العرب والإسلام بلا منازع

لقد استند زيدان إلى ما وضع المؤرّخون السابقون من المؤلّفات التاريخية، ولكنّه بحث فيها ودقّق ودرس ومحّص وأخرج منها سلسلة كتب تاريخية مفيدة تسمو على ما تقدّمها بما فيها من درس وتمحيص ودقّة وتحليل. وإنّ مَن يطالع كتب زيدان ويطالع

---

[٢] وضع أحد الأدباء رواية "البطلين" وجعل بطليها المترجم والجنرال غوردون.

كتب المؤرّخين قبله لا يسعه إلاّ الاعتراف بفضله على التاريخ والإقرار بأنّه عانى من المشاقّ في وضع كتبه هذه ما لم يعانه مؤرّخ من قبل، وأنّه اختطّ طريقاً خاصاً للمؤرّخين من العرب في تقسيم التاريخ وترتيبه يشهد بأنّه كان من خيرة مؤرّخي العرب وأطولهم باعاً في انتقاء الموضوعات الاجتماعية التي لم يسبقه إلى التخصّص بمثلها أحد من مؤرّخينا الأقدمين.

يقول المؤرّخ **رفيق بك العظم** في مقال له: "إنّني عانيتُ من تاريخ العرب ما يعانيه المؤرّخون، وعرفتُ من صعوبته ما لم يعرفه إلاّ مَن عانى ما عانيت من المشقّة في انتقاء الحوادث والأخبار فلم أرَ أحسن من الأسلوب الذي اتّبعه **زيدان** في كتبه ولا أدقّ ترتيباً للموضوعات واختياراً للحوادث خصوصاً فيما يتعلّق بالمدنية الإسلامية. فحقّ على كلّ مؤرّخ بالمعنى الصحيح أن يعترف بأنّ **جرجي زيدان** مؤرّخ بالمعنى الصحيح وأنّ له فضلاً على التاريخ العربي ببيان لم يُسبق إليه. آثار المدنية العربية وتاريخها. وينبغي أن يذكر له ما عرف التاريخ".

وسارت شهرة **زيدان** وعمّت العالم وهو في الثلاثين من سنيه. فراسله المؤرّخون والعلماء من شرقيين ومستشرقين. وجاء يوماً أحد هؤلاء لزيارته، ولمّا رآه سأله: أأنت **جرجي زيدان**؟ أجاب: نعم. فقال ما أبعد صورة شخصك المرسومة في مخيّلتي عن شخصك الحقيقي.. كنت أنتظر أن أرى رَجلاً شيخاً، ذا لحية بيضاء لأنّ مَن يطّلع على مؤلّفاتك لا يقدّر عمرك بأقلّ من ثمانين سنة!

وكان له بين أدباء مصر وعلمائها مقام رفيع. وكان أكثرهم يُقرّون بزعامته الأدبية، ويُكبرون فيه تواضعه وثقته بنفسه معجبين بتفوّقه وإقدامه. وكان **زيدان** إذا ما دعا إلى أمر أو مشروع يزيد مصر ثقافة وتقدّماً ومجداً، رأى جميع أبناء وادي النيل يسيرون وراءه، مصفّقين مؤيّدين مشجّعين، يشهد بذلك تأييد مصر له يوم أخذ ينشر المقالات في **الهلال** داعياً فيها إلى إنشاء الجامعة المصرية. وأُنشئت الجامعة المصرية وفرح **زيدان** بها، لكنّه لم يثمل بخمرة الفرح والسرور بعد تحقيق اقتراحه، بل نظر في أمر الجامعة بعين الاهتمام ورأى في برامجها نقصاً، فانتقد خطّة التدريس وقلّة العلوم المقرّرة فيه. واتّفقت كلمة أدباء مصر مرّة ثانية على تأييد **زيدان** في انتقاده. فاهتمّ مجلس إدارة

الجامعة بملاحظات زيدان وقرّر إضافة كثير من العلوم التي ذكر حاجة البلاد إليها، وأرسل نخبة من الشبّان لتلقّي العلوم في أوروبّا ليعودوا ويعلّموها في الجامعة.

لكنّ مصر التي كان زيدان قائداً في نهضتها وعاملاً قوياً في بناء مجدها العلمي الأدبي، انقسمت شطرين يوم جاء دَور مكافأة العاملين المخلصين وتقدير القادة اللامعين.

في سنة ١٩١٠ قرّر مجلس إدارة الجامعة المصرية إنشاء كلّية آداب يدرّس فيها تاريخ مصر في العصر الإسلامي، ولم يجد مجلس إدارة الجامعة، غير زيدان أستاذاً جديراً بتدريس هذه المادّة فوجّه إليه الرسالة التالية: [٤]

الجامعة المصرية

في ١٦ يونيو ١٩١٠ نمرة ٣٠٢

حضرة المحترم جرجي أفندي زيدان

أتشرّف بإحاطة حضرتكم علماً أنّ مجلس إدارة الجامعة المصرية قرّر إنشاء كلّية آداب تبتدئ الدراسة بها في العام القادم، وأن يكون من جملة العلوم التي تدرّس فيها "تاريخ الإسلام وخصوصاً مصر الإسلامية". وقرّر منح الأستاذ الذي يسند إليه تدريس هذا العلم راتباً قدره ٢٠٠ جنيه مصري على أن يلقي فيه أربعين درساً على الأقلّ في مدّة السنة الدراسية التي تبتدئ في شهر نوفمبر وتنتهي في ١٥ مايو.

وحيث أنّنا نرى أنّ حضرتكم خير كفء لتدريس هذه المادّة لما نعهده فيكم من سعة الاطّلاع والدراية التامّة، نودّ لو كنتم تقبلون القيام بهذه المأمورية لما فيها من المنفعة العامّة لخدمة العلم وفائدة أبناء الوطن، فأرجوكم إفادتنا عمّا إذا كنتم تقبلونها بالشروط المذكورة آنفاً. وتفضّلوا بقبول فائق احترامنا.

رئيس الجامعة المصرية بالنيابة

إبراهيم نجيب – محافظ مصر

---

[٤] راجع مجلّة الهلال، السنة التاسعة عشرة، صفحة ١٧٧، "نحن والجامعة المصرية"، بقلم زيدان.

وفي اليوم الثامن عشر من شهر يونيو أجاب زيدان مجلس إدارة الجامعة بقبول ما عرض عليه. ثمّ أخذ في عمل خمس خرائط كبيرة تعلّق بالحائط لتسهّل على الطّلاّب فهم الدروس وهي:

١- خريطة جزيرة العرب قبل الإسلام.

٢- الحجاز وتهامة في أثناء الغزوات.

٣- العراق والأهواز وضواحي بغداد وسامرّاء في أوائل الدولة العباسية.

٤- المملكة الإسلامية في القرن الثالث للهجرة.

٥- مكّة المكرّمة وما يحيط بها.

وبناءً على طلب إدارة الجامعة وضع برنامج الدروس في عدّة صفحات وأخذ في تحضير الموادّ اللازمة لها. وفي هذه الأثناء أثارت العناصر الرجعية في مصر حملة شعواء على جرجي زيدان "الأستاذ المسيحي اللبناني في جامعة مصرية إسلامية". واضطرّت إدارة الجامعة إلى النزول عند إرادة المعارضة وفصلت زيدان عن الجامعة - قبل أن يدخل إليها - وسطّرت بيدها مرغمة صفحة جديدة سوداء في سجلّ التعصّب الديني في الشرق! لكنّ زيدان لم يحرم أقلاماً مشرعة كالرماح توجّه إلى خصومه وحسّاده وكان المنفلوطي من أشدّ فرسان هذا الميدان [٥].

واحتمل زيدان ما لم يحتمله أديب غيره في الشرق من انتقادات المتعصّبين وتحامل المدّعين العلم. وكان يقابل الانتقادات الشديدة على مؤلّفاته بابتسام ولا يجيب عليها غالباً. وإذا فعل كان ردّه مختصراً مفيداً يشفّ عن نفس كبيرة وخلق رضي "ولا جواب عندنا - يقول في الهلال سنة ٢٠ صفحة ٥٦٢ - على المطاعن غير المواظبة على العمل الذي وقفنا له حياتنا بما يطمئنّ إليه ضميرنا في الخطّة التي رسمناها لنفسنا منذ وضعنا يدنا على المحراث لا يهمّنا إلاّ خدمة جمهور القرّاء ورضى نخبة الأدباء وخاصّة العلماء وهذا ميسور حاصل والحمد لله".

وبعد ذكر شهادة المؤرّخ رفيق بك العظم أراني في غنىً عن القول إنّ لزيدان فضلاً

---

[٥] تجد مقالاً جميلاً في هذا الموضوع في (النظرات) عنوانه: جرجي زيدان.

عظيماً على التاريخ والأدب، فقد سلك طريقاً وعراً مظلماً، وجده مَن سار عليه وراءه – وكلّنا على هذا الطريق سائرون – معبّداً مناراً. جاء زيدان والآثار التاريخية مبعثرة لا ترتيب في ما تركه السلف منها ولا وحدة، فأصبحت بعده قريبة التناول، سهلة المأخذ، لا نرى شبيهاً لها في الآثار التاريخية السابقة، وقد ساعده على بلوغ هذه النتيجة الموفّقة جدّه وإطالة نظره وثاقب رأيه وتضلّعه من اللغات: العربية، الإنكليزية، الفرنسية، السريانية، العبرانية، مع إلمام بسائر اللغات الشرقية.

جاء في مقدّمة كتاب "ذكرى جرجي زيدان" أنّه كان إذا رأى حاجة إلى لغة انكبّ عليها حتّى ينالها. كما فعل لمّا أخذ في درس الموادّ الشرقية، فرأى حاجة إلى الاطّلاع على ما ألّفه الألمانيون في آثار العرب وآدابهم، فدرس هذه اللغة بنفسه، وبعد بضعة أشهر أصبح قادراً على فهم ما يقرؤه منها.

زيدان والقصّة

وبعث زيدان القصّة من مرقدها وهو ينشئ التاريخ العربي الإسلامي – في ثماني عشرة رواية فريدة في بابها – فكان أسمى المنشئين القصصيين وأعلاهم كعباً في أواخر القرن التاسع عشر وأوّل القرن العشرين.

وقصص زيدان – وإن لم يتوفّر فيها الأسلوب الروائي الفنّي وقوّة الارتباط في الحوادث – تعدّ، بحقّ، نواة التأليف القصصي في عهد الانبعاث وقبلة المنشئين القصصيين العرب. ومن واجب الباحث المنصف أن يذكر زيدان في مقدّمة القصصيين إذا ما تحدّث عن القصّة في اللغة العربية وعن أمرائها المجلّين، إذ لم يظهر بين الناطقين بالضاد – قبل القرن العشرين – كاتب قصصي إلاّ وزيدان أعظم منه. وهذه حقيقة يجهلها أو يتجاهلها بعض مَن يحاولون حصر كلّ الألوان الأدبية في القصّة.

زيدان وتاريخ الأدب العربي

لا يقدّر أثر زيدان في تاريخ الأدب العربي غير مَن تفرّغ لتدريس الأدب العربي سواء أكان في المدارس الثانوية أم في كلّيات الأدب. ولنا رأي في فضل زيدان على الأدب العربي والأدباء كافّةً سبقنا إلى الإشارة إليه (في جريدة "العاصفة" العدد الأوّل –

السنة الأولى) **بطرس البستاني** أستاذ الآداب العربية في مدرسة الحكمة وفي مدرسة الفرير في بيروت، فآثرنا الاستناد إليه في هذا البحث. قال:

وكانت له (لزيدان) يد بيضاء على التاريخ الأدبي. أحبّ اللغة فتوفّر على دراسة آثارها الأدبية، فرأى فيها كنوزاً مرموقة فنفض عنها عفار الأجيال، وأخرجها في أربعة مجلّدات، تبتدئ من العصر الجاهلي وتنتهي في ختام القرن التاسع عشر. فجاءت واعية للآداب على تطوّرها، واختلاف عصورها وما رافقها من علوم وفنون. فغير عجيب أن يصبح هذا الكتاب قدوة لما جاء بعده من كتب الأدب، فإنّ صاحبه قد سبق إلى أشياء لا غنى لمؤرّخ الآداب في عصرنا عن اقتفاء معالمها. فهو أوّل مَن درس الآداب بحسب عصورها وأوّل مَن قسّم الأعصر العبّاسية أربعة، وجعل عصر الانحطاط قسمين مغولياً وعثمانياً. ثمّ وضع بعده عصر النهضة والانبعاث، فهذا التقسيم ما برح هداية لمؤرّخي الآداب. وإن خالفه بعضهم فجعل العصر العبّاسي قسمين، وعصر الانحطاط عصراً واحداً، فليست العبرة في التصرّف بأجزاء مقسّمة. وإنّما العبرة في الإقدام على تقسيمها وهي جسم واحد لا انفصال له إلاّ في قولهم: جاهلي ومخضرم وإسلامي ومولّد ومحدث.

والدكتور **طه حسين**، على وافر أدبه، لا يجد بدّاً من التوكّؤ على زيدان في دراسة العصور، وإنّك لتتبيّن آثار هذا التوكّؤ في "**ذكرى أبي العلاء**" ثمّ تجده في "**المجمل**" وهو مختصر لتاريخ الآداب العربية تواطأ على تأليفه ستّة من الأدباء بينهم الدكتور.

وإن يكن الدكتور **طه حسين** بارع الفنّ في بحوثه الأدبية على ما يشوبها من نقص وتورّط فقد كان له من زيدان مشكاة يستنير بها في طريقه الوعر. وربّ قبس تستوضحه يقيل عنك العثرات في دياجير الظلام!

مؤلّفات زيدان واللغات التي نُقلت إليها

تاريخ مصر الحديث (جزءان) – تاريخ التمدّن الإسلامي (خمسة أجزاء) – تاريخ العرب قبل الإسلام – مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر (جزءان) – تاريخ آداب اللغة العربية ومختصره (خمسة أجزاء) – تاريخ الماسونية العامّ – تاريخ اللغة العربية

– أنساب العرب القدماء – علم الفراسة الحديث – طبقات الأُمم – عجائب الخلق – الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية.

وقد تُرجم الكتاب الأخير إلى اللغة التركية. كما أنّ تاريخ التمدّن الإسلامي نُقل إلى اللغات الأوردية – الهندستانية والتركية والإنكليزية والفرنسية والفارسية.

وله سلسلة روايات "في ثماني عشرة رواية" نُقل بعضها إلى عشرات اللغات. وله روايات غير تلك السلسلة منها: المملوك الشارد، وأسير المهتدي، تُرجمتا إلى الروسية والألمانية والفرنسية ولغة التاميل.

مجموع مؤلّفاته أربعة وثلاثون كتاباً في خمسة وأربعين مجلّداً عدا مجلّدات الهلال من سنة ١٨٩٢ – ١٩١٤(سنة وفاته).

هذا نابغة درس على نفسه وكان من أثره ما علمت!

(الضاد، العدد ٢/ ٢٠٠٤، ص٣–١٠)



فيلسوف الفريكة
أمين الريحاني

كان لبنان قبل أن تنطلق فيه رصاصة ١٣ نيسان ١٩٧٥، جنّة الشرق العربي، ونعيم عشّاق الحُسْن والماء الصافي والهواء العليل المنعش، وملاذ الظامئين إلى العدالة، والراغبين في الأمن والطمأنينة والاستقرار، والحياة الثرية الناعمة.

كان منارةً للحرّية، ومنارةً للفكر، ومركزاً عالمياً للأدب. فيه تصدر أثمن الكتب وأُمّهات الصحف، وفي جامعاته ومعاهده يتخرّج حملة العلم، وأساتذة المستقبل.

كان يُقال بحقّ: "هنيئاً لَمن له مرقـد عنـزة في لبنـان". فقـد كـان لبنـان في الأمـس القريب غير لبنان اليوم. كان فيه فحـول الـشعراء، وأكـابر الكتّـاب والأطبّـاء والمحـامين والمجاهدين في سبيل الله والوطن والعروبـة. ولم تكـن هـذه النغمـة التعـصّبية المقوتـة مـعروفةً فـيه. بـل كان شعاره كلمـة الملـك **فيـصل بـن الحـسين**: "الـدين لله والـوطن للجميع". فالدين علاقة بين الخالق والمخلوق، والعيش بـين المـواطن وأخيـه يقـوم علـى الخلق الكريم، والمحبّة المتبادلة والتعامل النزيه بين أفراد الشعب.

هكذا بقي لبنان مئة سنة ونيّفاً، مرتعاً للصفاء، ومعقلاً للإخاء، ومقرّاً للرخاء، فماذا عراه الآن، حتّى تنكّر الأخ لأخيه، وخان الصديقُ صديقه، ولم يعد يعرف الجار جاره؟

لقد استكثر الاستعمار أن يرى أجنحة السلام ترفرف على إحـدى جنّـات المعمـور، فحمل إليها النار والدمار، وزرع فيها تلـك الآفـة الـسامّة القاتلـة: "فـرّقْ تـسُدْ". ومـن المؤسف أن نجد مَن يصغي في لبنان إلى هذه الكلمة الشيطانية المهلكة.

تَذَكُّرْنا أمين الريحاني

كثيراً مـا تَـذَكُّرْنا ونحـن نـرى هـذه المآسـي المروّعـة، فيلـسوف الفريكـة **أمـين الريحاني**. فقد كـان – رحمه الله – رسول حـبٍّ ووئـام وسـلام، وكـان يكـره التفرقـة، ويمقت العنصرية والطائفية. وفي مقال له خصَّ به مجلّة (الضاد) عام ١٩٣٦ يقـول: "في ضعف الطوائف قوّة الوطن، وفي التفكّك الطـائفي تحقيق الآمال القومية. والحكومة الـتي تقيس عدلـها بمقياس طائفـي، لا بمقياس العـدل المطلق، هـي حكومـة بائـدة، وإن طـال يومها أو نومها" [١].

كان **الريحاني** أديباً عالمياً، وكان من رفاقه **ميخائيل نعيمـة** و**جـبران خليـل جـبران** و**ندره حداد**. وقد أسهم في إنشاء (الرابطة القلمية) في نيويورك عام ١٩٢٠ ولكنّه لم ينتمِ إليها رسمياً لكثرة أسفاره. فقد جاب العديد من أصقاع العـالم، وزار الجزيـرة العربيـة، ونام على رمال الدهناء، وقابل نخبةً من ملوك العرب، وحظـي بـإكرامهم، وحمـل مـنهم أجمل الـهدايا التذكارية.

---

[١] مجلّة الضاد، العدد المزدوج ٩ و١٠/١٩٣٦، صفحة ٤٠٢.

كيف زار أمين الريحاني حلب

كان **الريحاني** صديقاً للمحامي الإنساني الكبير الأستاذ **فتح الله الصقّال**، وقد لقيه مراراً في لبنان، ودعاه لزيارة حلب، فلبّى الدعوة، وجاءها في مساء يوم الخميس ١٣ تمّوز ١٩٣٣ وحلّ ضيفاً كريماً على صديقه **الصقّال**. وكان والدي يومئذ أميناً لمكتبه، ومحرّراً في مجلّة (الكلمة). وكان عليه أن يرافق الضيف العزيز، وأن يشارك في حفل التكريم الذي أقامه له مضيفه في حديقة منزله مساء يوم الاثنين الموافق ١٧ تمّوز من العام نفسه. ومنذ ذلك الحين توطّدت بين **الريحاني** وبين والدي صاحب الضاد، أواصر الودّ والتفاهم الروحي الوثيق، وأخذا يتبادلان الرسائل على نطاق واسع. وما زلت أحتفظ حتّى الآن في أرشيف الضاد، بمجموعة فريدة من رسائله المنطوية على آراء قيّمة في الفكر والأدب، وعلى نظريات وخطوات سديدة في الوطنية والعروبة، وفي محاربة التعصّب الطائفي والالتفاف حول المبدأ الوحدوي، الذي ينادي به أحرار العرب، والذي استشهد من أجله كثير من الشرفاء والمناضلين.

وادي الفريكة

يصف **الريحاني** وادي الفريكة فيقول: "وادي الفريكة مهيب وجميل، غير أنّ هيبته أكثر من جَماله، وهو عميق ملتوٍ، ينحدر من قرية صغيرة، ليغسل رِجليه في نهر الكلب".

على كتف هذا الوادي بيت من الحجر، وُلد فيه **أمين الريحاني**، في اليوم الرابع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٨٧٦. وكان اسم أبيه **فارس أنطوان الريحاني**، واسم أُمّه **أنيسة طعمة**. وقد درس في صغره الأبجدية والمزامير، في مدرسة كانت تقام تحت شجرة زيتون، بالقرب من كنيسة القرية، ثمّ تعلّم القراءة والكتابة في مدرسة أسّسها **نعوم مكرزل** في قرية عين عار. وانتقل بها بعد حين إلى الفريكة.

أمين الريحاني في نيويورك

عندما بلغ **أمين** الثانية عشرة، سافر مع عمّه **عبده الريحاني** إلى نيويورك، فوصلا إليها في صيف سنة ١٨٨٨. وهناك دخل **أمين** مدرسة ابتدائية صغيرة، ليتعلّم فيها مبادئ اللغة الإنكليزية. وبعد نحو سنة، جاء أبوه **فارس** إلى مدينة ناطحات السحاب وأسّس

فيها مع أخيه عبده محلاً تجارياً جعلا أميناً كاتباً ومحاسباً فيه.

ولم يرتح أمين لـهذا العمل، فدخل مدرسةً ليلية تابع فيها دراسـته الإنكليزيـة، ثـمّ انخرط في سلك فرقة تمثيلية. كما انتسب إلى كلّية الحقوق في نيويورك. وبقيَ فيهـا سـنةً واحدة مرض في نهايتها. فنصحه أطبّاؤه بأن يرجع إلى موطنه، فعاد في صـيف ١٨٩٨ إلى قريته الـهادئة الوادعة، حيث استرجع صـحّته وعـاوده نـشاطه. فـدخل مدرسـة قرنـة شهوان، يُدرّسُ فيها لغة شكسبير، ويدرُسُ لغة الضاد. ويستعرض في أوقات راحته ثمار قرائح مشاهير شعراء العرب وكتّابهم وفلاسفتهم. فاستهوته آثـار أبـي العـلاء المعـرّي، ولمس في أشعاره نزعة فلسفية يسودها التشاؤم، وتتعانق فيها حقـائق الوجـود. فأحـبّ هذا الشاعر الفيلسوف، الذي عالج كثيراً من المشكلات الاجتماعية. بجرأة نادرة، وتحليـل عميق ودقيق، لم يكن مألوفاً في ذلك الزمن.

وفي عام ١٩٠٢، عاد أمين إلى نيويورك، وشرع يعمـل في حقـل التـأليف والترجمـة. فذاع صيته في منتديات العلم، ومحافل الأدب. ودُعيَ إلى الخطابة بالعربية والإنكليزيـة، في أعظم جامعات أميركا وأنـديتها. وتناولـت كبريـات الجرائـد والمجـلاّت خطبـه بـالتقريظ المستحبّ، وأشـادت بموهبتـه الفائقـة، ونـشرت في صـفحاتها الأُولى، صـوره وكلماتـه المأثورة. وكان عنوان أوّل خطـاب ألقـاه هنـاك "التـساهل الـديني" وأوّل كتـاب طبعـه "منتخبات من لزوميات المعرّي" ترجمها الأمين إلى الإنكليزية شعراً.

لم ينسَ الأمين وطنه وعروبته

ولم ينسَ الريحاني – وهـو في أوج شـهرته – وطنـه العربـيَّ الجميـل، ولا رفـاق طفولته الذين كانوا يركضون وراءه ويركض وراءهم، بين الحقول النضرة، وعلى مناكب الجبال وجباه الـهضاب، بل كان شديدَ الحنين إلى أهله وعشرائه، كثير الشوق إلى نسمات لبنان المنعشة، ونفحاته العنبرية المحبّبة، ومناظره الطبيعية البهية. ولـذا، رجـع إليـه، ثـمّ غادره إلى أميركا، ثمّ عاد إليه للمرّة الثالثة، ثمّ برحه إلى العالم الجديد.

وبقي، هذا شأنه، حتّى عام ١٩٢٢، حين عاد إلى مسقط رأسه، ومنه انطلق إلى شـبه الجزيرة العربية في سياحة طويلة دامت سـنة ونـصف الـسنة، طـاف خلالــها بـالعراق والحجاز ونجد واليمن، وألّف بعدها كتابه النفيس "ملوك العرب".

زيارة صاحب الضاد لوادي الفريكة

في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٣٥ كان **عبد الله يوركي حلاّق** في منزل كبير مؤرّخي العرب الأستاذ **عيسى إسكندر المعلوف** صاحب مجلّة (الآثار) المحتجبة، ووالد الشعراء: **فوزي وشفيق ورياض المعلوف**. وكان معهم شاعر البردوني **حليم دمّوس ورياض المعلوف**. وكان ذلك اليوم عيد مولد **أمين الريحاني** فركبوا سيّارة من بيروت إلى الفريكة حيث وقفوا أمام داره المضطجعة على كتف ذلك الوادي السحيق الرائع، والمحدّقة ليل نهار إلى جبل صنّين الشامخ المطلّ عليها بإعجاب.

وخفَّ إليهم **الأمين**، ورحّب بمقدمهم أحسن ترحيب، وأجلسهم في صدر المكان. وكانت صالة الاستقبال مزدانة بالتحف النفيسة التي أهداها إليه ملوك العرب، وأمراء الجزيرة العربية، وجماعة من مشاهير العلماء والسيّاح. ففي صدر الصالة عُلّقت صور تمثّل بعضاً من ملوك العرب. وعلى الجدار الثاني انتصبت قطعة من ستار الكعبة مزركشة بالذهب الخالص. وعلى الجدار الثالث عُلّقت بعض لوحات زيتية فنّية قدّمها إلى **الريحاني** جماعة من الرسّامين الأميركان. وازدان الحائط الرابع بسيفين بديعين أحدهما نصله من الجوهر الثمين النادر، وغمده وقبضته وسلسلته من الذهب الإبريز. ويقول الأستاذ **الأمين**، إنّ الأمير **ابن السعود** قد ورث هذا السيف الذي أهداه إيّاه من أجداد أجداده.

وهناك بعض التحف القيّمة، بينها زجاجة مملوءة برمال الدهناء التي كان يرقد عليها فيلسوف الفريكة أيّام رحل إلى الجزيرة العربية. وكانت بين الأشياء التي وقع نظرهم عليها، صورة تمثّل الكاتبة العربية الشهيرة الآنسة **مي زيادة**. وكانت تحجّ إلى هذا المنزل الرحب المضياف كلّما زارت لبنان. والمعروف أنّ **أمين الريحاني** وقف إلى جانبها موقفاً مشرّفاً في محنتها، وبين الاثنين رسائل ودّية تستوعب كتاباً كاملاً.

الريحاني خطيب ومفكّر كبير

الذين عرفوا **الريحاني** وسمعوه يخطب ارتجالاً يؤكّدون أنّه سيّد الخطابة، وأمير المنابر. في كلماته العاطفية المتّزنة، درر البلاغة، وروائع البيان، وزبدة التفكير. وفي عظاته

الاجتماعية، نظرات فلسفية، وقطرات تنشق فيها عبير الصدق والإصلاح. تسمع خطبه الحماسية، فيخيَّل إليك أنّ ألفاظه القومية حمم ملتهبة يقذفها بركان هائج، أو قنابل مدمّرة يلقيها مدفع جبّار. وتصغي إلى رسالته الوطنية، فتحسبها آيات بيّنات، يسكبها في أذنيك وقلبك رسول اصطفاه الله ليجمع العرب، كلَّ العرب، تحت أفياء التعاون والإخاء.

مدارسنا ورأي الريحاني فيها

كان **الريحاني** يرى مدارسنا تسقي طُلاّبها لبان العلم في كأس التمويه، وتشوّه أمامهم محاسن السلَف. وكان يسمع الأُمّهات اللبنانيات يخوّفنَ أولادهنَّ الصغار بالبدوي، ويهدّدونهم بالأعرابي راكب الجمَل. فأصبح بعد هجرته واختلاطه بأرقى أُمم المعمور، يفاخر بأبناء جنسه، ويقدّر في سكّان البادية، مكارم الأخلاق، وما يتّصفون به من حَميّة ونجدة ومروءة.

هناك في العالم الجديد، لا يعرف الجار جاره حتّى في البناية الواحدة، ولا يزور الأخ أخاه إلاّ مرّةً أو مرّتين في السنة. فكلٌّ يجري وراء المادّة، وكلٌّ عبد للأصفر الوهّاج. يعفّرون جباههم بتراب المطامع، ولهذا علينا، نحن الشرقيين، أن نتمسّك شديداً بروحانية الشرق، ونعتصم بمُثُله العُليا، فتغدو المادّة عرضاً لا جوهراً. وبذلك نتخلّص من عبودية المال، ونحلّق بأجنحة من نُور في عوالم الخير والفضيلة والإنسانية البعيدة عن المغريات الدنيوية.

الريحاني يريدنا أن نتذكّر دائماً. أنّ الكفن لا جيوب له، وأنّ الإنسان لا يأخذ معه إلى العالم الآخَر إلاّ ما عمله من صالحات وما أتاه من حسنات. ومع ذلك، فإنّ سمعته بين الناس تبقى معطّرة بأريج الذكرى الخالدة.

كان **الريحاني** ينفذ بعقله الثاقب إلى لبّ الدين – فيراه محبّةً وبذلاً وتضحية، لا طقوساً ومجامر ومباخر، ولا قرعاً على صدور بين حناياها الحقد والطمع والفساد، ولا أدعية وصلوات تتصاعد من أفواه نَخَرَ أسنانها سوس النميمة، وسلقت ألسنتها أعراض المحصّنات القابعات في بيوتهن، والعاملات بجدّ وإخلاص على تربية أبنائهنّ وإعدادهم لخدمة الله والوطن والبشرية.

كان **الريحاني** يرى الله في وجه المحسن الكريم، وعلى ساعد العامل النشيط، وفوق ميزان البائع القانع بالربح الحلال، وفي حسابات التاجر الساعي إلى إنعاش اقتصاد بلاده، لا إلى تكديس المال الحرام في خزائنه الحديدية.

فلسفة الريحاني

وهكذا كانت تقوم فلسفة **أمين الريحاني** على الزهد والعطاء ونكران الذات واحترام حقوق الأفراد والجماعات ومناهضة الاستعمار بجميع أشكاله وأسمائه وأساليبه ومغرياته. كان يقول لفرنسا: احملي عصاك وارحلي، ودعينا على ما كنّا عليه من بَساطة في العيش، والتفكير في بناء مستقبلنا بأيدينا، فنحن أهل حضارة باذخة، وتراث علمي وفنّي ثمين. من أرضنا الشرقية انبثقت الأديان السماوية، وصدرت الشرائع الاجتماعية والحقوقية. وإذا كان الاستعمار العثماني قد سيطر على بلادنا نحو أربعة قرون تمكّن في خلالها من تخديرنا بمورفين الذلّ والانقسام، فقد استيقظنا اليوم، وعاد إلينا وعينا، وبتنا نملك من العلم والشجاعة والإقدام، ما يجعلنا أحراراً قادرين على تسلّم دفّة سفينة وطننا، وإيصالها إلى شاطئ الأمان.

الريحاني يدافع عن القضايا العربية

لم يعرف القرن العشرون، كاتباً دافع عن القضايا العربية العادلة، دفاع **الريحاني** عنها. فقد وقف وقفة الليث الهصور، وراح يطالب بحقوقنا المشروعة، حتّى عقدت من حوله قلوب أحفاد **قحطان** و**غسّان** معاً، وحتّى ضفرت له يد التاريخ العربي الحديث، إكليلاً من غار الإجلال والإكبار.

كان يحدّث الأميركيين بلغتهم، عن حضارتنا العربية، وعن علمائنا ومفكّرينا وأطبّائنا، الذين حملوا مشاعل المدنية من الشرق إلى الغرب، أيّام كانت أوروبّا تتخبّط في عباب الفوضى والانحطاط، وأيّام كانت أميركا محتجبة وراء ستار صفيق من جهالة الإنسان. وكثيراً ما كان يردّد عليهم ما قاله في العرب، عظماءُ الفلاسفة والمفكّرين والكتّاب الغربيين المنصفين من أمثال: **ديكارت ولبري ورينان وسيديو وماسينيون وغوستاف لوبون وأناتول فرانس وجون مسبرك وفرنسيسكو فيلاسباسا وبول كاباني**

وألبير شاندور وغيرهم.

ومثلما ينتصب المحامي الجريء النزيه في قاعات المحاكم، ليدافع عن موكّله المغبون، هكذا كان ينتصب **الريحاني**، على منابر الجامعات والمحافل الأدبية والسياسية في نيويورك، ليدافع عن قضايانا وحقوقنا، بكلّ ما أوتي من جرأة وحَميّة وقوّة جنان، وطلاقة لسان.

كان **الريحاني** يجد أنّ السيادة لا تكون إلاّ للعقل، وأنّ التفاضل لا يتمُّ إلاّ بالمآثر والمبرّات، وأنّه لا يجوز أن يُرفع امرؤ على آخَر ويُفضّل بغير عقله ونفسه وأدبه وأخلاقه، وأنّ الشعوب المغلوبة على أمرها، ليست قطعاناً من الماشية يسوقها رعاة البقر، أو يسرق خيراتها قراصنة البحار، إنّها شعوب ذات ماضٍ مجيد، لها حقّها في الحياة الحرّة الكريمة.

الريحاني رسول الحقّ ورمز النبوغ

كان **الريحاني** رسول الحقّ ورمز النبوغ، يسكب عصارة دماغه، ويذوّب خلاصة مهجته في كأس الأدب، ليسقي أبناءَ الحياة شراباً طهوراً، يفتح أعينهم على آفاق الحقيقة، ويوقظ فيهم روح الأمل والرجاء، والثبات على المكاره، ويجعلهم أقوياء أمام تيّار المحن والشدائد.

كان **الريحاني** نبيَّ الوطنية، يحثُّ قومه على نبذ التخاذل ومحاربة الانقسام ويدعوهم إلى الانطواء تحت لواء التسامح والتعاضد الإنساني المتين، ويسير بهم في طريق الوئام والتفاهم الروحي، ليستطيعوا أن يصلوا باتّحادهم وصدق نيّاتهم إلى ذرا الوحدة المنشودة.

الريحاني عربي صميم كريم، جمعت شخصيته خلاصة السجايا العربية الكريمة، واستوعبت نفسه حكمة المتنبّي، وفلسفة المعرّي، وأرسلت براعته، صور العاطفة العذراء فتراءت في هذه الصور، عرائس الخيال، وأفانين الجَمال.

مؤلّفات أمين الريحاني

لأمين الريحاني أكثر من ثلاثين مؤلّفاً في اللغتين العربية والإنكليزية، ومن أهمّ

مؤلَّفاته (**الريحانيات**) وفيه يأسى لألم الفقير الجائع، والأرملة البائسة، والكادح الكثير العيال، ثمّ يثور بأسلوبه السهل الممتنع، وبتفكيره الدقيق العالي، على الأنظمة العتيقة البالية، وعلى العادات والتقاليد المضرّة، وعلى السيطرة التي ما فتئت تشمخ بأنفها في عصر الانبعاث العلمي، وعلى هؤلاء المتعصّبين الأغبياء، الذين يفرّقون ويدينون بالعنصرية القاتلة.

وفي (ملوك العرب) يحيط قلمُ **الأمين**، بنواحي شبه جزيرة العرب، ويصف لنا الكرامة العربية بألوانها الزاهية الفائقة، وصفاً كلّه رواء، وكلّه جلاء وإبداع. ويحدّثنا عن ملوكنا الصِّيد، وأمرائنا الصناديد، أحاديث تملأ نفوسنا رجاءً وفخراً، وتجمع قلوبنا ضمن نطاق واحد من الأخوّة القومية، وتفتح أعيننا على آفاق جديدة مشرقة بأشعّة الطموح وترقّب المستقبل الأفضل.

وفي مؤلَّفاته الأُخرى: "قلب العراق" و"قلب لبنان" و"القوميات" و"النكبات" و"هتاف الأودية" و"أدب وفنّ" و"وجوه شرقية وغربية" و"أنتم الشعراء" و"خارج الحريم" تتّضح حقائق تاريخية ثمينة، وتتمشّى خطوات فكرية عميقة، تنشق فيها عبير الفلسفة العلائية الحقيقية.

ولا عجب، فقد عاش **أمين الريحاني** في الجبل الملهم، كما عاش **أبو العلاء** في سهل المعرّة، زاهداً في الدنيا، راغباً عن زخارفها ومغرياتها، في بَساطتها وهدوئها ولبِّ حقيقتها، ومات **الريحاني** في وطنه لبنان، في الساعة الواحدة من بعد ظُهر يوم الجمعة ١٣ أيلول / سبتمبر عام ١٩٤٠، مثلما مات **أبو العلاء المعرّي**، غير آسف على حياة كلّها تعب وضلال.

وكأنّي بالفيلسوفين العربيين الكبيرين: فيلسوف المعرّة، وفيلسوف الفريكة، يتصافحان في موطن الخلود، وعلى شفة كلّ واحد منهما، ابتسامة حلوة، هي ابتسامة اللقاء الروحي الأخوي الجميل، وابتسامة الانعتاق من شقاء الحياة وعذاباتها المريرة.

(الضاد، العدد ٢٠٠٣/٩، ص٣-١١)



شاعر الهوى والشباب
الأخطل الصغير بشارة الخوري

مَنْ يجهل شاعرَ الهوى والشباب في دنيا العرب، وقد صاغ أروع معاني الحبّ والغزل في شعر جزْلٍ، هو فيض الحنان، وذوب الجنان، وسحر البيان؟

إنّه شاعرُ التجديد والإبداع، وحاملُ لواء الكرامة القومية في كلّ موقف. طلع على الفصحى بالنغم الجميل، والفنّ الأصيل، ومهر الخلودَ بالخرائد الفرائد، فكانت قوافيه المستمدّة من أسمى وأبهى مواطن الإلهام أغاني العاطفة السمحة في شفاه الغيد

الحسان، وأهازيج العزّة والفخار في مواكب المجد، وحناجر الركبان.

إنّه شاعر الرقّة والصبابة والفنون، تلمس في قصائده هيامَ **ابن الملوّح**، ووَلَهَ **ابن أبي ربيعة**. وتشعر وأنت تقرأ له، أنّك في فراديس الوجد، تنهل من كوثر الحُسْن، وترشف من كؤوس الجَمال، وتثمل بخمرة علوية تنقلك على أجنحة من زهر ونُور، إلى عوالم سحرية، تموج بأسراب الحور، وتعبق بالندّ والعنبر والبخور. إنّه كالمتنبّي، مالئ الدنيا وشاغل الناس، يدخل بشعره إلى كلّ قلب، ويهزّ بمقاطعه كلّ شعب، ويفرض حرمته على كلّ جيل، ويرود بخياله كلّ نجم وكوكب، ويعود والابتكار طوع يديه، والحكم البليغة ملء أصغريه. فهو رسول السماء إلى الأرض، وبين جنبيه فؤاد فيه من النبوءة نفحات، ومن الوحي آياتٌ بيّنات.

إنّه أحد عمالقة الشعر. وُلد في لبنان الأشمّ، ورضع لبان الإباءة والمروءة والكرم، ودافع عن العروبة بقلبه ولسانه وبيانه، وذاد عن معقل الضاد بقوّة وصلابة واعتداد، وأمطر المستعمرين ناراً حاميةً، هي نار نقمته، ولهب قريضه. وفي الشعر الوطني المنبعث من قلب الشاعر المؤمن بحقّ أُمّته وقُدْسية وطنه، قوّة عنيفة كاسحة، تتضاءل أمامها قوى المدمّرات والقنابل.

إنّه أحد عمالقة الشعر. هذا هو **بشارة الخوري**، أمير شعراء الغزل بلا منازع، وخير من وصف نبضات القلوب، وخلجات الصدور، وهمسات المحبّين، وتأوّهات المتيّمين، وآلام المدنفين، وإطلالة القمر على العشّاق المتوارين عن عيون الرقباء والعذّال والحاسدين. فشعره من هذه الناحية، أرقُّ وأصفى ما عرفته العربية من شعرائها المولهين. هذا هو **الأخطل الصغير**، كما طاب لبعض محبّيه ومريديه أن يلقّبوه.

وعندي وعند كلّ منصف، أنّه فوق **الأخطل الكبير** شاعريةً، وقدرةً على الصياغة والتحليق. فشاعر **بني أمية**، لم يسمُ بشعره إلى ما سما إليه **أبو عبد الله**، ولم يطرف الفنّ بما أطرفه به شاعر الهوى والشباب والأمل المنشود.

والذين درسوا **بشارة الخوري** دراسةً وافيةً، يؤمنون بهذه الحقيقة النيّرة، ويرونه مثالاً حيّاً للشاعرية الفذّة والأصالة الفنّية المتدفّقة من كلّ بيت من أبياته تدفُّق الماء العذْب من الشلاّل الكريم.

والحقّ، أنّ **أبا عبد الله**، قد أضفى على القريض حلّةً قشيبة، تـزدان بهـا أُمُّ اللغـات. وأرسل من قريحته الخصبة الخلاّقة، مقطوعات تترنّم بها الملايين، وتردّدها أمواجُ الأثـير في كلّ حين. ونفخ في الغزل العربـي، روحـاً جديـدة رفعتـه إلى مـصافّ الغـزل العـالمي، وأكسبته شهرة ستبقى راسخة الدعائم عالية الأبراج، ما بقـيَ للـضاد صـوتٌ يـدوّي في آفاق الحرّية، ويدٌ تبني للحقّ والخير وللإنسانية جمعاء صروحاً باذخة.

وُلد شاعرنا في بيروت عام ١٨٨٥، وأبوه **عبد الله الخوري** من صربا قرب جونية – لبنان. كان بارعاً في تطبيب المرضى على الطريقة القديمة. وكانت لـه في هذه المهنة شـهرة واسعة درَّت عليه أموالاً طائلة.

تلقّى **بشارة الخوري** دروسه في المدرسة الأرثوذكسية، التي تتلمذ فيها شاعر الأرز **شبلي الملاّط**، ثمّ انتقل إلى مدرسة الحكمة، وأنهى دراسته الثانوية في مدرسة "الفرير".

وعلى أثر إعلان الدستور العثماني في عام ١٩٠٨، أصدر **بشارة** في أوّل أيلـول مـن ذلك العام جريدة أسبوعية سياسية سمّاها "البرق" غذاها بأدبه الرفيع، وجعلـها لـسان حال المثقّفين من أبناء جيلـه. فراجـت وانتـشرت وحملـت علـى أعـداء الحـقّ وخـصوم العروبة، فعمد أرباب الحلّ والعقد إلى تعطيلها مراراً. فأصـدر بـدلاً منهـا في عـام ١٩١٢ جريدة "صدى البرق" ليرضي بها نزعته الصحفية.

وبعد أن وضعت الحرب العالمية الأُولى أوزارها في سنة ١٩١٨، عاد فأصدر جريـدة "البرق" فكان لـها دَورها الكبير البارز في بعث الحركـة الأدبيـة في لبنـان وسـورية. وفي عام ١٩٣٠ جعلها أسبوعية خاصّة بالأدب، وأخذ يُودعها أرقّ ما تفيض به قريحتـه مـن شعر سامٍ، ونثـر بـديع. فكانـت منـبراً للأقـلام الحـرّة، والأصـوات المطالبـة بالـسيادة والاستقلال، واتّسع انتشارها لما فيها من بدائع وروائع.

بقي أن نسأل: لماذا تَسَمَّى **بشارة الخوري بالأخطل الصغير**، حتّى كاد يغلب اللقـب الاسم الحقيقي؟ يجيبنا **بشارة** نفسه عن هذا السؤال عندما زرناه في بـيروت في حزيـران ١٩٦١ قائلاً: "كانت الحرب العالمية الأُولى، ثمّ كان عهـد (**جَمـال**) [1] في سـورية ولبنـان

---

[1] هو جَمال باشا الملقّب بالسفّاح. وُلد عام ١٨٧٢ واغتيل عام ١٩٢٢ في تفليس وهي "تبيليسي" الواقعة في جنـوب غربي الاتّحاد السوفياتي. كان جَمال المذكور قائداً عامّاً للجيش العثماني الرابع. اشتهر بقسوته وظلمه. وأعدم نخبة

وهو عهد النفي والمشنقة".

ويتابع **بشارة** قوله: "وكانت الفكرة السائدة، أنّ الحلفاء سيبعثون الإمبراطورية العربية، وكانت الحاجة ماسّة إلى إثارة الخواطر في البلاد تعجيلاً ليوم الخلاص. ولم يكن ليجرؤ واحدنا ولو في الحلم أن يرسل كلمة في سبيل النهضة ولو همساً، فكيف به إذا شاء أن يرسل قصيدة يترجّع صداها؟

وكان يعجبني من **الأخطل**[٢] خفّة روحه وإبداعه في اصطياد المعاني يقودها ذليلة إلى فصيح مبانيه، وفوق ذلك، فقد كان الشاعر المسيحي الفذّ، تتفتّح له أبواب الخلائف يملؤها لذّة وطرباً وإدلالاً، بل يملؤها ذلك الشرف الذي لا يبلى، والمجد الذي لا يفنى. فرأيت وأنا أدعو للدولة العربية، وموقفي منها موقف **الأخطل** من دولة **بني مروان** أن أدلّ على حقيقة الشاعر المتنكّر، فلم أرَ "**كالأخطل الصغير**" أوقّع به ما كانت تقطره القريحة المتألّمة من شعر لم يبقَ لي منه إلاّ كبقية الوشم في ظاهر اليد".

والحقيقة أنّ **الأخطل الصغير**، كان يبدع قصائد حماسية قومية، لم يكن يجرؤ على تدوينها والاحتفاظ بها خشية الجواسيس والمحاكم العرفية. وكان كلّ ما علق بذاكرته، هذا المقطع من قصيدة طويلة جاء فيه:

الجمْ لسانكَ الجم	**فالموتُ للمتكلّمِ**
لا يسألونكَ إن أخذ	**تَ أثمتَ أم لم تأثمِ**
فالحبلُ شرٌّ مرحِّبٍ	**والعنقُ خير مسلّمِ**
والسجنُ أكرم صاحبٍ	**والنفيُ أيسرُ مغنمِ**

وبعد أن دالت الدولة العثمانية، وبدأت النهضة الاستقلالية تنمو وتشتدّ، أنشأ **بشارة الخوري** ينشد قصائد عامرة بالفكرة الوطنية.

وقد نظم قصيدة كان يودُّ إلقاءها في حفلة عزم الوطنيون على إقامتها في حمص، تأييداً للجهاد الفلسطيني ولحقّ عربي يراد اغتصابه. ولكنّ السُلطة الفرنسية منعت تلك

من أبطالنا في دمشق وبيروت وعالية.

[٢] هو غياث بن غوث التغلبي، وكنيته أبو مالك. وكان مع جرير والفرزدق من أشهر شعراء العهد الأموي. وكان الأخطل مقدّماً عند بني أُميّة.

الحفلة، فنشر الأخطل الصغير قصيدته "وردةٌ من دمنا" في مجلّة "المعرض" اللبنانية. وهذا مطلع القصيدة وبعض أبياتها:

سائلِ العلياءَ عنّا والزمانا — هل خفرنا ذمّةً مذْ عرفانا
المروءات التي عاشت بنا — لم تزل تجري سعيراً في دمانا
يا جهاداً صفّقَ المجدُ له — لبسَ الغارُ عليه الأرجوانا
شرفٌ باهتْ فلسطينُ به — وبناءٌ للمعالي لا يُدانى
إنّ جرحاً سالَ من جبهتها — لثمتهُ بخشوعٍ شفتانا
قمْ إلى الأبطال نلمس جرحهم — لمسةً تسبحُ بالطِّيب يدانا
قمْ نجعْ يوماً من العمر لهم — هَبهُ صومَ الفصحِ هَبهُ رمضانا
إنّما الحقُّ الذي ماتوا له — حقُّنا نمشي إليه أين كانا

وقد أُخِذَ على بشارة الخوري، تخاذله أمام سُلطة الانتداب الفرنسي، ولكنّه عاد إلى جادّة الوطنيّة الصحيحة، بعد جلاء القوّات الفرنسية عن ربوع سورية ولبنان، وشرع يدافع عن قضايا أُمّته بقوّة ترهب المعتدين الآثمين.

وللأخطل الصغير قصائد خمرية تذكّرنا بأبي نوّاس وعمر الخيّام. وفي قصيدة عنوانها "يا صارف الكأس" يقول:

يا صارفَ الكأس عنّا لا تضنَّ بها — ويا أخا الوترِ المكسالِ لا تنمِ
أدرْ علينا من الصهباء أفتكها — وخدِّرِ العصبَ المحموم بالنَّغمِ
قد يشربُ الخمر مَن تغلو الهمومُ به — وقد يغنّي الفتى من شدّة الألمِ

ومن أروع قصائده الخمرية واحدة بعنوان "أدب الشراب" يقول فيها:

فتنُ الجَمالِ وثورةُ الأقداحِ — صبغتْ أساطير الهوى بجراحي
وُلِدَ الهوى والخمرُ ليلةَ مولدي — وسيُحمَلانِ معي على ألواحي
يا ذابحَ العنقود خضّب كفَّه — بدمائه بوركتَ من سفّاحِ
أنا لست أرضى للندامى أن أرى — كسلَ الهوى وتثاؤب الأقداحِ
أدبُ الشراب إذا المدامة عربدتْ — في كأسها أن لا تكون الصاحي

وتتجلّى شاعرية بشارة الخوري بكلّ قوّتها وإشراقها وإبداعها في ناحيتين مهمّتين وهما: القصّة والغزل. فقد رسمت ريشة هذا الشاعر مشاهد حية من واقعنا الاجتماعي المؤلم، وخصوصاً أيّام الحرب العالمية الأولى، حين ضربت المجاعة لبنان، وقضت على نصف سكّانه تقريباً، وحين اضطرّت عشرات من العذارى والمحصّنات إلى بيع العفّة والكرامة، ليدفعنَ غائلة الجوع عنهنّ وعمّن حولهنّ من أطفال وأرامل وأيتام.

ولشاعرنا قصيدة بعنوان "١٩١٤" تقع في ١٢٣ بيتاً نظمها على بحر الرمل، والتزم فيها كلّها قافيةً واحدة. يقول الأخطل الصغير في مطوّلته الشعرية البارعة:

يا لهول الحرب في ويلاتها ... رمت الكونَ بخطبٍ جلَلِ
ولكمْ روضةِ بيتٍ ذبلت ... وهي لولا حرّها لم تذبلِ
وفتاةٍ طفلةٍ قد سألت ... أمّها: أين أبي لم يُقبلِ
فلقد طالت بنا غيبته ... وأنا اشتقتُ لتلك القُبَلِ
ولكمْ عذراء كالبدر على ... قامةٍ كالغصنِ المعتدلِ
تُلمسُ النجمةُ في مبسمها ... ويُرى ذوبُ الدُّجى في المُقَلِ
سامها الفقر، وكانت قبله ... تتغذّى بخيوط المِغْزَلِ
فأباحت ثغرها مرغمةً ... وهيَ، لولا جوعها، لم تفعلِ

وفي قصيدة ثانية، نظمها في تلك السنة وبعنوان "الفقراء – ١٩١٤" يخاطب الأغنياء صارخاً في وجوه المسكين منهم:

أيّها الأغنياء إنّ غناكم ... شيّدته سواعدُ الفقراء
ساعدوا الحرب والجراد علينا ... نحن نحيا بمعجزات السماء
لا تقولوا وساوسٌ من فقيرٍ ... دوّختهُ طوارق الأرزاء
إنّ للفقر ثورةً لو علمتمْ ... تسبحُ الناس دونها بالدماء

ومن أحسن قصائده القصصية وصفاً ومبنىً ومعنىً، قصّة "المسلول" يصوّر الشاعر فيها بمنتهى الدقّة والمهارة والفنّ الإبداعي الصادق، فقيراً مشرّداً، منحه الله الشباب والقوّة والجَمال وحرمه الأهل والمأوى والمال. تتصيّده بنت هوى، وتغريه بكلّ ما

تستطيع من فتنة ولطف ونقود. ويستسلم المسكين إليها، ويجعل شبابه وصحّته طوع يديها. وعندما تقضي على نضارته، وتذوي زهرة صباه، ويصيبه داء السلّ الخبيث، تهجره كما هجرت كثيرين من قبله، وتتركه بين أنياب الردى، حتّى ينتشله الموت ممّا يكابد من ألم المرض، وذلّة الفاقة والحرمان.

ولا بدّ لنا، ونحن نتحدّث عن هذه القصّة المحزنة، من أن نقف قليلاً أمام هذا الوصف الدقيق، الذي جادت به قريحة **أبي عبد الله الخوري**، في معرض حديثه عن ذلك البائس المخدوع:

هذا الفتى في الأمس صار إلى ... رَجلٍ هزيل الجسم منجردِ
متلجلج الألفاظ مضطربٍ ... متواصل الأنفاس مطّردِ
متجعّد الخدّين من سرفٍ ... متكسّر الجفنين من سهدِ
عيناه عالقتان في نفقٍ ... كسراج كوخ نصف متّقدِ
تهتزُّ أنمله فتحسبها ... ورقَ الخريف أصيب بالبردِ
ويمجُّ أحياناً دماً، فعلى ... منديله قطعٌ من الكبدِ
قطعٌ تآبينٌ مفجّعةٌ ... مكتوبةٌ بدمٍ بغير يدِ
قطعٌ تقول له: تموتُ غداً ... وإذا ترقُّ تقول: بعدَ غدِ

وهذه القصيدة تقع في ٦٨ بيتاً، كلّها في مثل هذه الصياغة المتينة، والصور الوصفية المدهشة المتضمّنة مواعظ قيّمة. وكم نحبُّ أن يعتبر بها أولئك المندفعون وراء اللذّات الدنيئة، والمتع المحرّمة الباطلة.

وديوان **الأخطل الصغير**، حافل بالقصص الشعرية، من أكثرها شهرة: "الريال المزيّف" و"عروة وعفراء" و"سلمى الكورانية" و"سلفين وجيروم" و"من مآسي الحرب". وكلّ هذه القصص تستمدّ عناصر موضوعاتها، من حياتنا وبيئتنا وعاداتنا، وتحتوي أجمل مقوّمات الفنّ القصصي، من حادثة وحوار وشخوص وبداية وختام ينتهي بموعظة سامية، وحكمة بليغة تدعو إلى التأمّل والاعتصام بحبل الإيمان والتوبة.

ولو شئنا أن نستشهد بما يسود قصص شاعرنا من سموّ الفكرة وبُعد الخيال،

ونقاء الديباجة، وسلامة الألفاظ، لامتدّ بنا الشرح وطال المقال. ولكنْ حسبنا أن ننتقل الآن إلى الناحية الغزلية من شعر **الأخطل الصغير**، الذي تهافت على غزله كبار مطربي عصرنا ومطرباته، وفي مقدّمتهم: **أسمهان ومحمّد عبد الوهاب وفيروز ومتري المرّ**، وكان من أشهر المطربين في العشرينيات ومن أحلاهم صوتاً. وقصيدة "بأبي أنت وأُمّي" أنشدتها **أسمهان** بصوتها الملائكي الرخيم فأبدعت وأطربت. وتغنّى **محمّد عبد الوهاب** بعدّة قصائد **للأخطل الصغير** منها: "الهوى والشباب" و"الصبا والجَمال" و"جفنه علّم الغزل"، فدعم شهرة **بشارة الخوري** ونقل، بالصوت والنغم، قصائده إلى جميع أنحاء المعمورة. أمّا المطربة الغرّيدة فيرون، فقد صدحت بهذه القصيدة الأخطلية الرقيقة:

قد أتاكَ يعتذرُ ... لا تَسَلْهُ ما الخبرُ

كما صدحت بنبراتها الخلاّبة بالقصيدة التالية:

يا عاقدَ الحاجبينِ ... على الجبينِ اللجينِ

إنّ غزل **بشارة الخوري** ذو طابع وجداني فريد، يفرض نفسه على أصحاب الذوق السليم، والقلوب المولّهة، والنفوس المتيّمة، فيشدو به العشّاق، ويلمس فيه المحبّون ما ينشدون من مناجاة المحبّين. ومن غزله الممتع قوله في قصيدة "أنا ناي الهوى":

أيّها البلبلُ المغرّدُ في اللّيـ ... ـلِ على كلّ أخضرٍ ميّادِ
سلْ ضفافَ الهوى أأنبتنَ غصناً ... كحبيبي أو طائراً كفؤادي؟
خلقَ اللهُ للهوى قبلةَ الرُّو ... حِ وراء الخدودِ والأجيادِ
أنا نايُ الهوى الذي اخترع الله ... وأنتَ الفريدُ من إنشادي

ومن جميل غزله، مقطوعة عنوانها "خيال من دُمَّر" يقول فيها:

يا عيوناً أوحتْ إلينا الغراما ... أجنوناً سقيتنا أم مُداما؟
أيّها الدَّوحُ دوحُ دمَّر إنّي ... لستُ أنسى تلك الليالي اليتامى
يا بساطَ الهوى ويا وترَ الشعر ... سلاماً، ويا شقيقَ الندامى
سألتني وكفّها فوق قلبي: ... عمركَ الله هل تحبّ الشآما؟

قلـــت: حبّـــاً زقُّ الحمامـــة للفـــرخ فلـــمْ لا نكـــونُ ذاكَ الحمامـــا؟

ومثلما أحبَّ بشارة الخوري الشآم، وناجى عيون دمَّر، وجَمال الغـوطتين، وأشـاد بأبطال دمشق، وبسالة أبناء يعرب، هكـذا أحـبَّ حلـب وأنـشد أروع مـا قالـه شـاعر في وصفها، ذكّرنا بوصف المتنبّي شاعر أميرها **سيف الدولة الحمداني**.

ففي يوم الجمعة ١٨ تشرين الأوّل ١٩٣٥ أقام التاجران الفاضلان: **محمّـد سـعيد الزعيم** والحاجّ **سامي صايم الدهر**، حفلة تكريمية **للأخطل الصغير**[٣] بمناسـبة زيارتـه الشهباء. وفي هذه الحفلة ألقى خريدته العصماء التي يقول فيها:

نفيـتَ عنـك العُلـى والظَّـرف والأدبـا	– وإنْ خلقت لــها – إن لم تـزرْ حلبـا
خذ الطريـقَ الـذي يرضـى الفـؤادُ بـه	ولا تخـــفْ فقـــديماً ماتـــت الرُّقبـــا
واسـكبْ علـى راحتيهـا روح عاشـقها	ومــصَّ مــن شــفتيها الـشعرَ والعنبـا
شهباءُ لـو كانـت الأحـلامُ كـأسَ طـلاً	في راحـة الفجـرِ كنـت الزَّهـرَ والحببـا
لـو ألّـف المجـدُ سـفراً مـن مفـاخره	لـــراحَ يكتـــبُ في عنوانـــه حلبـــا
لو أنـصف العـربُ الأحـرار نهـضتهم	لـشيَّدوا لـك في سـاحاتها النـصبا
ملاعبُ الصِّيدِ مـن حمدانَ مـا نـسلوا	إلاّ الأهلّـــة والأشـــبالَ والقُـــضبا
حُسامهم ما نبـا في وجـه مَـن ضـربوا	ومُهـرهم مـا كبـا في إثـر مَـن هربـا
ما جـرَّدَ الـدهر سـيفاً مثـل (سـيفهم)	يُجري بـه الـدمَ أو يجـري بـه الـذهبا
ربُّ القـوافي علـى الإطـلاق شـاعرهم	الخلــدُ والمجـد في آفاقــه اصــطحبا
ســيفانِ في قبـضةِ الـشهباء لا ثُلمـا	قد شرَّفا العرب بـل قـد شـرَّفا الأدبـا

وبعد ربع قرن ونيّف، من حفاوة حلب بهـذا الـشاعر العزيـز، قـام لبنـان بواجـب تكريم ابنه النابغ الأستاذ **بشارة الخوري**، فأقام لـــه يـوم الأحـد ٤ حزيـران ١٩٦١ في قصر الأونِسْكو ببيروت، حفلاً تكريمياً يليق بمكانة ذلك الشاعر السائر في مقدّمـة موكـب المبدعين الحاملين قيثارة الوحي، وعلى جباههم أكاليل الغار، ومن حولـهم أهازيج النصر وتغاريد الفخار.

---

[٣] مجلّة الضاد، العدد ٩/ ١٩٣٥، ص٤٠٦–٤١١.

في ذلك الحفل المزدان بالنخبة الممتازة من رجـالات الفكـر وأقطـاب الـشعر، وقـف شاعر العرب عمر أبو ريشة، وألقى رائعته الخالدة "مارد الشعر" [٤] والتفت إلى زميلـه شاعر الـهوى والشباب قائلاً بصوته الجهوري وإلقائه الجذّاب:

أمجنّحَ الحرف الحرون ومـرقّصَ الـ — ـوترِ الحنـون علـى أناملِ ســاحرِ
عرفتـكَ دنيـا البغـي صـرخة نـاقمٍ — يــزري بهيبتهــا وغــضبة ثــائرِ
أيّـــامَ أعنـــاقُ الـــبلاد جريحـــةٌ — بقيـــود نـــزّاز الـــضغينة جـــائرِ
فهـــززتَ عزمـــةَ كـــلّ وانٍ متعـــب — وأثـــرتَ نخـــوةَ كـــلّ عـــانٍ ســـادرِ
فـــإذا الجبـــال الـــشمُّ لفـــحُ معاقـــل — وإذا الـــسهول الفـــيح نفـــحُ مقـــابرِ
وإذا العبوديـــــاتُ تخلـــــعُ ليلـــــها — مزقـــاً علـــى قـــدم الـــصباح الـــسافرِ
هيهـــاتَ مـــا لانـــتْ عقيـــدةُ مـــؤمنٍ — مهمـــــا تحـــــدّتها غوايـــــةُ كـــــافرِ
يـــا طـــولَ مـــا انهـــدَّ الحديـــدُ ممزّقـــاً — قطعاً علـى خـشبِ الـصليب الطـاهرِ

وأبدع عمر، في وصف الأخطل الصغير، وفي تصوير عاطفته المشبوبة، وفنّه الغزلـي المرصّع بأبهى وأغلى ما عرفته الفصحى من معانٍ مبتكرة وتـشابيه منبعثـة مـن أغـوار المشاعر النابضة بالحبّ والوجد والشغف الروحي الفاتن.

لقد كان جميلاً، أن يُنـصَفَ بـشارة الخـوري، وأن يُكـرَّم في مهرجـانٍ حافـل مـن مهرجانات العروبة، وأن تُذكر بيض أياديه على الـصحافة الحـرّة والأدب الرفيـع. فمـن حقّنا في عصر انبعاثنا أن نكرّم نبغاءنا قبل أن تنطفئ شعلةُ حياتهم، ومن حـقّ عباقرتنـا علينا، أن نشيد بذكرهم، وننوّه بفـضلهم، ونتغنّـى بآثـارهم، علـى مـسمع مـنهم، لا أن نكفّنهم بالدموع، ونوقد من حولـهم الشموع، يوم يلبّون نـداءَ ربّهـم، ويـوم لا يـنفعهم تكريم ولا ثناء، ولا يهزُّ أعطافهم مديح ولا إطراء.

وها هي النفحة الشعرية الخالدة التي استهلّ بها الأخطل الصغير كلمته في مهرجان تكريمه الذي أقيم في قصر الأونسكو ببيروت في ٤ حزيران ١٩٦١:

---

[٤] مجلّة الضاد، العددان ٥ و٦/ ١٩٦١، ص٢١١–٢١٥.

اليوم أصبحتُ لا شمسي ولا قمري ... مَنْ ذا يغنّي على عود بلا وترِ
ما للقوافي إذا جاذبتُها نفرتْ ... رعتْ شبابي وخانتني على كبري
كأنّها ما ارتوتْ من مدمعي ودمي ... ولا غذتها ليالي الوجد والسهرِ
أين القصائدُ تندى من جوانحها ... ريحانةُ السَفحِ أو أغنيَةُ النهرِ
شعرٌ كما شاءَهُ الإبداعُ مبتكرٌ ... تدفّقتْ فيه أمواجٌ من الصورِ
غنّى العروبةَ ألحاناً مجنّحةً ... من دمعة الليل أو من بسمة السَحَرِ
من سحرِ لبنانَ، من شلاّل قمّته ... وما تسلسلَ من آياته الكبرِ
مَنْ لي بأضوع ما في الروض انثرهُ ... على المفارق من إخوانيَ الغررِ
صغتُ القريضَ وما لي في القريض يدٌ ... يدُ الطبيعة فيه أو يدُ القدرِ
إنّ المواهب لا فضلٌ لصاحبها ... كالصوتِ للطيرِ أو كالنشرِ للزهرِ

عرفتُ أبا عبد الله الخوري معرفة شخصية، بعد أن عرفته أديباً، وأتيح لي أن أجالسه مراراً في مقهى النجّار ببيروت، بحضور أصدقاء أعزّاء منهم بديع شبلي ونزار الزين ووديع ديب والشاعر القروي وشكر الله الجرّ وجورج صيدح ونعيم يزبك وكعدي فرهود كعدي ورياض المعلوف وصلاح لبكي وإدوار قدحجي. وقد سمعتُ من غزليات أخطلنا المعاصر، ما ملأ نفسي نشوة سحرية دفعتني إلى أن أقبّل خدّيه، ولولا تمنّعه لقبّلت يديه، فوَالله لم أرَ أرقَّ منه عاطفةً، ولا ألطفَ منه معشراً، ولا أروعَ قافية!!

وقد أنصفه صديقنا عادل الغضبان، حين كتب مقدّمة ديوان "الهوى والشباب" المطبوع بدار المعارف بالقاهرة في شهر كانون الأوّل ١٩٥٣. قال عادل: "إنّ الأخطل الكبير تلميذ للأخطل الصغير في مجالَيْ الهوى والجَمال، وإنّ راية بني أُمَيّة في هذا الميدان، تقصر عن راية ابن لبنان المشكوكة في أعلى قمّة جبل الوحي والإلهام". ثمّ قرّر شاعر الشباب، أنّ معظم غزل بشارة الخوري يتّصف بالإعجاز في الإيجاز، وأنّ الأخطل الصغير "شاعر غرّيد رفع الشعر الغنائي إلى أرفع أوج، واستوى على عرشه، وهو فيه كذلك شاعر مصوّر، نثر الصور والألوان في ثنايا شعره القصصي وشعره الغنائي. وهو في تصويره يتفنّن ويبتكر، فنرى صوراً عربية مطعّمة بألوان غربية ونرى منه صوراً عربية جديدة مشرقة".

ومَن يتصفّح ديوانَي شاعرنا "الهوى والشباب" و"شعر الأخطل الصغير" الصادر عام ١٩٧٢ عن دار الكتاب العربي ببيروت يجد طائفة من القصائد والأبيات المقتبسة والمعرّبة عن كبار شعراء الغرب، من أمثال: مترلنغ وسوللي بريدوم ولويس بويه وغيرهم. وأكثر ما اقتبسه أو ترجمه، فاق الأصل روعةً وإبداعاً، ولا سيّما في حلبة الغزل.

من آثاره المطبوعة، ما عدا ديوانيه السابق ذكرهما: "الوتر الجريح" وهو من شعر الشباب، وكتابان نثريان بقلمه وهما: "من بقايا الذاكرة" و"أحداث وأعلام".

فقد كان الأخطل الصغير منشئاً بليغ العبارة، وذا أسلوب سلس وضّاء. وكان يكره ما يسمّى اليوم بالشعر الحديث الخالي من الوزن والقافية. وقد سأله الشاعر إلياس قنصل: ما رأيك في الشعر الرمزي، وقد فشا الآن في هذا البلد؟ فأجابه بشارة الخوري: إنّه سخيف تافه. ثمّ استطرد قائلاً: إنّ هؤلاء الشعراء الذين بُلينا بهم في آخر زمان، عاجزون عن الإتيان بالشعر الجيّد الفحل، عاجزون عن فهم اللغة العربية على وجهها الأفضل، عاجزون إلاّ عن الرديء من التفكير والتعبير.

وكان الأخطل الصغير، ناقداً عنيفاً في نقده، لاذعاً في هجائه. وقد تعرّض له شاعر لبناني معروف، فصفعه فوراً بهذين البيتين:

ومعشرٍ حاولوا هدمي ولو عقلوا — لكان أكثر ما يبنون من أدبي
تركتهم في جحيمٍ من وساوسهم — ورحتُ أسحبُ أذيالي على السُّحبِ

وحاول مرّة الشاعر إلياس أبو شبكة، أن يغمز من قناة أبي عبد الله، فبادره ببيتيه الساخرين التاليين:

أبا شبيكة والأيّامُ هازلة — ماذا؟ أحقّاً قرضتَ الشعرَ أم لعبا
إن كنتُ في الوحشِ لا أرضاكَ لي ظفُراً — أو كنتُ في الطير لا أرضاك لي ذَنَبا

وفي هذا دليل على إباء شاعرنا الكبير واعتداده بنفسه، والتصدّي بقوّة لكلّ مَن يحاول أن ينال من مكانته الأدبية الشامخة.

لقد امتدح الأخطلَ الصغير، كثير من شعراء العرب، نُشرت قصائدهم في كتاب عنوانه "قالوا في الأخطل" صدر عن دار الكتاب العربي. وكُرِّم شاعرنا في حياته أجلَّ تكريم. وعندما استأثرت به رحمة الله في بيروت، بتاريخ ٣٠ تمّوز سنة ١٩٦٨، أيقن الناطقون بالضاد، أنّ أدبنا المعاصر، خسر شاعراً عبقرياً، ملك ناصية الشعر العربي، وسبق جميع شعرائنا الغزليين، وكثيراً من شعرائنا القوميين، بما فاضت به نفسه من أحاسيس صادقة، وبما قنصه خياله من آيات شعرية سامية.

وبعد رحيله أقيم له في قصر الأونسكو حفل تأبين كبير اشترك فيه كبار شعراء الوطن العربي.

وقد نظّمت مؤسّسة جائزة **عبد العزيز سعود البابطين** للإبداع الشعري دورة **الأخطل الصغير** تحت رعاية رئيس مجلس وزراء لبنان آنذاك **رفيق الحريري**. وبالتعاون مع وزارتَي الثقافة والتعليم العالي في بيروت بتاريخ ١٤–١٧ تشرين الأوّل ١٩٩٨. وأصدرت المؤسّسة الأعمال الكاملة للشاعر **بشارة الخوري** في خمسة مجلّدات ضمّت أعماله النثرية والشعرية والمجلّد السادس بعنوان (**الأخطل الصغير في صور**) يغطّي جوانب متكاملة من حياة الشاعر في مختلف مراحلها.

رحم الله شاعر الهوى والشباب، فهو باقٍ بيننا بشعره العذب ومواقفه الوطنية والعربية وغزله الرفيع.

(مجتزأ: الكلمة ، الأعداد ٧–٨–٩/٢٠٠٢،
ص٣–٦، والضاد، العدد ٢٠٠٧/١٢، ص٣–٦)



أمير الكمان سامي الشوّا

- آل الشوّا -

كانت حلب منذ زمنٍ بعيد، موطنَ الأدب، ومباءَةَ الطرب. وكان قصر **سيف الدولة الحمداني**، منتدى كبار الكتّاب والشعراء، وملتقى نوابغ الموسيقيين والمطربين.

ولم يقصر الحلبيون اهتمامهم على إنعاش اللغة والأدب فقط، ولكنّهم اهتمّوا بالموسيقا والطرب. فكانت بيوتات العزّ والجاه عندنا تُشيد في صالات استقبالها أمكنةً مرتفعة تجلس فيها جوقات المطربين وتنبسط أمامها فسحات تستوعب الراقصات والراقصين.

ولا يستطيع أن ينكر أحد أنّ حلب مدينة كبيرة معطاء، أنجبت رهطاً من الأدباء، تعتزُّ بهم العروبة، وأطلعت لفيفاً من الموسيقيين، يفاخر بنبوغهم الفنّ العاطفي الصادق، والإيقاع الدقيق الموزون. وكلّ مَن ألمَّ بتاريخ اللحن والوتر، يجاهر بأنّ الشهباء، كانت في طليعة المدن العربية، التي أولت الموسيقا عنايتها القصوى، والتي أرسلت إلى عالم الفنّ، جماعةً من العازفين والملحّنين، طُبعت أسماؤهم في سجلاّت الخلود. في حلب مدينة الأدب والطرب، وُلد وترعرع وعزف ولحَّنَ وأنشد، أشهر مَنْ عرفهم التاريخ الموسيقي، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي النصف الأوّل من القرن العشرين.

وكانت أسرةُ **الشوَّا** أبعدَ الأسر العربية الحلبية صيتاً في العزف والغناء. وكان **عبّود الشوَّا**، رخيمَ الصوت، رائعَ النغَم، إنْ صاح: يا ليل، دغدغ المشاعر، وخلبَ الالباب. أمّا أخوه **أنطوان** – والد **سامي** – فكان نابغاً في العزف على الكمان وكان يُدعى إلى عواصم البلاد العربية، ليعزفَ في أعراس الملوك والأمراء، وفي ما كان يُقام في قصورهم من أفراح وحفلات.

– **عبّود بن إلياس الشوَّا**: وُلد في حلب في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر، واشتهر بصوته الرخيم، وعزفه البديع على العود. وكان يدعى مع أخيه **أنطوان**، إلى العزف والغناء في أفخم الحفلات وأجمل الأعراس. توفّي **عبّود الشوَّا** في عام ١٨٩٢ وكُتبت على ضريحه أبيات، يذكر عمّنا **عبد الله إلياس حلاّق** منها هذين البيتين:

يا زائرينَ قفوا قليلاً وانظروا وتذكّروا مَن حلَّ في هذا الضريحْ
إنّي استرحتُ الآنَ في دارِ البقا أنتمْ بدارٍ ما عليها مستريحْ

– **أنطوان بن إلياس الشوَّا**: وُلد في حلب، ونبَغَ بالعزف على الكمان حتّى لُقّب بـ "أمير الكمان". ألّف في عام ١٨٨٣ رسالةً في علم الألحان وتأليف الأنغام وإيقاعها. تزوّج **لويزا شلحت**. ولذيوع شهرته في عالم الفنّ، دُعي إلى القاهرة، وعزف في قصر الخديوي على كمانه عزفاً أثار إعجاب عاهل مصر ورجالات بلاطه، فاتّسعت شهرة **أنطوان الشوَّا** في جميع أنحاء الوطن العربي ووجدَ له في عاصمة وادي النيل كثيراً من الأصدقاء والمريدين. ولهذا أحبَّ القاهرة وراح يمضي فصلَ الشتاء فيها. وفي الصيف

كان يعود إلى حلب، ويعمل مع فرقته الموسيقية في قهوة الحرّية بالجْدَيْدة، وهي القهوة التي غدت فيما بعد مخفراً للشرطة.

وكان **حبيب بن جرجي زرقا** زوج شقيقة **أنطوان الشوّا**، يعمل معه ضارباً على الرقّ. وفي النهار كان **الزرقا** يعمل على النول اليدوي صانع نسيج. ثمّ عُيِّنَ حارساً في مطرانية الروم الكاثوليك التي غدت في عام ١٩١٤ كنيسة. أمّا الكنيسة الكُبرى للروم الكاثوليك، فقد جعلها العثمانيون مستشفى خلال الحرب العالمية الأُولى ١٩١٤ – ١٩١٨. توفّي **أنطوان** بحلب سنة ١٩١٤. وخلّف أولاداً منهم ثلاثةُ موسيقيين وهم: **سامي وعبد الكريم وفاضل**. وقد وُلدوا كلّهم في حلب. وفي دار المرحوم **كامل هلال** بحارة "أبو عجّور". وعندي صورة تمثّل الموسيقار **أنطوان شوّا** وفرقته وقد عرفت منهم "**سامي**" و"**فاضل**".

– **سامي بن أنطوان الشوّا**: وُلد في شهر تمّوز سنة ١٨٨٥، في دار قريبة من جامع حيّ الهزازة بحلب، ما زالت تُعرَف إلى اليوم بـ "حوش بيت الشوّا". وفي هذه الدار نفسها، وفي الغرفة التي وُلد فيها **سامي**، أبصر والدي صاحب الضاد نُورَ الوجود.

وكان بين **آل الشوّا** وعائلتنا أواصر ودّ وحبّ وثيقة العرى. فقد كان جدّي لأبي واسمه **عبد الله حلاّق** عرّاباً **لأنطوان الشوّا** ولأخويه **حبيب وعبّود**.

شُغف **سامي** منذ صغره بالموسيقا ومال إلى العزف على الكمان فأطاعتهُ القوس وانقادت إليه الأوتار. ولكنّه كان يطمح إلى الشهرة، فصبا إلى القاهرة، وتوجّه إليها في عام ١٩٠٥ على أرجح الأقوال. وما هي إلاّ بضع سنوات، حتّى عمّت شهرته جميع أنحاء القطر المصري، وحتّى أخذت شركات الأسطوانات تتسابق إلى تسجيل ما كان يبدعه من تقاسيم وبشارف وسماعيّات. وفُتحت أمامه أبواب القصور الملكية فانتزع إعجاب الملوك والأمراء، ليس في الوطن العربي وحده، بل في مختلف أنحاء العالم.

والحقّ، أنّه كان أميراً في دولة الفنّ الموسيقي، لم يعرف الشرق أقدر منه في إخضاع تلك الآلة الموسيقية، التي كانت تتكئ بجانب أذنه تستوحيه الروائع. وإلى ذلك يشير أمير الشعراء **شوقي**، في قصيدة طويلة عصماء حيّاه بها:

يــا واحــدَ الفــنِّ في أشــجى معازفــه | هــذا أوانُ الثنــاءِ العــدلِ قــد آنــا
تلــك اللعيبــةُ مــنْ عــودٍ ومــنْ وتــرٍ | لــولا بنانُــكَ لم تجعــلْ لــها شــانا
قد آنست رحمــةً في الــصدرِ فاتّكــأتْ | بجانــب الأذن تــستوحيك شــيطانا
كأنّهــا عــشُّ طــيرٍ هــاجَ آهلــه | مــن كــلِّ ناحيــةٍ ينــسابُ أشــجانا
ضــممتها وتواصــتْ راحتــاكَ بهــا | ضــمَّ الوليــدةِ إشــفاقاً وإحــسانا

ولم يسكر أمير الشعراء وحده بسلافة فنّ **سامي الشوّا**، ولكنّ كثيراً من أقطاب الشعر العربي في الوطن والمهجر من أمثال: **حافظ ومطران والأخطل الصغير وأبي ماضي ونسيب عريضة ورشيد أيّوب وعبد الله يوركي حلاّق** سكروا بها، ورنّحتهم نشوتها، فوصفوا عزفه وصفاً دقيقاً رائعاً، وتغنّوا برقّة ألحانه، وأغاريد كمانه، وأجمعوا على أنّه ذو مقدرة خارقة في تطويع الوتر الأصمّ.

وكان الأستاذ **سامي الشوّا**، خير سفير للموسيقا العربية، فرحل إلى معظم البلاد الأوروبّية، وزار الأميركتين مراراً، حاملاً رسالة الفنّ العربي المتّسم بالجدّة والابتكار، فكان حيثما سار، يُقابَل بأروع مجالي الحفاوة والإكرام.

وسمع به كبار العازفين الألمان، فدعوه إلى المعهد الموسيقي الألماني "الكونسرفتوار". وما كاد يعانق كمانه ويداعب أوتارها، حتّى تملّكهم الإعجاب الشديد، وحتّى هزّتهم النقرات الناعمة، والأوتار الطيّعة، والألحان الجديدة المعبّرة أصدق تعبير، عن كوامن النفس، وعواطف الفؤاد. ورأى أولئك المعجبون أنّ خير ما يكرّمونه به، هو أن يسجّلوا بعض معزوفاته، ويحفظوها في معهدهم، بين معزوفات **بتهوفن وموزار وشوبرت وباخ**. وهذا فخر لأُمّته وبلاده.

ولقد أُتيح لي، أن أعرف **سامي الشوّا** معرفة وثيقة، وأن ألمس عن كثب، ما كان يمتاز به من صفات خلقية طيّبة، لعلّ أبرزها الوفاء لوطنه ورفاق طفولته وفتوّته. فقد كان دائم الشوق والحنين إلى مسقط رأسه حلب. وعندما كان يزورها، كان يأتي إلينا ليشاهد أبي، وليتحدّث إليه، وليذكّره بأيّامهما الماضية. فقد كان الاثنان – رحمهما الله – خدينين وعشيرين، لم ينسَ أحدهما الآخَر، رغم بعد الشقّة، وطول الزمن. وفي مساء

الجمعة ٧ أيلول ١٩٣٤ أقيمت في حديقة اللونابارك حفلة لأمير الكمان **سامي الشوّا** حضرها جمهور حلب المحبّ للفنّ والتراث. وألقى والدي قصيدة منها هذه الأبيات:

مطربَ الشرق وسلطانَ الوترْ		وأميرَ الفنِّ حانَ المنتظرْ
ودوتْ أصداءُ لحنٍ مُسكرٍ		وتجلّى الوحيُ في هذا المقرْ
وكمان الفنِّ قد غنّت لنا		من أغاني الحبِّ ما يشجي الحورْ
فهفتْ أفئدة القوم إلى		فنِّكَ السامي، أيا سامي الفكَرْ
فابعث الألحان وارسل نغمةً		إنّما الأنغام سلوى للبشرْ
وإذا الإصغاءُ فينا جاثمٌ		وإذا أوتاره تتلو السورْ
وإذا في الحفل تسري رهبةٌ		رهبةٌ أرسلها المولى الأبرْ

وكثيراً ما كان يحمل سامي كمانه، ويعزف عليها في بيتنا المتواضع، وفي كثير من بيوت أصدقائه ومحبّيه. وكم من مرّة عزف لأولئك العاجزات المسنّات القابعات في "دار الكلمة"، فبعث فيهنّ ذكريات الصبا، وأحلام الشباب.

وإنّي لأذكر، أنّه كان واسطة تعارف بين عدد من كبار الشعراء والمتفنّنين وبيني. فقد دخلتُ بصحبته ندوة أدبية اعتادت أن تعقدها الشاعرة والرسّامة الموهوبة السيّدة **شريفة فتحي**، في مساء كلّ يوم ثلاثاء في دارتها بالجيزة. وهناك تعرّفتُ بالأساتذة: **عزيز أباظة وأحمد رامي وصالح جودت وعلي الجندي وعبد الله شمس الدين**، وكلّهم من أئمّة الشعر في العصر الحديث. ورافقته إلى عدد من أشهر أندية القاهرة، حيث كان يتطوّع بالعزف في الحفلات الخيرية، وفي المهرجانات القومية والأدبية. وتعرّفت بكوكب الشرق **أمّ كلثوم** من خلاله وسهرنا سهرة جميلة لا تُنسى معها في منزل الشاعر **عادل الغضبان**. وظلَّ **سامي** إلى آخر لحظة من حياته، مخلصاً لفنّه. وكثيراً ما كان يعانق كمانه بحنانٍ لا حدَّ له، كأنّه يأبى أن يفارق هذه الآلة، التي أعربت طوال ستّين سنة، عن أحاسيس قلبه، وخلجات صدره، وخفايا ضميره، واستطاعت أن تحاكي بأوتارها الأربعة، وأحياناً بوتر واحد فقط، صداحَ البلابل، وتغريدَ العنادل، وخريرَ الجداول، وهينمةَ النسيم، وحفيفَ الغصون، وحداءَ الإبل، وعصفَ الرياح، وكلَّ ما في الطبيعة من

حركات وأصوات. وكم من مرّة، حاكت صوت المؤذّن، وصاحت "الله أكبر" فخيّلَ إلى السامعين، أنّ هذا الصوت الحنون، الواضح الكلمات، الحجازي النبرات، لا يمكن أن يبعث من جماد، ولكنّه صادر عن حنجرة قوية رخيمة، كحنجرة الشيخ **سلاّمة حجازي**، أو كحنجرة الشيخ **عبد الباسط عبد الصمد**.

توفّي أمير الكمان عام ١٩٦٦ وتخلّى عن كمانه، وابتعد عن أهله وخلاّنه وعشّاق ألحانه. بعد أن أدّى رسالته الفنّية، وبعد أن ارتفع بموسيقاه إلى مصافّ الموسيقيين العالميين، الخالدين على الزمن. وقد رثاه كبار الشعراء وفي جملتهم والدي بعدّة قصائد منشورة في مجلّتي الضاد والكلمة.

– **عبد الكريم الشوّا**: كان في أوّل شبابه يعزف على القانون عزفاً بديعاً. وقد عزف عليه متطوّعاً في حفل مباركة خطبة والدي، وكان ذلك في شهر حزيران ١٩٣٦. وكان **عبد الكريم** رضيّ الخلُق، حَسَنَ السمعة، عرفنا أولاده يوم كنّا في مصر، ولمسنا منهم أزهى ألوان اللطف والظرف.

– **فاضل الشوّا**: وُلد في حلب في مطلع هذا القرن، ولحق أخاه **سامي** إلى القاهرة حيث درس أصول العزف على الكمان فبرع فيها. وأحرز شهرة يغبط عليها. وعمل في أعظم الفرق الموسيقية هناك، كما عمل في أكبر المحطّات الإذاعية في العالم. وحين زرنا القاهرة في ربيع عام ١٩٧٤، أنسنا مراراً عديدة بزيارة الموسيقار الفاضل، وكان يتوق شوقاً إلى زيارة مسقط رأسه حلب. فدعوناه للنزول في بيتنا فقبل الدعوة وقال أمام الصديق السيّد **إدوار عارف مشحور**: إنّ أمنيته الوحيدة في الحياة أن يكحّل عينيه بمرأى حلب قبل أن يدركه الأجل. ولمّا سألناه لماذا ترك العزف على الكمان أشار إلى يديه وقال والدمعة تترقرق في مقلتيه: إنّهما ترتجفان.

لفاضل الشوّا ابنةٌ تُدعى **لويز** وتُعرف باسم زيزي Zizi Chawa كانت تعمل أمينة سرّ للأمين العامّ لهيئة الأُمم المتّحدة في نيويورك. وقد تعرّفنا بها في أثناء زيارتنا تلك المدينة عام ١٩٩٨. وتناولنا طعام الغداء معها ومع الصديقين **جورج سبع ورزق الله**

أشخان فوجدناها آيةً في الرقّة والذكاء وسعة العلم. فهي تجيد عدّةَ لغات، وتحسن الترجمة الفورية من لغة إلى لغة، وتحبّ زيارة الشهباء وطن أبيها وأجدادها. وقد وعدتنا بأن تقوم بهذه الزيارة فرحّبنا بها وقلنا لها إنّ بيتها ينتظرها في الشهباء.

نابغة الفنّ

نظمتُها وألقيتُها في حفل فنّي أقامه أحد أندية القاهرة عام ١٩٦١
عزف فيه سامي الشوّا فأطرب الحضور

وتــرٌ يــديرُ علــى النــديمِ مُــداما ... هــات الكمــانَ وأرســلِ الأنغامــا
وانــشرْ لــواءَ الفــنِّ في كبـد الســها ... فلقـــد عرفتُـــكَ للفنـــونِ إمامـــا
أنطقــتَ أســلاكَ الحديــد فأفــصحتْ ... ومــددتَ قوســكَ تنــسجُ الإلــهاما
وتـــرٌ حنـــونٌ إن نشـــرتَ لحونَـــهُ ... خلتنـــاهُ ســـحباناً يـــصوغُ كلامـــا

أفعمـــتَ أفئـــدة الجميـــعِ مـــسرّةً ... ومـــلأت أرجـــاءَ الحيـــاة هُيامـــا
فتباطـــأ الليـــلُ العجـــولُ وأشـــرقتْ ... أنـــوارُهُ فبـــدا الـــدُّجى بـــسّاما
لاعـــبْ كمانـــكَ إنّنـــا في محفـــلٍ ... يُهـــدي إلى ســـامي النهـــى الإكرامـــا
وانثـــرْ علينـــا مـــا تـــشاءُ فإنّنـــا ... ذُبنـــا إلى الفـــنِّ الأصـــيلِ غرامـــا
واعـــزِفْ لنـــا مقطوعـــةً عربيـــةً ... واســقِ العطـاشَ مـن الكمـانِ مُـداما

(مجتزأ: الكلمة، الأعداد ٤-٥-٦/٢٠٠٣، ص٣-١٢، والضاد، العدد ١١/٢٠٠٤، ص٢-١١، والعدد الخاصّ ٢/٢٠٠٦، ص٥٣)



رشيد سليم الخوري
الشاعر القروي

يقول الشاعر القروي: "إذا كنت ناقصاً فلا يحقّ لك أن تدين الناقصين، وإذا كنت كاملاً فاعذر الناس لئلاً تعود بعذلهم ناقصاً".

ومَن يجهل الشاعر القروي في دنيا الأدب، وعالم العبقرية والنبوغ؟ ومَن يجحد فضله أو ينكر مآتيه، وقد أدّى رسالته القومية على أشرف وجه وأتمّ قصد، وأطرف الناطقين بالضاد، بشعر رقيق أنيق، هو ذوب العاطفة البكر، وزبدة الوحي المصفّى، وخلاصة الروعة والبيان المشرق السلسال.

لا أخال أديباً نابهاً صادقاً، يجهل هذا الشاعر الغرّيد، الذي أطرب المسامع بشدو

روحه، وصداح قلبه، وأهازيج قوافيه الخالدة على الزمن. ولا أظنّ عربياً مؤمناً بعروبته، ينكر جميل هذا العَلَم الخفّاق في سماء العروبة، فالأستاذ **رشيد سليم الخوري**، أو **الشاعر القروي** – كما يحلو لـه أن يسمّي نفسه – رمز العقيدة الوطنية الراسخة، ومثال المبدأ الإنساني الحرّ الوطيد، ورسول الابتكار الطليّ المستحب. حمل قيثارة القريض، وسار في خمائل الإلهام، وراح يسكر الأرواح بسلافة فنّه، ويخلب الألباب بسحر بيانه، ويؤجج في الصدور، نار الحَميّة والحماسة، بخرائد فرائد كلّها عزّة وشمم وإباء.

والإباء غريزة في نفس **الشاعر القروي**، أصيلة في طبعه، متمكّنة من حواسّه، تستشفّها في معظم آثاره الشعرية والنثرية، وإن شئت تعريفاً أدقّ وأوضح، فقُلْ إنّ **القروي** شاعر القوّة والبسالة والكرامة، يلهب العزائم بشرر فكره، ويهيب بأبناء جنسه، أن يتحرّروا من قيود الضعف والوهن، وأن يحتلّوا قمم المجد والسؤدد، لأنّهم جديرون بالرفعة والسموّ والسيادة المطلقة.

ولعلّ العروبة لم ترَ في تاريخها الحافل بالكرامات والأمجاد، شاعراً ناضل في سبيلها نضال **القروي**، ولا كافح من أجل رقيّها واتّحاد أبنائها مثل كفاحه. فقد كان، حرباً عواناً على خصومها، يمطرهم بأبيات كالحمم المتفجّرة من فوهة بركان، دون أن تأخذه فيهم شفقة أو رحمة. فالعرب عنده في المقام الأرفع، ومن حقّهم أن يعيشوا من أقصى العراق إلى أقصى اليمن، ومن المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي في طمأنينة وسعة ورخاء.

والشاعر القروي، يحمل على التعصّب الديني حملات شعواء، ويراه حراباً مسمومة مشرعة في وجه التكاتف والتضامن والوئام. فأبناء الوطن العربي، إخوة يجمعهم الدم واللسان، وتربط قلوبهم أواصر القومية العربية السامية، والأهداف الوطنية الموحدة. فعلى كلّ مواطن أن يخدم أُمّته وبلاده، بمنتهى الاندفاع والإخلاص، وأن يضحّي في سبيل رقيّهما بأجلّ وأعزّ ما يملك في هذه الحياة.

بهذا تقضي الوطنية المنزّهة عن شوائب الجهالة، والبعيدة عن آفات التعصّب الديني الذميم. فالدين علاقة روحية بين المخلوق والخالق، ولا شأن للمذهب والمعتقد في ميدان الواجب الوطني، الذي يقضي على كلّ امرئ أن يكون لأُمّته، قبل أن يكون لأسرته

ونفسه. وإذا كان الدين لله، فإنّ الوطن لمختلف أبنائه، ولا فضل لمواطن على آخَر، إلاّ بالعلم والعمل والتضحية. وفي مضمار العلم والعمل والتضحية متّسع للجميع. فليعمل العاملون، وليجاهد المجاهدون، وليتعاون البررة المخلصون على جمع الشمل، وتوحيد الكلمة، والاندفاع إلى الهدف الوطني الأمثل. فالزمن مؤات والفرصة سانحة والهمم متحفّزة للوثوب إلى الأوج، والقلوب مشوقة إلى كلّ جليل نبيل.

ومَن يستعرض ديوان **الشاعر القروي** يرَ آيات في الوطنية المستمدّة من معين الحبّ والوئام، والمنبثقة من صميم القومية الحرّة الصادقة. فهو لبناني المولد، والنشأة، ولكنّه عربي الدم، سوري النزعة، أحبَّ العرب حباً جماً خالصاً، ملك عليه قلبه ولبّه وجميع حواسّه، وألهمه سوراً شعرية ستظلّ إلى الأبد، أغاريد الفخر في ثغر التاريخ، وزغاريد الحماسة في شفاه الأنفة والشمم.

وُلد شاعرنا في قرية البربارة – قضاء جبيل (لبنان) ليلة عيد الفصح في الخامس من نيسان سنة ١٨٨٧. والبربارة قرية جميلة من قرى لبنان، بيوتها متناثرة هنا وهناك، تقع على هضبة مشرفة على البحر الأبيض المتوسّط، بين مدينتي جبيل والبترون. وقد عُرف أهلها بالقوّة البدنية، ورخامة الصوت. ففي هذه القرية الوادعة، رأى شاعرنا **القرويُّ** النُّور.

ويعلّق **الشاعر القروي** في مقدّمة ديوانه المطبوع في سان باولو عام **١٩٥٢** على تاريخ مولده فيقول: "كان مولدي ليلة عيد الفصح المجيد، في الخامس من نيسان سنة ١٨٨٧. فإذا أضفنا الفرق بين الحسابين الشرقي والغربي وهو في القرن الماضي ١٢ يوماً كان تاريخ ولادتي بالضبط ١٧ نيسان وهو عيد الجلاء في سورية. وقد ارتجلت، بهذا الاتّفاق السعيد، بيتين افتقدتهما ولا أذكر غير الثاني وهو:

إن فاخر الناس بأعيادهم فعيد ميلادي عيد الجلاء"

أبوه **سليم الخوري**، وأُمّه **تقلا الرحباني**. وكان جدّه **طنّوس** طبيباً، نقل بخطّه عن ابن سينا عدّة كتب وجلّدها بيده. وكان يضيف إليها كلّ ما يقع عليه من مستحدثات الطبّ.

وقد تلقّى **رشيد** دروسه الابتدائية في مدرسة قريته، ولمّا ناهز الثالثة عشرة من عمره، تلقّى علومه الثانوية في مدرسة الفنون الأميركية بصيدا، وفي مدرسة سوق الغرب، وفي الكلّية الإنجيلية ببيروت. ثمّ انصرف إلى التعليم في عدد من المدارس والمعاهد في جملتها الكلّية الشرقية في زحلة.

وفي أوّل آب سنة ١٩١٣ غادر لبنان إلى البرازيل، يصحبه أخوه **قيصر** وزوجته وطفلتهما الرضيع، فوصلوا إلى مدينة مريانا من أعمال ولاية ميناس حيث يقيم **إسكندر الخوري** عمّ **رشيد وقيصر**، وكان قبطاناً في الجيش البرازيلي، وهو الذي رغّب **رشيداً** في السفر إلى عنده وأرسل إليه نفقات الطريق.

وبدأ **رشيد** يكافح في سبيل العيش الكريم. ويقول الشعر الوطني المستحبّ، وكان يلبس الجوخة الإنكليزية، فقاطعها منذ انفضاح وعد بلفور سنة ١٩١٧ ولم يقبلها هدية من صديق. ومنذ ذلك الحين أخذت شهرة **الشاعر القروي** تذيع في الوطن والمهجر.

وعندما احتلّت فرنسا سورية ولبنان فاضت قريحة شاعرنا العربي الكبير بقصائد حماسية ندّد فيها بالانتداب والمنتدبين وحمل على حكّامهم وسياستهم حملات صادقة جعلت السُلطة الحاكمة تمنع ديوانيه "الأعاصير" و"الزمازم" من دخول بلادنا. وعلى الرغم من كلّ التدابير التي اتّخذتها الدولة المنتدبة للحيلولة بين **القروي** وعشّاق أدبه، فإنّ قصائده في عهد الانتداب كما روى لي والدي كانت تتسرّب بشغف وإعجاب إلينا ونقرؤها.

وكيف يجيز الأجنبي لأشعار **القروي** أن تُقرأ، وفي كلّ بيت من أبيات قصائده الوطنية، سوط يلهب ظهور المستعمرين وفي كلّ مقطع من مقاطعها سيل من النقمة يجتاح الأعلاج المغتصبين؟

لقد لُقّب **الشاعر القروي** بقدّيس القومية العربية، لأنّه لاقى في سبيلها، ما لاقاه كثير من القدّيسين، في سبيل المحافظة على عقيدتهم الدينية من عذاب وحرمان. ومثلما فاز أخيراً أصحاب تلك العقائد السامية، واستحقّوا هالة القداسة، هكذا فاز **رشيد سليم الخوري**، في حلبة جهاده القومي، لأنّه في معرض الذود عن حقّ أُمّته وبلاده، لا يصنع شعراً يهمهم به رؤوس الأطفال، وإنّما يبرز سهاماً حادّة يوجّهها إلى أفئدة الظالمين،

فيمزّقها شرّ تمزيق.

وفي عهد الوحدة بين سورية ومصر وُجِّهت إلى الشاعر القروي دعوة حكومية رسمية لزيارة الإقليمين العربيين المتّحدين، فركب الباخرة من سان باولو إلى اللاذقية وهو يردّد بيتيه المشهورين:

بنتَ العروبةِ هيِّئي كفني	أنا عائدٌ لأموتَ في وطني
أأجودُ من خلفِ البحارِ له	بالروحِ ثمّ أضنُّ بالبدنِ؟

وفي صباح يوم الأحد ٣ آب ١٩٥٨ وصل شاعرنا إلى ثغر اللاذقية، فاستقبلته وفود رسمية وأدبية، تمثّل كبريات المحافظات السورية [١]. وهكذا عاد ذلك الشاعر العربي الملهَم بعد أن غاب عن وطنه خمساً وأربعين سنة، عاد إلى سورية مع انبثاق فجر الوحدة، وفي الشهر نفسه الذي فارق فيه لبنان.

ومَن يتعمّق في دراسة شعر القروي يجده نابعاً من ذوب قلبه الطيّب، ومن عصارة حسّه المرهف، ومتألّقاً بنُور مقلتيه المشعّتين بأضواء العبقرية. إنّه يصوّر ما يدمدم في صدور الشعوب المرهَقة المتحفّزة، من أعاصير الآلام المبرّحة، ويجعلك تلمس بأصابع يمينك ما حفرته سياط الظالمين، على جباه الضعفاء، وظهور المستسلمين، من أخاديد حمر وزرق وسود، لا تمحوها إلاّ انتفاضة الكرامة ووثبة الثأر، وخنق العار.

إنّ الشاعر القروي، يستطيع أن يقبّل ألف إسخريوطي يحتال على صلبه، ويقوى على جرف العداوات كلّها، بما يغمر قلبه من فيض العاطفة الإنسانية السمحة، ولكنّه لا يستطيع أن يتهاون في حقّ أُمّته، أو يصبر لحظة واحدة على ما ينال من سيادتها، أو يخدش تاريخها، أو يهدّد بقاءها بالفناء.

إنّ الشاعر القروي، أبعد الناس عن الأثرة والغرور، وأقربهم إلى التضحية والإنسانية والإيثار، فعرش شهرته في الوطن وخلف البحار، لم يقم في قلب كلّ عربي مؤمن بقوميته، إلاّ على أسس وطيدة بناها بنثار وحيه، وأصالة عروبته، ونتاج قريحة

[١] كان وفد حلب مؤلّفاً من الأساتذة: سامي الكيّالي وخليل هنداوي وعبد الله يوركي حلاّق. وقد تناول المستقبلون مع الشاعر القروي طعام الغداء في مصيف "صلنفة".

سخية خصبة، تتدفّق بشلّالات من الشعر الحماسي الحيّ، وتسقي تربة الآباء والأجداد العطر والحبّ الطهور.

أمّا أدبه الموجّه الرصين، فقد علّمنا، ونحن تحت كابوس الانتداب، أروع دروس الوطنية الصحيحة، ودفعنا إلى القومية المُثلى، وجعلنا نحذو حذوه في حبّ بلادنا والسعي لتوحيد أُمّتنا وتعزيز مكانتها بالعلم والإخاء.

وفي ٢٨ أيلول ١٩٦١، حين وقعت جريمة الانفصال بين القطرين العربيين الشقيقين سورية ومصر، راح جمهور من الانفصاليين والشعوبيين ودعاة التفرقة في دمشق وغيرها يعلنون فرحتهم بهذه الجريمة النكراء. فوجّه إليهم **الشاعر القروي** هذين البيتين:

لَمَنْ عيدُ انفصالك يا دمشقُ ... فتلُّ أبيبَ منك به أحقُّ
أنشربُ والعجوزُ [٢] من الندامى ... ونرقصُ وابن غريونٍ يدقُّ؟

حقّاً لقد بلغ **الشاعر القروي**، قمّة الإبداع في سبك شعر وطني متين، ردّده هذا الجيل بملء القدر والإعجاب، وستردّده مواكب الأجيال القادمة، بكثير من الإجلال والإعظام. فقد أجاد **الشاعر القروي** في الدفاع عن الحقّ السليب، وفي الانتفاض لنصرة الكرامة الجريحة والشرف الطعين، وراح يصوّر الوطنية العربية بأسمى فضائلها وأرفع مزاياها، ويهيب بأبناء يعرب، أن يحافظوا على قُدْسية إبائهم الفطري، وأن يصونوا شعلة النخوة والمروءة المتّقدة بين حنايا ضلوعهم، وأن يتسلّحوا بالقوّة والثقافة معاً، ليدفعوا عنهم الغزاة، وليقارعوا الطامعين، وليصمدوا أمام حادثات الدهر ونوائب الأيّام. فالضعفاء الجهلاء، مطية للأقوياء في كلّ زمان ومكان، والحقّ الذي لا تدعمه قوّة، ولا يحميه جيش معزّز بالسلاح، معرّض دائماً لسطوة العتاة المستبدّين. فمَن يجاور الذئاب، عليه أن يتزوّد ببراثن الأسد وأنيابه وإلاّ سقط فريسة هيّنة بين البراثن والأشداق.

وإنّ كلّ ما لاح لأعيننا في هذا العصر، وكلّ ما مثّل على مسرح الكون، منذ بدء الخليقة إلى اليوم، يدعم هذه الحقيقة النيّرة ويؤيّدها كلّ التأييد. فالحقّ في ساعد القوي وسيفه، لا في لسان الضعيف وبيانه. وما يعجز عنه المنطق البليغ السليم، يدركه الحسام

---

[٢] يعني بـ "العجوز" كولدا ماير.

والمدفع، في ساحة الجلاد ومعترك الجهاد.

هذا رأي **الرشيد**، وهذه عقيدته الثابتة الراسخة. فهو يجد "أنّنا إلى ما يبعث فينا الأثرة ويقوّي العصبية الوطنية، أحوج منّا إلى ما يزيدنا حبّاً للإنسانية وإصلاحاً للبشرية". وفي ديوانيه "الأعاصير" و"الزمازم" صرخات دونها الرعد القاصف. **فالقروي** مؤمن بالقوّة إلى أبعد حدود الإيمان، ولهذا يريد أن تكون أُمّته عزيزة الجانب مسموعة الكلمة، محترمة بين كبريات الأُمم والشعوب. ولن يتسنّى لها ذلك، إلاّ إذا خلعت أردية الضيم والخور، ونبذت فلسفة اللامبالاة والتراخي، وتسلّحت بالعلم والحزم والعزم، وثابرت على السعي المثمر والعمل المجدي الفعّال، لنيل وحدتها المنشودة.

لقد آلم **الشاعر القروي** وأمضّه، ما كان يراه من عسف المحتلّين وإرهاقهم وضغطهم على الحرّيات والكرامات، فنشبت في نفسه ثورة عنيفة أحالت بحور قوافيه العذبة الرقراقة إلى لهب يطهّر الجوانح الضعيفة من جراثيم الصغار، ويقضي على ما قد يكون عالقاً فيها من بقايا الذلّ والخنوع.

وإنّ عشّاق الأدب الحيّ الصحيح، والمطّلعين على آثار كبار شعرائنا في المهجر، يذكرون بكثير من القدر والفخر، تلك المواقف الوطنية الجريئة المشرّفة، التي وقفها **الشاعر القروي**، ويشيدون بما له من أياد بيض على الشعر العربي المبتكر.

ومهما توالت الأيّام، وتعاقبت الأعوام، وتتابعت الحقب، فسيظلّ تاريخ انبعاثنا واستقلالنا، مشرقاً بآيات جهاد هذا الشاعر الفذّ، ذلك الجهاد الأدبي المتواصل الذي لا يقلّ شأناً وروعة وجلالاً، عن جهاد المغاوير في ساحات البطولة والشرف. وسيبقى المنصفون في كلّ عصر ومصر، يتغنّون بقصائد هذا الوطني المقدام، الذي شدّ العزائم وأيقظ الهمم، وأوقد في القلوب الباردة جذوة الحَميّة والشجاعة، وكان الدليل الأمين، إلى مواطن الثورة الفكرية، التي ما لبثت أن قويت وتعاظمت وقوّضت معاقل البغي والظلم لتقيم على أنقاضها، صرح الحقّ والحرّية والاستقلالية التامّة.

مع الشاعر القروي
رشيد سليم الخوري

عرفتُ الشاعر القرويَّ وأنا على مقاعد الدراسة، من خلال قصائده التي كان يرسلها حمماً في وجوه المغتصبين والمنتدبين، وأعجبت بأبياته القومية التي تدلُّ على روح عربية أصيلة، وخاصّة قصيدته (صيحة للجهاد). فقد قال في فتاة إنكليزية اسمها (مود) تحبّبت إليه وأعرض عن حبّها لأنّها أجنبية:

ولو لم تكوني فرنجيةً لكنتِ سعاديَ قبلَ سعادْ
ولكنّني عربيُّ المنى عربيُّ الهوى عربيُّ الفؤادْ
لعمرك يا "مودُ" لولا ذووكِ لما ميّز الحبُّ بين العبادْ
ولا أكرهوا شاعراً أن يقول هذي البلادُ، وتلك البلادْ
فهمْ أوغروا بالعداء الصدورَ وهمْ أضرموا النارَ تحتَ الرمادْ
فلا تعذلي شاعراً زاهداً وكم هام بالحبِّ في كلِّ وادْ
فإنّي حرامٌ عليَّ هواكِ وفي وطني صيحةٌ للجهادْ

وحفظتُ للقروي معظم قصائده القومية والإنسانية والوجدانية، وتأثّرتُ بشاعريته الفذّة وأسلوبه الرشيق المحبّب. وكان بحقّ بلبل الضاد في المهجر الأميركي. وكلّما أرادت الجالية العربية في البرازيل الاحتفال بمناسبة وطنية، كان القروي الصوت المدوّي. فاسمعه يقول عام ١٩٣٣ في حفلة عيد الفطر:

صياماً إلى أنْ يُفطرَ السيفُ بالدّمِ وصمتاً إلى أن يصدحَ الحقُّ يا فمي
أفطرٌ وأحرارُ الحمى في مجاعةٍ؟ وعيدٌ وأبطالُ الجهادِ بمأتمِ
بلادكَ قدِّمْها على كلِّ ملّةٍ ومن أجلها افطرْ ومن أجلها صمِ
ولكنّني أصبو إلى عيدِ أُمّةٍ محرَّرة الأعناقِ من رقِّ أعجمي
إلى علمٍ من نسجِ عيسى وأحمدَ و"آمنةٍ" في ظلِّه أختُ "مريمِ"
هبوني عيداً يجعلُ العربَ أُمّةً وسيروا بجثماني على دينِ برهمِ!

سلامٌ على كفرٍ يوحّدُ بيننا وأهلاً وسهلاً بعدَهُ بجهنّمِ!!

كان القروي شاعراً عربياً بكلّ ما في العروبة من معنى، فهو الذي تغنّى بها، وأنشد أجلّ قصائده دفاعاً عنها، وامتنع عن لبس القماش الأجنبي طَوال إقامته في المهجر. ولمّا عاد إلى الوطن، لبس الجوخ الوطني، وأخذ يباهي به. أليس عن حقٍّ لُقّب بقدّيس القومية العربية؟

لمّا عاد إلى الوطن عام ١٩٥٨، ووطئت قدماه أرض حلب الشهباء، جثا على الأرض وأخذ حفنةً من التراب فشمّه وقبّله وقال: "مَن يدري؟ لعلّ قدمي المتنبّي وطئتا هذا التراب الطيّب!".

وفي الوطن الحبيب، ألقى في حفل كبير أقيم له في دمشق، قصيدة رائعة مطلعها:

حتّامَ تحسبها أضغاثَ أحلامِ سبِّحْ لربِّكَ وانحرْ أنتَ في الشامِ
لم يأذنِ الله يا بوقَ العروبةِ أنْ تقضي الحياةَ غريباً بينَ أعجامِ

ثمّ احتفلت به المحافل الأدبية في القطر العربي السوري، وكرّمته حلب الشهباء، وأقام له والدي في بيتنا حفل أدب وطرب، حضره المحافظ وكبار الشخصيّات الرسمية والأدبية. فقد كان بينه وبين أبي حبٌّ متبادل. وكان حبل المراسلة متّصلاً بين الاثنين، وكان والدي شديد الإعجاب بإنسانية القروي وسماحته وكرمه ووفائه النادر. ومن أبدع أبياته الإنسانية، المقطوعة التالية:

من حبّة القمحِ اتّخذْ مثلَ الندى يا مَن قبضتَ عنِ الندى يمناكا
هيَ حبّةٌ أعطتكَ عشرَ سنابلٍ لتجودَ أنتَ بحبةٍ لسواكا
فكأنّما الشقُّ الذي في صدرها لكَ قائلٌ نصفي يخصّ أخاكا

فهل هناك أجمل من هذه المشاركة الإنسانية، وأبدع وأسمى؟

أحبّ الشاعر القروي الطبيعة وتغنّى بها وبجَمال بلاده، وخاصّة لبنان وسورية. غير أنّه أعرضَ عن بنات الغرب، وقال فيهنّ:

بنات الغربِ قلبي عندَ أقدامِ ابنةِ العُرْبْ
فلا تَطْمَعْنَ في حُلُمٍ منَ القرويِّ بالحبِّ
ولا تأملنَ إغرائي فلن تفلحْنَ في جذبي

لم يتزوّج القروي، غير أنّه أحبّ. ولقد قال في العزوبة:

كفتني العزوبةُ من ضربات الحياة اثنتينِ هما شرُّهُنَّهْ
فحسبي بها أنني ليس لي حماةٌ وليس لأُمّي كنّهْ

غير أنّه أحبّ أُمّه حبّاً جمّاً. أليس هو الذي قال: "أُمّاهُ، بشراكِ لقد جئتكِ بما لم يجئ بمثله شاعر لأُمّ".

وكانت قصيدته العصماء "حضْن الأُمّ" رائعةً خالدة على الزمن:

أتذْكرُ كيف كانَ إلهُ موسى إلهاً قاسياً يلتذُّ بالدَّمْ؟
إذاً فإليكَ كيفَ غدا مسيحاً حنوناً إن تألّمنا تألَّمْ

وعندما وقف بالقاهرة في حفل عظيم ضمَّ مئات الألوف من الخلق، أنشد متغنّياً بالعروبة التي كان يقدّسها:

باسمِ العروبةِ بعدَ الله أفتتحُ لله ثمَّ لعيدِ الوحدة السُبَحُ
شرحتُ صدري لها طفلاً وهل بسوى ذكرِ العروبةِ صدرُ الحرِّ ينشرحُ

وعندما زرته في ١٤ تشرين الأوّل ١٩٦٥ في قريته بالبربارة، وأجريت معه حديثاً أدبياً نشرته في العددين المزدوجين الصادرين من الضاد عن تشرين الثاني وكانون الأوّل لعام ١٩٦٥ وزيّنته برسم الشاعر القروي وأنا بجانبه، أرسل إليَّ هذه الرباعية المؤرّخة التي يقول فيها:

مهداة إلى ابن الأخ الحبيب رياض عبد الله يوركي حلّاق بمناسبة ظهور رسمينا معاً في مجلّة "الضاد" بعددها المزدوج ٩ و١٠ – ١٩٦٥:

أتَتْني الضادُ حاليةً برسمٍ يتيهُ به السوادُ على البياضِ
فجدّدَ لي خيالكَ أنسَ يومٍ يساوي كلَّ أيّامي المواضي
وعادَ شتاء لبنانٍ ربيعاً يرشُّ القطرَ عطراً في الرياضِ
سألتُ: أما لهذا الطيبِ مثْلٌ؟ فأرَّخَ: طيبُ ذكرِ "أبي رياض"[1]

لم يكن القروي شاعراً فحسب، بل كان صديقاً وفيّاً محبّاً لا ينسى أصدقاءه، يفرح

---

[1] "طيب ذكر أبي رياض" (٢١–٩٢٠–١٣–١٠١١) تشير بحساب الجمّل إلى العام ١٩٦٥ تاريخ كتابته الأبيات.

لفرحهم، ويتكدّر لآلامهم. وها هو يرسل هذه الأبيات بعد شفاء والدي من مرضٍ ألمّ به فيقول:

يا كوكبَ الأدبِ اعتلالُكَ شركةٌ ... فيها الغريبُ معَ القريبِ يساهمُ
أنا نضوُ داء مثل دائكَ معضلٍ ... شبَحُ الحمامِ على سريريَ حائمُ
فكأنّ قلبكَ في ضلوعيَ خافقٌ ... وكأنّ همّكَ فوقَ صدريَ جاثمُ
ما كدتُ أقرأُ عن رجوعكَ للحمى ... حتّى تفاءَلَ قلبيَ المتشائمُ
وصفَ الطبيبُ ليَ الدواءَ فعفتُهُ ... مذْ بشّرتْني "الضاد" أنّكَ سالمُ

وعندما زاره صاحب الضاد مع لفيف من أهل حلب في عرينه بالبربارة تلطّف شاعرنا الأكبر فبعث إلى والدي بقصيدته المتضمّنة المداعبة اللطيفة التالية:

يا صديقاً هزَّ المغاني كالأرواحِ ... هزّاً لقاؤهُ والفراقُ
فرحُ الدارِ إذ طلعتمْ عليها ... هو بعدَ ارتحالكمْ أشواقُ
سألتني الأطيارُ عنكم وهمّتْ ... بالسؤالِ الغصونُ والأوراقُ
أينَ يا شيخنا الجليلَ رياضٌ ... وأبوهُ وأُمُّهُ والرفاقُ
مثلُ أهلِ الشهباء خَلْقاً وخُلْقاً ... ما رأينا، تباركَ الخلّاقُ
ليس بدْعاً يا بلبلَ "الضاد" إنْ ... مالتْ إليكَ القلوبُ والأعناقُ
أيُّ رأسٍ مهما سما وتعالى ... لم يُدِرهُ ويحْنِهِ الحلّاقُ؟

وكنت كلّما زرت لبنان الشقيق، أزور الشاعر القروي لأنّي أعتبره مدرسة في عالم القريض، ومدرسة في الوطنية والوفاء والصدق والصراحة وسموّ الأخلاق وعلوّ القدر. ولهذا كان القروي أوّل مَن دعوته إلى حفلة خطبتي التي كانت تضمُّ فحول الشعراء والأدباء وكبار الصحفيين ورجال الفضل والعلم. وأنشد يومها قصيدة "العندليب" التي تنمّ على محبّته إيّاي محبّة والدي صديقه الحميم الذي يعتبره أخاه:

أرياضُ يا زينَ الشبابِ ... الحرَّ يا بْنَ أخي الحبيبا
إنْ لم أكُ العمَّ القريبَ ... أكنْ لكَ العمَّ الأديبا
سَلْ عن قرابتنا أباكَ ... الشاعرَ الفحلَ النجيبا
حسْبُ العروبةِ بيننا ... نسباً يشرّفني نسيبا

إنّـــي لأدعـــو أنْ تجـــوزَ ... مـــدى المـــشيب ولا تـــشيبا
عمـــرٌ قـــشيبٌ كـــلَّ يـــومٍ ... لابـــسٌ فرحـــاً قـــشيبا
ونهـــادُ فرقـــدكَ المخلَّـــد ... لـــنْ يَغيـــبَ ولـــنْ تغيبـــا
ســـبحانَ مَـــنْ ســـوّاكما ... وأتمَّ بينكمـــا النـــصيبا
جمـــعَ الربيـــعَ إلى الربيـــع ... أزاهـــراً ونـــدىً وطيبـــا
واخيـــبتي إنْ لم أقُـــمْ ... في يـــومِ عرســـكما خطيبـــا
اتكـــونُ روضـــاً للطيـــورِ ... ولا أكـــونُ العنـــدليبا

كان القروي يمتاز بصوت رخيم، وكان يعزف على العـود، ويحـبّ اللعـب بـالنرد، (طاولة الزهر). وعنده طاولة زهر نقش عليها هذه الأبيات التي نظمها:

العـــبْ أخـــي مـــا نحـــنُ إلاّ ... لعبـــةٌ بيـــد القـــدَرْ
صـــنعتْ بنـــا الأيّـــامُ مـــا ... بـــالزهرِ نـــصنعُ والحجـــرْ
العـــبْ أخـــي العـــبْ فمـــا ... ردُّ المقـــاديرَ الحـــذَرْ
لا يـــدفعُ اللـــهوُ الـــردى ... لكنّـــهُ يُنـــسي الخطـــرْ

تناول القروي ألوان الشعر جميعها، فحلّق في أجواء الإبداع والابتكار. وكـان بحـقٍّ الشاعر العملاق، ومعظم قصائده منشورة في مجلّتنا (الضاد). كـان رحمـه الله يحـبّ أن ينشر في (الضاد). فكلّما نظم قصيدة أرسلها إلينا من المهجر وكتب: "خاصّة بالضاد".

ونظم قصيدة يرثي فيها الشاعر المهجري ميشيل مغربي بعنـوان (ذهـب الرفـاق). وكانت القصيدة حافلةً بما يلمس الجرح، فهي ليست قصيدة رثاء لفـرد، بقـدر مـا هـي رثاء للظاهرة الأدبية العربية المهجرية، وبكاء على ما صارت إليه الأُمّة العربية من تمـزّق وتعرّض للتهديد المباشر من قبَل أعدائها الصهاينة. فالـشاعر يعـود بذاكرتـه إلى الـوراء، قرابة قرن من الزمن، ليستعيد ذكرى المهاجرين العرب الأوائل إلى العـالم الجديـد، حيـث رفعوا لواء البيان العربي، وارتفعوا به إلى أوج الكرامة.

وفي قصيدته هذه، يشير القروي إلى نفسه، فهو آخـر الكوكبـة الـتي بـدأ فرسـانها بالرحيل، واحداً تلو الآخَر، مخلّفين وراءهم تراثاً لم يوفَّ حقّه من الدراسة بعد، وأمـاني غالية، شخصية، وموضوعية وقومية وإنـسانية لم تـرَ النُـور. فالقـصيدة رثـاء لجيـل،

وتأبين لظاهرة، ونعي مسبق لشاعرها:

ذهـبَ الرفـاقُ جمـيعهم مـن دونـي — لم يبْـقَ مـنهمْ شـاعرٌ يـرثيني
وغـدتْ عنـاوينُ الفحـولِ قبـورهم — فرسـائلي قطـعٌ مـنَ التـأبينِ
وَقَفـوا علـى أوطـانهم أعمـارهمْ — ورضـوا مـن الـدنيا بـدونِ الـدونِ
مـا همّهـم جـوعٌ إذا شـبعَ الحمـى — فكـأنّهم خُلقـوا بغـيرِ بطـونِ
بـدموعيَ الحـرّى أبـلُّ تـرابَهمْ — ليعيـدَ ربّـي خلقهـم مـن طـينِ

وها هي الأُمّة العربية تشهد، ترجّل آخر فرسان الحرف المهجري من الجيل الأوّل، الذي حمل بيانه سيفاً يذود به عن الوطن، ويفخر بتراثه، وأجداده، بتاريخه وانتمائه القومي الباسل. ولعلّ **القروي** أبرز شعراء المهجر العربي على الإطلاق، آمن بالعروبة، أُمّة واحدة، لها رسالتها الإنسانية التاريخية الخالدة.

القروي قدّيس القومية العربية، كما دعاه **أبي عبد الله**، يعيد إلى الأذهان ذكرى الفحول الكبار من شعراء العربية. كانت الأُمّة صبوته وطموحه الأوّل والأخير. وتحقّق له ما شاء وهو الموت على تراب الوطن حيث أنشد:

بنـتَ العروبـةِ هيّئـي كفـني — أنـا عائـدٌ لأمـوتَ في وطـني..

عزائي الوحيد، هو أنّني زرته قبل موته بأيّام. فقد توفّي في ٢٧ آب ١٩٨٤، وزيارتي له في البربارة كانت في ١٨ آب ١٩٨٤. تحدّثت معه ساعتين، وهو مستلقٍ على فراشه. وكان يحدّثني بصوت خفيض ويعود بالذكرى إلى سنين مضت، ورحلة انقضت. حدّثني عن طفولته، وعن حداثته، وعن الفترة التي كان فيها معلّماً، وكيف اختلف مع الأميركان.. وعن العصبة الأندلسية، وكان أحد مؤسّسيها، وعن نضاله ضدّ الاستعمار، وعن محبّته لأُمّه وأخته وأصدقائه، وعن عهده في المغترب، وما قاساه من شدائد ومصائب. وسجّلت حديثه على أن أنشره فيما بعد.

(الضاد، العدد ٩/١٩٨٤، ص٢١-٣٠، والعدد ١٢/٢٠٠٤، ص٣-٨)



سلطان باشا الأطرش
فارس السيف

سلطان باشا الأطرش، هو ابن ذوقان بن مصطفى بن إسماعيل مؤسّس الأسرة التي تولّت مشيخة الجبل ابتداء من عام ١٨٩٦. تفتّحت عينا سلطان على الحياة في "القريا" في جبل العرب عام ١٨٨٨ وأسهم في المعارك ضدّ المستعمر العثماني، ولبّى نداء الثورة العربية الكُبرى وحمل رايتها ضدّ المستعمر الفرنسي الدخيل.

قاد **سلطان باشا الأطرش** شبّان وفلاّحي جبل العرب والثائرين الشرفاء في سورية عام ١٩٢٥ عندما أعلن ثورته الكُبرى، واشتعلت الثورات في جميع مناطق سورية. وكانت ثورة **سلطان باشا الأطرش** بداية نضال تاريخي طويل للشعب العربي السوري. لقد

أضاء **سلطان باشا** شعلة الكفاح في ليل حالك من ظلم المستعمر واستبداده وأنار الطريق أمام الثوّار بعد أن رزحت البلاد تحت كابوس الاستعمار أعواماً خمسة منذ معركة ميسلون التي قادها البطل **يوسف العظمة**.

لقد نادى **سلطان باشا الأطرش** لتوحيد الكلمة والمساعي والجهاد، وحضّ المواطنين أينما كانوا على التماسك والوحدة، وحثّهم على الصبر والقتال. ودعا إلى وحدة عربية نبيلة المقاصد، وهبَّ في وجه الاستعمار طالباً الحياة الكريمة الحرَّة الأبيّة، وأوقد شعلة الثورة في النفوس ضدّ البغي والعدوان. ودعا كذلك إلى توحيد الإرادة الحديدية الواحدة والإخاء الوطني، فنال بجدارة اسم القائد العامّ لثورة مهَّدت للأجيال المستقبل الأفضل.

لقد سطَّر **سلطان باشا الأطرش** أروع صفحات المجد والفخار، وروّى بالدم جذور الثورة ضدّ المحتلّين في الوطن العربي، وطالب فرنسا بحقّنا المشروع. وعندما تنكّرت له، طلب من أبناء شعبه أن يكتبوا هذه المطالب بالدماء الطاهرة، كما كتبها أجدادنا العرب من قبل، فلم يبخلوا بها وجادوا بكلّ غالٍ ونفيس لتحقيقها. خمسة وعشرون عاماً وهو مصرٌ مع إخوانه الثائرين على أن يناهضوا الانتداب حتّى يحرّروا وطننا العزيز الكريم.

قال قدِّيس القومية العربية الشاعر القروي "**رشيد سليم الخوري**" واصفاً الثورة السورية الكُبرى:

خففتَ لنجدة العاني سريعا ... غضوباً لو رآك الليثُ ريعا
وحولك من بني معروف جمعٌ ... بهم – وبدونهم – تفني الجموعا
كأنّك قائدٌ منهم هضاباً ... تبعنَ إلى الوغى جبلاً منيعا
تخذتهمو لدى الجُلّى سيوفاً ... لها لعنَ الفرنسيُّ الدروعا
وأيُّ دريئةٍ تعصى حُساماً ... تعوَّد في يمينك أن يُطاعا

إلى أن يقول:

ولمّا صرتَ من مهجِ الأعادي ... بحيثُ تذيقها السمَّ النقيعا
وثبتَ إلى سنام "التنك" وثبا ... عجيباً علّمَ النسرَ الوقوعا
وكهربتَ البطاحَ بحدِّ عَضْبٍ ... بهرت به العدى فهووا ركوعا
وفجّرتَ الدماءَ بهم عيوناً ... تجاري من عيونهم الدموعا

فخرٌ الجند فوق "التنك" صرعى وخرٌ "التنكُ" تحتهمو صريعا
ويا لك "أطرشاً" لمّا دُعينا لثار كان أسمعنا جميعاً

وقد حكم عليه المستعمرون الفرنسيون بالإعدام عدّة مرّات. وعندما جرت المفاوضات مع الفرنسيين وصدر العفو العامّ، عاد **سلطان باشا الأطرش** إلى بلده حيث استُقبل استقبال الفاتحين.

وقد رحَّب المناضل **الأطرش** بأوّل وحدة عربية في تاريخنا الحديث حيث التقى الزعيم العربي الراحل **جَمال عبد الناصر** وشدَّ على يديه معرباً عن أمله في تحقيق الوحدة العربية الكُبرى. كما رحَّب بالحركة التصحيحية التي قادها الرئيس المناضل **حافظ الأسد** وتُوِّجت بحرب تشرين التحريرية ورفع مكانة سورية العربية وعزَّز قدراتها وجعل منها قلعةً للصمود العربي ومنطلقاً لمسيرة التحرُّر واستعادة حقوق شعب فلسطين وبناء المجتمع العربي المنشود. كما أهاب بصمود أهلنا في الجولان المحتلّ وخاطبهم من على فراش المرض ليواصلوا مواقفهم البطولية المشرّفة والتمسُّك بالوحدة الوطنية. أليس هو القائل: "يتحدَّثون عن حلّ مشرّف لقضية فلسطين، هل هناك من حلّ مشرّف غير استعادة فلسطين". وكانت هذه آخر كلماته. وبالنسبة إليه فلسطين هي كلّ فلسطين. والاحتلال الصهيوني لا بدَّ زائل مهما طال زمنه. كان – رحمه الله – لا يقبل بأنصاف الحلول، فإمّا الحياة والحرّية، وإمّا الشهادة ليأخذ الآخَرون الراية ويكملوا المسيرة.

لقد اقترن اسم الجلاء باسم بطل الجهاد **سلطان باشا الأطرش** القائد العامّ للثورة السورية الكُبرى. ونال المناضل الكبير أرفع الأوسمة من الرئيس **حافظ الأسد** ومن الزعيم الراحل **جَمال عبد الناصر** تقديراً لبطولته ومواقفه الوطنية والقومية المشرّفة. وكان مدرسة كُبرى في البطولة والفداء والنضال الوطني المقدَّس. فكان بحقّ شيخ الثوّار وفارس الجبل [1].

(الضاد، العدد ٣/١٩٨٢، ص١١-١٤)

---

[1] تقديراً لهذا الفارس فقد أقامت سورية نصباً تذكارياً بديعاً لشهداء الثورة السورية الكُبرى، وذلك في بلدة القريا ونقلت إليه رفات سلطان باشا الأطرش في العام ٢٠٠٩. ثمّ دُشّن النصب مع متحفه الضخم الذي يضمّ إنجازات الثورة ووثائقها في احتفالات الجلاء، العام ٢٠١٠.



الموسيقار الخالد كميل شمبير

وُلد الموسيقار كميل شمبير بحلب، في ٨ أيّار سنة ١٨٩٢. دخل مدرسة الفرنسيسكان فعُرف فيها بالذكاء والنشاط وسرعة الخاطر، وصدق الولاء وخفّة الروح.

تجلّت مواهبه الموسيقية منذ عهد طفولته، فكان إذا بكى لشيء وسمع لحناً كفَّ عن البكاء، وأقبل على سماع ذلك اللحن شغوفاً. ولقد قويت فيه هذه الموهبة واشتدّت اشتداداً جعله يكبُّ على درس أصول الموسيقا، وإتقان أساليبها. وأوّل آلة اختارها من بين آلات الطرب هي البوق (البيسطون).

رآه رئيس المدرسة بارعاً في العزف، فعهد إليه بإدارة الجوقة الموسيقية التي أسّستها المدرسة، فقام بهذا الواجب على الوجه الأكمل. وعندما بلغ عامه الخامس عشر نزح إلى الأرجنتين، وأقام بمدينة بوينس أيرس، ثمّ قصد إيطاليا فأتمّ دروسه في الموسيقا.

رجع إلى الوطن فاشتغل بشركة سكّة حديد بغداد التي كانت تعمل يومئذ على مدّ خطوطها. ولمح مهندس تلك الخطوط ما لكميل من حَميّة ونشاط، فأحبّه وقرّبه إليه وجعله مرافقه الخاصّ.

ولمّا أُعلنت الحرب الكُبرى وبدأت تركيّا بتجنيد شباب العرب سافر إلى مصر تخلّصاً من التجنيد.

وتعرّف في مصر إلى بعض الموسيقيين. ولمّا توثّقت في ما بينهم عرى الصداقة أسمعهم شيئاً من الألحان التي وضعها يوم كان يدرس على نفسه في الشهباء، فأُعجبوا بألحانه، وقدّروا له نبوغه وسلامة ذوقه، ونصحوه أن ينصرف إلى الموسيقا. فانصرف إليها واستطاع أن يحرز فيها شهرة رفعت اسم وطنه عالياً في عالم الفنّ.

صاحَب زعماء النهضة الموسيقية في القاهرة أمثال المرحومين الشيخ **سيّد الدرويش وكامل الخلعي**. وكان الأوّل أشدّ الناس إعجاباً به.

له أكثر من مئة أسطوانة منها اثنتان وستّون سجّلتها شركة أوديون.

لحّن أناشيد أهمّها: نشيد الشرق، سورية، بغداد، لبنان، الملك فيصل، الراية، الحرّية، الكلمة، سورية الجميلة، يا بلبل الأوطان، يا بلاداً في جبين المشرق. ابتكر تقاسيم رائعة هذه بعضها: تقسيم عجم، سيكاه، صبا، حجاز، نهاوند، راست، بيات، يكاه، نوى أثر، لونغا شاهناز، حجاز كار، حجاز كار كردي، حجاز كار على الواحدة.

أشهر المونولوجات التي لحّنها: اذكريني، الخيال، سكن الليل، نبّئيني يا حمامة، نجمة الليل، يا بلاداً، أيّها الغزال، أنت هند تشكو.

من طقاطيقه المعروفة: نويت أسيبك، طوّل بالك، حماتي، زفّة العروس، الصبر طيّب، وحياة عيني ما ميل للغير، يا درة نيلي يا مشوية.

وضع مارشات موسيقية بديعة منها: مارش سورية، الملك فيصل، الملك فؤاد،

المقطّم، الاتّحاد، النهضة. وله غير ذلك آثار عديدة مبعثرة ومخطوطات قيّمة في عالم الموسيقا، منها كتاب أصول تركيب الأنغام.

علّمَ نخبة من سيّدات وأوانس كبار الأسر أصول الموسيقا الشرقية على البيانو، وحبّب إليهنّ الألحان فأقبلنَ عليها. امتاز بالعزف على البوق (البيسطون) وأخرج منه أصواتاً لم تكن فيه كالربع مقام وغيره.

كان أوّل مَن ذلّل البيانو العربي وضبط أوزانه لإخراج الألحان الشرقية. كما كان أوّل مَن فكّر في وضع وتلحين روايات غنائية "أوبريت". وله من هذا النوع رواية "توسكا". وهي أوّل أوبرا عربية لحّنها موسيقار عربي. ولم يكن **كميل** موسيقياً وملحّناً فقط، بل كان ممثّلاً وروائياً وكاتباً وزجّالاً من الطراز الأوّل.

ولا بدَّ لنا من أن نذكر في هذه المناسبة جانباً صغيراً عن كلّ ما نعتناه به فنقول: اشتغل **كميل** بالتمثيل مدّةً فنجح فيه نجاحاً باهراً وصار يُعدّ من كبار الممثّلين المصريين. وكان أحسن ما يستطيع تقليده وإتقانه من مختلف الأدوار هو دَور المجنون الأبله والمعتوه.

دخل فرقة **عبد الله عكاشة**، ثمّ انتمى إلى فرقة الأستاذ **أمين عطا الله** الملقّب **بكشكش بك**، وأخذ يعمل معه على تأليف الروايات الهزلية. أوّل رواية ألّفها هي رواية **الغريب البائس**، ولقد بلغ من روعتها وجَمال موضوعها أنّها بيعت بخمسمئة جنيه مصري.

أمّا باقي الروايات التي ألّفها وعرّبها واقتبس مواضيعها فهي: المروءة والحبّ، حلب على المسرح، عقبال عندك، شهر العسل، النونو، المجرم، ساعة الحظّ، الحبّ يا ما لوَّع، غنيّ وفقير، ليالي الأنس.

وكلّ مَن شهد رواية النونو التي مثّلها بعض أنصار لجنة الكلمة التابعة لجمعية مشاريع الكلمة الخيرية، يقدّر نبوغ واضعها ويشهد له بالذكاء وخفّة الروح.

ولقد مرَّ بنا أنّ "**كميل**" كان كاتباً وزجّالاً، وهذا ما يدعونا إلى أن نأتي على شيء ممّا كتب ونظم في شتّى المناسبات.

عندما قام فريق من أدبائنا بتكريم الأستاذ **ميخائيل الصقّال** ألقى المرحوم **كميل**

قصّة رائعة مبتكرة الأسلوب وزجلاً فكاهياً جزلاً أثار بين الحاضرين ضجّة استحسان كبيرة.

وعندما احتفلت لجنة الكلمة بتدشين دار عجائزها تلا قطعة أدبية صفّقت لها الأيدي والقلوب.

ويوم أقام فريق من أدباء الشهباء ومفكّريها حفلة تشجيعية لصاحب "الضاد" عبد الله يوركي حلاّق، عام ١٩٣٤، بمناسبة تسلّمه إدارة "الضاد" ونقل الامتياز باسمه، ألقى الفنّان الراحل كميل شمبير خطاباً انتقادياً بديعاً عنوانه: "يعجبني ويغيظني". ثمّ أتبعه بقطعة زجلية طريفة هي عند الكثيرين أجمل وأبلغ من القصائد المقفّاة الموزونة، منشورة في عدد خاصّ من الضاد صدر عام ١٩٣٤. ويسرُّنا أن ننشر مقطعين من هذه الزجلية:

تعيش يا أبو عبده للأيّام	وتخدم فنّك بالذمّه
وتلوف على أرباب الأقلام	اللي لهم أفكار جمّه
وتصبح يوم في العلم إمام	وتحقّق فيك أمل الأُمّه

وتنشي جرايد ومجلاّت

يحقّ لنا نفخر بالضاد	ما دمنا الكلّ ننطق بالضاد
واحنَ الكلّ على استعداد	ايدنا ف ايدك باتّحاد
خدّم الأدب موش للأفراد	دي خدمة عامّة للبلاد

دي فرض علينا وواجبات [1]

وحسبنا الآن أن نقول إنّ كثيراً من الحلبيين، ومن غير الحلبيين لم يعرفوا الفقيد ولم يقدّروا له آثاره الفنّية الجليلة إلاّ بعد أن ضمّه اللحد، كأنّما كُتب لكلّ متفنّن وعظيم أن يعيش بائساً مجهولاً حتّى إذا مات وقُبر انتشر ما كان خافياً من ذكره وفضله.

ولكنْ، بعد الحركة التصحيحية المباركة التي قادها الرئيس الراحل حافظ الأسد،

[1] راجع "ثمار الضاد في رحلة العمر ١٩٣١-٢٠٠٦"، ص١٠٤-١٠٥.

أصبحنا في نعمة نُحسد عليها، إذ اهتمّ بالأدباء والكتّاب والشعراء والفنّانين المبدعين الذين أخلصوا لهذا الوطن وقدّسوا هذا التراب. فلقد اعتنى بهم الرئيس **الأسد** وكرّمهم أحياء وأمواتاً.

كان الموسيقار **كميل**، رحمه الله، وديع النفس، طيّب القلب، دمث الخلق، لطيف المعشر، ذا حديث جذّاب ونكات ظريفة حبّبته إلى القلوب وجعلته زينة المجالس.

يُروى عنه أنّه قصد - بعد عودته من مصر - حيّ الشرعسوس وزار الدار التي وُلد فيها زيارة عدّها في طليعة ما كان يتمنّاه.

وحكى لي والدي، أنّه كان يُحسن إلى كلّ مَن يستحقّ الإحسان، وعلى الأخصّ فإنّه كان يساعد العائلات المعوزة المستورة مساعدات لم يدرِ بها أحد من أقرب الناس إليه. لأنّه كان يؤثر فعل الخير على سائر المبرّات. كما كان أريحياً كريماً لا يضنّ بأثمن أوقاته في سبيل نصرة مختلف المشاريع الخيرية والعمرانية.

قصد في آخر صيف عام ١٩٣٤ مدينة دمشق مع الفرقة الغنائية التي يرأسها. وهناك استطاع أن يصادف الإقبال الذي كان يرتجيه.

أصيب في ٨ تشرين الثاني عام ١٩٣٤ بنازلة قوية، ولفظ أنفاسه الأخيرة يوم الجمعة في ٩ تشرين الثاني ١٩٣٤. وحُمل جثمانه من دمشق إلى حلب، وهنا في حلب شُيّعت جنازته باحتفال مهيب يليق بشهرته ومكانته، وأبّنه في ساحة الكنيسة وعلى القبر لفيف من الخطباء والشعراء.

وفي الساعة التاسعة من مساء يوم السبت الواقع في ٧ كانون الأوّل سنة ١٩٣٥، أقام الأساتذة **أنطونيوس الصبّاغ، أحمد الأوبري، عمر أبو ريشة، شارل خوري، رزق الله جهامي، أنطوان حامض، عبد الله يوركي حلاّق** في قاعة النادي الكاثوليكي بحلب حفلة تذكارية كُبرى للموسيقار العبقري المشهور المرحوم **كميل شمبير** بمناسبة انقضاء سنة على وفاته. وقد اشترك في هذه الحفلة رهط من أعضاء النادي الموسيقي الحلبي وفريق من الموسيقيين على رأسهم المتفنّنة البارعة الآنسة **ماريغون كندرجي**.

وكانت لجنة الاحتفال قد طلبت إلى بعض الأدباء المعروفين أن يوافوها بما يريدون

قوله من شعر ونثر في الفقيد الكبير. فأرسل إليها الشاعران اللامعان الأستاذان حليم دمّوس ورياض المعلوف قصيدتين بديعتين. كما بعث إليها الأستاذ ألكسي اللاذقاني رئيس النادي الموسيقي في بيروت بكلمة رقيقة تدلّ على نبل عاطفته. وعند منتصف الليل رجع المدعوّون إلى منازلهم وهم معجبون بكلّ ما سمعوه من الشعراء والخطباء والموسيقيين والمنشدين الذين نشطوا إلى تكريم المرحوم شمبير، تقديراً لمنزلته الفنّية، وإقراراً بجهوده الكثيرة، وخدماته الجلّى التي بذلها في سبيل الموسيقا الشرقية.

وهذه بعض أبيات شاعر الشهباء عمر أبو ريشة:

نامَ عن كأسه وعن أحبابهْ ... قبل أن ينقضي نهار شبابهْ
نام عن سكرة الحياة وقد جـ ... ـفّ شرابُ السلوان في أكوابهْ
بسماتُ الرضى على شفتيه ... وشتات الرؤى على أهدابهْ
وبنات الغروب تسكب في أذ ... نيه موجات عوده وربابهْ
يا بنات الغروب قد نفض الليـ ... ـلُ على الكون حالكات نقابهْ
احملي الراحل الغريب وسيري ... بالزغاريد سلوة لاغترابهْ
وادخلي هيكل الفنون وأهديه ... سراجاً يضيء في محرابهْ

أحدثت وفاته ضجّة حزن وأسى شاملة. فنعاه المذياع، وبكاه كبار المتفنّنين المصريين، وعقدت أُمّهات الصحف العربية حول نبوغه وعبقريته الفصول الطوال. وقد سطّرت مجلّتا "الضاد" و"الكلمة" صفحات خاصّة عن حياة الفنّان كميل شمبير وعمّا قيل فيه في حياته ومماته وعن مؤلّفاته الموسيقية الرائعة.

قالت فيه فرقة الكسار المشهورة: "إنّ الموسيقا قد خسرت بفقده ركناً من أركانها، وعنصراً قلّما يجود الزمن بمثله، ألا وهو عنصر التجديد والابتكار".

وقالت فيه إحدى كبريات الصحف المصرية: "إنّه كان يجيد العزف على البيانو إلى درجة الكمال، وإنّ أنامله الحسّاسة كانت تطيع روحه الفنّية طاعة عمياء، فتنتزع من أضلع البيانو الصلبة أنغاماً شجية وألحاناً عذبة يصعب على الكثيرين انتزاعها من تلك الآلة التي صنعت للموسيقا الغربية وحدها".

هذا هو الفنّان الأستاذ كميل شـمبير. وهذه آثاره التي خلّفها للأدب والفـنّ، فليبكـه القلم ولتندبه الأوتار ولتحزن عليه المجالس الـتي كانـت تـسمع مـن أحاديثـه الرشـيقة، ونكاته اللطيفة ونوادره المستملحة ما كان يجعلها في لـهو ومرح.

ففي ذمّة التاريخ أيّها الفذّ الأبرّ، ما خلّفت من الآثار الجليلة القيّمة، وفي سبيل الفـنّ ما خلّدت في عالم الفنّ، من القطع الساحرة، والنغمات الشجية العذبة.

وإنّ حلب الشهباء، التي رفعتَ شأوها في نظر كلّ مَن يترنّح للطرب، ويهتزّ لاهتـزاز الأوتار وتلاعبها، ستحافظ على ذكرك الطيّب بمـا تـستحقّه جهـودك المثمـرة، وسـتردّد اسمك اللامع، بمنتهى الإكبار والاحترام، ما صدحت فيها الأنغام، وما تصاعدت من أفواه فتيانها وشبابها وشابّاتها، أناشيد الفخر والحماسة.

(الضاد، العدد ١٩٩٨/٨، ص٥-١٢، والعدد ٢٠٠٢/٩، ص٣-٩، لمناسبة مرور ٦٨ سنة على وفاة كميل شـمبير)



الأستاذ فتح الله الصقّال
ذكرى خالدة

أحببتُ القانونيَّ الكبير، والإنسانيَّ الأكبر، الأستاذ **فتح الله الصقّال**، منذ كنتُ صغيراً. فقد كان أبي، من أقرب المقرَّبين إليه، ومن أكثر الناس إعجاباً بشخصيته الفذّة، ومبرّاته الرائعة.

وكان أبي، يحدّثنا عن ذلك الرَجل الأريحيّ، وعمّا يبديه في سبيل الخير، من أعمال

عظيمة، لا يقوى على القيام بها، إلاّ من غرسَ الله في قلبه، الرحمة الخالصة، والحنان الصافي، والقدرة على الجهاد، في مضامير البذل والتضحية ونكران الذات.

وكثيراً ما سمعنا عن ذلك الرَجل المحسان، روايات تتجلّى فيها جرأتهُ النادرة في إعلان الحقّ، وخدمة العدل، والدفاع عن المظلومين. وليس دفاعه عن المجاهد السوري **إبراهيم هنانو**، سوى دليلٍ ناصع، على شجاعته الفائقة، ووطنيته الصادقة، ومحبّته القصوى للمناضلين الأوفياء من أبناء أُمّته ووطنه.

ولا تزال الأُمّة العربية عامّة، والشهباء خاصّة، تذكر بمنتهى الإكبار والإعجاب، دفاعه المجيد عن ذلك المناضل الكبير، وإنقاذه من حبائل المنتدبين، الذين كانوا يريدون له عقوبة الإعدام.

وأتاح الله لي بعد ذلك، أن أتعرّف بالأستاذ **الصقّال**، وأن أستمع إلى خطبه البليغة، وأن أقرأ ما تدبّجه يراعته، من مقالات بديعة، تتّسم بالوضوح والإشراق، وتهدف إلى أسمى الغايات، وأشرف المقاصد. فالإنسان المطبوع على حبّ الخير ونشر المبرّات، لا يهدأ له بال، إلاّ إذا أعطى وبنى وأحسن إلى مَن يستحقّون الإحسان من إخواننا البشر.

ولقد أعطى الأستاذ **الصقّال** كثيراً من ماله، وشيَّدَ تحت سماء الشهباء، داراً للعجائز، ومستشفى للمرضى، وديراً للراهبات الكرمليات، أنفق عليه من أمواله، وأموال أسرته الكريمة، فجاء من أوسع وأجمل أديرة الكرمل في العالم.

والذين عرفوا الأستاذ الراحل، معرفةً وثيقة، يشهدون له بالهمّة العالية، والكرم العربي الأصيل، وبصفات رفيعة، قلّ أن يزدان بها رَجلٌ واحد. فقد كان رحمه الله، أديباً كبيراً، ومحامياً ألمعياً، وخطيباً قويَّ الحجّة، طليق اللسان، وكان يرتجل خطبه ارتجالاً يشدُّ إليه السامعين، ويمتلك قلوبهم وخواطرهم بسحر بيانه، وعلوّ أفكاره، وفصاحة لفظه.

أمّا مرافعاته أمام المحاكم، فكانت آيةً في روعة السبك، وتمحيص القوانين، ودحض الباطل، وإبراز الحقيقة الناصعة، أمام أعين القضاة. وبهذه الميزة الخطابية الفائقة، والمعرفة الحقوقية الشاملة، كان دائماً الفائز المنتصر في مجالات الحقّ والعدالة، وكان ولا يزال اسمه، على كلّ شفة ولسان، مقروناً بالمحبّة والإكرام والاحترام.

ومنذ نحو خمسة عشر عاماً [1]، ترك الأستاذ **الصقّال** المحاماة، وتفرّغ لخدمة الإحسان، ولرعاية مشاريع الكلمة التي أحبَّها من صميم قلبه، والتي وقف عليها كلَّ وقته وأمواله. وبفضل برّه وإدارته الحكيمة، نمت تلك المشاريع وازدهرت ازدهاراً عظيماً، وأصبحت في مقدّمة المؤسّسات الخيرية في قطرنا السوري الحبيب.

وبالرغم من مرضه الأخير، فقد ظلَّ متابعاً عمله الإنساني، مشرفاً على مختلف شؤونه، ساعياً إلى تنمية موارده، رحمةً بالعاجزين والمرضى والفقراء، الذين أحبّهم بكلّ جوارحه، كما أحبّهم السيّد المسيح.

وشاء الله جلّت قدرته، أن يكافئ في علياء سمائه، ذلك المحسن الأريحيّ الكبير، الذي أدّى رسالة الرحمة والمحبّة، على أشرف وجه، وأنبل قصد، فدعاه إليه في يوم الجمعة العظيمة، لينعم في فراديس الجنان، بين الأبرار والصدّيقين.

وكان يوم مأتم أستاذنا **الصقّال**، يوماً مهيباً، مشت فيه حلب، وراء نعش الفقيد العزيز، تودّعه بالدموع السخينة السخيّة، وبالزفرات المحرقة الموجعة، وبوابل من الحسرات والرحمات.

في ذلك اليوم المشهود، برزت عظَمة الأستاذ **الصقّال**، بأجلى مظاهرها، وأسمى معانيها، وأكرم صورها. فقد قدّرت حلب في ابنها البارّ الراحل، علمه وإحسانه وتضحيته بالنفس والنفيس، من أجل إعلان كلمة الحقّ، وإعلاء رايات المروءات والمكرمات.

وإنّ إنساناً كالأستاذ **الصقّال** ، جدير كلَّ الجدارة، بما لقيهُ من محبّة أُمّته وإكرامها.

وستظلُّ ذكرى **فتح الله الصقّال** خالدةً في قلوب أهله وأصدقائه وأبناء وطنه. وستبقى أعماله الإنسانية، شاهدةً تنطق بجوده، وتشيد بفضله ونبله ومكارم أخلاقه.

إنّ عباقرة الرجال، وأفذاذ المحسنين كالأستاذ **الصقّال**، لا يموتون، وإنْ نُقلت أجسادهم إلى منازل الأموات، لأنّهم أحياء في تاريخ أُمّتهم، وفي جنان النعيم، الذي وعد الله به عباده المتّقين.

(الكلمة، العدد المزدوج ٣ و٤ / ١٩٧٠، ص١٧٦–١٨٠)

---

[1] توفّي الأستاذ الصقّال صباح يوم الجمعة ٢٧ آذار ١٩٧٠، وكُتبت هذه المقالة بُعيد وفاته.



أحمد الصافي النجفي

في أقلّ من سنة واحدة، خسر الأدب العربي في الوطن والمهجر، نخبةً من كبار شعرائنا وأكثرهم ألمعيةً ونبوغاً. فقد توفّي في البرازيل أربعة شعراء أفذاذ هم: **إلياس فرحات** و**شفيق المعلوف** صاحب ملحمة "عبقر" و**قيصر سليم الخوري** الملقّب بالشاعر المدني، وشقيق الشاعر القروي **رشيد سليم الخوري**، و**ميشيل مغربي**. وبغياب هؤلاء الأقمار الأربعة، انطوى علم الشعر العربي في ذلك المنقلب من أرض المهجر الجنوبي.

وفي مصر، استأثرت رحمة الله باثنين من أعاظم شعرائها وهما: **عبد الله شمس الدين** صاحب نشيد "الله أكبر" و**محمود حسن إسماعيل**، فضلاً عن شاعر سوري توفّي

هناك هو المؤرّخ والكاتب والشاعر المجيد **خير الدين الزركلي**. ومنذ أمد قريب، فُجع العراق، بواحد من أشهر شعرائه وأكثرهم إبداعاً في ميدان الوصف الصادق، والتعبير الدقيق عن خفايا النفس وأغراض المجتمع، ونعني به **أحمد الصافي النجفي**.

وُلد عام ١٣١٤هـ/١٨٩٧م في مدينة النجف الأشرف بالعراق [1]. وكان أبوه **علي الصافي النجفي** من أصحاب الأملاك، ومن أسرة كريمة تهتمُّ بالعلوم الدينية والأدبية. والتحق **أحمد** بمدارس النجف ودرس الصرف والنحو والبيان والفقه والمنطق. وكان من أساتذته العلماء الإمام السيّد **أبو الحسن الأصفهاني** والسيّد **حسين الحمامي**. وفي سنة ١٩١٤ تجلّت موهبته الشعرية ونزعته القومية. وأسهم في عام ١٩١٩ في ثورة لم يُكتب لها النجاح، فهرب إلى إيران حيث لقي في مدينة طهران ترحيباً كبيراً. وفي عام ١٩٢١ أصبح مدرّساً للأدب العربي في المدارس الثانوية في العاصمة الإيرانية، ولم يشغله التدريس عن ممارسة الصحافة، فكتب في أُمّهات الصحف الفارسية، وكان عضواً في النادي الأدبي في طهران وأحد أعضاء لجنة الترجمة والتأليف في هذا النادي.

وفي سنة ١٩٢٧ عاد إلى العراق ولم يستطع العمل بسبب سوء صحّته، فسافر إلى دمشق للاستشفاء. وفي العاصمة السورية الفيحاء لمس أوفر المحبّة وأشرف مشاعر الإخاء العربي.

أيّد **النجفي** حركةَ **رشيد عالي الكيلاني**، فاعتقلته السُلطة الإنكليزية إبّان الحرب العالمية الثانية، ثمّ أفرجت عنه، فانصرف إلى الشعر. وعرف فيه أدباؤنا روحاً عربية تعيش آمالَ أُممٍ، ومستقبل أجيال. وله في الشعرِ القومي والوجداني قصائد كلّها قوّة وجزالة وإبداع.

كان الشاعر **النجفي** يجيد اللغة الفارسية، وعنها ترجم رباعيات **عمر الخيّام** ترجمة أجمع كبار النقّاد على أنّها تطابق الأصل معنىً ومبنىً. وحسبنا أن نضع أمام القارئ نماذج من تلك الرباعيات:

كلُّ ذرّات هذه الأرض كانتْ أوجهاً كالشموسِ ذات بهاءِ

---

[1] راجع ما كتبه عنه المرحوم رشاد علي أديب في "الضاد"، العدد المزدوج ١ و٢/ ١٩٧٤، ص٤٣-٥٥.

اجـلُ عـن وجهـك الغبـارَ برفـقٍ فهـو خـدٌّ لكاعـبٍ حسـناء

الفجـرُ لاحَ فقـمْ لنـا يـا صـاحِ واملأ زجاجـكَ مـن عقيـق الـراحِ
فزمـان أنـسك إن يفـت لم تلقـهُ وتظـلُّ تنـشد سـاعة الأفـراح

بـادرْ فـسوف تعـودُ أدراج الفنـا وسـتتركُ الجثمـان منـكَ الـروحُ
واشـربْ وعـشْ جـذلاً فلست بعـالمٍ مـنْ أيـن جئـتَ وأيـنَ بعـدُ تـروح

لا عيش لـي بـسوى صـافي المدام ولا أطيـقُ حمـلاً بـدون الـراح للجـسد
مـا أطيـبَ الـسكرَ والـساقي يناولني كأساً وتعجزُ عن أخذ الكؤوس يدي (٢)

وللشاعر أحمد الصافي النجفي شعر إنساني يتّسم بالرقّة ونبل العاطفة والإحساس بشعور المحرومين. فاسمعه يقول في ماسح أحذية:

جاء نحـوي مـن بعـدما طـاف يومـاً دونَ ربـحٍ غـير العنـا والـسقامِ
أنـا خـصمي الألـوان تخفـي عيوبـاً إنّ عنـدي الألـوانُ كالأوهـام
قلـتُ أحبـوهُ درهمـاً غـير أنّـي خفـتُ مـن أن يذلّـهُ إكرامـي
ثـمّ بادرتـهُ بمـا ضـمَّ جـيبي مـن نقـودٍ أعـددتها لطعـامي

لقد أحبَّ الشاعر النجفي أرض الشام وهواء لبنان فعـاش بينهمـا زاهـداً في المأكل والملبس، ناظراً إلى جَمال الطبيعة بشغف وهيام. ومَن يقرأ دواوينه الكثيرة المطبوعة يلمس روعة المعنى وقوّة الصياغة وسلاسة الألفاظ. وقد تعرّفت إليه في بيروت. وكنّا نلتقي يومياً في مقهى بالبرج: أنا والشاعر القروي ووديع ديب ونزار الزين ووديع شبلي والبير أديب، رحمهم الله جميعاً.

بقي النجفي أبياً لا يقبل أية هبة أو معونة، بل يعيش بشظف من نتاج ووارد دواوينه. وفي نيسان ١٩٧٤ خصّصت لـه حكومته راتباً تقاعدياً، فعاد إلى العراق في أوائل ١٩٧٦. وتوفّي بعد نيّف وسنة في وطنه الأوّل. رحمه الله وأجزل ثوابه، وأفسح لـه في جنانه موقعاً سنياً.

(الضاد، العدد ٩/١٩٧٧، ص٣٥-٣٨)

---

(٢) في مجموعة عام ١٩٥٤ من مجلّة "الضاد" نماذج رائعة من رباعيات الخيّام ترجمة كلّ من: احمد الصافي النجفي وقيصر المعلوف ووديع البستاني الذي جعل الرباعيات "سباعيات".



بدوي الجبل
محمّد سليمان الأحمد

وُلد محمّد سليمان الاحمد، في بيت علم وأدب وفضل، في قرية "ديفة" التابعة لمحافظة اللاذقية عام ١٨٩٨. وكان أبوه علاّمة جليلاً، وفقيهاً كبيراً متبحّراً في اللغة العربية والشعر والتاريخ. وكان عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق.

وقد اختلف دارسو حياة هذا الشاعر على تاريخ مولده. فقال بعضهم - **سامي الكيّالي** والدكتور **عمر الدقّاق** - إنّه وُلد عام ١٩٠٣. وقال غيرهما إنّه وُلد سنة ١٩٠٤. وجاء في كتاب (مَن هم في العالم العربي) لجورج **فارس**، أنّه وُلد عام ١٩٠٨ في اللاذقية. وقال أديب (جبلة) وعالمها المغفور له **رشاد علي أديب**، إنّه وُلد عام ١٩٠١ في قرية

"ديفة" التابعة لمنطقة الحفّة، وانتقل مع أبيه إلى قرية السلاطة التابعة لمنطقة القرداحة. وكانت في ذلك الحين تابعة لقضاء جبلة. بيد أنّ قيده في السجلّ المدني، يدلّ على أنّه من مواليد سنة ١٨٩٨.

وبالرغم من تضارب الأقوال حول تاريخ مولد هذا الشاعر، فإنّه لم يبحث في هذا الموضوع ولم يكترث له ولم يحفل به، وحسبه أنّه أعطى أُمّته من جهده وإخلاصه وأدبه الرفيع، أوفر العطاء، وأسمى المحبّة والوفاء [١].

بدوي الجبل

كان فتى طري العود، غضّ الإهاب، عندما قدّم إلى الأستاذ **يوسف العيسى** صاحب جريدة (ألف باء) ورئيس تحريرها قصيدة بعنوان (**ماك سوني**). وماك هذا، كان محافظاً لمدينة كورك الإيرلندية، فناهض السياسة الإنكليزية في بلاده، وتصدّى لمطامع بريطانيا ومظالمها، فاعتقله الإنكليز وسجنوه، فأضرب عن الطعام احتجاجاً على طغيانهم، وبقي على إضرابه حتّى مات جوعاً وعطشاً. وكان قد ألّف في معتقله صلاة وطنية رتّلها الإيرلنديون في كنائسهم، وما زالوا يرتّلونها في المناسبات القومية.

وقد هزّت هذه الحادثة مشاعر العديد من شعراء العالم، وحرّكت قريحة **محمّد سليمان الأحمد**، فنظم قصيدة خصّ بها جريدة (ألف باء)، وكانت الجريدة الأُولى في دمشق. وهذا مطلع القصيدة وبعض أبياتها:

أحقّاً ما روى عنكَ الرواةُ ... ترى أم في حديثهم هناتُ
وهل نبأ رواه البرقُ صدقٌ ... أم الأسلاكُ فيه كاذباتُ
غلبتَ الموت فيه وذاك أمرٌ ... ستكبرهُ القرونُ الآتياتُ
بسطتَ يديك بسطةَ أريحيٍّ ... فكانت من عطاياك الحياةُ
رأوكَ تهشُّ في وجه المنايا ... وحولك في الحياة الطيّباتُ
وتقتبلُ الردى ظمأً وجوعاً ... ليذكو الغرسُ بعدك والنباتُ
وأكبرك العداة وربّ حرٍّ ... تغنّتْ في بطولته العداةُ

[١] توفّي محمّد سليمان الأحمد عام ١٩٨١.

عـصيتَ العاطفـات فمـتّ جوعـاً ومـن بعـضِ القيـود العاطفـاتُ
ولم تبخـل بنفـسكَ وهـي كنـزٌ متـى بخلـتْ بأنفـسها الكُمـاةُ
لقـد حرّرتهـا فـسمت صـعوداً كمـا سمـت النجـومُ النيّـراتُ
علـوتَ بهـا عـن الأعـراض حتّـى تـساوى المـوت عنـدك والحيـاةُ

والقصيدة كلّها على هذا النمط من الشاعرية المتوقّدة والجزالـة الـصافية، والمعـاني الرفيعة. ويعود تاريخها إلى عام ١٩٢٤. وقد أعجب بها الأسـتاذ **العيـسى**، وكـان شـيخ الصحافة السورية في ذلك الحين، فنشر القصيدة، وبدلاً من أن يذكر اسم ناظمهـا **محمّـد سليمان الأحمد**، ابتدع اسماً شاعريـاً استمدّه ممّا رآه يومئذ في زيّ الشاعر الجبلي نفسه فسمّـاه (**بدوي الجبل**) ذلك أنّ الشاعر كان يلـبس عبـاءة عربيـة، وعلـى رأسـه كوفيـة وعقال مقصّب.

وصدرت جريدة "ألف باء" وفي صدرها قصيدة بتوقيع "**بـدوي الجبـل**". وأقبـل الناس على قراءتها ووقفوا أمام معانيها البديعة معجبين وظنّ كثير منهم أنّ ناظم عقـدها أحد كبار شعراء دمشق، وجزم بعضهم أنّ صاحبها إمّا الشاعر **خير الدين الزركلي**، وإمّا الشاعر **خليل مردم بك**، وإمّا الشاعر **محمّد البزم**.

وفوجئ **محمّد سليمان الأحمد**، بأنّ قصيدته موقّعـة بغـير اسمـه! فثـارت ثائرتـه، وهرع إلى **يوسف العيسى** ليعلن احتجاجه على ما كان، فقابله شيخ الصحافة، بمـا كـان مفطوراً عليه من لطف وحلم وأناة، وقال له إنّ اسمه كشاعر ما زال مغموراً، وإنّ النـاس اعتادوا أن يقرؤوا نتاج أصحاب الأسماء المعروفة. ثمّ أكّد لـه أنّـه سـيكون لـهذا اللقـب شأن عظيم في عالم الشعر المعاصر.

وبقي **بدوي الجبل** سنة كاملة ينشر قصائده في جريدة (ألـف بـاء) ويـثير إعجـاب القرّاء بهذا الشعر الحافل بالسلاسة والجزالة والتجديد في الصورة والخيال والمعنى.

وكان القرّاء يتساءلون: مَن يكون هـذا البـدوي الجبلـي المترقـرق في شـعره نفـسُ **المتنبّي** وديباجة **البحتري** ومعاني **أبي تمّام** وابن **الرومي**؟ وكثيراً مـا كانـت تنهـال علـى الأستاذ **يوسف العيسى** رئيس تحرير (ألف باء) أسئلة يرغب أصحابها في معرفـة اسـم

هذا الشاعر الذي يعادل **أحمد شوقي** شاعرية وتفنّناً في صياغة القريض واصطياد المعاني البعيدة المنال.

ورأى الأستاذ **العيسى** أنّ الوقت قد حان لإظهار اسم الشاعر المتخفّي وراء العباءة والكوفية والعقال المقصّب، فأقام حفلةً دعا إليها علماء دمشق ورجالات الفكر والأدب والصحافة فيها، وقدّم إليهم (**بدوي الجبل**) وبيّن لهم اسمه الحقيقي "**محمّد سليمان الأحمد**" فأدهشهم أنّه فتى طريّ العود غضُّ الإهاب يملك قريحة خصبة وأفكاراً مبدعة خلاّقة.

بواكير قصائد بدوي الجبل

لم تكن القصائد التي نشرها **بدوي الجبل** في جريدة (ألف باء) **هي** بواكير شعره. بل نشرت له قبل ذلك صحيفة (الصدى العلوي) [٢] بضع مقطوعات شعرية جميلة. غير أنّ نجم **محمّد سليمان الأحمد** لم يتألّق في سماء الشعر العربي، إلاّ بعد أن تصدّى ذلك الشابّ الأسمر للانتداب الفرنسي الذي جزّأ القطر العربي السوري شرّ تجزئة، وأقام دويلات هزيلة في حلب واللاذقية وجبل الدروز، ليقطع كلّ صلة بينها وبين العاصمة دمشق، وليُسكت الأحرارَ المنادين بوحدة الوطن الواحد والشعب الواحد. ومن أحسن قصائد **البدوي** في التنديد بالسياسة الفرنسية الغاشمة قوله:

أتُغْني؟ وما أجدى الحسامُ ولا أغنى ... قواف من الأشعار تبقى ولا تَفْنى
أدرتُ على الأسماع منها سلافةً ... وأرضَيتُ فيها الله والعُرْبَ والفنّا
وهدّدني بالسجن قومٌ سفاهةً ... فتى العَرَب الأنجاد لا يرهب السجنا
سأبعثُ من شعري جياداً مُغيرةً ... عليها كماةٌ تُحسنُ الضربَ والطعنا
يقولون غَنٍّ الغوطتين وهل رأوا ... محبّاً على مثوى حبيبته غنّى؟
ولا تكبروا نعمى الهوان فإنّما ... حياةُ أسيرِ القيدِ لفظٌ بلا معنى

يعود تاريخ هذه القصيدة الوطنية الرائعة إلى عام ١٩٢١ حين كان الانتداب الفرنسي في عنفوانه وغطرسته وتنكيله بكلّ حرّ أبيّ. وقد عارض **البدوي** بقصيدته،

---

(٢) كان يصدرها في أوائل العشرينيات باللاذقية الصحفي محمّد جَمال.

قصيدة على نفس الوزن والقافية ألقاها شاعر العراق جميل صدقي الزهـاوي في المجمـع العلمي العربي بدمشق ومطلعها:

ظننتُ بـأنّ الـشعرَ يُغْـني فمـا أغنـى وكـم شـاعرٍ قبلـي بـه أخطـأ الظنّـا

وهي على نمط قصيدة لأبي الطيّب المتنبّي مطلعها:

نـزور ديـاراً مـا نحـبُّ لـهـا مغنـى ونـسأل فيهـا غـير سـكّانها الإذنـا

ولبدوي الجبل قصيدة في منتهى التألّق الشاعري عنوانها: (طمع الأقوياء) وتعدُّ من بواكيره البارعة، قالـها في سنة ١٩٢٤ وهذا مطلعها وبعض أبياتها:

لا تلمـــهُ إذا أحـــبَّ الـــشآما طابـــت الـــشامُ مربعـــاً ومقامـــا
مـــا رأينـــا الـــشآم إلاّ رأينـــا منـــزلاً طيبـــاً وأهـــلاً كرامـــا
اعطـــني في ربـــوع جلّـــقَ يومـــاً يـا خليلـي وخـذْ مـن العمـر عامـا
يـــا بـــني أمّ [٢] والحيـــاة زحـــامٌ ذلَّ واللهِ مَـــــن يخـــاف الزحامـــا
لا تظنّـــوا الـــسلامَ في الأرض حيّـــاً طمـــعُ الأقويـــاء غـــالَ الـــسلاما
أيعُـــدّون قتـــل شـــعب حـــلالاً ويعـــدّونَ قتـــلَ فـــردٍ حرامـــا؟
عبثـــوا بالنظـــام بغيـــاً وقـــالوا قـــد أتينـــاكم لنحمـــي النظامـــا
في رمـــاد الـــضعيف نـــارٌ فمهـــلاً إنّ ظلـــمَ القـــويّ يـــذكي الـــضراما
أنـــا أخـــشى مـــن الـــضعيف علـــيكم بعـــد حـــينٍ تمـــرّداً وانتقامـــا
يفتـــك الظلـــمُ بالـــضعيف ويـــردي بعـــد حـــين بـــشؤمه الظُلاّمـــا

وقد جرّت عليه قصائده الوطنية كـثيراً مـن المـصائب. فاعتُقـل وسُـجن ونُفـي إلى جزيرة أرواد مع نخبة من المناضلين السوريين الشجعان. وبعد أن أُفرج عنه انتُخب نائباً في دولة العلويين وكان مركـز المجلـس في اللاذقيـة، وبـدوي الجبـل مـن أبـرز أعـضائه وأكثرهـم جرأة وتمـسّـكاً بقوميتـه العربيـة وبحـقّ بـلاده وشـعبه بالحرّيـة والوحـدة والعيش الكريم.

---

[٢] هكذا وردت في ديوانه، الطبعة الأولى عام ١٩٧٨، و"أمّ" مخفّفة عن "أمّي".

بدوي الجبل في بغداد

حاولت فرنسا أن تكسب ودّ **بدوي الجبل** بما يشاء من المناصب فأبى، فسعت إلى شراء سكوته بالمال والجاه، فأصرّ على مقاومتها، والمطالبة بحقّ بلاده بالحرّية والوحدة. فلجأت فرنسا إلى الضغط عليه. فرحل إلى العراق وعلّم في مدارس بغداد وكان له في منتدياتها الأدبية ومجامعها السياسية نشاط كبير قامت عليه شهرته الواسعة كشاعر عربي من الطراز الأوّل.

وفي عام ١٩٤٠ كان البدوي في عاصمة **الرشيد**، وسمع هناك كما سمع العالم بسقوط باريس بأيدي الألمان. وفي فصل الخريف من تلك السنة قرّر نادي (المثنّى) ببغداد الاحتفال في التاسع من شعبان، بذكرى الثورة العربية الكُبرى، التي أطلق **الشريف حسين بن علي** رصاصتها الأُولى.

وجاء الأستاذ **أكرم زعيتر** إلى **بدوي الجبل**، وطلب إليه أن يشترك في الحفل الذي سيقيمه نادي (المثنّى) فاعتذر **البدوي**، ولكنّ **أكرم** أصرّ عليه وألهب عزيمته وذكّره بمَن استشهد برصاص الفرنسيين من إخوانه السوريين **كيوسف العظْمة** و**رشيد طليع** و**أحمد مريود**. وأقسم عليه أن ينصف قائد الثورة ميتاً كما أنصفه حيّاً. وما زال به، حتّى دمعت عيناه، ورشح جبينه بالعرق، وانصرف يهمهم، فعلم **أكرم** أنّ خريدة قومية عصماء، بدأت تولد في فكر **بدوي الجبل** وقلبه.

يقول **أكرم زعيتر**: وغاب يومين. وفي اليوم الموعود شخصت أبصار الحشد في النادي إلى **البدوي** وأرهفت الآذان فانطلق:

يا سامرَ الحيِّ هل تعنيكَ شكوانا — رقَّ الحديدُ وما رقّوا لبلوانا
خلِّ العتابَ دموعاً لا غناء بها — وعاتبِ القومَ أشلاءً ونيرانا
ويل الشعوبِ التي لم تسقِ من دمها — ثاراتها الحمرَ أحقاداً وأضغانا
تقضي على الذلِّ غفراناً لظالمها — تأنّق الذلُّ حتّى صار غفرانا
أزكى من الطيب ريحاناً وغاليةً — ما سال من دم قتلانا وجرحانا
يُعطي الشهيد فلا والله ما شهدتْ — عيني كإحسانهِ في القوم إحسانا

وغايةُ الجودِ أن يسقي الثرى دمهُ   عند الكفاح ويلقى الله ظمآنا
قُلْ للأُلى استعبدوا الدنيا بسيفهمُ   مَن قسَّمَ الناسَ أحراراً وعبدانا؟
سمعتُ باريسَ تشكو زهوَ فاتحها   هلاَّ تذكّرت يا باريس شكوانا
عشرين عاماً شربنا الكأسَ مترعةً   من الأذى فتملَّيْ صرفَها الآنا

وماج النادي، وكبّر السامعون وهلّلوا، وعلت زغاريد النساء حين جلجل الشاعر:

إنّي لأشمتُ بالجبّار يصرعهُ   طاغٍ ويرهقهُ ظلماً وعدوانا
لعلّه تبعثُ الأحزانُ رحمتهُ   فيصبح الوحشُ في برديهِ إنسانا

قال **أكرم زعيتر**: وقد هُرِّبت القصيدة إلى الأقطار العربية وتغلغلت في بلاد الشام وغيرها. وقيل إنّ الزعيم التونسي **الحبيب بورقيبة** فوجئ بها تتسلّل إلى زنزانته في جزيرة الشيطان بأفريقيا.

بدوي الجبل يعود إلى سورية

في عام ١٩٤٢ عاد **محمّد سليمان الأحمد** إلى وطنه سورية. وانتسب إلى الحزب الوطني وانتُخب نائباً عن محافظة اللاذقية ستّ مرّات. وتولّى الوزارة أربع مرّات. وكان بشخصيته المتواضعة، وأخلاقه العالية، وشاعريته المتألّقة أكبر من النيابة والوزارة معاً. وكان هذان المنصبان العاليان يسعيان إليه في عقر داره، وما عُرف عنه أنّه سعى وراء مرتبة أو نفوذ أو جاه، بل كان مترفّعاً عن كلّ مجد دنيوي. ولولا إلحاح رفاقه زعماء البلاد، لاكتفى بالشعر وحده، فهو أسمى وأبقى من جميع الوزارات والنيابات.

في ذكرى الزعيم إبراهيم هنانو

في حفلة أقامها الحزب الوطني في حلب سنة ١٩٤٢ تخليداً لذكرى الزعيم **هنانو**، واستئنافاً للنشاط العربي، ألقى **بدوي الجبل** هذه القصيدة الرائعة، وفي سورية ثلاثة جيوش محتلّة: الإنكليز والأميركان وفرنسا. وقال:

ألفتُ حرّكِ لا شكوى ولا سهدُ   يا جمرةً في حنايا الصدرِ تتّقدُ
مرّي على كبدي حمراءَ دامية   يبقى الحنينُ إذا لم تسلم الكبدُ

بعضُ الخطوبِ ظلامٌ لا صباحَ لـه وبعضُها الفجر فيه النُّورُ والرشَدُ
لا يبعدُ الله أحباباً فجعتُ بهم[٤] وما علاقةُ قلبي بعدما بعدوا
مسحتُ دمعيَ من ذكراهم بيدٍ وأمسكتُ كبدي ألاّ تذوبَ يدُ
أغفى أبو طارق[٥] بعدَ السهاد به وخلّفَ الهمَّ والبلوى لِمَن سهدوا
إذا أُثير نضا عنه مواجعه كما تفلّت من أشراكه الأسدُ
خيلُ الزعيمِ تنزّى في شكائمها ما فاتها قنص في الحيّ أو طردُ
عرينة الحقّ في الشهباء منجبة يروع أنّى التفتَّ الظُّفْرُ واللُّبَدُ
إذا الزعيمُ تولّى عن شبولتها حمى الشبولة إخوان له نُجُدُ
إذا دجت ظلماتُ اليأسِ حالكةً شقّ الدجى كوكبٌ من ذكره يقدُ

وكان سعد الله الجابري رفيق هنانو في الجهاد ضدّ المنتدبين صديقاً حميماً لبدوي الجبل. وقد اشتركا معاً في النيابة وفي إدارة دفّة الحكم. ولمّا لحق سعد بالرفيق الأعلى بعد أن تحقّق استقلال البلاد، رثاه البدوي بقصيدة تقطر لوعةً وأسى قال في مطلعها:

سألَ الصبحُ عن أخيه المفدّى أيّها الصبحُ لن تشاهدَ سعدا
تنهل العينُ من بشاشة سعد ريّها والعيونُ تروى وتصدى
زعمَ الخصم أنّه مستبدٌّ حبّذا الحكمُ عادلاً مستبدّا
ضرب الظلم ضربةً رنّحتهُ فتداعى مزمجراً فتردّى
زعموا أنّه جلاء وما كان جلاءً بل كان خزياً وطردا
ما على العبد أن يُسوَّدَ عارٌ بدعة العار أن ترى الحرَّ عبدا

وتقع هذه القصيدة في ستّة وتسعين بيتاً، كلّها على هذا الطراز العالي من الشعر الحافل بصدق الوصف، وسموّ المعنى، وجَمال الصور، وتناسق الأخيلة.

وبالرغم من الذكرى الأليمة التي أُنشدت فيها هذه الخريدة العصماء، فقد تعبت الأيدي من التصفيق، وبحّت الحناجر من الهتاف والتكبير. فقد كان العهد الوطني حافلاً بآيات البطولة والجهاد وبناء أسس الوحدة العربية التي كانت أمنية المناضلين الأباة.

---

[٤] شهداء الثورات السورية المتوالية.

[٥] طارق ابن الزعيم هنانو، وقد عذّبه جلاّدو فرنسا حتّى أفقدوه عقله.

البلبل الغريب

كُتب على هذا الشاعر الفذّ، أن يشرَّد عن وطنه، وأن يضرب في بلاد يكون فيها غريب الوجه واليد واللسان. وكان كالبلبل الضائع في خمائل الغرب. يسكب ألحانه الشجية، ممزوجة بلوعته ودموعه وأساه. والقصيدة التالية وعنوانها (البلبل الغريب) يعني بها نفسه، ويشكو حاله في غربته القسرية في فينّا عاصمة النمسا. ويناجي في العديد من أبياتها حفيده "محمّد"، ويقول في الطفولة أرقّ وأبدع ما قاله شاعر في براءة الطفل والدعاء له بالخير والهناء والسعادة.

فلنطلّ على هذه القصيدة المطوّلة الخالدة التي قالها في ٣١ آب عام ١٩٦٣:

سلي الجمرَ هل غالى وجُنّ وعذّبا ... كفرتُ به حتّى يشوق ويعذُبا
ولا تحرميني جُذوةً بعد جذوة ... فما اخضلّ هذا القلبُ حتّى تلهّبا
وما نال معنى القلب إلاّ لأنّه ... تمرّغ في سكب اللظى وتقلّبا
خيالك يا سمراء مرّ بغربتي ... فحيّا ورحّبنا بغالٍ ورحّبا
أرى طيفك المعسولَ في كلّ ما أرى ... وَجدْتُ ولكنْ لم أجدْ منك مهربا
تنكّر لي عند المشيب – ولا قلىً – ... فمن بعض نعماهُ الكهولةُ والصّبا
مآربُ لي في الربوتين ودمّرٍ ... فمَن شمّ عطراً شمّ لي فيه ماربا
أتدري الربى أنّ السماوات سافرتْ ... لتشهد دنيانا فاغفت على الربى

وله في الغزل مقطوعات تسيل رقّة وحلاوة وحناناً وعفّة، منها هذه الأبيات الوجدانية السلسة:

فديتُ سمراء في لبنان لو رضيتْ ... هوت لسمرتها الأقمارُ سمّارا
قُدْسيةُ الحُسْن يستجدي براءتها ... عاري الذنوب فيكسو الطهر والغارا
شعري وحُسْنُك أغلى الله سحرهما ... كلاهما صيغ أطيابا وأنوارا
لا تعجبي من صبابات الكهول ولا ... تروّعي الشيب إجفالاً وإنكارا

ومن غزله اللطيف في قصيدة "النبع المسحور":

بُـردك فـوق الخـصر جـار الـرؤى فخلفــــه تطفـــر جنِّيَّتـــان
ذرّت علـــى الظمـــأى حميّاهمـــا فاللـــهو في الجنّـــة طلـــقُ العنـــان
يـــدنيهما الـــشوقُ ولم تـــدنوَا فهـــل همـــا نهـــدان أم نجمتـــان؟
تغفـــو بعينيـــك طيـــوفُ المنـــى عينـــاك للأشـــواق أرجوحتـــان
حـــضنتُ في الـــسمراء دنيـــا المنـــى حـــين التقينـــا كبِّـــرَ العالمـــان

ويُعدّ **بدوي الجبل** في طليعة شعراء العرب قدرة علـى التحليـق في سمـاء العبقريـة، وبراعة في الوصف الدقيق الأنيق الصادق. وشـعره واضـح منـسجم، نـاء عـن الألفـاظ الغريبة المهجورة. ومعانيه مشرقة بالبلاغة، ومتّسمة بالعمق والابتكار. وهو مـتمكّن مـن اللغة. عالم بفصيحها وشواردها قلّ أن تعثر على خطأ في شعره الكثير.

طُبع (**ديوان بدوي الجبل**) في ٦ تشرين الأوّل ١٩٧٨ في دار عودة – بيروت. وقـدّم له بكلمة مسهبة ومنصفة وبارعة صديقه الوفي الأستاذ **أكرم زعيتر** وهو من خيرة كتّـاب العرب ومناضليهم.

كيف عرفت بدوي الجبل؟

عرفته من خلال قصائده وأنا على مقاعد الدراسة. وحفظـت العديـد منهـا قبـل أن أقرض الشعر، وأعتقد أنّ شـعر **بـدوي الجبـل**، وشـعر الـشاعر القـروي **رشـيد سـليم الخوري**، كانا من أهـمّ الأسـباب الـتي دعـتني للـنظم والتعلّـق بـالأدب العربـي. وكـان لشعرهما أثر بالغ فيما نظمت من أشعار في قابل أيّامي.

نثره شعر، وشعره سحر!

حسْب **بدوي الجبل** أن يكتب لتستشفي من نثره أشرف المعاني الشعرية، وأكثرهـا جدّة ورقّة وإبداعاً.

أمّا شعره، فهو السحر الحلال، يخلب الألباب، ويحرّك العواطـف الـساكنة، ويـدفع الـهمم الفاترة لتحطيم أصنام البغي والطغيان.

إنّه نسر جبّار يمدّ جناحيه فوق وادي عبقر، ويجتاز قمـم الفـنّ الـشامخة، ويـرود أقصى أجواء الحياة ليصطاد المعاني العصية المختبئة في أحضان النيِّرات.

تراه فترى الشاعرية بطابعها المتميّز، وتسمعه فتسمع الفصحى مزغردة على ثغره، والقافية العذبة مترقرقة كالماء النمير من بين شفتيه.

وتحادثه فتشعر بجاذب خفيّ يشدُّك إليه، ويقيم لـه في فـؤادك عرشـاً مـن الحـبّ والإعجاب. وديع كالحمل، متواضع كالبنفسجة، طاهر الضمير كزنابق الحقل. يكره الظهور ويمقت الأبّهة، ويعشق البَساطة في جميع مظاهرها، ويحمل على الغرور والكبرياء حملات عنيفة، ويسكب بلسم اللطف والعطف والسلوان، على جراح الكادحين، وحاملي التعب والبؤس والحرمان. ذو قريحة سخيّة، وتفكير وثّاب، وذوق سليم، ولغة متينة تمكّنه من سبك معانيه في أدقّ القوالب الشعرية وأكثرها إحكاماً. وليس هذا بمستبعد من شاعر نهل من مورد الفنّ، وترعرع في خمائل الوحي، وعانق عرائس الإلـهام.

قويّ الأسلوب، دقيق التعبير، بديع الصياغة اللفظية، يمتاز بروحه الشفّافة الملهمة، وبموسيقاه الشعرية المنبعثة من قصائده الوجدانية. وبتفوّق بارز في رسم نبضات القلوب، وخلجات الصدور، وانطباعات العواطف.

في مقطوعاته الاجتماعية تحليل منطقي عميق لمختلف أعراض النفس البشرية. وفي ملاحمه الوطنية والقومية، تقديس للإيثار والفداء وتمجيد للبطولة والشهادة والمروءات.

بارع في وصف الطبيعة وتصوير أرضها وسمائها، ينقلك على متن قوافيه، إلى عوالم كلّها زهر وظلال، وروعة وجَمال، ويجعلك تنشق عطر ما يصف من أنواع الورد والريحان. أمّا إذا حمل على الجور والباطل، فعاصفة هوجاء تقتلع جذور الشرّ، وتجتاح دعاة السوء، وتساعد المعذّبين على التخلّص من ظلمات الإرهاق والخروج إلى أضواء الحرّية والاطمئنان.

هذا هو **محمّد سليمان الأحمد**، الذي ارتفع بخلقه وشعره إلى مصافّ الشعراء الأفذاذ المتوّجين بغار المجد والخلود.

(مجتزا: المجلّة العربية، العدد ٣٢٣/شباط ٢٠٠٤، ص٦٢-٦٣، والكلمة، الأعداد ١-٢-٣/٢٠٠٤، ص١٣-١٦، والضاد، العدد ١١/٢٠٠٨، ص٣-٦)



هنري مور Henry Moore

أمضى أكثر نحّاتي القرن العشرين حيازة على التقدير دراسة أصولية في مدرسة ليدز للفنون، ثمّ درس في الكلّية الملكية للفنون في لندن. ولكنّه منذ سنيه الأولى وجد أنّ مصادر استلهامه تقع خارج حدود المناهج المقرّرة في التعليم.

وقاده كتاب "الرؤية والتصميم" Vision and Design **لروجر فراي**Roger Fry إلى باريس ليتأمّل أعمال **سيزان** Cézanne. ثمّ إنّه تأثّر تأثّراً عميقاً في المتحف البريطاني بمنحوتات الحضارات (البدائية) للفترة السابقة لاكتشاف **كولومبوس** من تاريخ أميركا، وتعرّف فنون الشرق الأدنى واليونان القديمة وتأثّر بها. ولكنّ جولة في إيطاليا أكّدت لدى **هنري مور** تأثير موروث عصر النهضة لديه وتركت طابعها على عمله، كما تشهد على ذلك كثير من شخوصه المضطجعة والمستلقية.

إنّ منحوتات **هنري مور** في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين متنوّعة إلى حدّ. ونحن نجد فيها إشارات عابرة لأعمال **بابلو بيكاسو** Pablo Picasso **وهانز آرب** Hans Arp. وكذلك نرى فيها ميسم تأثّره بالنحت الأفريقي والمكسيكي. وكانت تجارب **هنري مور** مع وسائل نحتية عديدة قد وصلت ذروتها في نهاية الثلاثينيات بسلسلة من (الشخوص السلكية) حيث وضع خيوطاً من الأسلاك بموازاة التدويرات المتهدّلة للكتل المنحوتة.

وكان العديد من (الرؤوس) و(الخوذ) يحمل طابعاً سريالياً. وقد ساهم في سنة ١٩٣٦ في المعرض السريالي العالَمي. ولكنّه لم يرَ نفسه سريالياً على الإطلاق. وهو على الرغم من اتّصاله الوثيق بالفنّان **بِن نيكلسون** Ben Nicholson **وبربارا هيبورث** Barbara Hepworth في الفترة ذاتها، لم يحتضن أيّ موقف محدّد أو نظرية فنّية، ولكنّه كان على أية حال محلّلاً بليغاً لأعماله هو بالذات.

وفي سنة ١٩٣٧ يبدو أنّ دَوره الفنّي اتّضح له اتّضاحاً جليّاً. وقد قال **مور**: "إنّ **برانكوزي** Brancusi جعلنا واعين بالصياغة الشكلية نتيجة الأشكال المصقولة التي تزيح عنها الزوائد السطحية التي نمت على النحت الأوروبّي منذ العصور الوُسطى، ولكنّ هذا التناول المتّسم بالمخروطية الوحيدة الجانب ربّما لا يكون ضرورياً بعد الآن، فنحن نستطيع الآن أن ننفتح ونوصل أشكالاً متعدّدة من حجوم مختلفة ونجعل منها كلاً عضوياً واحداً".

وقد اتّبعت شخوص **هنري مور** هذا المنحى بجسارة صارت تتعاظم مع الزمن. فهو يجزّئ المكوّنات إلى اثنين أو ثلاثة أو أربعة تجزيئاً تركيبياً. وصار البرونز وسيلته المفضّلة، وقد قام بأعمال نحتية ضخمة توضع في مواقع خارجية حيث يمكن أن تصبح عنصراً من عناصر معمار المدينة، أو من عناصر المشهد الطبيعي الحيّ خارج الاستديو. وإنّ بعض أعمال مور المتأخّرة هي من (الانفتاح) بحيث إنّ المشاهد يستطيع، بل هو يُشجّع على أن يسير في دواخلها سيراً فعلياً.

وقد نصح مور المراقب الحسّاس "بأن يتعلّم كيف يشعر بالهيئة والشكل بوصفهما كذلك فحسب". وكثير من تصاميمه زوّدتها بنية غير معقّدة من العظام

والحصى. ولكنّ الشكل البشري هو الذي أشغل خياله فوق أيّ انشغال. وبوصفه فنّاناً رسمياً خلال الحرب، أخذ يصوّر جماعات من الرجال والنساء يربضون معاً في الملاجئ الواقية من الغارات الجويّة، وسكونيتهم الخالية من الوجوه توحي بالقدرة الخالدة على التحمّل.

وفي كلّ من النحت والرسوم التخطيطية طوّر **هنري مور** الإمكانيّات الرقاق للشكل لتوحي بحالات عاطفية أو بالخصائص الشعورية، ولا سيّما في التعبير عن عاطفة الأمومة أو في مجال الانجذاب الجنسي. والمشاعر الأُولى تتّضح غاية الوضوح في تأمّل الأُمّ المضطجعة مع طفلها. هذا وإنّ قوّة قطعته المسمّاة (مقطع خراف) (١٩٧١-١٩٧٢) لا تكمن في التقابل الفيزيقي لتكوينين ضخمين فحسب، بل في المعاني السيكولوجية الإضافية من الدفء والرعاية اللذين توحي بهما العلاقات.

ترسّخت مكانة **هنري مور** العالية بعد الحرب العالَمية الثانية عبر معارض رئيسية في نيويورك والبندقية وسان باولو وتورنتو وفلورنسا وزوريخ. وقد احتفل بعيد ميلاده الثمانين بأن عرض في حدائق (كنزينغتون) في لندن، أعمالاً متأخّرة تكشف عن عظَمة وحيوية لم تذويا بفعل السنّ.

(الضاد، العدد ٣/ ٢٠١٠، ص٣-٤)



علي محمود طه
شاعر الجندول والطبيعة الباسمة

لشعر **علي محمود طه** – المعروف بالمهندس – مذاق خاصّ يحار الناقد في وصفه وبيانه. فمَن يقرؤه يلمس فيه الحداثة التي يطمح إليها التجديد في أدبنا المعاصر، ويحسُّ بحلاوة الكلمة وثراء المعنى وسموّ الخيال وجَمال الصورة، ويراها تتفاعل وتتآلف وتنسجم في القصيدة الواحدة انسجاماً يجعلها قطعة عاطفية نادرة تُسكر الروح وتهدهد المشاعر وتستقرّ في أعماق الذهن، من دون أن تفارقه أو تبتعد عنه.

لم يعشْ **علي محمود طه** طويلاً، ولكنّه أغنى الشعر الأصيل وزاده رواء وتألّقاً

فنّياً، كان الشعر في أمسّ الحاجة إليه، وحباه من رشاقة الأسلوب، ودقّة التعبير وجَمالية الإيقاع، ممّا جعل نتاجه الشعري، يعادل أحسن ما في الشعر الغربي من مقطوعات يشيد بها الغربيون.

عاش سبعة وأربعين ربيعاً فقط. فقد وُلد في مدينة المنصورة، عاصمة محافظة الدقهلية عام ١٩٠٢ من أسرة ذات يسر وسمعة طيّبة. وأتيح له بعد دراسته الابتدائية، أن يدخل مدرسة الفنون التطبيقية، وأن يتخرّج فيها عام ١٩٢٤ ويُعيَّن على أثر تخرّجه في دائرة هندسة المباني بمسقط رأسه. ومن هنا لُقّب بـ (المهندس) من دون أن يدرس الهندسة. ثمّ شرع يتنقّل من وظيفة حكومية إلى وظيفة حكومية أفضل، فكان أن عُيّن مديراً لمعرض وزارة التجارة. وفي سنة ١٩٤٩ عُيّن وكيلاً لدار الكتب المصرية، وفي هذه السنة استأثرت به رحمة الله، فانتقل إلى الفردوس الأعلى.

فُتن علي منذ حداثته بالشعر، ونظم بعضاً من قصائده وهو على مقاعد الدراسة. وقد أُعجب بنظمه بعض شعراء ذلك الزمان وشجّعوه على الاستمرار في قرض الشعر. فاستمرّ وتحسّن شعره تحسّناً كبيراً مكّنه من نشره في مجلّة (أبولو) التي أنشأها في القاهرة عام ١٩٣٢ الطبيب الشاعر الدكتور **أحمد زكي أبو شادي**. ثمّ ما لبث أن غدا من أعضائها المبرّزين الذين جدّدوا في الصورة والنغم والخيال.

(الملاّح التائه) أوّل دواوين الشاعر طبعه سنة ١٩٣٤ وفيه عدد من القصائد الوصفية التي استمدّ صورها من الطبيعة الخلاّبة المحيطة بمدينته المنصورة وما جاورها كدمياط والسنانية. وكلّها تمتاز بحقولها الزاهرة ورياضها الغنّاء الممتدّة إلى رأس البرّ وبحيرة المنزلة. وأُولى قصائد ذلك الديوان عنوانها (ميلاد شاعر) ومطلعها:

هبط الأرضَ كالشعاع السنيِّ   بعصا ساحرٍ وقلب نبيِّ

كان شاعرنا محبّاً للمناظر الطبيعية، مولعاً بالأسفار إلى البلاد الغنية برياضها وأنهارها وبحيراتها وجبالها المكلّلة بالثلوج. ولهذا ساح مراراً في إيطاليا وسويسرا وألمانيا، وكحّل عينيه بما وهبها الله من مفاتن تستأثر بالألباب، وسجّل هاتيك المفاتن في شعر يعتبر بحقّ من أرقّ وأبدع ما فاضت به قرائح الشعراء.

والذين درسوا حياة هذا الشاعر المحلّق، وقفوا خاشعين أمام تلك اللوحات العاطفية التي رسمها فكره عندما زار البندقية، ورأى شوارعها المائية وقصورها الباذخة، وجسورها المنحنية كالأقواس، وساحاتها الفسيحة، ولا سيّما ساحة (سان مارك) المفروشة بالبلاط والحافلة بأسراب الحمام الأليف الذي اعتاد منذ عرف ذلك المكان، أن يرفرف فوق رؤوس الزوّار، وأن يطير من حولهم وأن يجلس في أحضانهم، ليلتقط ما يحملونه إليه من ذرة وحبوب يحبّها، يشترونها له، ويلذُّ لهم أن يطعموه إيّاها بأنفسهم.

هناك في البندقية مدينة القنوات والقصور التاريخية والبنايات الأثرية، هناك في عروس الأدرياتيك ومسبح الزوارق السياحية كلّ ما يبهج العين، ويشرح الصدر ويغري بالحبِّ، هناك شهد علي محمود طه ليالي (الكرنفال) في عام ١٩٣٨ فأُعجب بها وبأسراب الغيد الحسان اللابسات ثيابهنّ التنكّرية الزاهية المحلاّة بضفائر الورد، والمسبلات شعورهنّ الطويلة على أطراف الزوارق السائرة بتيه وخيلاء على صفحة الأزرق الرجراج فأخذته نشوة الطرب وأوحت إليه أن يصوغ قصيدته الخالدة (أغنية الجندول) التي كان من حُسْن حظّ الأدب والفنّ، أن يلحّنها ويغنّيها الموسيقار الكبير محمّد عبد الوهاب.

وكم كنّا في أوائل الستّينيات، نطرب لهذه الأغنية، التي كانت تحلّق بنا بأجنحة من نُور إلى عالم سحري كلّه فتون وبهاء. هذه الأغنية المرصّعة بالمعاني السامية، والجزالة المشرقة، منشورة في ديوان (ليالي الملاّح التائه) المطبوع للمرّة الأُولى عام ١٩٤٠، وهي تقع في اثنين وخمسين بيتاً، وهذا مطلعها وبعض أبياتها:

أين من عينيّ هاتيكَ المجالي	يا عروسَ البحر يا حلمَ الخيالِ
أينَ عشّاقك سمّارُ الليالي	أينَ من واديك يا مهدَ الجَمالِ
موكبُ الغيدِ وعيدُ الكرنفالِ	وسرى الجندولُ في عرضِ القنالِ
بين كأسٍ يتشهّى الكرمُ خمرَهْ	وحبيبٍ تتمنّى الكأسُ ثغرَهْ
التقتْ عيني به أوّلَ مرّهْ	فعرفتُ الحبُّ من أوّلِ نظرهْ

ويمضي الشاعر في وصفه البديع وانطلاقاته الشاعرية إلى أوج الإبداع، ثمّ يتذكّر

واديه المصري الساحر، وأهرامات الجيزة ونهر النيل الخالد القائمة على شاطئيه أشجار النخيل، فيصيح بلهفة العاشق المشتاق إلى الوطن وإلى الحبيب البعيد عن ناظريه:

قلتُ والنشوةُ تسري في لساني | هاجت الذكرى فأينَ الهرمانِ؟
أين وادي السحر صداحُ المغاني | أين ماء النيلِ؟ أين الضفّتانِ؟
آه لو كنت معي نختالُ عبرَهْ | في شراعٍ تسبحُ الأنجم إثرَهْ
حيث يروي الموج في أرخم نبره | حلم ليل من ليالي كليوبَترهْ

أين من عينيَّ هاتيكَ المجالي | يا عروسَ البحر يا حلمَ الخيالِ

(السيرانادا) كلمة إيطالية تعني أغاني الحبِّ والغرام التي كان العشّاق ينشدونها على معازفهم تحت نوافذ عشيقاتهم. و(سيرانادا مصرية) قصيدة ذات أربع مقطوعات حافلة بالوصف الدقيق واللفظ الأنيق والمشاعر الوجدانية الصافية. وإلى محبّي الشعرِ الرفيع المقطوعة الأُولى:

دنا الليلُ فهيّا الآن يا ربّة أحلامي
دعانا ملك الحبّ إلى محرابه السامي
تعالي فالدجى وحي أناشيدٍ وأنغامِ
سرتْ فرحته في الماءِ والأشجارِ والسحب
ألا فلنحلم الآن فهذي ليلة الحبِّ

عندما زار الشاعر أوروبّا ومرَّ بنهر الرين Rhine الذي ينبع من جبال الألب، ويخترق سويسرا وفرنسا وألمانيا الغربية، استهواه ذلك النهر بغزارة مياهه وبما يحفل به شاطئاه من مغانٍ ومبانٍ جميلة، فقال قصيدة رائعة سمّاها (خمرة نهر الرين) وأهداها إلى صديقة سويسرية من (برن) التقاها هناك:

كنزُ أحلامك يا شاعرُ في هذا المكانِ
سحرُ أنغامك طوّاف بهاتيك المغاني
فجرُ أيّامك رفّافٌ على هذي المجاني

أيّهـــا الـــشاعر هـــذا الـــرينُ فاصـــدحْ بالأغـــاني

كـــلُّ حـــيّ وجمـــادٍ هـــا هنـــا	هـــاتفٌ يـــدعو الحبيـــب المحـــسنا
يـــا أخـــا الـــروحِ دعـــا الـــشوقُ بنـــا	فاســـقنا مـــن خمـــرة الـــرينِ اســـقنا

وبحر (الرمل) محبّب إلى الشاعر يجد في تفعيلاتـه الـثلاث اللحـن الـشجي واللفـظ الحلو، والجرس المطرب، ويرى في مجزوئه ما يستـسيغه الـسمع وترتـاح إليـه الـنفس. ومعظم الشعراء الوجدانيين والغنائيين يختارون هذا البحر لمرونته ورشاقة حركاته.

والحقيقة أنّ الشاعر جاءنا بالمعاني المبتكرة البارعة وأنشدنا أحسن مـا ينطلـق مـن أفواه الشعراء المولعين بمحاسن الطبيعة وبابتسامات الزهـور وتغاريـد الطيـور وخريـر السواقي المنسابة بين الحقول والبساتين.

ومن قصائده المترفة الممتعة قصيدة (القمر العاشـق). فقـد تخيّلـه الـشاعر عاشـقاً يرنو من عليائه إلى عذراء فيها طهر الزنبقة الناعمة فقال:

إذا طـــــاف بالـــــشرفة	ضـــوء القمـــر المـــضنى
ورفّ عليـــكِ مثـــلَ الحلـــم	أو إشـــــراقة المعنـــــى
وأنـــت علـــى فـــراش الطهـــر	كالزنبقـــــة الوســـــنى
فـــضمّي جـــسمك العـــاجي	وصـــوني ذلـــك الحُـــسْنا

ولعلي محمود طه قصيدة لُحمتها الفنّ وسـداها الغـزل الأخّـاذ، عنوانهـا (سـارية الفجر) يقول فيها:

عـــبرتْ بـــي في صـــباحٍ بـــاكرٍ	فتنـــةَ العـــينِ وشـــغلَ الخـــاطرِ
شَـــعرُها الأشـــقرُ فيـــه وردةٌ	لونهـــا مـــن شـــهوات الـــشاعرِ
وبعينيهـــــا رؤى حـــــائرةٌ	بـــين أســـرار مـــساء غـــابرِ
أنـــت يـــا سـارية الفجـــر اسمعـــي	دعـــوة الـــروح الـــبريء الطـــاهرِ
شـــاطريني ذلـــك المـــأوى فمـــا	أتقاضـــاك وفـــاء الـــشاكرِ
ســـوف يحويـــكِ فـــؤادٌ خـــافقٌ	لـــكِ فيـــه همـــسات الـــذاكرِ

كان الشاعر متدفّق الشعور، ذا عاطفة تنبجس كالينبوع الثرّ النمير. عُرف ببراعته الفائقة في اصطياد المعاني العصية وانتقاء الألفاظ الملائمة لها، وكان يحلّق كالنسر الجبّار في أبعد أجواء الخيال. ويمهر الفصحى بما يرضيها ويثريها ويسرُّ أعلامها ومحبّيها. وكانت كبريات الصحف المصرية كالرسالة والمقتطف والثقافة والدستور والعصور والأهرام والمقطّم.. وغيرها من صحف الوطن العربي، تفتح له صدورها مغتبطة مرحّبة بنتاجه الغني بالفكر والفنّ والنغم الحلو والبيان المشرق السلسال.

وبالرغم من قصر حياته - إذ إنّه لم يعش إلاّ سبعة وأربعين ربيعاً - قدّم إلى عشّاق أدبه كثيراً من الزاد الأدبي الشهي، وأتحف المكتبة العربية بمؤلّفات ذات قيمة أدبية عظيمة.

(الضاد، العدد ١٠/ ٢٠٠٥، ص٣-٦)



كوكب الشرق
ستبقى في القلوب

حملتها ملائكة السماء، قبل أن يحملها أهل الأرض ورحلت.

كانت ترتدي ثوبها الناصع البياض، وفي يدها منديلها الأبيض الذي كان لا يفارقها.

وينعقد عرس في السماء، وتزفّها ملائكة الجنّة في العلياء، ويبكيها سكّان البسيطة، فالزفاف في السماء والمأتم على الأرض!!

كان الليل حالك السواد، وقد خيَّم عليه السكون. فلا حقيقة أحقّ من الصمت!

وكشفت لنا الليالي السود عن الحقيقة المرّة، ورمتنا بالفجيعة الكُبرى.

لقد غابت "كوكب الشرق" عن دنيا الأدب والطرب، وانطفأ القنديل الوضّاء. فلم نعد نسمع سوى البكاء والعويل.

لقد اختفت تلك السيّدة المصونة حاملة معها صوتها الذهبي، وحلّت بنا المصيبة الفادحة المروّعة، فمن أين لنا كوكب آخَر!!

مَن الذي سيهمس في آذاننا بعدها آيات الحبّ والوفاء. مَن الذي سيطربنا بقصائد الحكم البليغة والترنيم الشادي؟!

مَن سيخبرنا عن سرّ هذه الحقيقة المضنية، حقيقة الحياة والموت، وفي دجى الظلام يخرج أعذب صوت عرفته البشرية ليرسم لنا الهيكل الصحيح لهذا السرّ العجيب وينشد مذكّراً إيّانا بالحقيقة الراهنة:

لا تشغلِ البالَ بماضي الزمانْ   ولا بآتي العيش قبلَ الأوانْ
واغنمْ من الحاضرِ لذّاته   فليسَ في طبعِ الليالي الأمانْ

صدقت حبيبة القلوب "**أُمّ كلثوم**" في هذا الغناء المفعم بالحكم. فصحيح أنّ الليالي ليس لها أمان، فقد سلبتنا سيّدة الغناء. وإذا كانت هذه الإنسانة العظيمة قد بدأت رحلتها مع الموت، فمَن الذي سيطربنا بأغانيه، ومَن التي ستقول لنا أجمل كلام في الوجود: "**الله محبّة، والنُّور محبّة، والخير محبّة**"؟ مَن الذي سيردّد على مسامعنا قولها:

أعطني حرّيتي أطلقْ يديّا   إنّني أعطيتُ ما استبقيتُ شيّا

ولا أبالغ إذا قلت: إنّها تراث فنّي رائع لا مثيل له. فقد بلغت قمّة من المجد جعلتْها منارة للأجيال القادمة، التائقة إلى الحرّية والمحبّة والجَمال. إنّها ستظلّ خالدةً في قلوب الملايين من البشر، وستبقى على مرّ الزمان، المثل الأعلى للفنّ العربي الأصيل. ونحن العرب نفخر بهذه الإنسانة العظيمة، التي قلّ أن يجود بمثلها الزمن، والتي كانت ذات حنجرة أودعها الله خلاصة العذوبة، وجمع فيها صداح البلابل وعندلة العنادل وتغاريد طيور الجنّة.

لم تكن **أُمّ كلثوم إبراهيم**، مطربة عالمية فحسب، بل كانت ذات رسالة قومية رفيعة. وسيظلُّ صوتها النادر الفذّ، يدعونا، نحن العرب، إلى قضيتنا الأُولى فلسطين، ويشدُّنا إليها، وتقرع كلماتها القوية مسامعنا حين تقول لنا: "أصبح عندي الآن بندقية!". ونحن نعلم أنّ إلى فلسطين طريقاً واحداً هو طريق النصر أو الشهادة. فالحديد لا يفلّه إلاّ الحديد، والأرض المغتصبة لا تُسترجع إلاّ بقنابل الشجعان، ودكّ معاقل الظلم والطغيان.

إنّكِ، أيّتها الراحلة العزيزة الغالية، ستظلّين حيّةً في تاريخنا، وسيبقى كلامك العذب يشحذ عزائمنا ويثير هممنا، ويذكّرنا بقضيتنا الكُبرى العادلة، التي أنشدتِ من أجلها أجمل الأناشيد، والتي عملتِ في سبيلها أعمالاً رائعة تُسجِّل لكِ بمداد العرفان على مرّ الزمان.

(كُتبت يوم وفاتها ٤ شباط ١٩٧٥، الضاد، العدد ٣/ ١٩٧٥، ص٤٦-٤٧)



كرم ملحم كرم
في مئويتـه

تألّفت في لبنان في مطلع عام ٢٠٠٣ لجنة من كبار الأدبـاء والمفكّرين والـصحفيين والشعراء لإحياء الذكرى المئوية الأُولى لولادة كرم ملحم كـرم الكاتـب الفـذّ والـصحفي الجريء ورائد القصّة العربية (١٩٠٣ – ٢٠٠٣).

وبدأت الاحتفالات في كلّ أنحاء لبنان، حيث أقيم في بلدته **دير القمـر** احتفـال مهيـب كبير أبرز أهمّية هذا المفكّر العربي الرائد. كما تحدّثت عنه الفـضائيات اللبنانيـة وأقيمـت

الندوات الأدبية والفكرية. وكان ختام المسك المهرجان الفكري الأدبي الكبير الذي أقيم في قصر الأونسْكو ببيروت بعد ظُهر الجمعة ١٢ كانون الأوّل ٢٠٠٣.

قصر الأونسْكو غصّ بألوف المحتفين بمئوية **كرم ملحم كرم**. ورعى الاحتفال رئيس الجمهوريّة العماد **إميل لحّود** ممثّلاً بنجله النائب **إميل إميل لحّود**، الذي استقبل بالتصفيق والترحيب. ومثّل رئيس مجلس النوّاب **نبيه برّي** النائب **عدنان عرقجي**، ورئيس مجلس الوزراء **رفيق الحريري** الوزير **كرم كرم**. وحضر الرئيس **حسين الحسيني**، والمطران **بولس مطر** ممثّلاً غبطة البطريرك الماروني الكَردينال **مار نصر الله بطرس صفير**، والمطران **إلياس نجم** ممثّلاً بطريرك الروم الأرثوذكس **إغناطيوس الرابع هزيم**، والمطران **يوحنّا حدّاد** ممثّلاً بطريرك الكاثوليك للروم الملكيين **غريغوريوس الثالث لحّام**، والشيخ **هشام خليفة** ممثّلاً مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ **محمّد رشيد قبّاني**، والسفير **فخري صاغيه** ممثّلاً نائب رئيس مجلس الوزراء **عصام فارس**، ورؤساء روحيون ورجال دين، واللواء **أحمد علي** قائد القوّات العربية السورية العاملة في لبنان ممثّلاً وزير الدفاع السوري العماد الأوّل **مصطفى طلاس**، والعميد الركن **مروان البيطار** رئيس مكتب التنسيق والتعاون، والعميد **إلياس فرحات** مدير التوجيه في الجيش اللبناني، ورئيس الوزراء المصري السابق رئيس مجلس الشورى الدكتور **علي لطفي**، ونقيب الصحافيين السوريين عضو مجلس الشعب الدكتور **صابر فلحوط**، ووزراء ونوّاب حاليّون وسابقون وأعضاء من السلك الدبلوماسي العربي والأجنبي، وعدد من القضاة ونقباء المحامين والمهن الحرّة، وشخصيّات جامعية وسياسية وثقافية، ونقيب الصحافة **محمّد البعلبكّي**، ورؤساء الأحزاب ووسائل الإعلام اللبنانية والعربية، إلى جمهور حاشد ضاقت به قاعات الأونسْكو فأعانت شاشات عملاقة على نقل وقائع المهرجان الذي جاء ختاماً لاحتفالات مئوية أمير القصّة العربية والصحافي الألمعي **كرم ملحم كرم**، بعد ندوات فكرية في الجامعات والمعاهد وحلقات تلفزيونية وإذاعية واكبتها الصحافة اللبنانية والعربية على صفحاتها الثقافية وفي ملاحق خاصّة.

وقد أصدرت دار "**ألف ليلة وليلة**" كتاباً خاصّاً عن المئوية الأُولى على ولادة **كرم ملحم كرم** تضمّن ما يلي:

المقدّمة: أولاده يستذكرونه... وآخَرون – أقوال في كرم ملحم كرم من مجلّة "الحكمة" ومن مجلّة "الانطلاق" بعد مهرجان الأونسْكو في سنة ١٩٦١، ومن غيرها من المجلاّت – مقالات له – كتابات بخطّه.

هذا وله في مجلّة "الضاد" ومجلّة "الكلمة" الحلبيتين مقالات عديدة وقصص متنوّعة خلال الأعوام ١٩٣٠ – ١٩٦٠ وما بعدها.

وكان الأديب **كرم ملحم كرم** شَرَّفَ **عبد الله يوركي حلاّق** بكتابة مقدّمة لديوانه الأوّل "خيوط الغمام" عام ١٩٤٢. لما كان من ودٍّ وصداقة حميمة بين كرم وعميد الضاد. وقد حافظت أسرة الضاد، بدَورها، على هذه الصداقة مع النقيبين **عصام وملحم**، وخاصّة أنّ النقيب **ملحم** هو عرّاب **عبد الله** رئيس تحرير المجلّة ونجل **رياض عبد الله حلاّق** صاحبها.

وبمناسبة دخول "الضاد" عامها الخامس والعشرين، في عام ١٩٥٥، أي منذ أكثر من نصف قرن، نشرت "الضاد" كتاب "قطاف العناقيد" وهو تحفة أدبية رائعة كتبها الأديب العبقري الفذّ **كرم ملحم كرم** أمير القصّة العربية، وطواها على ثلاث قصص بديعة وسبع عشرة مقالة فكرية أدبية بليغة. وقد تلطّف – رحمه الله – فمنح الضاد حقّ نشرها وتوزيعها هدية على مشتركيها ومناصريها في الوطن والمهجر.

وفي صيف ٢٠٠٧ التقيتُ في لبنان نجليه النقيب **عصام كرم** (نقيب المحامين سابقاً) والنقيب **ملحم كرم** نقيب المحرّرين في لبنان منذ الستّينيات حتّى اليوم. وطلبتُ إليهما أن يوافقا على إعادة نشر هذا الكتاب الهادف الرائع مرّة ثانية، فقبلا الفكرة، ووافقا على نشره بحلّة جيّدة وجديدة، كيما يقدّم هدية إلى جميع قرّاء "الضاد" في الوطن العربي والمَهاجر على تنوّعها.

ولقد تمتّع قرّاء الضاد في "قطاف العناقيد" بالأدب البكر الرصين، والفنّ القصصي الأصيل، والبيان الجميل الأخّاذ، والوصف الرقيق الفتّان.

ففي الكتاب قصص مستمدّة من صميم الواقع، ونظرات كتبتها يراعة مفكّر جبّار، ومباحث شائقة تستهوي القلوب، وتخلب الألباب، وتُريكَ الحياة بكلّ ما فيها من خير وشرّ، وفضيلة ورذيلة، وإنسانية رفيعة مُثلى، وأنانية متطرّفة جامحة.

والحقّ أنّ ميزة "الضاد" تكمن منذ نشأتها في انفتاحها على عالم الفكر والأدب. فقد بقيَ صدرها رحباً واسعاً لاستقبال نتاج أقطاب النثر والشعر. وغدت صفحاتها منتدى تلتقي فيه الندوات والأماسي الشعرية وحلقات الفكر والأدب. وممّا يزيد في افتخارها واعتزازها كونها أوّل مجلّة عربية سورية حلبية تنشر المآثر القلمية لكبار شعراء الوطن والمهجر وكتّابه، وتعقد صداقات متينة العُرى مع كبار مشاهير كتّاب القرن العشرين وشعرائه. وهذا كلّه حقّق أحلام مؤسّسها وصاحبها عبد الله **يوركي حلاّق** من أجل جعل مجلّته جسراً مهمّاً يصل بين الأدب العربي المقيم، والأدب العربي المغترب.

نعود إلى مهرجان المئوية الذي لا يُنسى. فقد توالى على المنبر كلّ من الشاعر **هنري زغيب** (قصيدة) عن لجنة المئوية، فالعضو السابق في مجلس الشعب السوري **ياسر النحلاوي** ملقياً كلمة الدكتورة **نجاح العطّار** وزيرة الثقافة السورية السابقة، فأمين عامّ اتّحاد الصحافيين العرب مدير تحرير جريدة "الأهرام الدولي" **صلاح الدين حافظ** ملقياً كلمة رئيس اتّحاد الصحافيين العرب رئيس تحرير جريدة "الأهرام" **إبراهيم نافع**، فالشاعر **حيدر محمود** وزير الثقافة السابق في المملكة الأردنية الهاشمية (قصيدة)، فالدكتور **محمّد الرميحي** (الكويت)، فالشاعر **محمّد الفيتوري**. وألقى كلمة لبنان الوزير والنائب السابق **إدمون رزق**، وكلمة العائلة النقيب **عصام كرم**. وخصّ الاحتفال غبطة البطريرك **غريغوريوس الثالث لحّام** بكلمة ألقاها الوزير السابق **إلياس حنّا**، وكلمة كريمة من رئيس الوزراء السابق رئيس مجلس الشورى الدكتور **علي لطفي**، وقصيدة **رياض عبد الله حلاّق** بعنوان "**كرم.. ولبنان.. والعرب..**".

كرم.. ولبنان.. والعرب..

زُرْ جنّةَ الخُلدِ، وانزلْ في حمى "كرم" ... واقرأْ عليه سلاماً عاطرَ الكَلِمِ
وانثرْ على سمعه أنداءَ قافيةٍ ... وفيّةٍ عذبةٍ عذريّةِ النغمِ
وضعْ على صدرهِ لآلاءَ أوسمةٍ ... ما لامسَتْها صدورُ العُرْبِ والعجمِ

وضعْ على رأسه تاجَ الخلودِ وما　　يُخَلِّدُ المرءَ كالقرطاسِ والقلمِ
هي الحروفُ ستبقى الدهرَ خالدةً　　تحيا بكلِّ فؤادٍ خافقٍ فهمِ
إنَّ الحياةَ لَمنْ نَسْجِ الأديبِ إذا　　كانَ الأديبُ أصيلاً زاهرَ الشيمِ
حروفُهُ بلسمٌ شافٍ لكلِّ أذىً　　وأعينٌ ملؤهَا نُورٌ لكلِّ عمي
هيَ النسيمُ الذي يُحيي النفوسَ إذا　　رانتْ عليها غشاواتٌ من العدمِ
وهْي الضحى يرتدي المقرورُ مشرقَهُ　　دفئاً يقيهِ أذاةَ القرِّ والظُّلَمِ
يبني اليراعُ قصورَ الحقِّ شامخةً　　والبُطلُ يَجعلُهُ أطلالَ مُنهدمِ
ويحتسي الخيرُ من كفّيهِ كأسَ رضىً　　ويصطلي الشرُّ ألواناً من الحُمَمِ
إيهِ أبا "كرمَ" الآدابِ كمْ سجدتْ　　على ثراكَ عذارى الفنِّ والقيَمِ
ما كانَ فنُّكَ لهوَ العابثينَ، وما　　سقتهُ روحكَ إلاّ لاهبَ الضرَمِ
والمجدُ قد حُزتَهُ بالعينِ ساهرةً　　ومَن أرادَ بلوغَ المجدِ لمْ ينَمِ
نلتَ الخلودَ بعزمٍ غيرِ منقطعٍ　　ولا يُنالُ بغيرِ العزمِ والهممِ
رفعتَ للضادِ راياتٍ مخلّدةً　　وللروايةِ مجداً غيرَ منصرمِ
سقيتَها من عيونِ العصرِ فارتفعَتْ　　قاماتُهَا تزدهي في أعينِ الأُممِ
ليستْ شخوصُكَ من حبرٍ على ورقٍ　　وإنَّما دفءُ لحمٍ نابضٍ ودمِ
قد صغتَها بيدِ الفنّانِ نابضةً　　بالروحِ دافئةً تمشي على قدمِ
و"ألفُ ليلةْ" سيبقى زهوَ جدّتهَا　　فليسَ يُخلقها ظفْرٌ من القدَمِ
والمبدعونَ صباياهمْ تظلُّ صباً　　ولا تصابُ صبايا الفنِّ بالهرمِ
براعمُ النُّورِ في لبنانَ قد فَتقَتْ　　ثمَّ انثنتْ في المدى منشورةَ العلمِ
حتّى رَوَتْ هذه الدنيا رسالتُهُ　　هدىً فآياتُهُ تُتلى بكلِّ فمِ
لبنانُ يا هبةَ الرحمن يا وطناً　　تباركَ الحُسْنُ من وادٍ ومن قممِ
تلاقت الأرضُ فيهِ والسماءُ، ففي　　جبالهِ عمّةٌ من أبيضِ الديمِ
وأرزهُ في قميصِ الشرقِ أوسمةٌ　　بغيرِهَا خافقاتُ الشرقِ لمْ تَهِمِ
لو أنَّ أرضاً إلى روحِ السما نُميَت　　لكانَ لبنانُ ترباً للسماءِ نُمي
العبقريةُ من لبنانَ مشرقُهَا　　ومنْ شواطيهِ أسرى موكبُ الرُّقَمِ

والناسُ ما أبصروا إلاّ بمشعله ... فمنْ تراهُ عيونُ الناسِ كلّهمِ
الأبجديةُ هل يدري الزمانُ بها؟ ... لو أنّها من ثرى لبنانَ لم تَقُمِ
قمْ يا "أبا عاصمٍ" يا جذرَ زهوتنا ... وانظرْ فروعَكَ في الآفاقِ، وابتسمِ
وافخرْ بهمْ فحقولُ العطرِ مَنبَتُهمْ ... وجريهمْ في سماءِ العقلِ والحكمِ
نبوغهمْ كضياءِ الشمسِ ساطعةً ... وصدقهمْ في البرايا غيرُ مُتّهمِ
فاستوطنوا في صدورِ الناس أفئدةً ... بأنفسٍ حرّةٍ موصولة الهممِ
وصيتهمْ ملأ الدنيا بأكملها ... وصوتهمْ قد وعاهُ كلُّ ذي صممِ
لهم بكلّ نديّ منبرٌ، ولهم ... بيارقٌ قد علتْ في كلّ محتدمِ
فذا "عصامُ" سماءُ العدلِ تعرفُهُ ... لهُ الجناحانِ من حقٍ ومُعتزمِ
و"ملحمٌ" سيّدُ التحريرِ، ريشتُهُ ... سيفٌ يصونُ به قُدْسيةَ الحُرُمِ
والجذرُ إنْ طابَ طابَ الفرعُ واغتسلتْ ... بعطره غانياتُ الضوءِ والنسمِ
والطبعُ إرثٌ، فأفراخُ النسورُ على ... غيرِ الذُرا الشامخاتِ الشمّ لم تحُمِ
قمْ يا "أبا عاصمٍ" وانظرْ إلى وطنٍ ... لنا غدا لقمةً في فكِّ مُلْتهمِ
عَدَت علينا ذئابُ الدهرِ تنهشُنَا ... وراحَ يغزو حمانَا كلُّ مُقتحمِ
كأنّنا في المدى لسنا سوى زبدٍ ... ذاوٍ فقاعاتُهُ أوهى من الحُلُمِ
"بَغدادُ" لا تبكِ فيها... كلُّ عاصمةٍ ... "بَغدادُ" من أدمعٍ سودٍ ومن ألمِ
والقُدْسُ لا تبكِ فيه... كلُّ حاضرةٍ ... قُدْسٌ يئنُّ منَ الأحداثِ والنقَمِ
مهدُ المسيحِ مع الأقصى بقيدهما ... فمَنْ يفكُّ قيودَ المهدِ والحَرمِ
كمْ للعروبةِ في الأعناقِ من ذمَمٍ ... وكمْ لهذا الثرى في القلبِ من ذممِ
هذي العواصمُ لو بالوحدة اعتصمتْ ... ما عضّها كلُّ نابٍ غادرٍ نَهِمِ
ووَحْدَةُ الرأي عند الخطبِ قلعتُنَا ... لا يقنصُ الذئبُ إلاّ شاردَ الغنمِ
طوقُ النجاةِ، وبعثُ الروحِ وَحْدَتُنَا ... بحبلِ وَحْدَتِنَا يا أُمّتي اعتصمي

(الضاد، العدد ١/ ٢٠٠٤، ص٥-٩)



شاعر عبقر
شفيق المعلوف

- لكلّ زهرة عبير -

سار الأستاذ **شفيق المعلوف**، في موكب الشعراء العالميين الأفذاذ، الذين ارتادوا آفاق الابتكار، وملكوا ناصية الفنّ والإبداع.

والمطّلعون على نشأة هذا الشاعر الكبير الملهَم، لا يعجبون لما أصابه من مجد وسؤدد في عالم الشعر. فهو سليل دوحة كريمة، ملأت البلاد رجالاً أوفياء نبغاء، لهم في كلّ موطن، مكانة سامية، ومقام مرموق.

وقد أبصر الشاعر النّور عام ١٩٠٥ في زحلة، عروس لبنان الأشمّ، وبلد الخمر والشعر. ونما وترعرع على ضفاف نهر البردوني الهادر، وتحت أفياء وادي العرائش الفاتن الساحر، وتلقّى مبادئ العلم والتربية في بيت كريم، يرعاه علاّمة جليل هو الأستاذ **عيسى إسكندر المعلوف**، والد الشاعر، وأشهر مَن ألّف وصنّف من رجال هذا العصر.

وكان لشاعرنا **شفيق**، شقيق قرض الشعر صغيراً، ونبغ به يافعاً، وكان من أعاظم الشعراء وأوسعهم شهرة، ورحل وهو في ميعة العمر، وزهوة الصبا، إنّه **فوزي المعلوف**، صاحب الملحمة الخالدة "على بساط الريح" ملأ دنيا الشعر تجديداً وإبداعاً وشدواً عاطفياً رقيقاً مطرباً. وقد عاجلته المنيّة، وهو في الحادية والثلاثين من عمره، فمضى عن هذا العالم المادّي، بعد أن تسنّم قمّة المجد، وتربّع على سدّة الخلد وهو لمّا يزل في مطالع الشباب وعهده الريّق.

وثمّة شاعر كبير غرّد في خمائل الوحي، تغريدة الشجيّ الحنون، فهزّ القلوب، ودغدغ النفوس، وأثار الإعجاب. هو **قيصر المعلوف**، خال الشاعرين الشقيقين **فوزي وشفيق**، وناظم عقد الخريدة العربية الفريدة "عليا وعصام" ومعرّب "رباعيات الخيّام".

وقد نبغ في **آل معلوف**، شاعر آخَر هو رياض، استمدَّ آيات وحيه من سحر العيون وجَمال الحسان ومفاتن الطبيعة. ومَن قرأ قصائد **رياض المعلوف** باللغتين: العربية والفرنسية، يقع على صور رائعة أخّاذة، ويرفع صوته بالثناء على ساكن الكوخ الأخضر.

وفي الدوحة **المعلوفية** سرب كبير من بلابل الأدب، وعنادل الفنّ وحساسين العلم والتفكير. وحسبنا أن نقف اليوم، أمام شاعر واحد، من أولئك الشعراء الخلصاء، لنقول كلمة صغيرة واجبة، في أثر جديد من آثار صاحب عبقر، تلك الملحمة الفذّة النادرة، التي أثبتت لأبناء الغرب، أنّ لغة الضاد تستوعب أحدث المعاني وأبلغ التعابير، وتحيط إحاطة كاملة شاملة، بأسمى وأروع ما يقتنصه الشاعر الحقيقي، من صور وأخيلة وأفكار، لحمتها وسداها الفنّ الأصيل، والابتكار المنزّه عن شوائب الاقتباس أو التقليد.

ما كاد ينتهي شفيق المعلوف، من طبع ملحمته "عبقر" حتّى طلع على عشّاق أدبه، بديوان يعجز اللسان ويقصر البيان، عن الإحاطة بما يحويه من بدائع وروائع. وليس في هذا غلوٌّ ولا مبالغة، ولكنّه الحقيقة، بل هو دون الحقيقة بمراحل، فديوان "لكلّ زهرة عبير" أثر يحقّ للعربية أن تفاخر به، وأن تعتزّ بناسج برده، اعتزازها بالمتنبّي والمعرّي وشوقي، وسواهم من أقطاب شعرائنا النابغين.

وحسبنا أن نقف عند هذا الحدّ، لننقل إلى عشّاق الأدب الحيّ الصحيح، نماذج ممّا فاضت به قريحة الشفيق، وممّا سجّلته يراعته في ذلك الديوان الجميل الجليل.

يقدّم الشاعر ديوانه "إلى كلّ مَن كان في هذه الحياة، كحصى الجداول مفترشاً للنجوم". ثمّ يفتتحه بقصيدة يهديها إلى الشاعر القروي صديقه، ورفيقه في العصبة الأندلسية، وصنوه في الشاعرية الحقّة الصادقة. فاسمعه يصفه بقوله:

يــودُّ والنيِّــراتُ فائضــةٌ	لـو أنَّ جفنيـه تحتهنَّ فـمُ
ويشتهي والرجومُ هاويـةٌ	لـو كـان منهـا لروحـه لقَمُ
لا يسأتلي يرمقُ السماءَ فهلْ	ضـاعَ لـه في طباقها حُلُـمُ
أمْ شـامَ فـوق النجـوم آلهـةً	فمضّهُ أن يعيش تحتهمُ

والقصيدة كلّها على هذا النمط العالي، المنطبق على ما يتّصف به الشاعر القروي، من عبقرية وطموح واندفاع نادر، أوصله إلى القمّة السامقة.

واسمع شفيقاً، يصف مليحة شُغل عنها، وتجاهل صبابتها، فحطّمت كأسه بقبضة يدها، غيرةً وكبراً:

عفتْ ورقاتُ الحورِ والنهرُ انتشى	وكنّـا عليـه عصبةً حـول مُنشدِ
تخالسني إحدى الملاحِ لحاظها	ويشغلني عنهـا هتـافُ المجـوِّدِ
وتشغلني كـأسٌ إذا مـا رشفتُها	تـبشُّ فتلـهيني عـن الأمسِ والغـدِ
فعضّتْ لماهـا كبريـاءً وحطّمـت	بقبضتها كأسـي بـسخط المعربـدِ
ومدّتْ إلـيَّ الكفَّ ينـزفُ جرحهـا	علـى مـا تـشظّى مـن حطـام مبـدّدِ
وقالـتْ: تجاهـل يـا شـقيُّ صبابتي	ومـا شـئتَ أمعـنْ في الجهالـة وازدَدِ

فمَن لا يـرى في مقلـتي مـا بمهجـتي حملتُ إليه جـرحَ قلـبي علـى يـدي

حقاً إنّ في هذه المقطوعة صورة صادقة لغيرة الحسناء وانتفاضة عزّتها وكرامتهـا، أمام ما يبدو لعينيها من إعراض وإهمال. وشفيق المعلـوف متفـنّن مـاهر، يرسـم بدقّـة وأمانة عظيمتين، خلجات الصدور، وعواطف القلوب ونظرات العيون المُحبَّة الحالمـة، كمـا يرسم مشاهد الطبيعة، بكلّ ما فيها من جَمال وجـلال. وفي مقطوعتـه "غـرور" صـورةٌ تريك صراعاً صامتاً بين الليل والنهار:

غرَّ الدُّجى أن تـؤمَّ الـشمسُ مخبأهـا فـراش نبلتـهُ عـن قوسـه ورمـى
وكابرَ الشمس ظلُّ السفح حـين رأى علـى الغمـام بقايـا خالـهنَّ دمـا
فشالَ من تحـت نعلِ الطّـود هامتـهُ وراح يحتـلُّ صـدرَ الطـود والقممـا
حتّى إذا ذرَّ قـرنُ الـشمس وانـدلعت نارُ الضُّحى خار عزم الظلّ فانهـدما
وعـادَ ينـشدُ عنـدَ الـسفحِ ملجـأهُ مُمرّغـاً بثـراهُ جبهـةً وفمـا

وأصغِ إلى شاعرنا يصف الحرّية، تلك النعمة العُظمى، الـتي يـصبو إليهـا الإنـسان والحيوان معاً، والتي لا يقدّرها حقّ قدرها، إلاّ الضعفاء المغلوبون على أمرهم، والمقيّـدون بسلاسل الجور، وأصفاد الظلم والعبودية:

أشذرةُ نجمٍ في الدُّجى أم حُباحِبٌ [1] يـضيءُ أمـامَ الليـلِ دربَ صـباحه
جـرى خلفـهُ طفـلٌ فـأطبق كفَّـه عليـه وقـد أعيـاهُ فـرطُ ارتجاجـه
وشـدَّ علـى سـاقِ الحباحب خيطـهُ وأطلقـهُ في طفْـرة مـن مزاحـه
فحتّـى إذا رام الحباحـبُ نجـوةً فهـمَّ وودَّ الطفـلُ كـبحَ جماحـه
مضى مبقيـاً في عقـدة الخـيط سـاقهُ وامعـن مغبوطـاً بعتـق سـراحه
ويا سعد مَن لـو عـافَ للقيـد سـاقه وأصـبحَ حُـرّاً لاكتفـى بجناحـه

وفي قصيدته "مصرع الأسد" يـضع الـشاعر أمامنـا، صـورة أُخـرى مـن صـور الحرّية، ويرينا كيف أنّ عاهل الحبشة، قبل أن يغادر قصره في عام ١٩٣٦، منهزمـاً مـن

[1] الحُباحب: ذباب يطير بالليل، لـه شعاع في ذنبه كالسراج، وربّما جعلوا الحباحب اسماً لما يُرى في ذنبه كأنّه نار.

وجه الطليان، أردى برصاص بندقيته أسداً كان قد رابه فيه. فاسمع **شفيقاً** يصف ذلك العاهل، الذي اضطرّ إلى خلع تاجه ومغادرة مملكته:

ودّعتَ قصركَ بينما شرفاتهُ ... لوّحْنَ للتوديعِ بالأستارِ
ومشيتَ مضطربَ العزيمةِ والخطى ... ومشتْ وراءك دولةُ الأدهارِ
فإذا بزأرةِ ضيغمٍ صدمَتْ لها ... جدُرُ البلاط معاقلَ الأسوارِ
عَتَبٌ عليكَ زئيرهُ أفتغتدي ... حرّاً وتبقيه حليفَ إسارِ
أسدٌ يزمجرُ في الحديد جَبَهْتَهُ ... خلفَ الحديد بنهرةِ الأمّارِ
أقعى فرحتَ تجيلُ فيه ناظراً ... أجفانهُ نضناضةٌ بشرارِ
وكأنّني بكَ ناظرٌ في شدقه ... أسداً بلندنَ ما وفى بذمارِ
فرميت لُبْدتهُ فزمجَر وارتمى ... متخبّطاً بدمِ الإخاء الجاري
أوَخفتَ من ظفرِ العدوّ به فلم ... تُسلمْهُ للأنيابِ والأظفارِ
لمّا استغاثك لحتَ تؤثرُ قتله ... من أنْ تسلّمَ ضارياً لضواري

وفي الديوان قصائد بديعة عامرة، خصّها الشاعر، بأولئك الذين وقفوا نفوسهم على خدمة الزراعة، عماد ثروتنا، وقوام حياتنا. وفي قصيدة "الفلاّح" لوحة ناطقة بدأب ذلك العامل الأمين الصادق، وبعظم جهده، وصادق عزيمته، وشدّة وفائه لأُمّته وبلاده:

وفّى الحياةَ دُيونها ... كرماً وما وفيت ديونهْ
ومضى تشقّ الأرضَ ... قبضتهُ بعزم لا يخونهْ
عَرقُ الجهادِ همى على ... عينيه فانطبقتْ جفونهْ
هلاّ نظرت جبينهُ ... كم فيه لؤلؤةٌ تزينُهْ
ضنَّتْ عليه بالدُّموع ... عيونه فبكى جبينُهْ

وتقرب من هذه المقطوعة، مقطوعة ثانية عنوانها "البستاني" يبدع فيها شفيق في وصف ذلك العامل الصامت، المتعلّق بأذيال الأماني والآمال:

مررتُ به يُكبُّ على غراسٍ ... لوينَ العنقَ للعصفِ الشديدِ

فيرفعهنَّ فوقَ الأرضِ كيما ... ينجّيهنَّ من ذلِّ السجود
بصرتُ به ينقّلُ راحتيه ... على الأغراس من عودٍ لعود
فينزعُ سلخةً من كلِّ غصنٍ ... ويدفنُها لتولدَ من جديد
يداهُ على التراب ومقلتاهُ ... معلّقتان بالأفقِ البعيد

ولم يخلُ "الراعي" من اهتمام شاعرنا الملهَم، فوصفه بقصيدة من عيون الشعر، ووصف حبّه العميق الصافي، ونايه المنتحب على حبيبته الغالية. وفي مطلع تلك القصيدة، ما يشير إلى جذالتها وروعتها ومتانة بنائها:

مشى وفي كفّه هراوتهُ ... وهو وراء القطيع مكتئبُ
ونايهُ من خلال جعبته ... يمدُّ عنْقاً كمَنْ له أربُ
مشرَّدُ الفكرِ لا يثوبُ إذا ... ينبحُ كلبٌ أو نعجةٌ تثبُ
وطالما في المروج نعجته ... طاب على كفّه لها العشبُ

وهناك بين مطاوي الديوان، قصائد فرائد، يمتزج فيها البيان بالحنان، فتستهويك برقّة الألفاظ، وإشراق الديباجة. وتملأ روحك نشوة سحرية، تدغدغ منك الحسّ، وتوقظ الشعور، وتدفعك إلى أن تترنّم بتلك الآيات البيّنات التي وفّق الشاعر إلى سكبها في أبيات هي من روائع الشعر العربي الأنيق الصافي. وفي قصيدته "الأُمّ" الدليل الجليّ الواضح:

شراعٌ مدَّ فوق الموجِ عُنقا ... وراح يرودُ خلفَ الأفقِ أفقا
يُقلُّ فتىً تبدّى الشطُّ جهماً ... له فأشاحَ عنه الوجه طلقا
وغادرَ عند صخر الشطِّ أُمّاً ... تذوبُ إليه تحناناً وشوقا
فما نضَبَتْ لمقلتها دموعٌ ... كأنَّ لعينها في البحر عرقا
.. وهل قنعت بما يجنيه أُمٌّ ... أبتْ إلّاهُ عند الله رزقا
تُرى هل آبَ من سفرٍ شراعٌ ... ولم تُشبعهُ تقبيلاً ونشْقا
وهل أشفى على الترحال إلاّ ... رأيتَ فماً على الكتّانِ مُلقى
إلى أذنِ الشراع يبثُّ شيئاً ... ويعهدُ للرياحِ بما تبقّى

ليس في الحياة كلّها، ما يعادل حنان الأُمّ رفعةً ونبلاً وإيثاراً. وفي قصيدة "ساعي البريد" لون زاه أخّاذ، من ألوان الحنان الزاخر في فؤاد المشوقة إلى ولدها المغترب:

ساعي البريد وما ينفكُّ منطلقاً ... وكلُّ باب عليه غير موصود
يسعى بأكداس أوراقٍ مغلّفة ... تفوحُ منهنَّ أطيابُ المواعيدَ
خلف النوافذ أجفانٌ مشوّقةٌ ... إليه تخفقُ من وجد وتسهيدَ
بدا فهزَّ عقودَ الغيد مقدمهُ ... هزَّ النسيمِ لحبّاتِ العناقيدَ
كم قبلةٍ من فمِ العشّاق يحملها ... على يديه ويُهديها إلى الغيدَ
يا ساعياً بابتسامات توزّعها ... على الشفاه بلا مَنٍّ وترديدَ
كم وجه أُمّ عجوزٍ إن برزت له ... لم تُبقِ من أثرٍ فيه لتجعيدَ
تلقي إليها كتاباً إن يُصبْ يدها ... شدّته باليد بين النحر والجيدَ
كأنّ كلّ غلافٍ منكَ ملتحفٌ ... لابنٍ إلى صدر تلك الأمّ مردودِ

وروائع شفيق المعلوف كثيرة، تثير فيك الدهشة والإعجاب معاً، وتجعلك تؤمن بشاعريته الفذّة، وريشته الساحرة، وقدرته النادرة على الإحاطة بمفاتن الطبيعة، وعلى وصف ما يعرض له من مشاهد، وصفاً دقيقاً يسوده الصدق والأمانة، ويحلّيه الخيال الخصب والجَمال الفتّان. وفي قصيدته "مشهد صيد" البرهان الكافي، والبيان الوافي:

تشمّم كلب الصيد طيراً فأبرزتْ ... نواجذه نصْلاً وأظفارهُ مُدى
وسافَ خبايا العشب شمّاً بمخطمٍ ... تنسّمَ خلف العشبِ ريحاً بها اهتدى
كأنّ لهُ عيناً على أنفه ترى ... خلالَ مهبِّ الريح صيداً تلبّدا
نضا ذَنباً صلب القناة مصوّباً ... وشالَ برِجْلٍ عاقفاً بعدها يدا
وحملَقَ لم يطرفْ بعينيه طارفٌ ... يلوكُ شجى في حلقه متردّدا
ومالَ بإحدى مقلتيه يُهيبُ بي ... كعبدٍ يُمنّي بالغنيمة سيّدا
فلاذتْ لخطوي الطيرُ بالجوِّ وارتمت ... تُغلّفها بالنارِ قاذفةُ الردى
فأقبلَ نحوي يملأ الريشُ شدقهُ ... وألقى ببِشرٍ في يدي ما تصيّدا
ومرّغَ بالعشبِ الضلوع كأنّه ... يلبّدُ لي من ليّنِ العشب مقعدا

وتعدُّ قصيدته "خرائب بعلبكّ" تحفة وصفية خالدة، تريك تلك القلعة الشامخة العجيبة، بأعظم وأفخم ما فيها من هياكل وأعمدة ونقوش وتماثيل، لم تقوَ الزلازل والأعاصير، على محو كلّ ما كان يكسوها من فنّ أنيق، وروعة أخّاذة. وإليك بعض أبيات القصيدة المشار إليها، التي أجمع النقّاد على أنّها أحسن ما قيل، في القلعة الرابضة في مدينة الشمس – بعلبكّ:

ربضتْ على صدرِ الزمان وأوثقتْ ... كلتا يديه فحارَ كيف ينالُها
وطئتْ جبابرُها الركامَ كأنّما ... داستْ على هامِ الزوالِ نعالَها
عُمُدٌ تُصعّدُ ناظريكَ بشُمِّها ... فيردُّ عنها ناظريكَ جلالُها
وتحارُ هل هي في الثرى أم أنّها ... علقتْ بناصيةِ الفضاء طوالُها
في صخرها تحيا النسورُ كأنّها ... منحوتةٌ منَ صُمِّه آجالُها
وتطلُّ من رُجَمِ الطلولِ أسودُها ... فكأنّما رُجِمُ الطلول دحالُها
برزتْ بأشداقٍ فُغرنَ مخافةً ... من أن تُمسَّ بشرّةٍ أشبالُها
أسدٌ تذودُ عن الحياض فمَن يردْ ... تلك الحياض أرابَهُ إجفالُها

ويستمرّ الشاعر في وصفه المسهب إلى أن يقول:

بينا تهيمُ النفس في عَرَصاتها ... وتسائل العَرَصات عن نزّالها
ألقتْ على الحقب الخوالي نظرةً ... فتقهقرتْ هيّابةً أجيالُها
فإذا بأفروديت نصب بحيرة ... رقراقة الجنبات راق زلالها
عريانةٌ وشعورها مسدولةٌ ... تصطاد آساد الدحال حبالها
حتّى إذا انتفضتْ تشعّثَ شَعرها ... وأطلّ تحت ذؤابتيه جَمالُها
حرّى اللهاث لو النسائم أقبلتْ ... لتضرّمتْ بلهاثها أذيالُها
تتطاير الشهواتُ من نظراتها ... وتفور في حدقاتها أميالُها
وتغوص خلف خيالها من فسقها ... ليضمّها تحت المياه خيالُها

إلى آخر ما في القصيدة من ألوان الوصف، وصنوف الإبداع والابتكار.

ولم يخلُ الديوان من النفحات الإنسانية العاطرة، التي عرفناها تفوح في معظم آثار

الشاعر **الشفيق**. وفي قصيدة "بسمة" لون جميل من ألوان الحضّ على نصرة الحقّ والخير والوئام، وتجنّب الشرّ والأذى والخصام:

كنْ بسمةً بفم الضعيف ولا تزدْ ... باللهِ أتراحاً على أتراحه
ما ضرَّ أن يحظى أخوك بحقّه ... فترى فلاحَك ناجزاً بفلاحه
أنحقُّ بطلان الوجود ولا نرى ... أشباحه تحنو على أشباحه
ضرْبَ الشعوب قويّها بضعيفها ... كالطير تذبحه بريش جناحه

والقصائد كلّها على هذا الطراز الرفيع الممتاز. ولا بدع، فقد ملك **شفيق المعلوف** ناصية القريض. وخزن البلاغة والبيان، فراح يصوغ لمواكب الأجيال، حلي الفنّ الأصيل، وقلائد الشعر الجميل الخلاّب. وله ثلاثة دواوين أُخرى هي: "نداء المجاذيف" (١٩٥٢)، "عيناك مهرجان" (١٩٦٠)، "سنابل راعوث" (١٩٦١).

توفّي شاعرنا **شفيق المعلوف** في مدينة سان باولو – البرازيل يوم عيد الميلاد ٢٥ كانون الأوّل ١٩٧٦ عن ٧١ عاماً. وكرّمته زحلة بمهرجان عظيم بعد ظُهر يوم الأحد ٢٦ حزيران ١٩٧٧ اشتركت فيه أميرة البيان والبلاغة الدكتورة **نجاح العطّار** وزيرة الثقافة بسورية آنذاك. ومثّل حلب في المهرجان عميد الضاد والدي **عبد الله يوركي حلاّق** فألقى قصيدة رائعة أعجبت الحاضرين.

(الضاد، العدد ٩/ ٢٠٠٤، ص٣-١٠)



الدكتور نقولا زيادة
بهجة الحياة وجدواها

توفّي في بيروت – لبنان، أستاذ الشرف في دائرة التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت البروفسّور **نقولا زيادة**. ونقولا زيادة مؤرّخ عُني بأحوال الأُمم والحضارات، باحثاً عن خباياها، مفسّراً لأسباب نشوئها ونهوضها وزوالها. كتب مأساة فلسطين شعباً وأرضاً قائلاً: "إنّ كتابة التاريخ متعة عقلية وليس أكثر".

نعته الجامعة الأميركية قائلة:

"وُلد **نقولا زيادة** في دمشق في الثاني من كانون الأوّل ١٩٠٧ من عائلة فلسطينية

من مدينة الناصرة. بدأ دراسته في دار المعلّمين الابتدائية في القُدْس في العام ١٩٢١. وفي العام ١٩٢٥ انتقل إلى جامعة لندن ومنها نال شهادة البكالوريوس في التاريخ القديم في العام ١٩٢٩. ثمّ انتقل في العام ١٩٤٧ إلى معهد الدراسات الشرقية والأفريقية في لندن حيث نال شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي".

بدأ **نقولا زيادة** حياته العملية مدرّساً في كلّية عكّا. وتنقّل في عدّة مناصب كمحاضر ومطالع في التاريخ القديم في القُدْس وبريطانيا قبل أن يُعيّن أستاذاً مساعداً في الجامعة الأميركية في بيروت في العام ١٩٤٩، ثمّ أستاذاً في العام ١٩٥٨.

وضع أكثر من أربعين كتاباً في التاريخ العربي والإسلامي، وترجم العديد من كتب التاريخ من الإنكليزية إلى العربية منها "أُمّنا الأرض" **لأرنولد توينبي**. وله أكثر من ١٥٠ مقالاً ومحاضرة ألقاها في مؤتمرات عربية ودولية. كما أنّه قدّم بين العامين ١٩٤٧ – ٢٠٠٠ أكثر من ألفي حلقة إذاعية بالعربية حول مواضيع تاريخية مختلفة على الـ "بي بي سي" وغيرها من الإذاعات. كما أنّه كان عضواً في عدّة جمعيّات علمية، مثل الجمعية الأميركية للاستشراق، والجمعية الألمانية للاستشراق، والجمعية العلمية العراقية، وجمعية العاديّات الحلبية السورية التي حاضر في رحابها مرّات عديدة. كما نشر في مجلّة "الضاد" عدّة مقالات، وله في مجلّة "العربي" الكويتية مقالات كثيرة جمعت في كتاب مجلّة العربي بعنوان "إيقاع على أوتار الزمن" وغيرها من المجلاّت العربية والأجنبية.

لم يبلغ **نقولا زيادة** المئة سنة مثلما "قرّر" ولكنّه لم يسأم، وهو في التاسعة والتسعين، "تكاليف الحياة" مثلما سئمها **زهير بن أبي سلمى** وهو في الثمانين. ولم يجد نفسه مكرهاً على "لزوم العصا تحنى عليها الأصابع" مثلما تصوّر **لبيد بن ربيعة** نفسه إذا "تراخت منيّته". ولم يبكِ عهد الشباب وريعانه مثلما بكاهما العديد من الكتّاب والشعراء على مرِّ العصور، لا شيء من ذلك، بل استمرّ **نقولا زيادة** في شيخوخته الطفلة هو هو، مفعماً بالنشاط الخلاّق في نطاق اختصاصه، ومقبلاً في الوقت ذاته، على الحياة كأنّه عائش أبداً، حتّى إذا جاءه الموت. كان، أي الموت، بمنزلة "تتويج" لحياةٍ عملَ **نقولا زيادة** على إعلاء شأنها والارتفاع بمستواها.

لم يكن **نقولا زيادة** في أبحاثه المستفيضة، عن ماضي العرب وحاضرهم، مؤرّخاً تقليدياً يكتفي بسرد الأحداث كما قرأها، في أُمّهات المراجع العربية، أو عايشها في عمره المديد، وإنّما كان يستقرئ تلك الأحداث بعمق ذكي، في أسبابها ومفاعيلها ونتائجها لا لكي يعطي درساً لِمَن يقرؤه، كاتباً، أو يستمع إليه محاضراً، بل لكي يحثّ القارئ أو المستمع على التفكير، واستخلاص العبر واستشراف آفاق المستقبل. لكأنّه يقول للقارئ أو المستمع، ما قاله **ابن الرومي** في مطلع إحدى قصائده:

أمامكَ فانظرْ أيَّ نهجيكَ تنهجُ ... طريقانِ شتّى مستقيمٌ وأعوجُ

وهو في عودته إلى ماضي العرب، وإلى تاريخ الفكر العربي والإسلامي لا يجنح إلى "تقديس" أعلام الماضي ومآثرهم في "التشريع والتاريخ والجغرافية والفلسفة، والعلم الطبيعي والرياضي، والطبّ" بحسب قوله، أو الوقوف عند ما قدّمه هؤلاء للإنسانية في مجالات الفكر المختلفة، بل تغدو العودة إلى الماضي، في أبحاثه، سفراً نحو المستقبل.

له أكثر من ٥٠ مؤلَّفاً مطبوعاً منها:

١- روّاد الشرق العربي في العصور - القاهرة ١٩٤٣. ٢- وثبة العرب - القُدْس ١٩٤٥. ٣- العالم القديم، جزءان - يافا ١٩٤٢. ٤- صور من التاريخ العربي - القاهرة ١٩٤٦. ٥- شخصيّات عربية تاريخية - يافا ١٩٤٦. ٦- صور أوروبّية - القُدْس ١٩٤٧. ٧- عالم العصور الوُسطى في أوروبّا - القُدْس ١٩٤٧. ٨- قمم من الفكر العربي الإسلامي - بيروت ١٩٨٧.

نقولا زيادة اسم أكبر من الكتب والمؤلَّفات والموسوعات وأعمق من الذكريات وبقايا الصور.

حينما زارنا في حلب في مطلع التسعينيات من القرن الماضي، لم يقبل أن يلقي محاضرته عندنا في جمعية العاديّات إلاّ واقفاً.

كان كالطود الشامخ يمشي مشية الشباب رغم تجاوزه التسعين من عمره. وكان يأمل أن يبلغ المئة من عمره، كما أسلفت، ويحتفل بمئويته، ولكنّ الموت اختطفه قبل الموعد بقليل.

أمّا نقولا زيادة الإنسان، فإنّ الحديث عنه حديث طويل لا تتّسع له هذه السطور. كان رحمه الله، يعشق الحياة، ويعشق كلّ ما في الحياة من طيّبات كأنّه يشارك ناظم حكمت في قوله: "الحياة جميلة يا صاحبي".

هذا فضلاً عن دماثته، وسخريته العذبة، ونكاته المستحبّة، ونداوة مجلسه، وسرعة بديهته، ونفوره من التصنّع في القول أو في السلوك.

تمّ تشييع نعشه الطاهر في مأتم حميم ظُهر يوم الجمعة ٢٨ تمّوز ٢٠٠٦ بسبب ظروف الحرب في لبنان. وصُلّي على جثمانه الطاهر في كنيسة نياح السيّدة في شارع المكحول قرب الجامعة الأميركية بحضور الأهل والأصدقاء.

إنّها ذكريات جميلة مع علاّمتنا الكبير الذي خسره العالم العربي والعالمي، لأنّه كان سيّد المنبر ووردة المجالس واللقاءات.

وفي دارته العامرة في (قريطم) ببيروت، كان ملتقى الأصدقاء والأدباء والباحثين. وكم حضرنا بعض هذه اللقاءات (في أثناء وجودنا في عطلة الصيف بلبنان)، هذه اللقاءات الدافئة الغنية بفكرها وإنسانيتها وحوارها المتنوّع المميّز، وشيخ المؤرّخين يستقبل ضيوفه بوجه بشوش وعبارات مستحبّة.

وما زالت "الضاد"، التي عرفته معرفة وثيقة، تذكر قوله المأثور: "الأمل هو باب السعادة".

رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه في فردوسه مع الأبرار والصدّيقين والصالحين.

(الضاد، العدد ٢٠٠٦/١٢، ص٧-٩، والكلمة، الأعداد ١-٢-٢٠٠٩/٣، ص٢٧-٢٩)



الأستاذ جبرائيل غزال

الأستاذ جبرائيل غزال، وجه مشرق وضّاء من وجوه حلب الشهباء، وهو سليل أسرة عريقة في العلم والفضل والتقوى. عرفته وأنا على مقاعد الدراسة، يوم كان صديق المرحوم والدي، وصديق عائلتنا. فمَن منّا لا يعرف الأستاذ جبرائيل غزال، المحامي القدير والقانوني الألمعي ذا الجرأة النادرة، والحجّة الدامغة، والقاضي النزيه العادل، والنائب الغيور، والرائد الأثري الذي عشق آثار وطنه الكبير، وعمل في الحقل الأثري،

وأسهم في نشر التراث العربي الخالد. وكان مرجعاً في كلّ ذلك، وله مقالات عديدة في أهمّ أوابدنا التاريخية وآثارنا القديمة.

الأريحيّ الكريم الباذل من حرّ ماله، وثمين وقته، وساعات راحته وهنائه، في سبيل الله والخير والفضيلة. الصديق الوديع المتواضع ذا القلب الملائكي، واللسان العفيف، والمبدأ القويم، والهدف الرفيع الأمثل؟

والأستاذ جبرائيل غزال، من خيرة شيوخنا المتحلّين بالخُلق الكريم، والأدب الرفيع، والثقافة القانونية الشاملة، والعطف الوافر على ذوي البؤس والشقاء.

وقد عَرَفَتْه "الضاد" نصيراً أريحياً، وصديقاً عزيزاً مخلصاً، اشترك فيها منذ صدورها، يطالعها ويحضّ سواه على مطالعتها، لأنّها، على حدّ قوله، تُعنى بنشر كلّ رصين ومفيد، من ثمرات القرائح الخصبة والأقلام المبدعة.

إنّ قيمة المرء بما أنجز، والأستاذ غزال أنجز الكثير الكثير، وأعطى الوطن من فكره وعلمه الشيء الكبير، وملأ الساحة بشخصيته الفذّة. ولئن كُرّم الأستاذ غزال بالأوسمة الرفيعة، فإنّ تكريمنا له هو أبد الدهر، لأنّنا في كلّ يوم نرجع إليه بكلمة أو سؤال أو رأي. وإذا تحدّثنا بحديث الأجداد والتراث، فسوف يكون هو شريكنا الأوّل في الحديث وإبداء الرأي السديد.

وكلٌّ الذين عرفوا جبرائيل غزال، وعاشروه وسبروا أغوار ثقافته، يعلمون حقّ العلم، أنّه هبة التاريخ إلى هذه المدينة العربية الكريمة، كأنّه وُلد وفي يديه عدسة تجسّم له ما ثرَّ من حروف وصور، وقلم يدوّن به ما نجهله من مخلّفات الحقب الغابرة.

ومنذ الثلاثينيات، تألّق نجم جبرائيل غزال في سماء القانون والفكر والأدب والتراث والآثار. فلم تكن تُذكر قضية قانونية، أو تُذكر عاديّات حلب إلاّ ويُذكر اسمه مقروناً بإعجاب الباحثين والعلماء.

كان ذا حسّ أدبي وقانوني وتراثي وتاريخي عجيب، يعرف عمر كلّ أثرٍ يقع عليه نظره، ويحيط بسيَر الغزاة والفاتحين الذين أقاموا في بلادنا الأنصاب، وشيّدوا المعابد والقلاع والحصون. وكان حجّة في القانون يستشيره كبار المحامين ويقصدونه في أمورهم المستعصية.

كان يعشق التماثيل والقناطر والمقرنصات وقطع الفسيفساء والسبل، حتّى الخرائب والتماثيل المحطّمة كان يعشقها، ويهيم بها ويعلم مَن هم صانعوها. وكان عنده لكلّ تمثال قصّة، ولكلّ هيكل حكاية، ولكلّ معبد رواية تمتّ إلى أعمق جذور التاريخ بألف سبب وسبب.

كان فارس هذه الميادين العلمية والتراثية وحامل لوائها. كان الأستاذ **غزال** زينة المجالس وسيّد المنابر. يطربنا بحديثه الممتع، وأدبه الرفيع، ومرحه الحلو المستطاب، وينثر علينا من الملح والنوادر، ما يشرح منّا الصدور، ويرنّح من سمّارنا الأعطاف. وكنّا نؤخذ بسحر كلامه، وننتشي بخمرة مزاجه، وننتقل على أجنحة لهوه البريء، من روضة فنّية غنّاء، إلى خميلة أدبية وادعة، تغرّد فيها عنادل البيان المشرق الأصيل، وحساسين الحجّة القانونية الرائدة.

ولم نكن نعرف بمجالسه أو صحبته همّاً ولا غمّاً. كان بدعابته العذبة، وحكاياته الطريفة، يتخطّى حدود الجمود، وينطلق على سجيته، محلّقاً كالنسر الجبّار، في أبعاد الصفاء الروحي، والانسجام المطمئنّ.

وكانت تتجلّى محبّته الإنسانية، وروحانيته الشرقية الصافية، بأجلى مظاهرها، في كلّ محفل يكون واسطة عقده، وزينة قاصديه.

والحقّ يُقال: إنّ الأستاذ **جبرائيل غزال** مثالي في إنسانيته، رائع في وطنيته وصدق عروبته، قمّة في وفائه لأُمّته وأصدقائه، حاتمي في كرمه وأريحيته، كامل في مروءته وحَميّته ورجولته. أديب قدير وقانوني ألمعي بكلّ ما في الأدب والقانون من معنى ومبنى. وكان أخاً لَمَن لا أخ له. وسنداً لَمَن فقد سنده، وملاذاً لكلّ قاصد ومستجير. ولم يكن يستهويه غير محبّة الإنسان وعمل الخير وصنع الجميل، والبحث عمّا يفيد الناس ويجلو ما غمض من أخبار المنسيين من شيوخ الفكر والعلم والأدب. وفي مقالاته وأبحاثه ومحاضراته، ما يشير إلى هذه الناحية، بألف بنانٍ وبنان.

وما أصدق الشاعر العربي حين قال:

ليسَ بإنسانٍ ولا عاقل ... مَن لا يعي التاريخ في صدرهِ
ومَن درى أخبار مَن قبلهُ ... أضاف أعماراً إلى عمرهِ

في هذين البيتين حقيقةٌ جديرة بالتنويه، فالمؤرِّخون يعيشون حياتهم وحياة مَن سبقهم على مسرح الوجود، ويقدِّمون إلى مَن يأتي بعدهم صور مجتمعاتهم ومجتمعات مَن يؤرِّخون لهم من الأمم والشعوب. وأستاذنا غزال في طليعة هؤلاء المؤرِّخين الصادقين.

كان الأستاذ جبرائيل غزال رائداً من روّاد الأدب والفكر والقانون والآثار في بلادنا، بذل الكثير من الجهد والعرق، في سبيل خدمة حلب، وخدمة القانون والآثار.

(الضاد، العدد الخاصّ ١٩٩٨/٥، ص٣-٧، تكريم جمعية العاديّات لمناسبة بلوغ رئيسها الفخري جبرائيل غزال التسعين من العمر، والعدد ٢٠٠٤/٧، ص٦-٨)

يا غزالَ الشهباء

نظمتُها لمناسبة مرور عشر سنوات على رحيل
القاضي والمحامي والأثري جبرائيل ميشيل غزال (١٩٠٧-٢٠٠١)

اسألوا المجدَ هلْ شذاهُ يزولُ ... إنْ كسا عارضيه دهرٌ طويلُ
إنَّ عطرَ الأمجادِ من زهرة الخُلْد ... فما يعتري الخلودَ ذبولُ
ولقدْ يكتسي ضحى المجدِ فردٌ ... ولقد يَعرى من ضحى المجدِ جيلُ
وذوو الأنفسِ السقيمة ليلٌ ... وذوو المجدِ والعُلا قناديلُ
إنَّ للمبدعينَ في عنقِ القومِ ... حقوقاً، أقلُّهَا التفضيلُ
أيّما شعب ليس يُكرّمُ فيه ... المبدعونَ الحداةُ، شعبٌ ضليلُ
وطنٌ يُكرِمُ العباقرَ حيٌّ ... وسواهُ من البلاد قتيلُ
كيف يُجلى فيه الضحى حينَ لليلِ ... يضجُّ التزميرُ والتطبيلُ
الثرى في البلادِ برقٌ، إذا ... الأنجمُ فيها قد لفَّها التجهيلُ
يتلاشى عملاقُها حينما ... للقَزْمِ فيها التعريضُ والتطويلُ
ومن الناسِ مَن يزولُ مع الموت ... ومنهم رُغمَ الردى لا يزولُ
كعطورِ الزهورِ تبقى وما تَفنى ... ولو كفَّن الزهورَ الذبولُ

كنجومِ السما بأنوارِها ... يُهْدَى بها في بيدِ الليالي ضليلُ
ما سواءٌ كلُّ الرجالِ فمنهم ... أرؤسٌ حرّةٌ ومنهم ذليلُ
إنّما المرءُ خافقٌ ولسانٌ ... لا يزينُ الرجالَ عرضٌ وطولُ
وقليلٌ من الرجالِ غديرٌ ... وكثيرٌ من الرجالِ وحولُ
والمسمّونَ بالرجالِ كثيرٌ ... والرجالُ الرجالُ نَزْرٌ قليلُ
بوعورِ الخطوبِ يُكشفُ زيفٌ ... ويبينُ المهنّدُ المصقولُ
ما كهوفٌ فؤادُهُ مُعتماتٌ ... بلْ صباحٌ مع الشذا مجبولُ
إنّ مجدَ "الغزالِ" أقوى من الموت ... فما عن رُبا الحياةِ يميلُ
يَشْغَلُ الطينُ الزاحفاتِ ... وذو الأجنحة الحرُّ بالذرا مشغولُ
ربَّ حيٍّ كأنّما هو ميتٌ ... قد طواهُ عن الوجودِ الرحيلُ
ولقد يَنْزِلُ القبورَ أخو المجد ... ويبقى بين الجميعِ يصولُ
ما الفتى أعظُمٌ تموتُ، ولكنْ ... هو ذكْرٌ يبقى له أو يزولُ
رفعةٌ في تواضعٍ، وإباءٌ ... في ابتسامٍ، ومنطقٌ معسولُ
وكماءِ السماءِ طبعٌ طهورٌ ... وخَلاقٌ مغربلٌ منخولُ
ما نما في فؤادكَ الحرُّ إلاّ ... صادقُ الحبِّ والودادُ الأصيلُ
أيُّ إكليلِ فوقَ ذكراكَ نُعليه ... وذكراكَ للعُلا إكليلُ
أيُّ تاجٍ يزينُ رأسَكَ يا مَن ... توّجَ الرأسَ منكَ خُلقٌ نبيلُ
ليسَ في الدهرِ مثلُ عودكَ طيباً ... فبأمثالكَ الوجودُ بخيلُ
طبتَ فجراً حبّاً، وطبتَ شروقاً ... مثلما طاب من سنيكَ الأصيلُ
كلُّ مجدٍ زاه إذا ما التقى مجدَكَ ... فهو الحييُّ منهُ الخجولُ
بكَ حينَ الشهباءُ تزهو ... يغارُ الأرزُ منها ودجلةٌ والنيلُ
يا غزالَ الشهباءِ ما أنتَ إلاّ ... حينَ تختالُ طرفُها المكفولُ
وقطفتَ الأمجادَ من وعرها، لا ... يقطفُ الأمجادَ الخمولُ الكسولُ
مجدُكَ العالي فطنةٌ وكتابٌ ... أينَ من مجدكَ الغبيُّ الجهولُ
قد أتيتَ الوجودَ غيمةَ عطرٍ ... وتركتَ الوجودَ عطراً يسيلُ

كَمْ وسامٍ بصدرِكَ الحرُّ يزهو ... وقليلٌ لكَ الألوفُ قليلُ
أينَ من عمرِكَ المُخَضَّبِ بالعَلْيا ... وسامٌ علا وشكرٌ جزيلُ
أيُّ عطرٍ تركتَ بعدكَ لم تدرِ به ... في زهرِ الجنانِ فصولُ
أنتَ في فتكةِ الخطوبِ هديرٌ ... وعلى أيكةِ السلامِ هديلُ
ولكم يُبْطِنُ المُورَّدُ جُبْناً ... ولكمْ يَخزَنُ الوثوبَ نحيلُ
كنتَ حامي الحمى لساناً وسيفاً ... حينما دنّسَ الترابَ الدخيلُ
عشتَ بالحبِّ ما عرفتَ سواهُ ... وهواكَ القرآنُ والإنجيلُ
وسَواءٌ في قلبِكَ الحرُّ عيسى ... في علاهُ ومريمٌ والرسولُ
وحبيبٌ إليكَ قرعُ النواقيسِ ... إذا نادتْ والأذانُ الجميلُ
ما طلبتَ الكرسيَّ لكنْ لطهرٍ ... فيكَ قد شاقهُ إليكَ الوصولُ
لم تَخُضْ لجّةَ السياسةِ إلاّ ... لكَ سيفٌ على الخنا مسلولُ
وَلَكَمْ صنتَ طهرها وَلَكَمْ ... أطفئ فيها على يديكَ عليلُ
تحتَ قوسِ القضاءِ كنتَ ... أبا العدلِ، ولم يَلْوِكَ الهوى، والميولُ
كلُّ قاضٍ خليلهُ العدلُ لم ... يَعْدلْ قضاءً له أخٌ أو خليلُ
وأساسُ الحضارةِ العدلُ إنْ لم ... يكُ عدلٌ فما إليها سبيلُ
يا أخا الكلِّ لا رقيبٌ تحابيه ... بأمرٍ، ولا بعيداً تغولُ
يا نصيحَ الخصومِ بالصلحِ ... والصلحُ على فطرةِ السلامِ دليلُ
وبمكيالٍ واحدٍ لا بمكيالين ... عندَ القضاءِ كنتَ تكيلُ
مستقيمُ القضاءِ لا ليمينٍ ... أو شمالٍ في الحكمِ كنتَ تميلُ
وسوى دربِ الحقِّ في موكبِ الميزانِ ... لا يَعرفُ القضاةُ العُدولُ
ولديكَ القانونُ أعلى مقاماً ... ليسَ يلويه ساعدٌ مفتولُ
والمحاماةُ هل درتْ فارساً مثلكَ ... في ساحةِ الحقوقِ يصولُ
واصطفتْكَ الشهباءُ نائبها ... عارفةً أنّكَ القؤولُ الفعولُ
يا نصيرَ النساءِ في مجلسِ النوّابِ ... صوتاً به أُنيرتْ عقولُ
فإذا هنَّ بعدَ صوتِكَ ... قد حُقَّ لهنَّ التصويتُ والتمثيلُ

كنتَ حقّاً عن الورى نائباً ما ... هو عن حقِّ شعبه مشغولُ
صوتكَ الحقُّ مثلما الزأرُ للآ ... ساد يعلو وللخيولِ الصهيلُ
كنتَ للعاديات راساً كريماً ... كلُّ ما فيه أنهرٌ ونخيلُ
ما أردتَ الظلالَ منها، ولكنْ ... كان للجمعِ منكَ ظلٌّ ظليلُ
بجلتكَ الشهباءُ روحاً جواداً ... كلُّ مَن جادَ حقّهُ التبجيلُ
يا أبا (ميشيلٍ) تركتَ كنوزاً ... منْ فَخارٍ يزهو بها (ميشيلُ)
يرثُ الفرْعُ أصلَهُ فهْو يزكو ... حين تزكو بالطيّبات الأصولُ
اينَ يا (جبرائيلُ) مثلُكَ فينا ... عزَّ يا (جبرائيلُ) فينا المثيلُ
سُئِلَ المجدُ: مَن حبيبُكَ؟ ... فاهتزَّ بفخرٍ وقالَ: (جبرائيلُ)

(الضاد، العدد ٩/٢٠٠٩، ص٣٠-٣٢)



شكـر الله الجـرّ
شاعر الليالي الأندلسية في المهاجر الأميركية

يحشوش قرية جميلة من قرى لبنان، بيوتها متناثرة هنا وهناك، تارةً في شكل هندسي منسّق، وتارةً في شبه فوضى واضطراب. تحيط بها بساتين التفّاح لتزيدها جَمالاً، وفي ساحتها الكُبرى سنديانة ضخمة، يتسلّق الأولاد فروعها وينعمون بهدوئها. ففي هذه القرية الوادعة رأى شاعرنا النُور في ١٥ تشرين الأوّل ١٩٠٨ وفيها نشأ وترعرع طفلاً يحبو، وصبياً يغزو الكروم المثقلة بعناقيد العنب، والبساتين المترنّحة بيانع الثمار. ثمّ انتقل شاعرنا إلى جبيل عروس الشاطئ اللبناني، وذات الماضي المجيد،

والتاريخ التليد المشرق، والآثار التاريخية القديمة العظيمة، الرابضة بشموخ وكبرياء على الساحل اللبناني الجميل. ودخل مدرسة الفرير في سنة ١٩١٣، وبقي فيها حتّى ١٩١٤ حيث أغلقت المدرسة أبوابها بسبب نشوب الحرب العالمية الأُولى، وحرم ارتشاف كؤوس العلم والمعرفة. بدلاً من أن يهجر شاعرنا الكتاب – كأصحابه في تلك الأيّام – أخذ يدرس ويقرأ الكتب المفيدة ليزيد من ثقافته ومعرفته. وكان يمدُّ يده إلى مكتبة أخيه الشاعر الكبير "**عقل الجرّ**" يغرف من كنوزها ويعبُّ من ينابيعها.

تفتّحت عينا **شكر الله** واسم أخيه **عقل** ملء الدنيا. فمقالاته في جريدة "**الأرز**" مقالات ثورية، كان يلهب بها الجماهير، وخطبه كلمات نارية تثير حماسة الشعب، من أجل حرّية بلاده واستقلالها.

وفضلاً عن ذلك، فقد كان شاعراً من فحول الشعراء، له قصائد رائعة كانت تتناقلها الشفاه، وتردّدها المجالس والأندية، وكان صداها يتجاوب في نفوس الشباب المتعطّش إلى الحرّية والعدل والمساواة.

وحضن **عقل** أخاه **شكر الله** ورعى خطواته الأُولى، وواكبها في دروب المعرفة: وأدرك الصغير كيف يقتنص الفرص السانحة ويستغلّها لتثقيف نفسه، وتربية ذوقه الفنّي، فراح يرتشف من ذلك الشلاّل الهادر والينبوع الشادي ومن الطبيعة الأُمّ، بمناظرها الخلاّبة، وأحراجها الخضر، وعيونها العذبة، وجبالها الشمّ، وأوديتها السحيقة.

ثمّ انتقل إلى مدرسة الحكمة في بيروت لمتابعة دروسه. وشاعرنا كبقية الشعراء، أسرت قلبه واستحوذت على مشاعره فتاةٌ عُرفت بجَمالها الساحر، فتصاحبا وتحابّا. وفي أحراج جبيل كانا يتنزّهان، وفي القلعة الجبّارة كانا يلتقيان ويتواريان عن الأعين الخبيثة. وفوق قبر أحد الملوك الفينيقيين، بثّها لواعج قلبه، وناجاها بأرقّ الكلمات، وتبادلا القبل والعناق، إلاّ أنّ سعادتهما لم تدم طويلاً، فقد اختطف الموت الزهرة اليانعة، وأغمض التراب جفنيها، فبكاها الشاعر بالدمع الغزير، وأنشد في لوعة وأسى عندما مرّ بقبرها وشاهد زهرة حمراء نابتة على ضريحها:

يا زهرةً في زوايا القبر نابتةً ... حمراء فوق فتاة ضمَّها التربُ
هل كنتِ قبلةَ شوقٍ فوق مبسمها ... أم شهوةً في حنايا الصدرِ تلتهبُ

وهاجر شاعرنا إلى البرازيل بعد أن تسلّم رسالة من أخيه يستدعيه فيها. وبكت أُمّه لمّا عرفت أنّه عزم على السفر. وعلى رصيف المرفأ ضمّته إلى صدرها وقالت له: "أتطول غربتك يا بُنيّ؟" فأجابها: "خمس سنوات يا أُمّاه ثمّ لا ترينني إلاّ عائداً إليك، ولن نفترق بعدها".

ولقد أنشد ساعة رحيله، ملمحاً إلى سبب هجرة اللبنانيين عن وطنهم:

إيه لبنان يشهدُ الله أنّا ... ما هجرناكَ عن قلىً وصلابه
إنّما أصبح المقامُ بأرض ... الأرز للحرّ ذلّةً ومعابه
كيف لا يهجرُ الأبيُّ مكاناً ... ملأ اليأسُ جوّهُ ورحابه
وطنٌ نام كالنعاجِ بنوهُ ... نومةً أيقظتْ عليه ذئابه
وطنٌ ضعضع التخاذلُ أهليه ... وحطّ الشقاءُ فيه ركابه
أنشبَ الجهلُ ظفرهُ ببنيه ... حيثما أغرز التعصّب نابه

وفي المهجر راح يعمل مع أخيه في التجارة. ولكنّ شكر الله سرعان ما انصرف عن التجارة للأدب والشعر استجابة إلى نزعة في النفس. وفي عام ١٩٣٠ أسّس شكر الله مجلّة "الأندلس الجديدة" وأنشأ إلى جانبها جريدة أسبوعية اسمها "الحرّية" فكانت منبراً للدفاع عن القضايا العربية، وميداناً للموضوعات الأدبية والصور الاجتماعية.

وفي عام ١٩٣٢ أطلق الشاعر شكر الله الجرّ صيحةً مدوّية تردّد صداها في نفس الشاعر ميشال معلوف واستجاب لها عدد من الشعراء. فأسّسوا رابطة ثقافية وأدبية أُطلق عليها اسم (العصبة الاندلسية) تولّى رئاستها ميشال معلوف وانخرط في سلكها كبار الأدباء المهجريين. وأصدروا مجلّة (العصبة الأندلسية) فكانت مسرحاً لإنتاج أدباء المهجر ينشرون فيها قصائدهم العصماء ومقالاتهم المفيدة. فكانت واسطة العقد بين أدباء المهجر وأدباء الوطن، ووثّقت أواصر الولاء بين مختلف الأندية الأدبية في الوطن والمهجر. وغذاها شاعرنا بقلمه شعراً ونثراً، دون أن يهمل "أندلسه الجديدة" التي ظلّ يرعاها حتّى صدرت الأوامر الرسمية في الحرب العالمية الثانية بمنع نشر شيء بغير لغة البرازيل الرسمية. فاحتجبت كما احتجب غيرها من الصحف. وعاد شاعرنا إلى التجارة،

دون أن يهمل رسالة القلم، حتّى رجوعه إلى الوطن.

وما كاد خبر عودته إلى الوطن ينتشر، حتّى هبَّت الجالية العربية تقيم لـه الحفلات، اعترافاً بفضله على الأدب. وفي إحدى الحفلات، ألقى الشاعر قصيدة مطلعها:

عجّلـــي يـــا ســـفينتي بـــانطلاقِ   واخفقــي في الـــشراع يـــا أشـــواقي
فأنــــا عائـــــدٌ غــــداً لـــــبلاد   هــــي في الأرض جنَّــــةُ الخــــلاَّقِ
علّــــني أنـــشق الحيـــاة بريّاهــــاً   واطفــــي بـــالعودِ نـــارَ اشـــتياقي
إنّهـــا مـــوطني ومهـــبطُ إلـــهامي   ودنيــــا تفتّحـــــي وانبثــــــاقي
لـــي علـــى بعـــدها هتافـــاتُ صـــدّاحٍ   جــــريحٍ مـــــضرّجِ الأطــــــواقِ
ولـــها أنْ يخلّـــدَ الــشعرُ أرضــاً   مــــن قــــوافيَّ للخلـــودِ مـــراقِ

وفي حفلة أُخرى ألقى قصيدة مطلعها:

ضمّدي يا عروسَ شِعري جراحـي   وامسحي نفحةَ الأسى عن صـداحي
آذنتْ بالفراق شـمسي عن الـصحب   وعـــن هـــذه الربـــى والبطـــاحِ
إنّ عمـــــراً قطعتـــــهُ في ديـــــارٍ   الــــهجرِ أمسى في عـــالم الأشـــباحِ
أســـدلتْ فوقـــهُ الليـــالي وشـــاحاً   من ضبابٍ وغـابَ فيـه صـداحي

لقد وجد شاعرنا في المهجر المال والجَمال والحرّية وعاش حياته كما أرادهـا. ولكنّـه على الرغم من ذلك آثر أن يعود إلى مرابع الطفولة وأرض الوطن. فقد أصيب شـاعرنا في المهجر، بفقد أخيه "عقل" الذي رثاه بقوله:

أموسَّـــــداً كبـــــدَ الثــــــرى   أفــــديكَ مـــــن متوسَّــــــدِ
هيهـــات أعـــرف بعـــد يومـــك   أيــــن يـــــومي مــــن غـــدي
ســـلوايَ أنّـــي لـــست بعـــــ   ــــدك يـــا أخـــي بمخلّـــدِ

ثمّ أصيب بوفاة والدته فرثاها بقوله:

أُمّــــاهُ قــــد نفــــذ المقــــدّرُ   طاويــــــاً للحــــبّ ســـــفرا
عبثــــاً أُنَهْنِــــهُ بالتجلُّــــــد   لــــوعتي وأقـــــولُ صـــــبرا
فــــالجرحُ أوســــعُ شـــقّةً   مـــن أنْ أضـــمّد منـــه شـــطرا

وعاد شاعرنا إلى وطنه، وسكن "جبيل" مدينته. وعلى إثر وصوله طرح فكرة بناء "بيت الشاعر"، وذلك عن طريق تبرّع المدخّنين بسيجارة واحدة من كلّ علبة دخان يدخّنونها يومياً. و"بيت الشاعر" نوع من الأكاديمية لكلّ مَن يعمل بالقلم، والريشة، والفرشاة، والإزميل، والنوتة، أي لكلّ فنّان.

وافترض الشاعر أنّ في لبنان ثلاثمئة ألف مدخّن ينفق الواحد منهم علبة واحدة كلّ يوم ثمنها أو معدّل ثمنها ليرة لبنانية. ويقوم المشروع على أن يوضع بين أيدي المدخّنين علبة اسمها "علبة الأديب أو الشاعر" يضع فيها كلّ مدخّن سيجارة في اليوم الواحد. وهكذا وبعملية حسابية بسيطة يجتمع في اليوم الواحد خمسة عشر ألف ليرة لبنانية، وفي السنة خمسة ملايين ليرة. وهذا المبلغ يكفي لبناء وكالة من اثنتي عشرة طبقة، تشغل الأُولى والثانية منها إدارة "بيت الشاعر"، وما بقي من البناء فللإيجار بحيث يجتمع دخل شهري لا يقلُّ عن عشرين ألف ليرة، ويوضع في صندوق "بيت الشاعر" ليوزّع جوائز أدبية، وفنّية، وموسيقية وغيرها من الفنون الجميلة.

ومؤلَّفات شاعرنا كثيرة، المطبوع منها: "زنابق الفجر" شعراً و"نبيّ أورفليس" و"المنقار الأحمر" نثراً و"أغاني الليل" شعِراً، و"جزر الخطيئة" الذي انتهى طبعه قبل وفاته.

عكف شكر الله الجرّ قبل وفاته على تنقيح ما تبقّى لديه من كتبه: "بروق ورعود" و"أضواء على الحياة" و"قرطاجة" و"لابيس الكورنثية"، وكلّها مجموعات شعرية، و"الشيخ الأبيض" و"ديفا وآدوين" و"لويزا وأبيلاردو" و"ظلال وأشباح" و"لواعج وخوالج" و"سوانح في الفنّ والأدب".

ولقد طرق شكر الله الجرّ الشاعر المحلّق والكاتب الفذّ، أبواب الشعر والنثر جميعها فوصف الطبيعة في وصفه لصنّين بقوله:

لبنانُ كيف غدتْ ربوعك بعدما ... عصفت رياحُ البؤس في أصلابها
أودى الدخيلُ بزهوها ونعيمها ... ومضى الزمانُ بحُسْنها وخضابها
الليثُ مغلولُ اليمينِ مكمَّمٌ ... مَنْ ذا تراهُ يذود شرٌّ ذئابها

وإذا تصفّحنا دواوين شعره، نجدها تموجُ بالحنين فاسمعه يقول:

أيُّ عشٍّ فارقته – ليت شعري
أيُّ روضٍ اقصيته عن عيوني
أيُّ وكرٍ لم يبقَ من زقزقاتي
فيه غير الصدى ورجع الحنينِ
ليتني ما علقتُ في شرك الأطماعِ
يوماً ولا جنيتُ جنوني
ضاع عمري سدىً وشمس شبابي
لوّحت للمغيب خلف السنينِ
فإذا ما جنيتُ في الروض ورداً
عاد شوكاً في راحتي يُدميني
وإذا مسّت الجليد بناني
صار جمراً في قبضتي يكويني

وإذا ما قلّبتَ صفحات أُخر، تجد قصائده تتغنّى بالجَمال. وتصف المرأة، فتلهب أبيات القصيدة فيك نار الحبّ والشوق والشهوة فاسمعه يقول:

نهدان إنْ دغدغتَ نهداً جنَّ من فرحٍ وتيه
يتنافسان على فمي الظامي ويرتميان فيه
الله من نهدٍ يثار إذا عطفتَ على أخيه

أو في قوله بلسان حسناء:

تعالَ وامعنْ بهذا الجَمالِ
كما تشتهي روحُكَ الشاعرهْ
تعالَ فبي جذوة من هواكَ
توّجّجها شهوةٌ كافرهْ
تعالَ نلبِّ صراخ الشباب
إلى كلِّ معصية سافرهْ
والصقْ بجسمك جسمي اللهيفَ
وغلغلْ بأعماقيَ الزافرهْ
ونهنهْ بكفّ الجنون هواي
ونكّلْ بأعصابيَ الثائرهْ
ولا تبقِ للغد منّي بواقيَ
تشتاقها الأعينُ الفاجرهْ

وتمحّصْ أفكاره، وفلسفته في الحياة تسمعْ نداءات تتتالى:

فاغنمْ لياليك الملاح فليس بعد الليل فجرُ
وكنِ اللبيبَ ولا تدعْ في العمر سانحةً تمرُّ

أو قوله:

فخــــذ الحيـــــاة كمـــــا تـــــدور مفـــــردّاً تغريـــــدها
واضـــربْ لـــــها النهونـــدَ إنْ راحـــت تهـــزُّ قـــدودها
هيهـــاتَ تفهـــم مـــا سمعـــتَ شـــذوذها وشـــرودها
فـــاليوم تمـــنح وصـــلها وغـــداً تبـــيح حـــدودها
دعهـــا تعلّـــل بالـــسعادة والثـــراء عبيـــدها
وانفـــضْ يمينـــك مـــن بهارجهـــا وحقّـــرْ وجودهـــا
واضـــحكْ إذا حـــشدت عليـــك نحوســـها وســـعودها
واســـخرْ إذا ســـاقت إليـــكَ وعودهـــا ووعيـــدها
أهنـــا الخلائـــقِ مَـــنْ يحطّـــم عـــن يديـــه قيودهـــا

هذا هو شاعرنا الكبير شكر الله الجرّ الذي نجده في دواوينه، شاعراً جبّاراً، عرف كيف يحلّق بشعره في هياكل الجَمال. وعرف كيف يدافع عن الحقّ. وعرف أيضاً كيف يصف لنا الحياة وفلسفتها. نراه شاعراً قد سكب الدموع السخية في وداع مَن أحبّ. وبهذا كلّه، نراه شاعراً يحلّق كالنسر في سماء الشعر، وأديباً ألمعياً تسيل كلماته عذبة حلوة في ميدان النثر، ومحدّثاً تزدان به المجالس، وخطيباً قوياً يسحرك بأقواله، ورَجلاً هادئاً تُسَرُّ بمجلسه وتبتهج.

(الضاد، العدد المزدوج ٥ و٦/ ١٩٧٠، ص٢٤٧-٢٥٣، والعدد ١١/ ٢٠٠١، ص٣-٩)



في ذكرى الدكتور روبرت جبه جيان
رَجل العطاء لا يموت

عرفتُ الدكتور روبِرت جبه جيان وأنا فتى صغير، فأحببته لتواضعه ولطفه وعلمه، ولما كان يضفيه على سامعيه من دعابة حلوة ولطف مستطاب.

الدكتور روبِرت جبه جيان، وجهٌ مشرق وضّاء من وجوه حلب الشهباء. وهو سليل أسرة عريقة في العلم والفضل والتقوى. عرفته وأنا على مقاعد الدراسة في النصف الأوّل من القرن الماضي، طبيباً مرموقاً ذاعت شهرته في أطراف الشهباء. وعرفته يوم كان صديق عائلتنا. فمَن منّا لا يعرف الدكتور روبِرت جبه جيان، الطبيب اللامع والدكتور الشهير، والإنساني الكبير، والفنّان المبدع والمساهم في نشر التراثين الأرمني والعربي؟

وكـان مرجـعاً في كـلّ ذلك، وله أعمـال كـثيرة ومقـالات عديـدة عـن سـورية الحبيبـة وكيف أوت الأرمـن إليـها في أثنـاء محنـتهم ودافعـت عـنهم وأعطـتهم حقـوق المـواطن العربي السوري.

والدكتور **جبه جيان**، من خيرة شـيوخنا المتحلّين بـالخُلق الكـريم والعلـم الغزيـر والأدب الرفيع، والثقافة العلمية والأدبية المُثلى.. أحـبَّ وطنـه الأوّل أرمينيـا ودافـع عنـه وكتب عن علمائه وأدبائه وروّاده. كما أحبَّ أرمينيا، أحبَّ سورية كثيراً. وبعـد هـذا مـاذا نقول عنه؟ فالذي يبرُّ وطنه يصل إلى منتهى الوفاء بأهله وأصدقائه ومحبّيه.

لقد حمل الفقيد الغالي، مشعل العلم الذي غذاه منذ صـغره، ورسـالة الفكـر الحـرّ. وخدم الأُمّتَين الأرمنية والعربية، بمنتهى الجدّ والصدق والإخلاص. وبـيَّن مـا لـسورية الحبيبة ومدينة حلب من فضل واسع، في تقديم العون للـشعب الأرمـني في أثنـاء محنتـه والمجازر اللاإنسانية التي قامت بها الدولة العثمانية. وضحّى بالكثير الكثير في سـبيل مـا اعتقده حقّاً وصواباً. وكان بحقٍّ، رائداً من روّاد العلم والمعرفة، ومناضلاً جريئـاً باسـلاً، في مناهضة الجامدين والرجعيين.

وكان، رحمه الله، صديقاً لوالدي عميد الضاد. وكانـت بينهمـا مـودّة ومحبّـة. مـدَّ "الضـاد" بمقالاته العلمية والاجتماعية والأدبية والفنّية فأصـبح مـن حقّـه وحـقٍّ علمـه علينا، أن نشيد بفضله، وأن نتغنّى بذكره وأن نسـهم في تكريمه ونشر مآثره.

وقد أهاب بنا واجب عرفان الجميل، أن نقـدّم إلى روحـه الزكيـة [1]، عـدداً خاصّـاً مزدوجاً من مجلّتنا صدر عن شهري أيلول وتشرين الأوّل لعـام ٢٠٠١. وكـان الفـضل الكبير في إصداره وتحريره وجمع موادّه وتنسيقها معنا، للأخ العزيز والصديق الصدوق الدكتور سمير **أنطاكي**. وقد تضمّن العدد حياة الراحل وأعمالـه، وكـلّ مـا قيـل في حفـل تأبينه ومراسم دفنه، ليكون بمنـزلة زهرة عطـرة، تـضاف إلى هاتيـك الأزهـار العلميـة والأدبية الفوّاحة التي وضعها في هيكل ذكراه، مئات مـن قـادري نبوغـه وعـشّاق علمـه وروّاد أدبه، والمعجبين بآثاره العلمية والتراثية والفنّية الرائعة الخالدة.

(الضاد، العدد الخاصّ، ٩و١٠/٢٠٠١، ص٥-٧)

---

[1] انتقل الدكتور روبرت جبه جيان إلى بارئه في ٢٦ آذار ٢٠٠١.



الرائد الأثري صبحي الصوّاف

منذ خمسين سنة خلت أو قبل ذلك بقليل، لم نكن نلتفت إلى ما تحويه بلادنا من روائع الآثار، وكنوز التراث الحضاري والإنساني.

وكان **صبحي الصوّاف** وقتئذٍ في عنفوان الشباب ولكنّه لم يكن كسواه من الشبّان الهائمين بمفاتن الحياة ومغرياتها الكثيرة. ولهذا لم ينصرف إلى أيّ لون من ألوان اللهو، بل اتّجه بكلّ حواسّه ومشاعره إلى علم الآثار.

وعندما تأسّست جمعية العاديّات من نخبة مختارة من علماء الشهباء وكبار مؤرّخيها، كان **صبحي الصوّاف** في عدادهم. وكان يثير إعجابهم بما يبديه من آراء، وبما

يقدّمه من معلومات تدلُّ على ثقافة واسعة وذكاء فطري.

كان وهو حديث السنّ يدرك قيمة المكتشفات الأثرية، ويعلم ما للرُّقُم والتماثيل والكتابات القديمة من أهمّية كبيرة. وقد أتيح له أن يعمل في مديرية الآثار السورية، وأن يرافق عدداً من البعثات العلمية، وأن يشهد نتاج كثير من أعمال التنقيب، وأن يصاحب ويناقش عدداً من أقطاب العلماء كالبروفسور أندره بارو مكتشف مدينة ماري، وكالشابّ الإيطالي باولو متيه الذي قُيِّض له أن يعثر في تلّ مرديخ على عاصمة مملكة إيبلا.

ولم يقف جهد الأستاذ الصوّاف عند هذا الحدّ، بل تعدّاه إلى التأليف والتصنيف. فوضع بالعربية والفرنسية والإنكليزية، طائفةً من الكتب، تحدَّث في بعضها عن مدينة حلب التي أحبّها وأخلص لها، وتحدَّث في بعضها الآخَر عن آثارنا وتاريخنا وحضارتنا التالدة، فأسدى بذلك إلى مسقط رأسه وإلى أُمّته وبلاده، يداً بيضاء، وفضلاً بارزاً لا يطويه الزمان.

ولمّا كانت "الضاد" تحرص كلَّ الحرص، على الإشادة بفضل العاملين البررة الأوفياء من أبناء الشهباء، ولمّا كان الأستاذ صبحي الصوّاف، رائداً من روّاد الآثار في بلادنا، وكان قد بذل الكثير من الجهد والعرق، في سبيل خدمة حلب، وخدمة آثارنا المجيدة، فقد أهاب بنا واجب العرفان، أن نقدّم إلى روحه الزكية، عدداً خاصّاً منها، ليكون بمثابة زهرة عطرة، توضع في هيكل ذكراه.

صبحي الصوّاف عالم أثري، عمل بمنتهى الجدّ والإخلاص، في مجالَي التاريخ والآثار، وغاب عنّا، ولكنْ بعد أن ترك بيننا اسمه العذب، وآثاره الكتابية الخالدة.

(الضاد، العدد الخاصّ ٩/ ١٩٧٩، ص٥-٦)



عمر أبو ريشة

كانت حلب، عندما ظهر فيها عمر أبو ريشة [1]، مركز إشعاع أدبي، وقلعة نضال وطني. وكان المجاهدون فيها فريقين: فريق يقارع الانتداب الفرنسي بالنار، وفريق يناهضه بالأقلام الحرّة، والأفكار الثورية. والشعب الحلبي من ورائهما في مظاهرات صاخبة، وإضرابات متلاحقة، وطُلاّب المدارس يتدافعون إلى الشوارع، مندّدين بالمحتلّين الدخلاء، وأناشيدهم الحماسية تملأ الفضاء، وتثير الهمم، وتحرّك العزائم، وتلهب النفوس بنار الإباء والكبرياء.

---

[1] كان عمر، رحمه الله، يلتزم الواو في (أبو ريشة) أينما وقعت لأنّها شهرة ثابتة له.

كان هنانو على قيد الحياة، وكانت الكتلة الوطنية في أوج عزّها، وقوّة سيطرتها على الجماهير الملتفّة من حولها، والسائرة في ركابها. وكانت فرنسا تحسب لهذه الكتلة المتراصّة ألف حساب، وتعمل كلّ ما في وسعها على تجنّب نقمتها. وكان الشباب يعمدون إلى الحجارة يرجمون بها رجال الأمن الفرنسي والعبيد السود القادمين من المستعمرات الفرنسية في أفريقيا. ولم تكن تسلم جلودهم من سياطهم وأعقاب بنادقهم. وعندما يشتدّ عليهم الضرب الموجع، كانوا ينشدون بصوت واحد يشقّ عنان السماء:

نحن الشباب لنا الغدُ ومجده المخلَّدُ نحن الشبابْ

وكانت فرنسا تخشى الأناشيد الوطنية وتخافها كما تخاف الرصاص. ألم يكن نشيد المرسييز La Marseillaise العامل الأوّل في إيقاظ المشاعر ودفع الفئات الفرنسية الكادحة إلى إشعال نار الثورة الفرنسية الكُبرى عام ١٧٨٩ وهدم حصن الباستيل Bastille وإطلاق سراح المسجونين فيه؟

وكان شعر عمر، يعلو في كلّ مناسبة قومية، وفي كلّ حفلة وطنية، فتتلقّفه الأسماع، وتحفظه الصدور، وتنشده الجماهير، وتتنافس في نشره كبريات الصحف العربية الروح والهدف.

وعندما كانت فرنسا في ذروة مكانتها الاستعمارية، وقف شاعرنا الوسيم، بقامته المديدة، وألقى بصوته الجهوري الرزين، قصيدةً عنوانها (النسر) جاء فيها:

أصبحَ السفحُ ملعباً للنسورِ فاغضبي يا ذرى الجبال وثوري
إنّ للجرحِ صيحةً، فابعثيها في سماع الدنى فحيحَ سعيرِ
واطرحي الكبرياءَ شلواً مُدمّى تحتَ أقدام دهرِك السكيرِ
هجر الوكر ذاهلاً، وعلى عينيه شيءٌ منَ الوداعِ الأخيرِ

هنا الشاعر يرمز بـ (النسر) للإباء المهيض الجناح، وللشعب المكبّل بقيود الاستعمار، وللعزّة العربية التي لا بدَّ من أن تنتفض وتحطّم الأغلال والأثقال. والشاعر يتساءل في آخر القصيدة:

أيّها النسرُ هل أعود كما عدتَ أم السفحُ قد أماتَ شعوري؟

إنّ شعورنا لم يمت ولن يموت مهما تألّبت عليه قوى الشرّ والعدوان. فلا بدّ للمارد العربي من أن يكسر قمقم الاستكانة، وينتصب في وجوه أعدائه قوياً جبّاراً منتقماً لحقّه السليب وخيراته المهدورة على حضيض الجشع الاستعماري الممقوت.

ويوم استشهد البطل سعيد العاص في جبل النار في فلسطين، بكاه الشاعر بذوب القلب، وألقى في الحفلة التذكارية التي أقيمت له في حماة ودمشق، قصيدة من عيون الشعر هذا مطلعها وبعض أبياتها:

نام في غيهب الزمانِ الماحي ... جبلُ المجدِ والندى والسماحِ
أسكرته الأجيال ختلاً فأغفى ... تحت هزجِ الأعراس والأفراحِ
حينَ أنفاسه تموج على الكون ... بعبيقِ النبوّة الفوّاحِ
بسمة للنعيم مرّت وأبقتْ ... ما يبقّي السكّيرُ في الأقداحِ
فإذا الأعصر الخَوالي مطافٌ ... لخيالات شاعر صدّاحِ
وإذا الطرفُ ليس يعثرُ إلاّ ... بقيود مغموسة بجراحِ
ورقابٍ محنيّة تتشظّى ... مزقاً فوق منجلِ السفّاحِ
ليس بدعاً إذا تعالى وضيعٌ ... واستباح الحمى الحرامَ إباحي
قد تحوك الأقدارُ من لبدةِ ... الليث وشاحاً للغانيات الملاحِ

وبعد أن يصف أبو ريشة معركة (جبل النار) وما ثار فيها من هول، وما أبداه مقاتلونا الأشاوس من بطولات خارقة، وتحدٍّ للموت عجيب، وتضحيات رائعة، يتلفّت إلى الشهيد الخالد سعيد العاص الذي خاض غمار تلك المعركة الرهيبة فيخاطبه بهذه الأبيات:

يا شهيدَ الجهادِ يا صرخة الهولِ ... إذا الخيلُ حمحمتْ في الساحِ
أيّ مهرٍ لم تدمِ خاصرتيه ... من حفيفِ المهماز يوم اكتساحِ
أيّ عَوْدٍ ما زغردتْ لك فيه ... كلُّ ميّاسةِ القوام رداحِ
كلّما لاحَ للكفاحِ صريخٌ ... صحتَ لبّيكَ يا صريخ الكفاحِ
تحمل الحملةَ القويةَ والإيمانُ ... أقوى في قلبك المفراحِ

فكـــأنّ الحيـــاةَ لم تلـــقَ فيهـــا ... مـــا يـــروّي تعطّـــش الملتـــاعِ
هبـــةٌ في يـــديكَ كانـــت ولّمـــا ... رامهـــا المجـــدُ عفتهـــا بـــسماحِ

والقصيدة تقع في ستّة وستّين بيتاً، تصوّر تلك الملحمة الدامية المروّعة التي أبدى فيها سعيد العاص ورجاله من ضروب الشجاعة والإقدام ما يسجّل لهم بمداد الإكبار والفخار في صفحات تاريخنا المجيد.

وفي عام ١٩٣٧ أقيمت في حلب، حفلة تذكارية للزعيم إبراهيم هنانو، أنشد فيها عمر خريدة عصماء عنوانها (قيود) ألهبت الأيدي تصفيقاً، وبحّت الحناجر وهي تهتف للزعيم الراحل، والشاعر المحلّق في سماء العبقرية والإبداع. وهذا مطلع القصيدة وبعض أبياتها:

وطـــنٌ عليـــه مـــن الزمـــانِ وقـــارُ ... النُّـــورُ مـــلء شـــعابه والنـــارُ
تغفـــو أســـاطيرُ البطولـــة فوقـــه ... ويهزّهـــا مـــن مهـــدها التـــذكارُ
فتطـــلُّ مـــن أفـــق الجهـــاد قوافـــلٌ ... مـــضرٌ يـــشدّ ركابَهـــا ونـــزارُ
تـــستيقظ الـــدنيا علـــى تزآرهـــا ... وتنـــام تحـــت لوائهـــا الأقـــدارُ
نـــوحُ المـــآذنِ مـــا يـــزال بمـــسمعي ... تـــدوي بـــه الآصـــال والأســـحارُ
ذكـــراك عـــرسُ المجـــد لم يكـــسر لـــه ... دفٌّ، ولم يحطـــم لـــه مزمـــارُ
تـــشدو بنـــاتُ النُّـــور لحـــنَ جلالـــه ... وعلـــى ســـواعدها اللـــدان الغـــارُ
أقـــسى جـــراح المجـــد جـــرحٌ لم تكـــن ... تقـــوى علـــى تـــضميده الأحـــرارُ

ويذكر الشاعر في قصيدته هذه، القُدْس وما يمثّله فيها الصهاينة من مهازل تدعو إلى الاشمئزاز، وكيف رموا البلد الحرام بالغدر والنار واستخفّوا بمهد المسيح ومعراج النبيّ الكريم. وهنا أطلق عمر هذا البيت الخالد، وكأنّه قنبلة فيها كلّ الصراحة، وكلّ الغضب، على الخاملين المتهاونين بحقّ أُمّتهم وتراثهم:

إنّ الـــضعيف علـــى عريـــق فخـــاره ... حَمَـــلٌ يـــشدُّ بعنقـــه جـــزّارُ

وتدوّي القاعة بعاصفة من التصفيق الحادّ، والصيحات الحماسية القاصفة كالرعد. وينظر أبو ريشة إلى صورة إبراهيم، نظرة عميقة ترتسم فيها معاني المعذرة، ويمضي في

رائعته قائلاً لـه:

عفـواً أبـا الأحـرار كـم مـن زفـرة مخنوقـة أخـشى الغـداةَ تُـشارُ
فـإذا وجمـتُ فلـستُ أوّلَ شـاعرٍ تعبـت وراء بنانـه الأوتـارُ
أنـا عنـد عهـدكَ لا تلـين شـكيمتي كـلاً ولا يُعـزى إلـيَّ عـشارُ
لا عـشتُ في زهـو الـشباب منعّمـاً إنْ نـال مـن زهـو الـشباب العـارُ

كان عمر ينشد خرائده البكر، في الحفلات القومية، فيهزّ المنـابر، ويخلـب الألبـاب، ويقيم الحفل ويقعده، ويؤثّر تأثيراً سحرياً عجيباً في سامعيه وعشّاق أدبه. فبنـبرة مـن صوته الجهوري، أو بنظرة من وراء نظّارتيه، كان يدفع الأيدي إلى التـصفيق، والحنـاجر إلى الـهتاف. وكثيراً ما دفع مستمعيه إلى التظاهر ضدّ الانتداب والمنتدبين.

كان يقول الحقّ، ويدافع عن الحقّ، من دون أن يخشى لومة لائم، أو يخاف سـطوة حاكم ظالم. فالشجاعة النفسية فيه، تحدوه إلى الصراحة، وتجعله ينتقد المفسدين، ويثور كالبركان على المستبدّين الغاصبين.

وفي عـام ١٩٣٦، يـوم كانـت الحكومـة الـسورية، ترحّـب بالمعاهـدة الـسورية – الفرنسية، وتلقّبها بأعجوبة القرن العشرين، ثار عليها عمر وصاح من فؤاد جريح:

صـريعَ الـهوى إنّ خلـفَ البراقـع تلـك المطلّقـة الفـاجرَة

وفي عام ١٩٣٨ أقيمت للـزعيم هنـانو حفلـة تذكاريـة أُخـرى، حـضرها سـعد الله الجابري رفيق هنانو في الجهاد والنضال، وكان يومئذ وزيـراً للداخليـة، ونائبـاً لـرئيس الوزراء. فوقف عمر وطفق يصبّ جام غضبه على أساليب الحكم بجرأة نادرة. وفي نهاية الحفلة تقدّم سعد الله – رحمـه الله – مـن الـشاعر الثـائر عمـر، وقبّلـه أمـام الجمـاهير المحتشدة، قبلة الرضى والإعجاب، وقال لـه على مسمع من الجميـع: "إنّ شـعرك يقـوّم اعوجاجنا شئنا أم أبينا".

وفي صيف عام ١٩٤٨ أقيمت على مسرح حديقة "اللونابرك" بحلـب حفلـة ترفيـه عن المجاهدين في سبيل فلسطين، ووقف عمر أمام جموع السامعين، وبينهم فئة من كبـار حكومة ذلك العهد، وألقى قصيدته الانتقادية الشهيرة (أُمّتي) التي يقول فيها:

أُمّتي هل لكِ بينَ الأُممِ منبرٌ للسيفِ أو للقلمِ
أتلقّاك وطرفي مطرقٌ خجلاً من أمسكِ المنصرمِ
ويكاد الدمعُ يهمي عابثاً ببقايا كبرياءِ الألمِ
أُمّتي كم غصّةٍ داميةٍ خنقت نجوى علاكِ في فمي
ألإسرائيل تعلو رايةٌ في حمى المهدِ وظلِّ الحرَمِ
اسمعي نوحَ الحزانى واطربي وانظري دمعَ اليتامى وابسمي
ودعي القادةَ في أهوائها تتفانى في خسيس المغنمِ
كم دوت صيحةُ "وامعتصما" ملءَ أفواه الصبايا اليتّمِ
لامستْ أسماعهم لكنّها لم تلامسْ نخوةَ المعتصمِ
أُمّتي كم صنمٍ مجّدته لم يكن يحمل طهرَ الصنمِ
لا يُلامُ الذئبُ في عدوانه إنْ يكُ الراعي عدوَّ الغنمِ
فاحبسي الشكوى، فلولاك لما قام في الحكم عبيدُ الدرهمِ [٢]

وصيحة "وامعتصماه" معروفة في التاريخ العربي، أرسلتها امرأة عربية، أسرها الروم في بلدة ملاطية، وعذّبوها عذاباً أليماً. وبلغت صرختها المعتصم بن هارون الرشيد، الخليفة العبّاسي الثامن، فثارت فيه النخوة والحَميّة، وصاح: لبّيك لبّيك. وسار بسبعين ألف فارس، وتوغّل في بلاد الروم غازياً غانماً منتقماً، حتّى بلغ عمّوريّة وأدرك ثأر تلك الأسيرة.

كانت قصيدة (أُمّتي) دعامة قوية في بناء شهرة عمر. وكاد يدفع حياته الغالية ثمناً لها. ولكنّ الوطنيين عملوا على انتشاله من خشبة المسرح، وأبعدوه تحت جنح الظلام عن عيون رجال الشرطة.

وفي اليوم التالي، كانت هذه القصيدة الثورية على أفواه أبناء حلب، وكانت إنذاراً بقرب استيلاء الزعيم حسني الزعيم على مقاليد الحكم.

ويتابع أبو ريشة حملاته على المتهاونين بحقّ أُمّتهم وشؤون بلادهم، ويؤلمه أن

---

[٢] كانت مجلّة (الضاد) حريصة على نشر كلّ ما يلقيه الشاعر عمر في الثلاثينيات والأربعينيات من أشعار. قصيدة (أُمّتي) منشورة في العدد ١/٢، السنة ١٩٤٩، الصفحة ٢٩ و٣٠.

يكون هو واحداً من أولئك الصابرين على جراحهم، الواجمين الذاهلين أمام نعش الكبرياء، فيطلق صيحته القوية الحائرة:

تتساءلينَ عَلامَ يحيا هؤلاء الأشقياءْ
المتعبونَ ودربهم فقرٌ ومرماهم هباءْ
الذاهلونَ الواجمونَ أمامَ نعشِ الكبرياءْ
الصابرونَ على الجراح المطرقونَ على الحياءْ
أنستهم الأيّامُ ما ضحكُ الحياة وما البكاءْ
أزرتْ بدنياهم ولم تترك لهم فيها رجاءْ
تتساءلين؟ وكيف أعلمُ؟ ما يرون على البقاءْ
امضي لشأنكِ، اسكتي أنا واحدٌ من هؤلاءْ

ويتابع عمر حملته على حكّام ذلك العهد، ويحمّل الشعب السوري مسؤولية الرضى بحكمهم، والصبر على ما يعانون من شططهم وأذاهم.

فاسمعه يخاطب مواطنيه بهذه القطعة النابعة من أعماق إحساسه:

يا شعبُ لا تشكُ الأذاةَ، ولا تُطل فيها نواحَكْ
لو لم تكنْ بيديكَ مجروحاً لضمَّدنا جراحكْ
أنتَ انتقيتَ رجال أمرك وارتقبتَ بهم صلاحكْ
فإذا بهم يُرخونَ فوقَ خسيس دنياهم وشاحكْ
كم مرّة خفروا عهودكَ واستقوا، برضاك، راحَكْ
أيسيلُ صدرك من جراحتهم وتعطيهم سلاحكْ؟
لو كنتَ تجهلهم، لراح العذرُ يستجدي سماحكْ؟
لهفي عليك، أهكذا تطوي على ذلّ جناحكْ
لو لم تبح لهواك، علياءَ الحياةِ، لما استباحكْ...

الغزل في شِعر عمر

عمر أبو ريشة شاعر غَزِل من الطبقة الأُولى، نشأ على حبّ الجَمال، فشغف بالحسان الغيد من بنات حلب، ووصف ما تحلّين به من حُسْن مترف، ولطف باد ووسامة ورشاقة وأناقة. وأعجبت كثيرات به إعجاباً ما لبث أن استحال حبّاً عنيفاً ألهمه العديد من قصائد الوجد والهيام، وجعله يسبق سميَّه عمر بن أبي ربيعة، في مجال التغزّل بالعيون السود، والجفون الكحيلة، والثغور الناعمة الشبيهة ببراعم الورد الأحمر.

ولكنّ قلبه مال أخيراً إلى فتاة عربية وُلدت في الأرجنتين. وهذه الفتاة تدعى منيرة مراد كان يسكن أهلها في زحلة – لبنان. وقد تمكّنت منيرة هذه من دخول فؤاده، ومن تحويل مجرى حياته إلى آفاق عالية، بعد أن خلقت فيه الطموح إلى أسمى المناصب السياسية وأكثرها ملاءمة لذوقه الرفيع، وأدبه الخلّاق، وقدرته الفائقة على كسب القلوب وجذب الخواطر.

انقلاب الزعيم حسني الزعيم

بتاريخ الثلاثين من شهر آذار ١٩٤٩ وقع انقلاب خطير قام به الزعيم حسني الزعيم المولود في حلب سنة ١٨٩٩. وكان أوّل انقلاب عسكري عرفته البلاد العربية وأجمع الشعب على تأييده. ولمّا صدر المرسوم المتعلّق بتأليف الوزارة في مساء يوم السبت ١٦ نيسان ١٩٤٩ تحت رقم ٢٠٩ احتفظ الزعيم لنفسه برئاسة الوزارة وبوزارتي الدفاع والداخلية وأُسندت بقية المناصب الوزارية إلى: الأمير عادل أرسلان، الأستاذ خليل مردم بك، السيّد نُوري الإيبش، السيّد حسن جبارة، الأستاذ فتح الله الصقّال والأستاذ أسعد الكوراني وهما من أكبر المحامين بحلب، ومن أحسن الناس سمعةً وخلقاً وأدباً.

عمر أبو ريشة يُعيَّن سفيراً لسورية في البرازيل

كان الزعيم حسني الزعيم والأستاذان الصقّال والكوراني – والثلاثة من حلب – على إعجاب كبير بالشاعر عمر أبو ريشة الذي كان يومئذ مديراً لدار الكتب الوطنية في الشهباء. وكانت الحكومة في حاجة إلى سفراء ووزراء مفوَّضين. فاقترح الأستاذ فتح الله

الصقّال أن يُعيِّن الأستاذ **أبو ريشة** سفيراً لنا في البرازيل، فاعترض **حسن جبارة** وقال إنّ تعيينه مخالف للقانون لأنّه لا يحمل شهادة جامعية تخوّله هذا الحقّ وتتيح لـه تسلّم هذه السفارة. وعندئذ تصدّى لـه الأستاذ **الصقّال** قائلاً: ولكنّ عمر أكبر من كلّ الشهادات، فهو يجيد اللغة الإنكليزية كما يجيدها أحسن علمائها ويعرف الفرنسية، وفضلاً عن ذلك فإنّه ذو عبقرية شعرية ترفعه إلى مصافّ أعظم الشعراء. وأبناؤنا العرب في البرازيل يعشقون الشعر العربي، وأنا متأكّد أنّه سيجمع القلوب من حول سورية وسيؤدّي لبلاده أجلّ الخدمات.

وأيّد **الزعيم** والأستاذ **كوراني** وبقية الوزراء الأستاذ **الصقّال** وبقي **حسن جبارة** مخالفاً. وهكذا أُسند منصب سفارتنا في البرازيل إلى عمر **أبو ريشة** فكان أحسن سفير عرفته تلك البلاد الواسعة، وجاليتنا العربية هناك، وأقطاب الشعر العربي في ذلك المنقلب من الأرض، من أمثال: **الشاعر القروي وإلياس فرحات وشفيق معلوف وشكر الله الجرّ وميشيل مغربي ونعمة قازان**.

وكان عهد عمر في البرازيل عهداً ذهبياً، ارتفع فيه اسم العرب والعروبة، واحترم حكّام هاتيك الربوع السفير السوري الدمث الخلق الكريم النفس واليد الحريص على خدمة مواطنيه، كما احترموا رفيقة حياته الغالية السيّدة منيرة التي أجادت لغة البلاد والتي تحلّت بأروع المناقب الخلقية وأسماها.

أبو ريشة في واشنطن

وأمام النجاح العظيم الذي أحرزه **أبو ريشة** في البرازيل، رأت وزارة خارجيتنا أن يكون سفيراً لنا في واشنطن وفي عدد من أكبر عواصم أوروبّا والشرق الأقصى كالهند.

وفي واشنطن لمّا حان وقت تسليم أوراق اعتماده إلى الرئيس الراحل **جون كنيدي**، كان البروتوكول يقضي بأن يتمّ الاحتفال خلال ربع ساعة.. وكان من مقتضيات هذا البروتوكول أن يقرأ الرئيس سؤالاً في ورقة مكتوبة، ويردّ عليه السفير في ورقة مكتوبة... ولّما وصل الرئيس في سؤاله إلى موضوع (لا حاجة لذكره الآن نظراً لحساسيته) طرح **أبو ريشة** الورقة التي تحمل الأجوبة جانباً وقال للرئيس آيةً من الإنجيل بهذا المعنى: في

المذبح لا يذكر إلاّ اسم الله... فذهل كنيدي، وهو كما عُرف عنه كـاثوليكي متـديّن. وألقـى بورقته على المنضدة وقال لأبي ريشة: بلغني أنّك شاعر، فهل يمكنك أن تقرأ لـي بعـض شعرك... وبدأ الشاعر يتدفّق كالسيل وهو يلقي أبياتـاً مـن شـعره بالإنكليزيـة. فطـرب كنيدي وسأله المزيد... وكان أن مضت المدّة البروتوكولية، ففتح الباب المرافـق العـسكري وهو برتبة جنرال، ودخل ليصحب السفير أثناء خروجه من غرفـة الـرئيس.. فقـال لـه كنيـدي: "دعنـا الآن في خلوتنـا". فنظـر إليـه الجنـرال وهـو يهمـس بحـروف كلمـة: البروتوكول... فقال لـه كنيدي: "قلت لك دعنا"... واستطاب الجلوس للاستماع إلى شعر أبي ريشة.. وكان الجنرال يفتح الباب بين فترة وأُخرى، ولكنّ كنيدي قـال لـه: "ألغـوا جميع المواعيد.. لن أستقبل أحداً حتّى إشعار آخَـر...". وهكـذا أمـضى الـرئيس كنيـدي ثلاث ساعات وهو يصغي بقلبه وأذنيه إلى العبقرية الشعرية الفذّة.

الرئيس كنيدي يرقص (الروك أندرول)

لمّا خرج أبو ريشة، كان الصحافيون ينظرون باستغراب إلى السفير الـسوري الـذي جعل الرئيس الأميركي يخرق أصول البروتوكول ويلغي مواعيده. والتقطوا لأبـي ريـشة صوراً نشروها في الصفحات الأُولى من الصحف الأميركية، وتحتها هـذا الـنصّ: الـسفير الذي جعل الرئيس كنيدي يرقص "الروك أندرول"، وبعبارة أُخرى: جعله يـرقص علـى رِجل واحدة [٢].

مولد عمر ونشأته

وُلد عمر في ١٠ نيسان سنة ١٩١٠ في مدينة عكّا، من أبوين تقيين فاضلين اشـتهرا بالنبل ومكارم الأخلاق. يمثّلان وجهاً أصيلاً مـن وجـوه العروبـة العريقـة في الأريحيـة والمروءات. وكان والده شافع "قـائم مقام" في بلدة منبج القريبة من حلب، وكان شـاعراً مجيداً، لـه قصائد حَسَنَة، وقد زرع حبَّ الأدب في نفس ولده عمر، ولكنّه لم يكـن يريـده أديباً ولا شاعراً، بل كـان يحبّ أن يكون ولده مهندساً، لعلمـه أنّ الأدب لا يطعـم خبـزاً،

[٢] راجع مقالاً للمرحوم حسن عبد العال – مجلّة الضاد، العدد ٥/ ١٩٨٥، ص١٨.

ولا يجرّ على صاحبه غير التعب والحرمان. وقال فيه أعمى المعرّة في رسالة الغفران: "بئس الصناعة".

تلقّى عمر دروسه في الكلّية الأميركية بحلب. وفي عام ١٩٣١ دخل الجامعة السورية بدمشق، ثمّ انتقل إلى الجامعة الأميركية ببيروت، وأكمل علومه في المعهد الفنّي بمنشستر – إنكلترا، وهو يحمل شهادة ب.آ B.A "Bachelor of Arts" وشهادة م.آ M.A "Master of Arts" ودبلوم M.Sc "Master of Sciences".

وقد منحته الجامعة العالمية، بالتعاون مع الطاولة المستديرة لجامعة الآداب في العالم في توكسون بولاية أريزونا في الولايات المتّحدة الأميركية، شهادة (دكتوراه ثقافية).

وعمر بثقافته العالية، وخلقه العربي الأصيل، وشعره الخالد على الزمن، أكبر من كلّ شهادة جامعية، لأنّه شاعر له دواوين مطبوعة باللغتين العربية والإنكليزية، ولأنّه يجيد ثماني لغات حيّة، ولأنّه في مستوى أعظم الشعراء القدامى والمعاصرين في الدنيا.

مرضه ووفاته

في منتصف عام ١٩٧٦، عاد إلى بيروت، وشاهد ما حلّ بها من دمار مروّع، فشعر بضيق شديد، وحزن عميق. وبعد يومين أصيب بجلطة نُقل على أثرها إلى أميركا، حيث أُجريت له في أحسن مشافيها المختصّة بمداواة وجراحة القلب والأوعية الدموية، العلاجات الضرورية، وقد منّ الله عليه بالشفاء.

وفي الثلث الأخير من شهر آذار ١٩٧٨، زرته مع والدي فدعاني عمر إلى مطعم العريشة الكائن على شاطئ البحر في رأس بيروت. وتكرّرت زيارتي له في بيروت. وحضر إلى حلب مرّتين وألقى في كلّية الآداب بجامعتها أمسية شعرية حضرها عدد كبير من أدباء حلب ومحبّي شعر عمر.

وفي عام ١٩٩٠، عاودته الجلطة، وأسلمته إلى غيبوبة طويلة أثارت عليه قلق جميع المحافل الأدبية، وجميع المهتمّين بالشعر العربي في وطننا الكبير. وفي ليلة الأحد ١٥ تمّوز ١٩٩٠، استأثرت به رحمة الله، فصُعق لفقده العلم والفضل والأدب، وراحت الصحف والإذاعات العربية والأجنبية تنعيه وترثيه وتعدّد مآثره الخالدة.

وكـان الفقيـد قـد أوصـى أن يُـدفَن في حـلب، فنُقـل إليهـا مـن المملكـة العربيـة السعودية، واحتُفل بتشييع جثمانـه، بعد ظُهر يـوم الثلاثـاء ١٧ تمّـوز ١٩٩٠، وصُـلّي عليه في الجامع الاموي الكبير، حيث رثته الدكتورة **نجاح العطّـار** وزيـرة الثقافـة، ممثّلـة القائد الخالد **حافظ الأسد**، ونخبة من كبـار شعراء الشهباء وأدبائها، كمـا رثـاه والـدي عبد الله بقصيدة عصماء.

ومن حُسْن حظّ الأدب العربي، أنّ **عمر** لم ينصرف إلى الميادين العلمية، بل انصرف إلى الشعر، لأنّ الشاعرية متأصّلة فيه وسارية في دمه. وشعره باللغـة الإنكليزيـة يعـادل شعره بلغة الضاد رقّةً وجدّة وجزالة. وها هو **عمر** أحد الشعراء العالميين المرموقين، وقـد رفع اسم وطنه بين أُمم المعمور، وأثبت أنّ الشرق الذي وُلد فيه الأنبياء والرسـل، ينجـب أعاظم الشعراء والكتّاب والمفكّرين.

الاتّجاه القومي والوطني
عند عمر أبو ريشة

يُعتبر عمر أبو ريشة واحداً من أعلام الشعر العربي الحديث في القرن العشرين. وعلى مدى ثمانين عاماً عاشها الشاعر ١٩١٠ – ١٩٩٠ كان صاحب الكلمة الوطنية القومية الصادقة والحرّة. وكان رَجل المبدأ والحقّ، ورَجل الأحاسيس المرهفة، والشاعرية الدافقة الخلاّقة. وهكذا تبوّأ منزلة رفيعة بين أقرانه من الشعراء، وكان بحقّ ممّن ملؤوا الدنيا بشعرهم وشغلوا الناس.

ولقد كانت خسارةُ أُمّتنا العربية بفقد هذا الشاعر المجلّي لا تعوّض. وعزاؤنا أنّ روحه وأشعاره تعيش بيننا وترسم لنا دروب المحبّة والعزّة والعروبة. وتفتح أرحب الآفاق الإنسانية وأغناها أمام أجيالنا القادمة.

وسوف نتلمّس بعض ملامح الاتّجاه القومي والوطني عند شاعرنا أبي ريشة الذي كان أصيلاً في انتمائه إلى أُمّته العربية، فعاش مشكلاتها وآلامها، وكان أميناً في معالجة قضاياها، وهكذا استحقّ الخلود والتمجيد في ضمائر الأجيال.

لنستمع إلى شاعرنا يتوق إلى رؤية الشرق قوياً سعيداً، يسوده الوئام والمحبّة، وتُمّحى منه آثار الحزن، وتخمد فيه عواصف الأحداث، وحينئذٍ ينعم بالسلام المنشود.

كان شاعرنا حريصاً على تصوير مأساة البشر وجراحهم في حروبهم الطاحنة، وأشعاره تتضمّن تنديداً بقوى الشرّ العاتية، التي تقضُّ مضاجع الشعوب الآمنة، وفي جملتها أُمّة الشاعر، يقول عمر أبو ريشة في هذا الصدد:

في كلِّ متّكأ وكلِّ وسادة	جرحٌ يسيلُ ودمعةٌ تتحدَّرُ
عيسى طلعتَ على الوجود وليس في	آفاقه إلاّ الشقاء الأكدرُ
هزّوا بوجهك فاتكاتِ حرابهم	واستكبروا والله منهمْ أكبرُ

كما نجد هذه الظاهرة أشدّ بروزاً في قصيدة أُخرى يقول فيها:

لم يزلْ شرَّبُ النجيع سكارى	يتبارون حوله عدوانا

مـا الانـت قلـوبهم أدمـع الأيتـام أو هــزّهم أنــينُ الحزانــى
فـضحاياهمُ تمـورُ علـى الرمـل الـدمَى وتعتلـي صـلبانا
كلّهـم في وليمـة البغـي يخـشى أن يـرى جـوفَ غـيره ملآنـا
قـلْ لتلـكَ الحمـائمِ البـيض طـيري فالخطايـا تـدفّقتْ طوفانـا

ولقد كان أبو ريشة كما أسلفنا، أصيلاً في عروبته وانتمائه إلى أُمّته، بل صارت العروبة لديه هدفاً مقدّساً يستعذب الشاعر الموت في سبيله، يقول الشاعر:

هـل تـرى فوقهـا سـوى كـلّ حـرٍّ يقحـم المـوت في سـبيل العروبـهْ

وشاعرنا يعتزُّ بماضي أُمّته العربية المجيد. وقد تغنّى بالعهود السالفة الأصيلة، وترنّم بذلك التاريخ الزاهي على مرِّ الحقب والأزمان، يقول:

لـيَ تـاريخٌ علـى بـسمته تعـزفُ الـدنيا نـشيد الطـربِ

والظاهرة البارزة في مثل هذه الأشعار، أنّها لم تكن تتغنّى بالماضي، فكثيراً ما حرص الشاعر العربي في هذا الصدد على ربط الماضي بحاضر أُمّته وواقعها بدافع من غيرته القومية كما فعل عمر أبو ريشة في قصيدته العصماء "محمّد" التي جعلها مقدّمة لملحمة النبيّ، فهو بعد أن يبعث في نفوسنا نشوة الماضي العطر بحديثه عن عَظَمة الرسول (ص)، وعن غزواته يقول:

يا عروسَ الـصحراء مـا نبتَ المجـدُ علـى غـير راحـة الـصحراءِ
فاعيـدي مجـدَ العروبـة واسـقي مـن سـناهُ محـاجر الغـبراءِ
قـد تـرفُّ الحيـاةُ بعـدَ ذبـولٍ ويلـينُ الزمـانُ بعـدَ جفـاءِ

وهكذا غدا مجد العرب ماثلاً في الأذهان حيّاً في النفوس، واكتسب عمقاً ومضاءً في معركة التحرّر، يحدوه في ذلك ذخرٌ لا ينضب، وقوّة دافعة من روح الماضي والإيمان بالمستقبل. يقول عمر أبو ريشة داعياً أمجاد العرب الزاهية إلى العودة، ومؤكّداً دعوته تلك:

ارجعـي يـا مجـادةَ الفـاتح الـسمح ويـا عـزّةَ الأبـيين عـودي

ولقد كان شاعرنا من الذين أكّدوا أنّ عنصر الأمل المشترك العربي، لا يمكن أن

نستشفّه إلاّ من خلال الآلام والمآسي التي حلّت بالأُمّة العربية. وها هو ذا يستبشر بوحدة الصفّ العربي، ولمّ الشمل، على الرغم من أنّ المحتلّ في أوج طغيانه وجبروته. يقول في قصيدة "يا عوادي":

هذه أُمّتي وهذي مغانيها ... تجرُّ السواد في الأعياد
كلّما لاحَ بارقٌ في سماها ... أطفأتْهُ ريح الزمان العادي
جمعتها هوجُ الليالي على الجرح ... كما تجمعُ الندامى شوادي
والرزايا كم قرّبتْ بين أشتا ... تٍ بِداد، وأمنياتٍ بِداد

وخلال سنوات الحرب العالمية الثانية كان عمر أبو ريشة وزملاؤه الشعراء يزدادون ثقةً وأملاً بمستقبل أُمّتهم وتحرّرهم، وقد بدا للشعوب المستضعفة أنّ الأوان قد حان لتقطف ثمرات نضالها. وقد كانت سورية أوّل بلد عربي انتزع حرّيته من براثن المستعمر إثر انجلاء غيوم الحرب القاتمة. وها هو أبو ريشة يبارك الخطوب والمحن، ويشير إلى أنّه لولا تلك الآلام لما تحقّقت هذه الآمال:

لَمّتِ الآلام منّا شملنا ... ونمتْ ما بيننا من نَسَبِ
فإذا مصرُ أغاني جلّقٍ ... وإذا بغدادُ نجوى يثربِ
بوركَ الخطبُ فكم لفَّ على ... سهمه أشتات شعبٍ مُغضَبِ

ولقد كان الشاعر أبو ريشة في كوكبة الشعراء الذين تنامى وعيهم وفهمهم القومي الصحيح، وخاصّة في أعقاب الثورات القومية التي صنعتها الشعوب. وبالمقابل فإنّهم كانوا حريصين كلّ الحرص على تعرية الطبقة الحاكمة الجديدة التي اصطنعها المستعمرون من أهل البلاد. يقول أبو ريشة:

لا يُلامُ الذئبُ في عدوانِه ... إنْ يكُ الراعي عدوَّ الغنمِ

ومع كلّ ما وجدناه من سوء الظنّ في قادة العرب السابقين، فإنّ إيمان الشعراء بالشعب كان وطيداً، فحين يزهو عمر أبو ريشة بأمجاد العرب يناجي خالد بن الوليد بقوله:

قُمْ تلفّتْ ترَ الجنود كما كا ... نوا منارَ الإباءِ والعنفوانِ

مـــا تخلّـــوا عـــن الجهـــادِ ولكـــنْ قـــادهم كـــلّ خـــائنٍ وجبـــانِ

ولعلّ "عمر أبو ريشة" الذي عُرف بجرأته في الحقّ وفي مواجهته واقع الأُمّـة، مـن أبرز الشعراء الذين سـاروا في هذا الاتّجـاه. وأبياتـه التاليـة في هـذا الـشأن مـن أجمـل الشعر، فهو يخاطب الشعب الذي يئنّ تحت وطأة الخيانة والتآمر بعبارات مريرة تلتهب بروح الثورة:

يـــا شـــعبُ لا تـــشكُ الأذاة ولا تُطـــلْ فيهـــا نواحـــكْ
لـــو لم تكـــنْ بيـــديك مـــجروحاً لـــضمّدنا جراحـــكْ
أنـــتَ انتقيـــت رجـــال أمـــرك وارتقبـــت بهـــم صـــلاحكْ
فـــإذا بهـــم يرخـــون فـــوق خـــسيس دنيـــاهم وشـــاحكْ
أيـــسيل صـــدرك مـــن جـــراحتهم وتعطـــيهم ســـلاحكْ؟

وحين يسقط المناضل سعيد العاص، ابن مدينة حماة، شهيداً فوق تـراب فلـسطين، يغدو استشهاده وقوداً جديداً للعزمات والقرائح في مختلف ديار العـرب، فـإذا هـي آيـة أُخرى من آيات البطولة في فلسطين عبّر عنها عمر بقوله:

يـــا دمـــاءَ النـــسور تجـــري ســـخاءً بغـــرامِ البطولـــةِ الفـــضّاحِ!
أيّ بـــرد خلعتـــه أحمـــر اللـــون علـــى كاهـــلِ الجهـــاد الـــصراحِ
وكـــأنّي أراك في زحمـــةِ الـــسهول علـــى ســـرجِ ضـــامرٍ طـــوّاحِ
وأخـــوك الجَـــسور في القمـــم الـــسود مطـــلٌّ علـــى الروابـــي الفـــساحِ
لوّحـــتْ كفّـــه بمنديلـــه الأحمـــر شـــوقاً إلى اللقـــاء المتـــاحِ
فحسبتَ الأجيال تهتـف يـا "خالـد" جاهـــدْ في فيلـــقِ "الجـــرّاحِ"

وهكذا كان عمر أبو ريشة صوتاً من أصوات الوطنيـة والقوميـة العربيـة، ورائـداً مجلّياً في هذا الميدان، فاستحقّ التمجيد والخلود في ضمير أُمّته التي أحبّها وأحبّته، وبادلته محبّةً بمحبّة، ووفاءً بوفاء.

(الضاد، العدد المزدوج ٩ و١٠/ ١٩٩١، ص١٢١-١٢٦)



نصرة سعيد كما عرفتـه
من خلال علاقته بالضاد وصاحبها

ترفرف بي أجنحةُ الذكريات، عائدةً بفكري وقلبي، إلى عهـد الـشباب، عهـد الفتـوّة والتلمذة والرفاق الطيّبين الذين عرفتهم فوجدتُ فيهم عاطفةَ المحبّة والعروبة والإخـلاص للوطن، فكانت عاطفةُ الأخوّة البعيدة عن كلِّ غاية شخصية، أو منفعة مادّية. فكأنّ الناس كانوا غيرَ الناسِ، وكأنّ الصداقة كانت نعمة من نِعَم الله نازلةً من السماء.

وهنا عرفتُ عدداً كبيراً من شعراء وأدباء من الوطن العربي والمهجر. وكلّهـم كـانوا يحجّون إلى دارنا المتواضعة محبّة لوالدي **عبد الله يـوركي حـلاّق**. فعرفـتُ علـى سـبيل المثال، **إيليّا أبو ماضي** وعبد المسيح حدّاد وإلياس فرحات ونظير زيتون وشكر الله الجـرّ والشاعر القروي **رشيد سليم الخوري** وغيرهم من المهجر.

ومن الوطن العربي: **أحمد رامي ووديع فلسطين وحافظ جميل وجعفر الخليلي ورووكس بن زائد العزيزي وميخائيل وكوركيس عوّاد وهلال ناجي وناجي جواد وعارف العارف ويعقوب العودات والأخطل الصغير وشبلي الملاّط** وغيرهم.

ومن حلب عرفتُ كلَّ أدبائها، وفي طليعتهم العمّ **نصرة عبد الكريم سعيد**. وكانت تربطه صداقة متينة مع والدي. دعونا نستمع إلى ما قاله والدي فيه:

"كنّا ثلاثة في مدرسة الاتّحاد أي الروم الكُبرى واليوم التعاون: **جورج شكّور ونصرة سعيد** وأنا [رحمهم الله] ولا ندري كيف لأوّل وهلة تفاهمت أرواحنا وتمازجت طباعنا واتّفقت هوايتنا فقد كنّا كلّنا نهوى العروبة ونناهض الانتداب الفرنسي. وكنّا نسير في المظاهرات الشعبية المناهضة له وعصيّ العبيد السود تلهب أرجلنا وتدمي ظهورنا.

كنّا نحن الثلاثة نحبُّ اللغة العربية. ونميل إلى تمثيل المسرحيّات التاريخية. وكان مدرّبنا المتطوّع الأستاذ **جورج سليم شاشاتي** [وهو من كبار مدرّسي اللغة العربية] يُسند إلينا الأدوار الأُولى في كلّ مسرحية نمثّلها.

فكان الأستاذ **شاشاتي** يختار **جورج شكّور** لدَور بطل الرواية، ويختارني لدَور الأب.. أمّا **نصرة سعيد**، فكان يُعهَدُ إليه دائماً بدَور الابن الذي قُتل والده، أو سُجن ظلماً وعدواناً. فكان يبدع في تمثيل دَور اليتيم إبداعاً تسيل له دموع المشاهدين.

والمعروف أنّ والدَي **نصرة** ذُبحا ذبح النعاج. ولولا لطف ربّك لذُبح الطفل البريء أيضاً. ولكنّ الله كتب له السلامة. فكان إنساناً بكلّ ما في الإنسانية من مثالية وتألّق وجداني.

لم نكن نميل إلى اللعب مع أترابنا في "زقاق الأربعين"، بل كانت تضمّنا حجرة علوية في دارنا بحيّ "**السيد علي**" (مكان المطبعة اليوم). وهناك كنّا نقوم بتلاوة الأدوار المسرحية التي سنمثّلها، أو نكبُّ على دراسة واجباتنا المدرسية، أو نتناقش في بعض قواعد الإعراب.

بهذه الميزة بقي **نصرة سعيد** بطلاً لكلّ مأساة نمثّلها على خشبة المسرح. ولو

استمرّ ذلك الفتى سائراً في طريق فنّه وإبداعه، لغدا بلا شكّ أحد نجوم المسرح العربي السوري.

وفي مساء الثلاثاء ٢٩ أيّار ١٩٤٥ حين كنّا نقوم بالتجربة الأخيرة لمسرحية "ابن حامد" تأليف الشاعر المهجري الخالد فوزي المعلوف، كانت فرنسة تضرب بمدافعها وبنادقها المجلس النيابي السوري، وكثيراً من أحياء دمشق. وهنا توقّفنا عن التمثيل، وانصرفنا مع الشعب للدفاع عن الوطن، ورحنا نقابل ذلك العدوان بعدوان أشدّ عنفاً وضراوة".

اتّجه نصرة سعيد إلى حقل التعليم، وراح يغرس في قلوب طُلاّبه محبّة الله والوطن والعروبة، وبين طُلاّبه اليوم رجال احتلّوا أرفع المراكز وتحمّلوا أكبر المسؤوليّات.

وكان أوّل مَن التفت إلى أهمّية الطفل في المجتمع العربي فأولاه ما يستحقّ من عناية ومحبّة ورعاية ووضع "أغاني الطفولة". وليس هذا غريباً ممّن فُطر على حُبّ الشعر، وعرف بحوره وأوزانه وهو في أوّل عهد الفتوّة. فوضع مجموعته الشعرية "شموع الكهف". وكان يرفد مجلّة "الضاد" ومجلّة "الكلمة" بكلّ جديد محبَّب. وله فيهما أبحاث وترجمات وقصائد وأناشيد عديدة. وكان صديقاً وفيّاً لوالدي الذي بادله الوفاء والمحبّة.

لقد تنسّك نصرة سعيد في محراب اللغة التي عشقها وأخلص لها ولأبنائها، وعمل بصمت وتفانٍ واندفاع حتّى انتهت آخر قطرة زيت من سراج حياته في اليوم الثاني والعشرين من كانون الأوّل عام ١٩٨٣.

وقد أفردت له الضاد بعد عام وبعض عام عدداً خاصاً به (شباط ١٩٨٥/٢، ٦٠ صفحة) تناول حياته الفكرية والأدبية والشعرية وآثاره وبعض أشعاره المتنوّعة [1].

وقد رثاه والدي بقصيدة بعنوان "رثاء الشاعر" نقتطف منها هذه الأبيات:

مَن أعزّي وهل يفيدُ العزاءُ ... ذهب اللطفُ والحِجى والوفاءُ

[1] إضافةً إلى ذكره في أعدادها التذكارية نشرت "الضاد" أيضاً عدداً من المقالات عن نصرة سعيد، آخرها: "المربّي والشاعر نصرة سعيد (١٩١١-١٩٨٣)" بقلم نجله جورج سعيد، السنة ٧٧، العدد ٢٠٠٧/٦، ص٢٧-٣٠.

كــلَّ يــومٍ يغيــبُ عنّــي صــديقٌ　يــا إلـــهي، أيختفـــي الأصـــدقاءُ؟
يـا أخـي يـا أخـي أتـسمعُ شـعري؟　نــصفُ شــعري كآبــةٌ خرســاءُ
بُــحَّ صــوتي، ومــا أجبــتَ نــدائي　أتـــوارى مـــع الريـــاحِ النـــداءُ؟
مَـــن تُـــرى في غـــدٍ إذا مـــتُّ يرثيـــ　ــني، وهـل ينفـعُ المـسجّى الرثـاءُ؟
فطَّـــرَ الحـــزنُ مهجـــتي فـــدموعي　إنّهــــا فــــوقَ وجــــنتيّ دمــــاءُ
ليسَ يُجـدي البكـاءُ لـو كـان يُجـدي　عـــاش صـــخرٌ وسُـــرَّت الخنـــساءُ
كنــتَ خــدنَ الــضّبا ونــايَ القــوافي　قُـــمْ وأنـــشدْ، فكلُّنـــا إصـــغاءُ
بَلْـسمِ الجـرحَ، جـرحُ نفـسي عميـقٌ　والأمــــاني علـــى الثـــرى أشـــلاءُ
ســـألَتني عنـــكَ الزهـــورُ وقالـــت:　أيجــفُّ النــدى؟ ويقــسو الـــهواءُ
أوَيغفـــو عـــن اليتـــامى كـــريمٌ　ليلـــةَ العيـــد، والزمـــانُ شـــتاءُ
"نـــصرةٌ" نـــائمٌ بحـــضنِ الثُريّـــا　وَهْـــوَ في مُقلـــةِ الخلـــود ضـــياءُ
لم تكـــنْ قاســـياً وإنّـــي وفيٌّ　أيــنَ منــكَ الرضـــى، وأيــنَ الوفـاءُ
شـــتّتَ الـــدهرُ شـــملَنا فافترقنـــا　فمتـــى يـــا أخـــي يكـــونُ اللقـــاءُ؟

لقد أصدرت "الضاد" بعناية أنجال نصرة عبد الكريم سعيد عدداً خاصاً به تحت عنوان "نصرة سعيد خدين الضاد وناي القوافي" وذلك لمناسبة مرور ربع قرن على رحيله، وفيه كلّ ما قيل في الندوة الاحتفالية الكبيرة التي أُقيمت في ذكراه في ٢٣ حزيران ٢٠٠٩، إضافةً إلى بعض أشعاره وروائعه الأدبية التي لم يضمّها الديوان، ومنها ما يُنشر أوّل مرّة.

يا أبـا كرم!

نظمتُها لمناسبة مرور ربع قرن على رحيل الأديب والشاعر والمربّي
نصرة عبد الكريم سعيد

ما السيفُ أبقى من القِرطاسِ والقلمِ　تفنى الـسيوفُ وتبقـى جَـذوةُ الكَلِـمِ
وأيـــنَ مـــن مقلتَـــي حـــرف تبـــصَّرَتا　من مقلتَي صارمٍ إلـف الظـلامِ عَمِـي
والـسيفُ إنْ لمْ يُنِـرْ دربـاً لـهُ أدبٌ　ضـــلَّتْ مـــسيرتُهُ في عَتْمَـــةِ الظُلَـــمِ

كمْ أُمَّـةٍ نهـضتْ مـن بعـد كبوتهـا   لـولا اليراعـةُ لمْ تـنهضْ ولمْ تَقُـمِ
بشُعلة الحَـرف كـمْ مـن أُمَّـةٍ وَثَبَتْ   حتَّـى تربَّـعَ أهلوهـا علـى القِمَـمِ
وذو اليراعــةِ يــبني مجــدَ أُمَّتـــه   قبلَ السيوفِ التي تُجري سـيولَ دَمِ
وأنــتَ يـا قلمـاً ضـاءَ الزمـانُ بـه   وأيُّ شـمسٍ لـها إشـراقةُ القَلَـمِ
أبقى من الموتِ ما خطَّتْ يمينُكَ في   دفاترِ الدهرِ من فكرٍ ومن حِكَمِ
يـا نبتـةً بنَداها الريحُ كمْ عصفتْ   عـزلاءَ في غَضْبةِ الأنـواءِ والدِيَمِ
كمْ جرَّعَتْها يدُ الأقدارِ من غُصصٍ   أقلُّها غُصَّةُ الأحزانِ باليُتُمِ
وما نجاتُكَ طفلاً غيرُ معجزةٍ   راموا لكَ الموتَ، والرحمنُ لمْ يَرُمِ
فلا أبٌ لكَ أو أُمٌّ جَناحُهُما   يقيكَ من دمعةٍ حرّى ومن ألمِ
فما عرفتَ أباً يغذوكَ خافقُهُ   وفي بحورِ حنانِ الأُمِّ لمْ تَعُمِ
وظلَّلتْكَ يدُ الأقدارِ حانيةً   وسخَّرتْ لكَ أيدي الأهلِ والرَحِمِ
حتّى انتصبتَ على هذا الثرى جبلاً   واللهُ يَنْصِبُ طَوْدَ الصخرِ من عَدَمِ

إيهِ أبا كرمٍ إمّا قسا قَدَرٌ   فقد كساكَ بثوبِ العزمِ والهِمَمِ
هذي الحياةُ إذا جارتْ عليكَ فقد   جادتْ عليكَ بآلافٍ منَ النِّعَمِ
فربَّةُ الشعرِ في كفَّيكَ ماثلةٌ   كأنَّها أمَةٌ تسعى مع الخَدَمِ
تومي لها فيروّي خمرُ قربَتِها   مسامعَ القومِ بالإنشادِ والنَغَمِ
ونسجُها تارةً من نُعمياتِ شذىً   وتارةً من براكينٍ ومن حِمَمِ
وعينُها معْ (شموعِ الكهفِ) ساهرةٌ   تخشى عليها عوادي الخَطْبِ والسَقَمِ
وكمْ سعتْ بكَ في الأوطانِ باسمةً   مع الأزاهرِ والأنهارِ والنَسَمِ
وربَّةُ الفنِّ قد أهدتكَ عزَّتَها   في مسرح الطفلِ تبغي رفعةَ القيَمِ
ورحتَ تكتُبُ للأطفالِ مسرحَهُمْ   تُعلي بهمْ قلعةَ الأخلاقِ والشيَمِ
في كلِّ حرفٍ عيونُ الحُلمِ ظامئةٌ   ترنو لجيلٍ بحَبلِ الخُلُقِ معتصِمِ

إيهِ أبا كرمٍ يا شمسَ تربيةٍ   عصريةِ العطرِ لمْ تَهْجُرْ شذى القِدَمِ
وتِهْ أبا كرمٍ وافخرْ وحسبُكَ من   فخرٍ بأنَّكَ في التعليمِ ذو قَدَمِ

فكمْ سقيتَ من الأجيالِ مُعْتَصِراً ... من الجَنانِ تروِّي منه كلَّ ظمي
يُنسى ذوو الفضلِ إنْ حلّوا قبورَهُمُ ... إلاّ المعلّمَ ذِكْراهُ بكلِّ فَمِ

عفواً أبا كرمٍ، ذكراكَ قد بعثتْ ... شوقاً لوالدنا والشوقُ ذو ضَرَمِ
زُرْ في الجِنانِ كمانَ الشعرِ في حلبٍ ... رفيقَ دربِكَ في الآمالِ والحُلُمِ
وقُلْ لهُ بعدَ ضمٍّ أو معانقةٍ ... ببشرِ وجهٍ كضوءِ الصبحِ مُبتسمِ
يا صاحبَ الضادِ إنَّ الضادَ ما فتئتْ ... كما أردتَ لها مرفوعةَ العَلَمِ
وقُلْ بفخرٍ لهُ هذا (رياضُكَ) عن ... رعايةِ الضادِ لمْ يغفلْ ولمْ يَنَمِ

اهنأْ أبا كرمٍ مَنْ كان نسلكَ عن ... صراطِ حرفكَ لمْ يَشرُدْ ولمْ يَصُمِ
جميعُهُمْ كالندى ما من أخي أدبٍ ... بطيبِ خُلْقِهِمِ الفوّاحِ لمْ يَهِمِ
أنتَ الخلودُ بما خلّفتَ من ولدٍ ... ومن بناتِ يَراعٍ يا أبا كرمِ

(الضاد، العدد الخامس ١١/٢٠٠٩، ص١٣-١٥ وص٣٣-٣٤)



أنطوان رشيد شعراوي

لم يكن الاستحسان الذي نالته محاضرة "آل المرّاش والصالونات الأدبية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر" لأنطوان رشيد شعراوي بأقلّ ممّا لاقته سابقتها [1].. فقد كان إقبال الجمهور عليها كبيراً أيضاً للاستماع إلى ما تضمّنته من إحياء تراثنا الحلبي الغالي وما تخلّلها من طرائف ونوادر صفّق لها المستمعون كثيراً..

[1] "حياة الحلبي القديم من خلال أمثال العامّية وأغانيه الشعبية" وقد نُشرت المحاضرة في عدد خاصّ من "الضاد" (١٩٩٢).

هذا ومع يقيننا بأنّ الأستاذ **الشعراوي** غنيّ عن التعريف، ولمّا كان لا بدّ لكلّ عمل أدبي من مقدّمة تتناول شخصية الكاتب وأسلوبه وسائر ما يدور حول حياته الأدبية وإنتاجه المشهود فإنّنا نأتي إلى هذه المقدّمة (٢) فنقول:

صاحب هذه المجموعة شاعر مبدع أصيل، وُلد في حلب من أبوين تقيين فاضلين يمتُّ كلّ منهما إلى أسرة عريقة في نبل الأرومة وكرم المحتد.. فوالده رشيد من **آل شعراوي** المعروفين في حلب، أباً عن جدّ، بالوجاهة وطيب النسب وعمل الخير. ووالدته أولغا من **آل جلاّد** النابتين من دوحة إسكندرونية عميقة الجذور في الحسب الوضيء والفعل السني..

نشأ شاعرنا وحيداً لأبويه بين ثلاث أخوات ترعرعوا جميعاً في حجر الدلال وكانوا بعد ذلك من خيرة المجتمع تألّقاً في آفاق البرّ والفضيلة..

وتلقّى الطالب **أنطوان** دروسه الابتدائية والإعدادية والثانوية في معهدي القدّيس **نيقولاوس** والإخوة المريميين في حلب. ونال بتفوّق شهادة العلوم التجارية من مدرسة "بيجية" بباريس – فرع بيروت. ثمّ عمل في مديرية مالية حلب بجدّ واستقامة وإخلاص، فشغل أكثر وظائفها الرئيسية، وانتهى معاوناً لمدير المالية، ورئيساً للجنة (محكمة) ضرائب الدخل والتركات والهبات. وهناك تجلّت بوضوح كفاءته المسلكية ومقدرته في الإدارة والتوجيه، واستقامته في إحقاق الحقّ وإنصاف الناس والسهر بيقظة وشرف على بيت المال.

وفي خلال عمله في مالية حلب أوفدته الحكومة السورية إلى بعض عواصم أوروبّا الغربية للاطّلاع على أحدث ما وصلت إليه العلوم المحاسبية والضريبية، فأظهر براعة واجتهاداً مكّناه من الحصول على شهادات تثبت سرعة اقتباسه وفرط ذكائه وحُسْن تفهّمه لأصول الأنظمة المتّبعة في أرقى بلاد المعمور.

وبالرغم من انغماسه في الشؤون المالية فقد كانت تتنازعه حرفة التربية وحبُّ الأدب. ولهذا تولّى في بعض مدارسنا الخاصّة تدريس التاريخ والجغرافية والترجمة

(٢) مقدّمة "آل المرّاش والصالونات الأدبية.." التي نُشرت في عدد خاصّ من "الضاد" عام ١٩٩٥.

وغيرها من المواد.. وظلّ بضع سنوات أستاذاً يدرّس قانون الدخل والمحاسبة التجارية في المدرسة المسلكية لموظّفي المالية في حلب.

وعند بلوغه السنّ القانونية في عام ١٩٧٥ أُحيل إلى التقاعد برتبة مدير، تاركاً في مالية حلب ذكراً معطّراً بنفحات التقدير والإكرام ومبعثاً في قلوب الناس وخواطرهم ذكريات قوامها المحبّة والاحترام...

ويعمل الأستاذ **الشعراوي** محاسباً قانونياً يتمتّع بثقة البيوتات التجارية والأفراد معاً. وهو المحاسب القانوني للأكثرية الساحقة من دُورنا الخيرية ومؤسّسات الرعاية الاجتماعية عندنا، ينفق أوقات راحته في سبيل تدقيق حساباتها وتنظيم موازناتها دون أيّ مقابل. ولهذا سُمّي عضو شرف في معظم تلك الدُور والمؤسّسات وأحرز بمنتهى الجدارة وسام "كومندور" من قداسة البابا.. وكان أحد الأعمدة التي قامت عليها جمعية "الكلمة". وهو نائب رئيسها ومن كبار المتبرّعين للبناء الجديد في مشفاها.

والمعروف أنّ الاستاذ **شعراوي** لا يضيّع دقيقة واحدة من وقته سدى. فإمّا تراه مندفعاً إلى حلبة الأعمال الخيرية أو مُكبّاً على كتابة مقال أو على تدبيج مقطوعة من الشعر. أمّا الخمرة فله في الاجتماعات العائلية نصيب ضئيل منها عملاً بالقول المأثور "قليل من الخمر يُفرح قلب الإنسان". وله ميل خاصّ إلى لعبة "البريدج".. وقد فاز في إحدى مبارياتها بكأس السبق. ولا غروَ فهي لعبة تعتمد على الحساب ودقّة الملاحظة.

والأستاذ **شعراوي** كاتب ذو أسلوب رشيق ونثر أنيق. له في مجلّتي "الكلمة" و"الضاد" وفي العديد من المجلاّت الراقية مقالات وقصائد ترفل بحلل قشيبة من الرقّة والسلاسة والانسجام، ساعده في ذلك ثقافته الأجنبية المتينة والثقافة العامّة الأصيلة في الأدب العربي، فاجتمعت هكذا لديه مقوّمات الشاعر الوجداني المبدع.

صدر عنه حتّى الآن ديوانان من الشعر، الأوّل في عام ١٩٥٧ وعنوانه "منهل الوفاء"، والثاني في عام ١٩٨٢ وعنوانه "أنتِ وأنا" وهو يتضمّن شعره الغزلي الذي يذوب رقّة وحلاوة.

ويسعدني أن أروي حادثة جاءت في مقدّمة ديوان "أنتِ وأنا" التي خطّها يراع

والدي عبد الله يوركي حلاّق:

قال والدي:

منذ مدّة زرت الكويت واجتمعت بنخبة من خيرة أدبائها. واتّفق ونحن في مجلسنا أن صدح من المذياع صوت المطرب الكبير **صباح فخري** ينشد هذه المقطوعة البديعة:

عبقَ الوجدُ بأنفاسِ المُنى	**فقطفْنا منه زهراً وجنى**
وجعلنا في رُباه الزمنا	**نَغَماً حلواً يُنسينا العنا**

أنتِ للحبِّ نشيدٌ وأنا

فاهتزَّ السامعون طرباً وانتشوا بسلافة المعنى واللحن والصوت المنبعث من حنجرة بلبل حلب وعندليب العرب.

ولمّا وصل صباح إلى هذه المقطوعة:

نحن نلنا من هوانا الأربا	**وبلغنا في مَداهُ الشُهُبا**
نحن للحبِّ نذرنا الأدبا	**فملأنا الكونَ شِعراً وصبا**

أنتِ معنى الحبِّ واللفظ أنا

استحفَّ السامعين الطرب واعتقدوا أنّ صاحب هذا القول شاعر أندلسي من طبقة **ابن زيدون**.. وهنا – قال والدي – شعرت بالاعتزاز وأكّدت لهم أنّ مبدع هذه المعاني الجميلة صديق عزيز لي من حلب يُدعى **أنطوان شعراوي** فأبدوا إعجابهم وقدّروا شعره الحافل بجزالة اللفظ وسموّ المعنى والمبنى.

وقد عرفتْ محافل ومنابر الخطابة الأستاذ **شعراوي** محاضراً جذّاب القول، جهير الصوت، يشدّ إليه نفوس سامعيه برفق ولطف، وبملح تثير حيث تكون جوّاً من البهجة والمرح ينسيان الحضور متاعب هذه الحياة الدنيا وينقلانهم إلى رياض الانشراح والصفاء.

ولهذا فلا يكاد يُعلَن عن موعد محاضرة له أو عن أمسية شعرية يحييها حتّى يتقاطر عشّاق الأدب الحيّ الصحيح ومحبّو النكتة البارعة والفكاهة المتعة إلى سماع

المحاضر اللبق الذي يتفنّن بالإلقاء وباستنباط نوادر تـأتي عفـو الخـاطر وتزيـد الحفـل غبطة وارتياحاً.

بهذه الميزة المستحبّة كان الأستاذ **شعراوي** يتصدّر مجـالس عليـة القـوم، ويـروي بمنطقه الخلاّب وخفّة دمه سلسلة من اللطائف والنوادر وأخبار العرب والمقاطع الشعرية من إنتاجه وإنتاج غيره من كبار الشعراء حتّى دُعي بحقّ "بلبل المجالس".

دمعة الوفـاء

نظمتُها وألقيتُها في تأبين الشاعر أنطوان رشيد شعراوي (١٩١١ – ١٩٩٩)
لمناسبة مرور عام على وفاته

لا تلبـسوا في الأربعـينَ حـدادا ... مـا مـات مـن مـلأ الحيـاةَ جهـادا
انـا لا أحـبّ الثـوبَ أسـود فاحمـاً ... وأحـبُّ في الجفـن الكحيـلِ سـوادا
وخذوا من الصبحِ الملابسَ واخلعوا ... لـيلاً حزينـاً دامعـاً وفـؤادا
ما مـات مَـن كحَـل الجفـونَ بطَرفـه ... واسـتوطنَ الأضـلاعَ والأكبـادا
مـا مـات مـن جمَـل الحـروفَ أنينَـه ... ومـن الـدماء قـد اسـتعار مـدادا
مـا مـاتَ ذو الكلمـات، إنّ لروحـه ... في كـلّ حـرف نـابضٍ مـيلادا
المجـدُ مجـدُ الـشعرِ لا مجـدُ الظبـا ... فلَكَـم خبـا مجـدُ الـسيوفِ وبـادا
وَلَكَـم عـلا للـشعرِ نجـمٌ سـاطعٌ ... وأضـاءَ أطـراف العـصورِ وسـادا
يـا "أنطـوان" وأنـتَ فينـا لم تـزل ... ظِـلاً خفيفـاً ناعمـاً ووِدادا

أظَلَلـتَ في دنيـا الخلـود، كمـا هنـا ... غَـرِدَ الحـروف تواصـلُ الإنـشادا
ضـجّتْ جنـانُ الخلـد في غزلانهـا ... أوَلا تـزالُ القـانصَ الـصيّادا
أظَلَلـتَ في ظمـأ إلى القـدّ الـذي ... يمـضي أمامـكَ مائـساً مَيّـادا
أظَلَلـتَ في دنيـا الخلـود أخـا هـوىً ... تـسبي بطرفـك فاتنـاً وسـعادا
ألَقيـتَ في دار الخلـود أحبَّـةً ... مـا غادرونـا أعينـاً وفـؤادا

فـإذا لقيـتَ أبـا ريـاضٍ فاسـقه قـدحاً مـن الـشوق الـمذاب مُعـادا
واهتـفْ بـه هـذا ريـاضٌ إنّـه مـا زال مثْـلَ الأمـسِ يرعـى الـضادا

مـا جئـتُ أرثـي راحـلاً أنـفَ الثـرى فـأراد في كنَـف الإلـه رُقـادا
أدّى رسـالَتَهُ فدعْـهُ يـستريحْ إنّ الحـوادث تنهـكُ الأجـسادا
دعْـهُ علـى زنْـد الـسماء مُمـدَّداً فـالنجمُ صـار لوجنتيـه وِسـادا
شـيخٌ تـسامى قـصدُه وقـصيدُه فـشدا وكـمْ صـاحَ النُبـوغُ: أجـادا
والبـدْر كـم أصـغى إلى آياتـه فاختـال عُجبـاً في العُلـى وتهـادى
شـيخٌ لـوى عُنـقَ الـسنين ولم يـردْ إلاّ الخلـودَ، فكـان حيـثُ أرادا

(الضاد، العدد ٢/ ٢٠٠٠، ص٦٤)



الروائي نجيب محفوظ
الحائز جائزة نوبل

ما من أديب عربي معاصر، شاعراً كان أم كاتباً، حظيت أعماله الأدبية باهتمام واسع، سواء من القرّاء أم من النقّاد، بمثل ما حظيت به روايات الكاتب المصري نجيب محفوظ. ولا نجد ذلك أمراً مستغرباً، أو سراً من الأسرار، ذلك أنّ نجيب محفوظ قد برهن في بواكيره الأدبية: همس الجنون ١٩٣٨، وهي مجموعة قصصية، وفي رواياته التاريخية الثلاث: "عبث الأقدار" ١٩٣٩، و"رادوبيس" ١٩٤٢ و"كفاح طيبة" ١٩٤٤، برهن على موهبة روائية واعدة لفتت إليها النقّاد، في النصف الأوّل من القرن العشرين.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) وما خلّفته تلك الحرب من تحوّلات عميقة في المجتمعات البشرية كافّة، انتقل **محفوظ** من تاريخ مصر القديم، الغني بالأمجاد، إلى الواقع المصري الذي نال نصيبه من تلك التحوّلات. فصدرت له رواية "القاهرة الجديدة" ١٩٤٥ التي أثارت غضب السُلطة وغضب شيوخ الأزهر بسبب واقعيتها الصارخة والجارحة، وتلتها أربع روايات هي "خان الخليلي" ١٩٤٦ و"زقاق المدقّ" ١٩٤٧ و"السراب" ١٩٤٨ و"بداية ونهاية" ١٩٤٩.

وقد توّجت هذه المرحلة من إبداع **محفوظ** بعمارته الروائية الرائعة ثلاثية "بين القصرين" و"السكّرية" و"قصر الشوق". وهي من الروايات التي تسمّى بالفرنسية "Roman Fleuve" أي "الرواية النهر" لتناولها عدّة أجيال متتالية من أسرة واحدة. وقد عزّزت الثلاثية بسياقها المتماسك، وسبر أعماق أشخاصها، ولغتها الجلية، وتقنيتها الروائية العالية، عزّزت ما اكتسبه الكاتب من شهرة في مصر وفي الوطن العربي على حدّ سواء، بفضل رواياته السابقة، وأثبتت في الوقت عينه جدارته في مجال الكتابة الروائية.

يقول الكاتب المصري **جَمال الغيطاني** "تلميذ" **محفوظ** في الكتابة الروائية في كتابه "**نجيب محفوظ يتذكّر**" (١٩٨٧)، نقلاً عن لسان أستاذه: "كتبتُ الثلاثية وأنا في عنفواني، صبور، جلود. إنّ عملاً كهذا كان يحتاج إلى صبر وصحّة. لو أنّك رأيت أرشيف الثلاثية وما خططته من أجل كلّ شخصية، ستدرك مدى ما أقول. كلّ شخصية كان لها ما يشبه الملفّ حتّى لا أنسى الملامح والصفات" [١].

تناولت روايات **نجيب محفوظ** في هذه المرحلة من مسيرته الإبداعية الطبقة المتوسّطة في مصر، أو ما يسمّى بالبورجوازية الصغيرة، بطموحاتها وانفعالاتها، وتمزّقاتها النفسية وتخبّطها الفكري وسعيها المحموم إلى "الصعود" مع ما قد يرافق هذا السعي من انتهازية، وتنكّر للقيم الموروثة والمبادئ الإنسانية السامية، ومن صراع حادّ بين الأفراد والجماعات لتحقيق حلم الصعود، أيّاً كانت العقبات، وأيّاً كانت التضحيات لكي "تتخلّص" من الجذور القديمة التي تربطها بماضيها البائس، أي بالطبقات الشعبية

---

[١] نجيب محفوظ يتذكّر، ص١٠٣.

الفقيرة. وقد أشار أقطاب الاشتراكية (**أنجلز – ماركس – لينين**) إلى الطبقة الوُسطى والتجاذبات التي تعصف بها وتشدّها، إمّا إلى الركون لواقعها البائس، وإمّا لمحاولتها الصعود إلى الطبقة العُليا. وهذا ما تناوله الكاتب الفرنسي "**بلزاك**" (١٧٩٩ – ١٨٥٠) قبل مئة سنة من **نجيب محفوظ** في العديد من رواياته. ففي رواية "الأب غوريو Le père Goriot" مثلاً يقول **بلزاك** على لسان أحد أشخاص الرواية، يخاطب شاباً طموحاً من شبّان باريس إبّان تألّق البورجوازية الفرنسية، وسيطرتها على مقاليد الأمور، بعد ثورة ١٧٨٩: "إنّكم في باريس وحدها، خمسون ألف شابّ تسعون جميعكم إلى المناصب العُليا، ولن يتحقّق لكم ذلك إلاّ إذا أكل بعضكم بعضاً كالعناكب".

وإذا كان تناول هذا الجانب الاجتماعي يتكرّر، غير مرّة، عند **نجيب محفوظ**، في روايات هذه المرحلة، فإنّه يبرز بقوّة وبحدّة في رواية "بداية ونهاية"، حيث نجد مرّة أُخرى عائلة من البورجوازية الصغيرة مات عنها عائلها الموظّف تاركاً ولدين في مرحلة التعليم الثانوي "**حسنين وحسين**" وولداً فاشلاً "**حسن**" لا يصلح للدراسة، وفتاة ساذجة "**نفيسة**" يصفها الكاتب بقوله بإيجاز موحٍ: لا مال، ولا جَمال، ولا أب. يعيش الأبناء الأربعة من راتب والدهم التقاعدي الضئيل. وقد اضطرّت "**نفيسة**" إلى العمل على ماكينة الخياطة لكي تزيد مدخول العائلة قليلاً. كما بدأ "**حسن**" المنحرف يقدّم بعض المساعدات من عمله "قوّاداً" ومن التجارة بالمخدّرات. وكان "**حسنين**" الابن الأكبر يعرف طبيعة تلك المساعدات ومصدرها، وأنّ أخاه "**حسن**" دفع له القسط الأوّل من مصاريف الكلّية الحربية بعد نجاحه في الالتحاق بها، ممّا يحصل عليه من أعماله المنحرفة، ولم يكن ذلك يسوءه في أعماق ضميره. **فحسنين**، إذاً، هو محور هذا التناقض الاجتماعي المحزن، والذي لم يكن ليجرؤ على مواجهته. وقد ترك **نجيب محفوظ** لذلك الشقيق المنحرف أن يكشف **لحسنين** القيام بهذا الدَور حين جاء هذا الأخير يعاتبه على حياته غير الشريفة، فقال له **حسن** في مواجهة عاصفة بينهما: "حياة شريفة" لا تُعدْ هذه العبارة على مسمعي فقد أسقمتني... أتحسب أنّ حياتي وحدها غير الشريفة؟ يا لك من ضابط واهم! حياتك أنت غير شريفة كذلك، فهذه من تلك، ولقد جعلت منك ضابطاً بنقود محرّمة مصدرها تجارة المخدّرات، وأموال هذه المرأة (وأشار إلى صورة عشيقته)، فأنت

مدين لـي ببدلتك ولـهذه المومس والمخدّرات، ومن العدل، إذا كنت ترغب حقاً في أن أُقلـع عـن حيـاتي الملوّثـة، أن تهجـر أنت حياتك الملوّثـة، فاخلــعْ هـذه البدلـة ولنبـدأ حيـاة شريفة معاً...

لكأنّنا بنجيب محفوظ في تناوله الذكي لـهذه الانحرافات المَرَضية يريد أن يقول لنـا إنّ الحلول الفردية لا تؤدّي إلى إنقاذ المظلوم من مأساته، ومن لعنـة الفقـر والانـسحاق، وإنّما يكمن الحلّ في عمل جَماعي منظّم ومتماسك لكي تفرض العدالة نفسها. وقـد سـبق لنجيب محفوظ أن أشار إلى ذلك على نحو أكثر وضوحاً في رواية "القاهرة الجديدة".

يقول الروائي المصري إدوار خرّاط (العدد الأوّل من مجلّة فـصول، ربيـع ١٩٩٢) عن هذه المرحلة من إنتاج محفوظ، وعن الأشـخاص الذين يعمّرون عالمها الروائي: "فهـم عندي، أي أولئك الأشـخاص، على الرغم من الأردية الواقعية (الثـقيلة) بؤرات تتركّز فيها إلى درجة التوهّج والإشعاع الحادّ، تكوينات نفسية واجتماعية دقيقة ومستلهمة، بحـدس صـادق، من صميم حياتنا المصرية أوّلاً، ثمّ من جوهر تشكيلاتنا النفسية الإنسانية الـتي تشارك الإنسان فيها طالما كان هو إنساناً، كما أظنّ أنّ سرّاً من أسرار جاذبيتها الآسـرة، وإقناعها الكامل، وحيويتها الباهرة، أنّها ليست قوالب جامدة، وليـست أشكالاً مـصرية بلا روح، وليست تركيبات مصطنعة، وإنّما هي في اعتقادي، شأنها في كلّ الأعمـال الفنّيـة الصـادقة، مستقطرات صافية، مركّزة من جـوهر الإنـسان الموضـوع في بيئتـه الحيويـة والنفسية والاجتماعية والكونية معاً".

بعد الثلاثية توالت عدّة روايات، لم يتخلّ فيهـا محفـوظ عـن الجانـب الاجتمـاعي، وإنّما غدت أكثر شـمولية وأكثـر غنـىً مـن حيـث تناولــها، بالإضــافة إلى الموضــوعات الاجتماعية، موضوعات سياسية وفكريـة، منهـا "الـسمان والخريـف"، "ثرثـرة فـوق النيل"، "ميرامار"، "اللصّ والكلاب"، "الطريق" وسواها. وذروة أعماله في هذه الفـترة هي رواية "اللصّ والكلاب"، حيث تبدو إلى سـطوة الظـروف الاجتماعيـة، ملامـح مـن الفلسفة الوجودية في سبك روائي جذّاب. وكان ختام هذه المرحلة روايته الجريئـة "أولاد حارتنا" ذات المضمون الكـوني الـذي أثـار ردود فعـل غاضـبة مـن الأوسـاط الدينيـة المتعصّبة، كادت أن تودي بحياته. ورواية "أولاد حارتنا" هي التي مهّدت أمامه الـسبيل

إلى جائزة "**نوبل**". وقد استحقّها **نجيب محفوظ** عن جدارة.

نجيب محفوظ في ذمّة الله

بعد حياة مديدة، حافلة بالعطاء، غيّب الموت الروائي الكبير **نجيب محفوظ**، إثر إصابة بقرحة نازفة وهبوط مفاجئ في ضغط الدم وفشل كلوي حسبما أفاد أطبّاؤه.

وقد بدأ مشهد النهاية بالنسبة إلى **محفوظ** في ١٩ تمّوز ٢٠٠٦ حين سقط في منزله، ممّا أدّى إلى إصابته بجرح في رأسه ونقله إلى المستشفى.

وُلد **محفوظ** في ١١ كانون الأوّل ١٩١١، وبدأ الكتابة عام ١٩٣٢. وقد بلغت أعماله أكثر من خمسين رواية وقصّة قصيرة، بعضها تضمّن مسرحيّات من فصل واحد، بالإضافة إلى أربعة كتب شملت مقالاته القصيرة التي نشرها في جريدة الأهرام. وكتب **محفوظ** سيناريوهات عدّة أفلام سينمائية. بعدما عرضت معظم أعماله على الشاشة الكبيرة. وفي عام ١٩٨٨ توّج مسيرته الإبداعية الغنية بالفوز بجائزة **نوبل** للآداب.

تعرّض **محفوظ** لمحاولة اغتيال بواسطة سكّين على يد متطرّف عام ١٩٩٤، ممّا أدّى إلى إصابته بشلل في يده اليُمنى، لكنّه كافح وتمرّن على الكتابة بخطّ ركيك. وبدأ بنشر أقاصيص وخواطر في مجلّة "نصف الدنيا" التي تصدرها "الأهرام" وجمعها في كتاب "أحلام فترة النقاهة" وهو آخر أعماله.

وقد توفّاه الله صباح الأربعاء ٣٠ آب ٢٠٠٦. وشهدت جنازة الأديب المصري الراحل **نجيب محفوظ** التي أقيمت ظُهر الخميس ٣١ آب غياباً شعبياً. إذ لم يحضر الصلاة في مسجد الإمام **الحسين** في حيّ الجمالية في العاصمة المصرية سوى ٢٠٠ شخص. في حين احتشد في ساحة المسجد المئات من رجال الشرطة. قبل أن يشيّع جثمانه في جنازة عسكرية رسمية تقدّمها الرئيس المصري **حسني مبارك** وعائلة **محفوظ** وأصدقاؤه.

وأمّ المكان بعض من أهل حارة درب قرمز الواقعة في ميدان بيت القاضي في حيّ الجمالية حيث وُلد الكاتب سنة ١٩١١ إلى أن انتقلت أسرته عام ١٩٢٤ إلى حيّ العبّاسية حيث أمضى مرحلة شبابه.

وشارك في الجنازة أصدقاء الأديب الراحل ومنهم **توفيق صالح وجَمال الغيطاني ويوسف القعيد ومحمّد سلماوي ويوسف الرخاوي**. إلى جانب عدد كبير من الروائيين والشعراء والمثقّفين المصريين، مثل الروائي **عزّت القمحاوي** والشاعر **إبراهيم داود** والناشر **محمّد هاشم**.

شيخ الأزهر **محمّد سيّد طنطاوي** الذي أقام الصلاة على روح الأديب الراحل، ألقى كلمة أشار فيها إلى أنّ **نجيب محفوظ** ذو قيمة عالمية، إذ انطلق بالأدب العربي من إطاره المحلّي إلى العالمية. كذلك ألقى مفتي الجمهورية الشيخ **علي جمعة** كلمة اعتبر فيها أنّ **محفوظ** أحبّ شعب مصر وأخلص لعمله ولوطنه.

وفي أثناء التشييع، حدثت مشادّة بين الروائي **جَمال الغيطاني** وأحد مراسلي وكالات الأنباء على خلفية سؤال وجّهه المراسل إلى المفتي، إذ قال: "هل حضورك أنت وشيخ الأزهر جنازة **نجيب محفوظ** إشارة إلى انتهاء الخلاف بينكما وبين الأديب المصري؟". في إشارة إلى رواية "أولاد حارتنا" التي حظر الأزهر نشرها قبل سنوات، معتبراً أنّها تسيء إلى الدين الإسلامي. فأجابه المفتي إنّه لم يكن هناك خلاف وإنّ كلّ ما قيل عن ذلك مفتعل.

وردّ **الغيطاني** على المراسل أنّ الوقت غير مناسب لمثل هذه الأسئلة وطالب بإخراجه من المسجد.

مؤلّفاته

١- مصر القديمة (١٩٣٢) ترجمة. ٢- همس الجنون (١٩٣٨) مجموعة قصصية. ٣- عبث الأقدار (١٩٣٩) رواية تاريخية. ٤- رادوبيس (١٩٤٣) رواية تاريخية. ٥- كفاح طيبة (١٩٤٤) رواية تاريخية. ٦- القاهرة الجديدة (١٩٤٥) رواية. ٧- خان الخليلي (١٩٤٦) رواية. ٨- زقاق المدقّ (١٩٤٧) رواية. ٩- السراب (١٩٤٨) رواية. ١٠- بداية ونهاية (١٩٤٩) رواية. ١١- بين القصرين (١٩٥٦) رواية. ١٢- السكّرية (١٩٥٧) رواية. ١٣- قصر الشوق (١٩٥٧) رواية. ١٤- اللصّ والكلاب (١٩٦١) رواية. ١٥- السمان والخريف (١٩٦٢) رواية. ١٦- دنيا الله (١٩٦٢) مجموعة

قصصية. ١٧- الطريق (١٩٦٤) رواية. ١٨- الشحّاذ (١٩٦٥) رواية. ١٩- بيت سيّئ السمعة (١٩٦٥) مجموعة قصصية. ٢٠- ثرثرة فوق النيل (١٩٦٦) رواية. ٢١- أولاد حارتنا (١٩٦٧) رواية. ٢٢- ميرامار (١٩٦٧) رواية. ٢٣- تحت المظلّة (١٩٦٩) مجموعة قصصية. ٢٤- خمّارة القطّ الأسود (١٩٦٩) مجموعة قصصية. ٢٥- حكاية بلا بداية ولا نهاية (١٩٧١) مجموعة قصصية. ٢٦- شهر العسل (١٩٧١) مجموعة قصصية. ٢٧- المرايا (١٩٧٢) رواية. ٢٨- الحبّ تحت المطر (١٩٧٣) رواية. ٢٩- الجريمة (١٩٧٣) مجموعة قصصية. ٣٠- الكرنك (١٩٧٤) رواية. ٣١- حكايات حارتنا (١٩٧٥) رواية. ٣٢- قلب الليل (١٩٧٥) رواية. ٣٣- حضرة المحترم (١٩٧٥) رواية. ٣٤- ملحمة الحرافيش (١٩٧٧) رواية. ٣٥- حديث المساء والصباح (١٩٧٨) رواية. ٣٦- الشيطان يعظ (١٩٧٩) مجموعة قصصية. ٣٧- الحبّ فوق هضبة الهرم (١٩٧٩) مجموعة قصصية. ٣٨- عصر الحبّ (١٩٨٠) رواية. ٣٩- أفراح القبّة (١٩٨١) رواية. ٤٠- الباقي من الزمن ساعة (١٩٨٢) رواية. ٤١- ليالي ألف ليلة (١٩٨٢) رواية. ٤٢- رأيت فيما يرى النائم (١٩٨٢) مجموعة قصصية. ٤٣- رحلات ابن فطومة (١٩٨٣) رواية. ٤٤- أمام العرش (حوار بين الحكّام) (١٩٨٣) رواية. ٤٥- التنظيم السرّي (١٩٨٤) رواية. ٤٦- العائش في الحقيقة (١٩٨٥) مجموعة قصصية. ٤٧- يوم مقتل الزعيم (١٩٨٥) رواية. ٤٨- صباح الورد (١٩٨٧) مجموعة قصصية. ٤٩- قشتمر (١٩٨٨) رواية. ٥٠- الفجر الكاذب (١٩٨٨) مجموعة قصصية. ٥١- أصداء السيرة الذاتية (١٩٩٥) مجموعة قصصية. ٥٢- القرار الأخير (١٩٩٦) مجموعة قصصية. ٥٣- وطني مصر (١٩٩٧) رواية. ٥٤- صدى النسيان (١٩٩٩) مجموعة قصصية. ٥٥- فتوّة العطوف (٢٠٠١) مجموعة قصصية. ٥٦- أحلام فترة النقاهة (٢٠٠٤) مجموعة قصصية.

(الضاد، العدد ٢٠٠٦/٩، ص٣-٩)



الشاعر المهجري رياض المعلوف

رُوِّعنا ورُوِّع الأدب العربي بفقد آخر شعراء العصبة الأندلسية الشاعر **رياض عيسى المعلوف**. فبكيناه بذوب القلب الجريح، ودموع العيون التي كانت تراه شاعراً مبدعاً. كبيراً بأخلاقه، وفياً لأُمّته ولغته وأصدقائه.

فبعد حياة طويلة قضاها في خدمة لغة الضاد والشعر العربي بمنتهى الإخلاص، أصدر فيها عدّة دواوين بالعربية هي: "الأوتار المتقطّعة" و"خيالات" و"زورق الغياب" و"غمائم الخريف"، وبالفرنسية "التلاوين" و"غيوم" و"حبّات رمال والفراشات

البيضاء" و"مسامير العاج"، وله كتب في النثر منها: "شعراء المعالفة" و"الشاعر فوزي المعلوف" و"ريفيات" و"صور قروية" و"العلاّمة عيسى إسكندر المعلوف"... سكت القلب الطيِّب، وأُغلقت العينان الوادعتان، وانقطع القلم السيَّال عن الكتابة، وإبداع الخرائد الفرائد. ووقفت نبضات فؤاد شاعر فذٍّ، وعمٍّ صديق كريم، وصديق "الضاد" المحبِّ. وصمت لسان إنسان حرٍّ جريء، لم ينطق بغير الصدق، ولم يجهر بسوى الحقّ، ولم يعمل إلاّ لخير أُمّته ولغته وبلاده.

توفّي **رياض عيسى المعلوف** في مدينة زحلة (جارة الوادي) يوم الاثنين ٢٢ نيسان ٢٠٠٢، وهو النجل الثالث [1] للعلاّمة الكبير **عيسى إسكندر المعلوف** (١٨٦٩ – ١٩٥٦)، وشقيق الشاعرين العملاقين: **فوزي المعلوف** (١٨٩٩ – ١٩٣٠) صاحب ملحمة على بساط الريح، و**شفيق المعلوف** (١٩٠٥– ١٩٧٦) شاعر عبقر.

توفّي ومن غرائب المفارقات أنّني تسلّمتُ منه آخر رسالة كتبها لي، وفيها قصيدة بعنوان: "عيناك أوجعتاني مثل جراحي"، يصوِّر فيها رحلته ما بين الحياة والموت. وقد نشرتها في العدد الثالث من الضاد لعام ٢٠٠٢. ولم أكن أدري عندما تسلّمتُ رسالته الأخيرة، أنّ شاعرنا الأعزّ، قد فارق هذا العالم الفاني، وأصبح في ذمّة الله والتاريخ. فكان حزني عظيماً وألمي عميقاً، حين علمتُ أنّه قد غاب إلى الأبد عن عيون أسرته وأصدقائه وعشّاق خلقه الوفي وأدبه الرفيع.

وكان آخر لقاء لي معه في أيلول ٢٠٠١، عندما زرته في منزله العامر بمدينة زحلة، فاستقبلني مع زوجته وبناته بكلّ ترحيب وتكريم. وقضيت معهم ساعة من أمتع ساعات العمر، تذكّرنا فيها صداقة أسرتَي **المعلوف** و**الحلاّق** التي تمتدّ إلى أكثر من سبعين عاماً.

حقّاً إنّ وفاة **رياض عيسى المعلوف**، تعتبر خسارة فادحة لا تعوَّض، رحمه الله عداد حسناته الكثيرة.

(الضاد، العدد ٥/٢٠٠٢، ص٥٤–٥٥)

---

[1] وُلد رياض عام ١٩١٢.



متري نعمان: الرَجل والمآثر

مهما قيل وسيُقال عن حال اللغة العربية في لبنان، سيبقى هذا القطر العربي الشقيق، لبنان، أحد معاقل هذه اللغة الخالدة. فقد نبغ في رحابه أساطين هذه اللغة منذ مطلع عصر النهضة حتّى يومنا هذا، سواء أكان ذلك على صعيد الأُسر المشهورة كآل اليازجي، والبستاني، والشرتوني، والمعالفة، أم على صعيد الأفراد كالشدياق، والغلاييني، وكرم ملحم كرم، والأخطل الصغير، وشبلي الملاّط، وعبد الله العلايلي، وعبد الله المشنوق، وتوفيق يوسف عوّاد... حتّى نصل إلى أسرة "النعمان" وعميدها متري

نعمان، وأنجاله: **عبد الله، وجهاد، ونبيل، وناجي**، وكلُّ مَن سار على هذا الدرب عبر "دار نعمان للثقافة" ومناصريها والعاملين معها، فضلاً عن مؤسّسات ومنتديات أُحدثت في لبنان للدفاع عن اللغة العربية، وتمكينها، وترسيخ دعائمها، وإعلاء شأنها. وقد آتت جهودهم أينع الثمار وأنضر الأزهار. ومن هذه المؤسّسات "دار نعمان للثقافة" التي طار بها عالياً الصديق الوفي، والأخ المحبّ، والأديب المتمكّن الأستاذ **ناجي متري نعمان** إحياءً لذكرى والده **متري** الذي أمضى حياته في السعي والعمل والدأب، ومُنح أوسمةً عاليةً تقديراً لأعماله الأدبية ولنشاطه في المؤسّسة البولسية على مختلف الأصعدة، ولا سيّما رعاية المطبعة البولسية في حريصا، والإشراف على كلّ ما يصدر عنها من كتب ونشرات تصحيحاً وتنقيحاً، ومسك حسابات المؤسّسة، فضلاً عن الترجمة والتعريب وإنشاء المقالات ونظم الشعر... ولمّا انتقلت هذه المطبعة إلى جونية، انتقل معها متابعاً الإشراف على ما تكلّفه إيّاه المؤسّسة البولسية من عمل دؤوب، ولا سيّما مجلّة "المسرّة" الزاهرة، وسلسلة "المشوّق" المشهورة، وغير ذلك ممّا كانت تصدره المطبعة البولسية، وتنشره من كتب ومعاجم ونشرات. وهذا كلّه عمل ثقيل تنوء به العصبة أولو القوّة، ومع ذلك تابع عمله بلا سأم ولا كلال طوال عدّة عقود من السنين حتّى كان غيابه سنة ١٩٩٤، وهو في الثانية والثمانين من عمره.

عرفتُه معرفةً وثيقةً منذ أكثر من خمسين عاماً، إذ كان خدين والدي ورفيقه في الأدب والشعر. وكنت أزوره في عرينه في صربا. فتعرّفت بزوجته الفاضلة وأنجاله الأربعة الكرام وبنتيه الكريمتين، **سعاد وحياة**. وأكتفي هنا بذكر ما دوّنه الأخ **ناجي** على غلاف ديواني (من حصاد السنين) الذي حاز جائزة الأديب **متري نعمان** للدفاع عن اللغة العربية وتطويرها لعام ٢٠٠٩، وهذه الكلمة المقتضبة شهادة كبيرة لعائلتَي **نعمان وحلاّق** وما يربطهما من محبّة وصداقة ووفاء وإخلاص. قال الأستاذ **ناجي**:

"بين **متري نعمان وعبد الله يوركي حلاّق** ما كان بينهما من صداقة وزمالة يراعة وحبّ ضاد وريشة ونغم، وبيني وبين **رياض عبد الله حلاّق** ما سبق، إلى الوفاء للوالدين، فلا صداقة بلا وفاء، لا، ولا زمالة يراعة وحبّ ضاد وريشة ونغم. ومَن يك وفيّاً ينل كلّ شيء، وإنْ لا شيء في يده، فيما، أيّاً يبلغ ما في يد الجاحد، يبقَ فقيراً فقيراً".

متري نعمان، هذا الرَجل الكبير، قام بتأريخ سيرته ومآثره الأديب المعروف الدكتور **ميشال كعدي**، في كتاب عنوانه: "**متري نعمان: الرَجل والمآثر**"، وقد نشرته "دار نعمان للثقافة" سنة ٢٠٠٩، في جونية (لبنان)، ووزّعته بالمجّان، لمناسبة الذكرى الخامسة عشرة لغياب **متري نعمان**، والد الأستاذ **ناجي**.

وقبل الحديث عن هذا الكتاب، يجدر بنا التعريف بمؤلّفه، **ميشال كعدي**، بلمحة موجزة. فقد وُلد سنة ١٩٤٤ وحصلَ على شهادة الدكتوراه في فقه اللغة العربية عام ١٩٧٣ من الجامعة اللبنانية، ثمّ الإجازة في الصحافة من جامعة القاهرة، وانصرف بعد ذلك إلى الكتابة والتأليف والتدريس في الجامعات والمعاهد. له مؤلّفات عديدة في مختلف الموضوعات. وقد حصل على جائزة الأديب **متري نعمان** للدفاع عن اللغة العربية وتطويرها عام ٢٠٠٨ (من ضمن جوائز **ناجي نعمان** الأدبية الهادفة). وهو عضو عدّة اتّحادات وأندية، وكبير أعضاء "دار نعمان للثقافة" الفخريين، والمستشار الأوّل في "لقاء الأربعاء" (صالون ناجي نعمان الأدبي الثقافي) الذي تنظّمه الدار.

فالأديب الدكتور **ميشال كعدي**، إذاً، من ذلك الرعيل الذي تعتزّ به اللغة العربية لأنّه من سدنتها والعاملين على رفعة شأنها، مُتابعاً في ذلك رسالة عميد الأسرة **النعمانية** ونجله **ناجي**.

وأمّا كتاب الدكتور **كعدي**، "**متري نعمان: الرَجل والمآثر**"، فيقع في ١٦٠ صفحة من القطع الكبير، صدر عن "دار نعمان للثقافة" عام ٢٠٠٩ من ضمن سلسلة "الثقافة بالمجّان" التي أنشأها **ناجي نعمان** وما زال يشرف عليها. وقد افتتح الكتاب بكلمتين وجدانيتين كتبهما صاحب الدار، **ناجي نعمان**، وضمّنهما عواطفه وبعض توجّهاته نحو أبيه. الأُولى بعنوان "عاطفة" والثانية بعنوان "اعتذار"، ويقصد بذلك اعتذاره إلى أبيه لتأخّره في نشر سيرة الوالد الذاتية، بعد أن حقّقها وعلّق عليها، ولا تزال نسختها الوحيدة محفوظة في الدار.

ويعاهد **ناجي** والديه على دوام الوفاء لهما وتخليد ذكراهما بطرائق شتّى... وقد كان من حصيلة ذلك الوفاء كتاب الدكتور **ميشال كعدي** الآنف الذكر. وهذا الكتاب يمكن جعل مضامينه في عدّة محاور رئيسية تشمل اثني عشر عنواناً فرعياً.

ولعلّ المحور الرئيسي والأوّل هو الذي يعرض حياة المترجم لـه، مـتري نعمـان، تحت ثلاثة عناوين (ص١٩-٥٢): "أضـواء علـى حياتـه - الطفولـة المتماديـة - طالـب البيان واللغة والعروض". وخلاصة هذا المحور أنّ الأديب متري نعمـان هـو واحـد مـن الأقطاب الذين خدموا لغة الضاد وعلّموها، وتثقّفوا بعلومها، حتّى ملك ثروات جمّـةً مـن أدب، وشعر، وتآليف مسرحيّات، ونقد، ونثر فنّي جميل، فضلاً عن صفات نفسيّة فريدة تقوم على الجرأة في القول والصراحة البعيدتين عن التجريح والتزمّت.

كانت ولادته سنة ١٩١٢ في باب توما بدمشق، حيث أمضى نشأته الأُولى. ثمّ اتّجـه إلى "الصلاحية" ببيت المقدس (نسبة إلى صلاح الدين الأيّوبي)، وأكمـل دراسـته فيهـا، وثقافته، وإعداد نفسه خلال خمس سـنوات (١٩٢٧ - ١٩٣٣). كمـا أتقـن عـدّة لغـات أجنبية، إلى جانب العربية، ومارس نظم الشعر الذي رافقه بعد ذلك طـوال حياتـه، وكـان شعاره الدائم "الضعف يخلق القوّة، والحرمان يُنشئ العباقرة".

وكانت جولة المؤلّف في آفاق متري نعمان الأدبية مدخلاً إلى تكوين صورة واضـحة مكتملة عنه، شاعراً وناثراً ومؤلّفاً لغوياً كبيراً، متعلّقـاً بالجَمـال وقـيم الحـقّ الدائمـة في الفعل، حتّى تجسّدت لديه ثلاثة معان:

١- حسّه القومي وتمسّكه بالحنين إلى الوطن.

٢- المعنـى القومي القـائم على الانتماء إلى الدنيـا العربية، وفي مقدّمـة هـذا المعنـى اللغـة العربية التي تربط لبنـان بسورية بصفتـها الرابط الثقافي والحضاري بين العرب.

٣- المفهوم الإنساني: وهذه النزعة الإنسانية تتغلغل في أغوار نفسه، فهو يسأل عن الإنسان دائماً في عوزه وصبره وانتظاره.

وقد كـان عـنوان: "**جولة في آفاق أدب متري نعمـان**" مفتاحاً للحـديث عـن شـعر هذا الأديب. وقـد اختـار المؤلّف من ذلك كلّه موضوعين اثـنين مكتفيـاً بهمـا عـن سـائر شعره وهما:

١ - الوجدانية:

فالشاعر متري نعمان أطلق العنان لوجدانه الذي تفجّر منذ أن كان في "الصلاحية"

ببيت المقدس، فيتذكّر والدته من خلال الموقف الإنساني والتعاطف وتوق النفس إلى اللقاء، فيخاطبها قائلاً:

أُمّي، اطربي فلسوفَ يأتي الغائبُ ... بَعدَ النَّوى، سُرّي فها هو آيبُ
إنّي لَمشتاقٌ إلى يومِ اللّقا ... شوقي إلى نَفَسي الذي يتعاقَبُ

٢ – المراثي:

وتقسم في شعر متري نعمان إلى ثلاثة أقسام:

١ – **رثاء الأهل**: فقد رثى والديه على نحو خاصّ، وأعلن التوجّع عليهما.

٢ – **رثاء الأصدقاء والأصحاب**: وتبدو فيه العاطفة عميقةً جدّاً في قلبه وروحه.

٣ – **رثاء رجال الدين**: كما في رثاء شقيقه الأسقف نقولاوس نعمان.

وهو، في مراثيه كلّها، يتّصف بالموضوعية والتقويم والإشادة التي تعكس الواقع المرّ والرضى بالقضاء والقدر، وهو القائل:

ما المَرءُ إلاّ صَفحةٌ تُطوى ... اسطورةٌ في مُصحَفِ الدّهرِ
يَروي الحَياةَ وبعدَها يُروى ... وعَسى يُنَوَّرُ في دُجى القَبرِ

وأمّا المحور التالي فعنوانه: "**متري عبد الله نعمان، البولسي العلماني**" (ص٩٤–١١٢). وهنا يتحدّث المؤلّف عن عمل متري نعمان في المطبعة البولسية ليل نهار، وهو يراقب ويصحّح ويراجع ويترجم، وهو الذي يعرف لماذا انتدب إلى حريصا ثمّ إلى جونية:

أيُّ سحرٍ اهابَ بي، فهجرتُ الشـ ... ـامَ والاهلَ... خيرةَ الأصدقاءِ
واندفعتُ اندفاعَ مَن يجهدُ النَّفْـ ... ـسَ سواءً في الفجرِ أمْ في العشاءِ
أصِلُ اللّيلَ بالنّهارِ، سلاحي ... قَلَمٌ من دُجاهُ القى ضيائي

وقد اعتبر تلك المطبعة جزءاً من حياته والعمر الذي عاشه. وبالجملة، كان مُندفعاً في أداء كلّ خدمة تُطلَب إليه من قبل أيّ مرسَل بولسي بلا تردّد ولا تذمّر. هذا، فضلاً عن أعماله الأُخرى في الجمعية البولسية. حتّى تحوّلت سيرته الذاتية، سيرة بولسية، لكثرة ما

وزّع أعماله بين مؤسّساتها. حتّى إنّ الرحلات التي قام بها إلى عدد من البلاد والأقطار العربية والغربية كانت من أجل الرسالة البولسية ومؤسّساتها ولعرض مطبوعاتها، من مثل سلسلة "المشوّق"، وغيرها. وقد لقي في سبيل ذلك صعوبات جمّة، كما أُتيح له أن يقابل الرئيس **جَمال عبد الناصر** في القاهرة، ويُعجَب بالشخصية التي حاولت توحيد الدول العربية، وقد كتب لدى مغادرته القصر الجمهوري في سجلّ التشريفات هذا البيت:

أبو الهولِ والأهرامُ والنّيلُ والعُلى — وما شَيّدَ العمران أمجادُ ناصرِ

ثمّ يأتي الكلام على محور جديد عنوانه: "**الناثر الأنيق، والمترجم الدقيق**" (ص١١٣-١١٥). وقد لخّصه المؤلّف بقوله عن **متري نعمان**: "يطرح فنّه بدقّة وموضوعية فتتلقّفه أبعاد اللغة التي نذر نفسه لها، وعمل في إطار مثلّث من جَماليّتها: الشعر والنثر والترجمة التي عاشت على نبض فكره وذوقه. وأخيراً، نصل إلى "**قيمة أدب متري نعمان**" (ص١١٧-١٢٤)، ويتحدّث المؤلّف هنا عن أربعة أمور:

١- **موقع متري نعمان في الشعر العربي**: لم يخرج في شعره عن الأصالة والتجديد معاً.

٢- **شعره الاجتماعي**: همومه واحدة، مداها الإنسانية بكاملها.

٣- **روافد ثقافية**: فقد اطّلع على تراث العرب الأدبي اطّلاعاً واسعاً وتأثّر بما قرأه من هذا التراث ومن روائع الشعر الفرنسي الذي ترجم شطراً منه.

٤- **مصدر فنّه**: سلّم بمقولة الفنّ للفنّ منقّباً عن ثوابت اللغة من خلال قصائده التي تثير الوجدان. وتزخر كتاباته بتدفّق قويّ التعبير.

وبعد أن يورد المؤلّف خلاصةً جَماليـة (ص١٢٥-١٢٧)، يلخّص فيها ما سبق، يأتي إلى آخر العناوين عنده: "**وصية متري نعمان**" (ص١٢٩-١٣٢). وقد وجّهها إلى أبنائه الأحبّاء، وذكّرهم أنّه أورثهم علماً ووهبهم جهاده وقلبه، وحمّلهم اسمه آملاً أن يظلّ مشرقاً ومجلّياً على الدوام. كما أشار إلى أنّه لا شيء عنده يوصي به من حطام الدنيا. وأوصاهم بالتضامن والتعاون والصدق والإنسانية وإنجاد العاجزين والمحرومين، وأوصاهم، أخيراً، أن يجلّلَ رفاته بكتبه المطبوعة، ما خلا وجهه طبعاً. وإلى جانب هذه

الوصية، وصية أُخرى لزوجته وشريكة حياته طالباً منها تخصيص جزء من مبلغٍ لمساعدة المعوزين والمحتاجين.

وبذلك تنتهي الدراسة التي عقدها المؤلِّف لسيرة **متري نعمان** وحياته وآثاره وأعماله في ظلال الرسالة البولسية، ليأتي بعد ذلك القسم الثاني والأخير من كتابه ويتضمّن "**منتخبات من مؤلّفات متري نعمان وترجماته المطبوعة**" (ص١٣٣–١٥٤)، وعنوان هذا القسم يدلُّ إلى مضمونه.

وبعد، فإنّ هذا الكتاب النفيس: "**متري نعمان: الرَجل والمآثر**"، غنيٌّ المادّة، شائق العرض، حافل بالآراء والأحكام الأدبية والنقدية، وهو ليس سرداً لسيرة أو حياة أديبٍ فحسب، بل جمع بين السيرة والتحليل والنقد.

وقد تجلّى مؤلِّف هذا الكتاب الدكتور **ميشال كعدي** كاتباً بارعاً ذا أسلوب جميل أخّاذ يطير على أجنحة الخيال. نقرؤه فنتذوّق ما فيه، ونستمتع بما نقرأ معجبين بهذه المقدرة على البيان والتحليل. ولا غرو فهو المعروف في كلّ ما كتبه بأسلوب جَمالي خاصّ حتّى لُقّب: "فارس المنابر وسيف الكلمة"، وبأنّه "خليل الكلمة ونبراسها". فشكراً له على ما قدّم وألّف، وشكراً للناشر الأستاذ **ناجي نعمان** على ما نشر وينشر في سبيل إعلاء شأن لغة الضاد والتنويه بأصحابها، المدافعين عنها، والمخلصين لها.

(الضاد، العدد ٢/ ٢٠١٠، ص٣–٨)



أنطوان زابيطا
عازف ومؤلف وملحّن موسيقي حلبي

يُعدّ الموسيقي **أنطوان زابيطا** واحداً من الموسيقيين الروّاد الذين سخّروا علومهم الموسيقية الغربية في خدمة الموسيقا العربية. مستفيداً من النهضة الموسيقية لمدينة حلب الشهباء، التي وُلد فيها عام ١٩١٤.

ظهر حبّه للموسيقا وهو طفل. ولمّا لمس والده ميول ابنه - وكان يجيد العزف على

آلة الكمان- علّم ولده المبادئ الموسيقية والعزف على الكمان. وعندما بلغ الطفل **أنطوان** التاسعة من عمره تتلمذ على يد الموسيقي الكبير **كميل شمبير** فأخذ عنه العزف على آلة البيانو، وتعلّم منه العلوم الموسيقية الغربية والشرقية.

عمل **أنطوان زابيطا** في عدد من الوظائف الإدارية، وأبقى الموسيقا في مرحلة الهواية، قبل أن يتفرّغ لها نهائياً وينخرط في صفوف فرقة موسيقا الجيش الفرنسي بحلب.

وأتاح له العمل في هذه الفرقة تلقّي المزيد من المعارف الموسيقية، فتعلّم العزف على آلة الكلارنيت النفخية النحاسية. وإضافةً إلى عمله في الفرقة، عمل ليلاً على مسارح حلب عازفاً على عدّة آلات ضمن الفرقة الموسيقية.

بدأ نجم **أنطوان** يلمع في حلب عام ١٩٣٤ بعد وفاة **كميل شمبير**. وعدّه كثيرون خليفة للفنّان الراحل **شمبير**. وبدأ نشاطه الموسيقي في المرحلة الجديدة بتشكيل فرقة للإنشاد (الكورال) تألّفت من مئة وخمسين منشداً ومنشدة. قدّمت الأعمال الغنائية الدينية والدنيوية. وخلال ذلك مارس التعليم الموسيقي. فتتلمذ على يديه عدد كبير من الموسيقيين الهواة الذين علّمهم العزف على البيانو وآلات النفخ النحاسية، مثل الكلارنيت والترومبيت والساكسفون.

وفي أيّار عام ١٩٤٥ عندما تعرّضت دمشق وعدد من المدن السورية للعدوان الفرنسي. استنكر **أنطوان** ذلك العدوان، واستقال من عمله في فرقة موسيقا الجيش الفرنسي.

وفي عام ١٩٤٨ استدعته إدارة الإذاعة السورية ليُسهم في تأسيس إذاعة حلب المحلّية. فكان من أوائل الموسيقيين الذين عملوا فيها. وتولّى في الإذاعة عدّة مهامّ. فكان رئيساً للقسم الموسيقي ومراقباً موسيقياً وعضواً في لجنة الاستماع.

وخلال عمله في إذاعة حلب لعب دَوراً هاماً في تثقيف العازفين والمطربين موسيقياً. فتولّى تدريب المطربة **إلهام** على الأداء الغنائي الصحيح وعلّمها النوتة الموسيقية. كذلك فعل مع المطربة **يولاند أسمر** (**بسمة**) ومع المطرب **سمير حلمي** الذي تتلمذ موسيقياً على يديه.

وخلال هذه الفترة مارس التلحين. فوضع العديد من ألحان الأغنيات لعدد من مطربي ومطربات حلب. وساهم مع صديقه **عزيز غنّام** في النهضة الموسيقية الحلبية. وفي عام ١٩٦١ سافر **أنطوان زابيطا** إلى بيروت حيث تلقّى دعوة للتدريس في المعهد الموسيقي الشرقي اللبناني. وخلال عمله هذا شكّل في بيروت العديد من الفرق الموسيقية الشرقية والغربية.

وفي المعهد قام بتدريس الآلات الموسيقية الهوائية، النحاسية منها والخشبية. وخلال وجوده في بيروت عمل في الإذاعة اللبنانية، حيث قدّم العديد من البرامج الموسيقية الإذاعية وأشرف على فرقة الإذاعة اللبنانية الموسيقية حتّى وفاته عام ١٩٧٩.

في الجانب الإبداعي خاض **أنطوان زابيطا** غمار التأليف والتلحين الموسيقي. ففي مجال التأليف الموسيقي أبدع الكثير من المقطوعات الموسيقية الجميلة منها (بزوغ الفجر) و(أنغام الربيع) و(الشمس وراء الأفق) و(عندما تعمى العيون) و(الوردة الذابلة) التي عزفها على أكبر آلة أرغن موجودة في الشرق الأوسط في كنيسة اللاتين بحلب التي أجاد العزف عليها.

كما سجّل عدداً من التقاسيم على جميع الآلات التي يجيد العزف عليها وبمقامات متعدّدة. فله تقاسيم من مقامي النهوند على الكلارنيت والزنجران على آلة البيانو وكلّها مسجّلة في إذاعتَي دمشق وحلب.

وحاول في تقاسيمه إضفاء الطابع الشرقي على موسيقاه بقدر ما تسمح به هذه الآلات. كما عزف مقطوعات لـ (**باخ**) و(**هاندل**). ولكنْ من أهمّ أعماله (دراسة أكاديمية للأنغام الموسيقية) قام المعهد الموسيقي الشرقي اللبناني بطباعتها.

وفي مجال التلحين لحّن **أنطوان زابيطا** مجموعة جيّدة من الأغنيات لعدد من الأصوات الغنائية. وأكثر ألحانه كانت للمطربة الحلبية **إلهام** التي تتلمذت على يديه. فلحّن لها (يا نديمي) كلمات **مصطفى عبد الرحمن**، و(تعبوا المناديل) كلمات **أسعد السبعلي**، و(زهرتي) كلمات **أنطوان عون**، وقصيدة (سيبقى هوانا) شعر **خليل خوري**.

بالأسلوب نفسه لحّن للمطربة **بسمة**. وله ألحان غنائية قليلة ولكنّها جميلة للمطربة **زكية حمدان** والمطربة **سحر** والمطرب **سمير حلمي**. ولحّن له وللمطربة **سحر**

عدداً من الحواريات الغنائية.

وفي مجال التوزيع الموسيقي أسهم بالاشتراك مع الأب **منصور لبكي** (في بيروت) في إبداع عدد كبير من التراتيل الدينية منها: صلاة الفقير – وعلّمني حبّك يا الله...

وكان آخر توزيع موسيقي له هو **لماجدة الرومي** (نجمة السلام) كلمات الشاعر **هانري زغيب**. وبعد نجمة السلام رحل بسلام في بيروت عن عمر يناهز ٦٥ عاماً، عاشها بالعزف والتأليف والتلحين والتوزيع الموسيقي.

كرّمته وزارة الثقافة في المركز الثقافي بعد وفاته. وكذلك كُرِّم في مهرجان الأغنية الأوّل والثاني. وكُرِّم أيضاً في مهرجان الأغنية لعام ٢٠٠٢.

(الضاد، العدد ٦/٢٠٠٣، ص٣-٦)



ميمي ألبير الحمصي
راحلة عزيزة وخطب جلل

كانت كالفجر روعة وصفاء وكالزنبق طهراً ونقاء.

وكانت زينة المجتمع الحلبي لطفاً وظرفاً وأخلاقاً مثالية كريمة.

ومَن كانت هذه سجاياها فمن حقّ مواطنيها أن يبكوها بذوب القلوب ودموع المقل.

ولم تبخل عليها الشهباء بالدموع ولا أمسكت عنها بقايا القلب الوفي، بل أعلنت الحزن والأسى على إنسانة من حقّ حلب أن تفاخر بها وتعتزّ بمزاياها

الحميدة وأخلاقها الرضية.

لقد أيّدت الراحلة الفاضلة مسيرة زوجها الفاضل السيّد **فتحي جورج أنطاكي**، ومشت معه في درب التعب والسهر ونكران الذات. فأعطت من أعماق نفسها وفيض راحتها. وكتبت في سجلّ حياتها صفحة نقية ينبعث منها نُور المحبّة الصافية، والعطف الأخوي الخالص.

كما اعتنت بعائلتها فربّت أولادها على سنن المحبّة والتقوى، وزرعت في قلوبهم بزور الفضيلة والإيمان والخير والمعروف. فنشؤوا نشأة قويمة، وطُبعوا على اللطف والعطف وعمل الخير وممارسة الإحسان وحبِّ الوطن.

وُلدت **ميمي ألبير الحمصي** في بيت من أكبر وأشهر بيوتات حلب، وهذا البيت كان مباءة كبار القوم ومزار مشاهير العلم والأدب. وقد شُيِّدَ في صدر حيِّ العزيزية، وهو يطلُّ على كنيسة الملاك ميخائيل، ويلقي نظرة حلوة على تمثال جدّها العلاّمة اللغوي الشهير **قسطاكي الحمصي** خدن الشيخ **إبراهيم اليازجي**، وموضع ثقته وإعجابه.

في هذا البيت العريق الذي كان مقصداً للزوّار ومضافة للملوك والعظماء نزلت الملكة **ماري** ملكة رومانيا وابنتها وولية عهدها الأميرة **إليانا**. ولقد تزوّدت الآنسة **ميمي** أخلاقاً عالية من أسرتها وبيتها ومن عشرة القوم ومشاهير الناس.

رافقتْ زوجها المحسن الإنساني الكريم الأستاذ **فتحي جورج أنطاكي** في معظم مراحل حياته الحافلة بالجدّ والجهد. ورأت كيف تسارع العظماء إلى تكريمه، وكيف عملت الدولة السورية على منحه وسام الاستحقاق السوري، له ولنجله المحبوب السيّد **جورج أنطاكي** قنصل عامّ إيطاليا والبرتغال، ورئيس مجلس إدارة جمعية مشاريع الكلمة الخيرية بحلب.

رحم الله **ميمي ألبير الحمصي الأنطاكي**، لأنّها كانت بارّة بوطنها، وفية لأهلها، صادقة مع محبّيها.

ويوم اختارها الله أعدَّ لها مكاناً بين الأتقياء والقدّيسين في ملكوت السماء...

وعندي أنّ هذه السيّدة الفاضلة لم تؤذ في حياتها أحداً ولم تنهر فقيراً، ولم تقل كلمة سوء لأحد. وهذا لعمري من أخلاق القدِّيسات، ولا ريب أنّنا فقدنا إنسانة تحمل روح القداسة.

فليكن ذكرها الطيّب مؤبّداً.

(الضاد، العدد ٢/٢٠٠١، ص٣٧-٣٨)



الأب حنّا الفاخوري والتكريم

- أهو وسام على صدر حنّا الفاخوري، أم هو وسام على صدر الجمهورية الإسلامية الإيرانية؟

- لا شكّ أنّه وسام على صدريهما معاً. فدعوة الجمهورية الإسلامية الإيرانية للفاخوري لزيارتها لمدّة أسبوع (١٧- ٢٣ تشرين الأوّل ٢٠٠٢)، بهدف حصول الأساتذة والمحقّقين الإيرانيين على معرفة واطّلاع أوفر عنه، هي لا شكّ وسام على

صدره وتكريم له. وكذلك من طرف آخَر فإنّ الجمهورية الإسلامية الإيرانية تبرهن بهذه الدعوة على أنّها تقدّر الفضل وأصحابه، وإن لم يكونوا من أبناء جلدتها، أو يشاركوها عقيدتها الاجتماعية.

أليس هذا سموّاً وتنزّهاً عن التقوقع القومي والتقمقم الاجتماعي؟

أليست هذه الدعوة وساماً على صدر الجمهورية الإسلامية الإيرانية؟

لقد كان برنامج أسبوع التكريم حافلاً بزيارة المعالم الحضارية أو اللقاءات والمحاضرات والحوارات بين **الفاخوري** ورجال الفكر والفلسفة والأدب وأساتذة الجامعات وطُلاّبها في إيران. وتُوّج كلّ ذلك بمنحه الأستاذية الفخرية من جامعة **الإمام طاطبائي** بطهران.

لقد استحقّ **حنّا الفاخوري** هذا التكريم. ففكره الخصب أثمر أكثر من مئة كتاب في اللغة والأصول والإنشاء والأدب وتاريخه والفلسفة وتاريخها والترجمة. ولقد ذلّل بمؤلّفاته وعورة الطريق للباحثين والطُلاّب. ومَن منّا يجهل كتابه الرائع "تاريخ الأدب العربي" الذي نهلت منه أجيال الطلبة على مدى أكثر من نصف قرن؟

كنّا طُلاّباً وكان أساتذتنا يرشدوننا إليه مرجعاً للموضوعات الأدبية التي كانوا يكلّفوننا بها، وصرنا أساتذة، وصرنا نرشد طُلاّبنا إليه مرجعاً للموضوعات الأدبية التي نكلّفهم بها.

"ألا يستحقّ بهذا الكتاب وحده لقب: معلّم الأجيال"؟

إنّ **حنّا الفاخوري** بمؤلّفاته جامعة قائمة بذاتها. ومَن تتلمذ عليها، وتمثّل بعضها استحقّ الإجازة بالعلوم الإنسانية التي نذر **الفاخوري** نفسه وعمره وقلمه لها، فامتزج بها وامتزجت به امتزاجاً صوفياً حتّى غدا كلّ منهما مرادفاً للآخَر وتعريفاً له.

لقد ثمّنت الجمهورية الإسلامية الإيرانية دَور **حنّا الفاخوري** الريادي في تقديم الخدمات الجليلة في شتّى مجالات العلم والمعرفة، ولآثاره ومؤلّفاته التي تركت بصمات واضحة على المسارات العلمية والأدبية وفي العالمين العربي والإسلامي، فكرّمته هذا التكريم الذي أدفأ قلبه في شتاء العمر.

وقد كرّمت بتكريمه وطنه الصغير لبنـان ووطنه الكبير الوطن العربـي، لأنّـه حـين تقوم أُمّة بتكريم مبدع من أُمّة أُخرى إنّما تكـرّم أُمّتـه جميعهـا ووطنـه كلّـه مـن خـلال تكريمها لشخصه.

ونحن نسأل: أليس جديراً بالأُمّة العربية أن تكرم "**فاخوريها**"؟

أليس جديراً بالأهل أن يحتفوا بفلذة كبدهم قبل احتفاء الجيران به؟

نتمنّى ذلك لكي لا نقتنع بصحّة القول الشهير: "لا كرامة لنبيّ في وطنه"!

(الضاد، العدد ١/٢٠٠٣، ص٥٧-٥٨)



عبد السلام العجيلي كما عرفته

فُجعت سورية في نيسان ٢٠٠٩ بفقد ثلاثة أدباء عمالقة. فقد خسرت حمص أديبها الكبير الأستاذ عبد المعين الملوحي، كما شيّعت سلمية شاعرها المبدع محمّد الماغوط، ورُوِّعت الرقّة بفقد سنديانتها الشامخة المغفور له الدكتور عبد السلام العجيلي. وشيّعت كلُّ مدينة فقيدها الغالي بمواكب سادها الخشوع ومشى فيها جمهور غفير من أهل وأصدقاء ومحبّين.

وكان سيّد الوطن الرئيس بشّار الأسد عزّى الأُمّة السورية وأهل كلّ فقيد تعزية

خالصة. وبتكليف من سيادته قدّم الدكتور **غسّان اللحّام** وزير شؤون رئاسة الجمهورية التعازي لأسر الراحلين. كما نعت وزارتا الإعلام والثقافة في سورية الراحلين الكرام.

أعود إلى الدكتور **عبد السلام العجيلي** الذي عرفتُه في الخمسينيات من القرن الماضي عندما كان يزور والدي في منزلنا كلّما جاء إلى حلب، لأنّ صداقة متينة كانت تربط بين عائلتَينا **الحلاّق والعجيلي**. وإنّ الدكتور **عبد السلام العجيلي** صرّح أكثر من مرّة بهذه الصداقة قائلاً: "عرفتُ **عبد الله يوركي حلاّق** واجتمعت به لأوّل مرّة عندما أخذني ابن عمّي **صبحي العجيلي** إلى مكتب مجلّة الضاد. وهناك شاهدت أوّل مرّة الشاعر **عبد الله يوركي حلاّق** صاحب الضاد. وبهذه المناسبة أعطيته محاضرة كنت قد ألقيتها في ثانوية التجهيز على لفيف كبير من الطُلاّب، بحضور محافظ حلب **مصطفى الشهابي**، وأنا أحد طُلاّبها في الصفّ الحادي عشر في شعبة الفلسفة بعنوان "السرعة في عصر السرعة". وقد نشرها لي على دفعتين [1] في مجلّته الضاد عام ١٩٣٨، وكانت أوّل محاضرة ومقالة تنشر لي على صفحات هذه المجلّة وغيرها".

واستمرّت الصداقة بين والدي و**العجيلي** وقويت على مرّ الزمن. وأخذ **العجيلي** يرفد مجلّتَي "الضاد" و"الكلمة" بمقالاته وقصصه وأشعاره. **فللعجيلي** في هاتين المجلّتين الكثير من القصص والمقالات والقصائد المنشورة على مدى سبعين سنة متتالية.

وُلد **عبد السلام العجيلي** في الرقّة. ودرس المرحلة الابتدائية فيها ثمّ جاء إلى حلب ليتابع دراسته فيها. وكان مولعاً بالقراءة يطّلع على كلّ ما يصادفه من كتب فيقرؤها. وبعد ذلك سافر إلى دمشق ليدرس الطبّ في جامعتها. واستمرّت حياته موزّعة بين الطبّ والأدب والسياسة أيضاً. فقد مثّل الرقّة نائباً في المجلس النيابي عام ١٩٤٧. كما تولّى وزارة الخارجية في سورية عام ١٩٦٢. ثمّ تولّى وزارة الثقافة والإعلام. وتطوّع وهو نائب في جيش الإنقاذ الذي دخل فلسطين عام ١٩٤٨ بقيادة **فوزي القاوقجي**.

---

[1] نُشرت محاضرة الدكتور عبد السلام العجيلي على قسمين: القسم الأوّل نُشر في العدد الرابع – نيسان ١٩٣٨، صفحة ١٨٨، والقسم الثاني في العدد الخامس – أيّار ١٩٣٨، صفحة ٢٢٤.

عرفتُه معرفة جيدة من خلال كتبه ورواياته وأشعاره ومن خلال لقاءاتي معه في حلب ودمشق والرقّة. وعرفت فيه الصفات النبيلة وسموّ الخلق والشهامة وعزّة النفس والعنفوان. وعرفته مجاهداً في سبيل قضايا أُمّته العربية، وخاصّة قضية فلسطين. وعرفته وفياً محبّاً لأسرته العريقة وأهله وعشيرته.

ويوم تكرّم سيّد الوطن الرئيس الراحل حافظ الأسد ومنح والدي وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأُولى، واحتفلت به وزارة الثقافة وجامعة حلب، وأقامت له حفلاً خطابياً كبيراً، كان للدكتور **العجيلي** الدَور الرئيسي في هذا الاحتفال. وألقى كلمة طيّبة رائعة أعطى فيها والدي كلّ محبّته ووفائه لأصدقائه ولحملة الرسالة الثقافية ولمبدعي الكلمة الحرّة الصادقة [٢].

وإنّي لأذكر يوم كان والدي طريح الفراش، فكان يزوره دائماً في بيته ويعاينه ويصف له الدواء. وإذا تغيّب عنه كان دائم الاتّصال بالهاتف يسأل عن صحّته وأحواله.

وعندما توفّي والدي عام ١٩٩٦ زارنا في المنزل معزّياً بفقد أحد أصدقائه المحبّين الأوفياء. وبكاه بدموع المقل وقال لي: "لك عمّ يا رياض هو **عبد السلام العجيلي**، فلا تتأخّر في طلب أيّ شيء منه". واستمرّ في علاقته الطيّبة معنا ومع "الضاد"، حيث كان يرفدها بالمقالات الشائقة والقصص المحبّبة.

وكان آخر لقاء لي معه هو يوم أصدر كتابه الأخير "جيش الإنقاذ" وأقيم له في حلب حفل توقيع الكتاب، وكنت يومها خارج الوطن. فلمّا عدتُ هاتفني وجاء إلى حلب وزارني وأهداني كتابه "جيش الإنقاذ". ولقد كتب في صفحته الأُولى إهداء جميلاً ينمُّ على محبّته وإخلاصه. ويومها تحدّثنا عن تراجع الحركة الأدبية في حلب وقال لي إنّ المهمّ أن تستمرّ الضاد في الصدور حتّى تبلغ مئويتها. فشكرتُ له هذه البادرة الطيّبة. كما أهداني كتاب "المشربية" لابنة أخيه السيّدة الأديبة **شهلا العجيلي**.

وعندما كتبتُ عن كتابه "جيش الإنقاذ" في العدد السادس ٢٠٠٥، ص٣١، من مجلّة الضاد، هاتفني شاكراً لي ما كتبت، وقال لي: "الله يحفظك لأنّك سائر على خطا

---

[٢] راجع "عبد الله يوركي حلاّق في معابر الذكرى والوفاء"، ص١٥٧.

والدك ومستمرّ في إصدار الضاد التي هي مجلّة كلّ عربي وكلّ مغترب". فشكرته على حُسْن ظنّه بي وعاهدته على أن تستمرّ الضاد في الصدور ما دمت حيّاً. وقلت له: "سنحتفل باليوبيل الماسي للضاد ولك كلمة في هذه المناسبة". فأجابني: "إن شاء الله أقدر أن أقوم بواجبي تجاه الضاد التي فتحت لي صفحاتها في أوّل مقال نُشر لي في الصحف العربية".

وبعدها سمعت بمرضه وزرته بمنزله في الرقّة. وكنت دائم الاتّصال بعائلته للسؤال عن صحّته. وفوجئت وأنا في الأردنّ الشقيق مشاركاً في مؤتمر الشباب العربي بالمهجر، بوفاته. وحزنت كثيراً لفقد خير عمّ وأروع أديب.

وبرحيله يكون الأدب العربي المعاصر قد خسر أديباً فذّاً وروائياً كبيراً وشاعراً موهوباً. لقد كان الفقيد الراحل مدرسة في الطبّ والأدب والرواية والشعر والمحبّة والوفاء والأصالة. ليس فقط لمدينته الرقّة ولا لوطنه سورية، بل كان لكلّ الوطن العربي. حمل في حياته همومه وآلامه وقضاياه وناضل من أجل رفعة أُمّته العربية.

لا يسعنا إلاّ أن نقف بإجلال وحسرة لفقدنا أديباً أريباً وطبيباً إنسانياً وقامة شامخة وسنديانة صلبة وعربياً صادقاً وفياً وروائياً خطّ أجمل الروايات من أدب الحياة، وأغنى المكتبة العربية بالروائع والنفائس الخالدات. كما نثر هموم أُمّته وآلامها بين ثنايا قصصه التي تفيض بعذوبة الفرات.

رحم الله شيخ الأطبّاء والأدباء والمحبّين الأوفياء.

(الضاد، العدد ٢٠٠٦/٥، ص٣-٥)



المطران ناوفيطوس إدلبي
حياة مفعمة بالعمل والعلم والمحبة والوطنية

وُلد المطران ناوفيطوس إدلبي، وكان اسمه إلياس، في حلب بتاريخ ١٠ تشرين الثاني ١٩٢٠ من أبوين فاضلين تقيين هما عبّود إدلبي ولوسيا بطوق. وهو بكرهما، إذ رُزق والداه أربعة أولاد وفتاة واحدة. وُلد في زقاق الناصر قرب قسطل الحرامي وتردّد في طفولته الأولى على مدرسة القدّيس جاورجيوس الملاصقة للكنيسة في حيّ

الشرعسوس. ثمّ انتقلت أسرته إلى حيّ التلفون هوائي، ودخل **إلياس** مدرسة الآباء الفرنسيسكان في حيّ الرام. وكان تلميذاً نجيباً متفوّقاً. وكان له دالّة خاصّة لدى الرئيس الأب **يوحنّا** والمعلّم المشهور الأستاذ المرحوم **ميخائيل تليسة**. وفكّر الآباء الفرنسيسكان أن يدعوه للالتحاق بجمعيتهم، إلاّ أنّ العناية الإلهية دبّرت شيئاً آخر، إذ مرَّ بالمدرسة عام ١٩٣٢ أحد الرهبان الباسيليين الحلبيين وهو يبحث عن دعوات لرهبانيته. فأُعجب بالفتى الذي غادر المدرسة والتحق بالرهبانية الحلبية في ديرها الرئيسي بلبنان، دير الشير. وبعد متابعته دراسته الإعدادية دخل الابتداء واتّشح بالزيّ الرهباني في دير **مار أشعيا** قرب برمّانا. وسمّوه **ناوفيطوس** تيمّناً **بناوفيطوس نصري** أسقف صيدنايا الطيّب الذكر. وأبرز نذوره الرهبانية في ١٢ تشرين الثاني ١٩٣٦ والتحق بإكليريكية القدّيسة **حنّة** في القُدْس. بعد سنتين أنهى الأخ **ناوفيطوس** في مدرسة القدّيسة **حنّة** المرحلة الثانوية وكان فيها مبرّزاً في جميع الموادّ الأدبية والعلمية. والتحق بالإكليريكية الكُبرى في خريف ١٩٣٨ حيث أمضى ستّ سنوات في دراسة الفلسفة واللاهوت.

ورُسم الأخ **ناوفيطوس إدلبي** كاهناً في كنيسة القدّيسة **حنّة** في ٢٠ تمّوز ١٩٤٤ بوضع يد صاحب الغبطة **مكسيموس الخامس حكيم** إذ كان مطراناً على عكّا وحيفا.

تعيّن الأب **ناوفيطوس** بعد رسامته الكهنوتية مدرّساً في مدرسة دير الشير. وأمضى سنتين كانتا له بمنزلة تدريب على الجَلَد في العمل والدراسة.

وفي عام ١٩٤٦ توجّه إلى روما لمتابعة دراسته في الحقّ القانوني والمدني في معهد اللاتران. وهناك احتضنه ودرّبه المثلّث الرحمات الكَردينال **أكاكيوس كوسا** الذي كان من الرهبانية الحلبية ومن أشهر المدرّسين في معهد اللاتران. وتتلمذ الأب **ناوفيطوس** على يده وكان له أميناً للسرّ، وحاز درجة الدكتوراه بامتياز في الحقوق الكنسية والمدنية.

وعاد إلى الشرق ودرّس في إكليريكية القدّيسة **حنّة** الكُبرى مع الآباء البيض. وكان أوّل كاهن شرقي يُدعى إلى هذه الوظيفة. درّس عدّة موادّ لاهوتية. وأدخل في البرنامج مادّة جديدة هي العلوم الإسلامية. وأسّس مجلّة الشرق الأدنى المسيحي P.O.C. عام ١٩٥١. واستُدعي عام ١٩٥٣ إلى لبنان ليعمل في كنف الرهبانية الباسيلية الحلبية إذ انتُخب مدبّراً. فعمد إلى تجديد الحياة الرهبانية الباسيلية فاقتنى بيتاً للرهبان الطلاّب في

حيّ الخندق العميق. ثمّ اقتنى مدرسة **يوحنّا** الرسولية الثانوية بقرب اليسوعية فأدارها بحكمة وتفانٍ عدّة سنوات. وفي هذه السنة التحقتُ بتلك المدرسة وكان الأب **ناوفيطوس** مديرها وتتلمذتُ على يديه وعلى أيدي المرحومين المطران **بطرس راعي** والأب **برنارد كبّوجي** والأب **بوليكاربوس طنبة** وبقيت فيها حتّى عام ١٩٥٦ حيث عدتُ إلى حلب لمتابعة دراستي. وكانت هذه السنوات من أجمل سنوات حياتي حيث عرفتُ الأب **إدلبي** معرفة وثيقة وأفدت من علمه وتربيته وتوجيهاته فوائد جمّة.

وبدأ الأب **إدلبي** يعمل في لبنان على خدمة وتعليم الطُلاّب وعلى تنشيط الحركة المسكونية. واهتمّ بالأمور الطقسية فأصدر بالفرنسية كتاب "الليتورجيكون" أي القدّاس، الذي جاء روعة في الإتقان والتنظيم وتُرجم إلى الألمانية. وأتبعه بالعربية بكتاب "الصلاة".

وانتُدب الأب **ناوفيطوس** ليكون زائراً كنسياً للراهبات الباسيليات الحلبيات. فرافق أُولى خطواتهنّ في الانفتاح على الرسالة وبقي يهتمّ بإرشادهنّ وحياتهنّ حتّى مماته.

كما انتُدب أمين السرّ للسينودُس المقدَّس منذ عام ١٩٥٣. وأصبح عضواً في اللجان المسكونية والطقسية. وعمل على تدقيق وطباعة عدّة كتب طقسية ظهرت مجدّدة بهمّته مثل كتاب القدّاس والسواعية والأفخولوجي وأسبوع الآلام.

ومنذ عام ١٩٦٠ أصبح السكرتير الخاصّ لصاحب الغبطة البطريرك **مكسيموس الرابع** وتفرّغ لتهيئة المجمع المسكوني (المجمع الفاتيكاني الثاني ١٩٦٢-١٩٦٥). ورافق البطريرك **صايغ** في مختلف رحلاته وهيّأ له خطاباته ومحاضراته ومثّله عدّة مرّات في روما في اللجان التحضيرية. وكان عضواً في لجنة الكنائس الشرقية.

وفي ٢٥ شباط ١٩٦٢ رقّى غبطة البطريرك **صايغ** أمين سرّه الأرشمندريت **ناوفيطوس إدلبي** إلى درجة الأسقفية في كاتدرائية مار **إلياس** في بيروت. وجعله معاوناً له. وخوّله أن يكون عضواً كامل العضوية في المجمع المذكور. وكان لولب الحركة والاتّصالات بين أساقفة الروم الكاثوليك والأساقفة واللاهوتيين الغربيين. وله مواقف رائدة أكسبته شهرة دولية. وعلى أثر استقالة المطران **توتونجي** انتخب السينودُس المقدَّس المطران **إدلبي** راعياً لأبرشية حلب في ٦ آذار ١٩٦٨. فدخل حلب في احتفال كبير

مهيب يوم الأحد ٣١ آذار ١٩٦٨.

وأذكر هنا الخطاب التاريخي الذي ألقاه يومها إذ قال:

"منذ ستّة وثلاثين عاماً غادرت حلب لكي أتبع صوت الربّ واليوم أعود إليها ألبّي أيضاً صوت الربّ يدعوني لتحمّل مسؤولية هذه الأبرشية العزيزة. أنا واحد منكم، أنا من الشعب وإليه. وُلدت في هذا البلد الطيّب العزيز ابن عامل كادح. عرفت الفقر والتعب والشدّة، وإنّي فخور بذلك. أنا من هذا البلد الكريم، أنا من هذا الوطن العربي السوري أحبّ وطني، أحبّه ليس فقط في السرّاء بل في الضرّاء. لأنّي مخلص للحبّ.. أحبّ الجميع. قلبي مفتوح للجميع، بيتي مفتوح للجميع، أهلاً وسهلاً بالجميع. لن أميّز بين طائفة وطائفة، لن أميّز بين مسلم ومسيحي، كلّنا أبناء الله، أبناء هذا الوطن".

وعمل المطران إدلبي في خدمة أبرشية حلب طوال سبع وعشرين سنة حتّى مماته بكلّ إخلاص ومحبّة. وقد قام فيها بأعمال خالدة تشهد له وتخلّد ذكراه.

وعندما احتفلت حلب في ٢٢ شباط ١٩٨٧ بيوبيله الفضّي الأسقفي ألقيتُ قصيدة بهذه المناسبة بعنوان رمز الوفاء أقتطف منها [1]:

اقرأْ عيوني، فالعيونُ تعبّرُ ... في عيدك الفضّي عمّا أضمرُ
أنا طائرٌ في روض حبِّكَ هائمٌ ... وعلى فمي غصنُ المحبّة أخضرُ
أنا زهرةٌ من غيث عطفك ترتوي ... خُذْ من فؤادي الودَّ فهو معطّرُ
أنا بسمةٌ في ثغر كلِّ مهنّئٍ ... يا قلبُ هنّئْ مَن تحبّ وتؤثرُ
أنا شاعرٌ ما زال يرنو للعلى ... طَوراً يسيرُ، وتارةً يتعثّرُ
سأظلُّ في سعي المجدّ وعُدّتي ... قلمٌ يصولُ، وهمّةٌ لا تفترُ

هاتِ الزهورَ فللزهور رموزها ... هي تُحسنُ التعبير عمّا نسفرُ
صافحْ يداً كالنبع فاض عطاؤها ... أعطى الكثير، وقال إنّي مقصرُ
كم بلسمَ الجرح الأليم بعطفه ... ولَكَم تدفّق من يديه الكوثرُ

---

[1] الضاد، العدد ٢/١٩٨٧، ص٥٨.

مــا نــام عــن حــقّ الرعيــة طرفــه راعٍ علـــى خــير الرعيـــة يـــسهرُ
مَــن يُــشبه الطـــائيَّ في إحـــسانه يَخلــدْ، وتطــوى في مــداها الأعــصرُ
دُمْ كـــلَّ عيــــدٍ للرعيــــةِ هانئـــاً الــشعرُ يـــشدو والمــروءةُ تفخــرُ

كما ألقى – رحمه الله – في حفل يوبيله كلمة وطنية جامعة أقتطف منها:

"ومن رسالتي أيضاً حبُّ هذا البلد. نشأت في هذا البلـد، ورضـعت حـبّ البلـد مـع الحليب. أحبُّ بلدي. بلدي هو أُمّي. قد لا تكون أُمّي أجمل النساء، ولا أذكى النساء، لكنّها أُمّي. الأُمّ لا تناقَش. وكذلك البلد لا يناقَش. الوطن يستحقّ التضحية، وبقدْر ما نحبّ هـذا الوطن ونضحّي من أجله، يبدو في نظرنا كبيراً، عظيماً وجديراً بالحـبّ والتـضحية. نحـن نبني الوطن. نحن ملتزمون فقط بحبّ الوطن. لـذلك اسمحـوا لـي بـأن أحيّـي بـاحترام وإجلال ذاك الذي يمثّل في نظرنا أجمل مـا نحـبّ بعـد الله في حياتنـا، أي وطننـا، سـيادة الرئيس **حافظ الأسد**، رمز هذه الأُمّة".

"إنّ وطننا يجتاز أيّاماً صعبة ونحن نعلم ذلك، ولكنْ بقـدْر مـا تكـون الـصعوبات كبيرة يكون حبّنا كبيراً أيضاً للوطن".

ولم يتوقّف الراعي الغيور عـن عملـه في إدارة شـؤون رعيتـه، بـل تـابع التـأليف فأصدر كتابين رعويين: "صوت الراعي" و"منكَ وإليك" وسلـسلة مقـالات عـن تـاريخ حلب وعن أساقفة حلب الملكيين في العصر الحديث وعن الأيقونات الحلبية. كما أصدر مع الأب **سمير خليل اليسوعي** سلسلة التراث العربـي المـسيحي وأشـرف علـى تـصحيحها وطبعها، فظهر منها حتّى الآن ١٣ مجلّـداً، وقـد ألّـفَ هـو نفـسه – رحمـه الله – ثلاثـة مجلّدات تحمل الأرقام ٧ و٨ و٩ وتدور حول الـشاعر المـسيحي **سـليمان الغـزّي**. وقـد انتشرت هذه الموسوعة في حلب والمهجر وبلغت درجة علمية عالية وشهرة عالمية.

وفي مناسبة احتفال طائفة الروم الكاثوليك بحلب في ٢ شباط ١٩٩٣ بمرور خمـس وعشرين سنة على تعيين المطران **إدلبي** مطراناً على أبرشية حلب ألقيتُ قـصيدة بعنـوان "رَجل الفضائل"، جاء فيها [٢]:

---

[٢] الضاد، العدد ٥/١٩٩٣، ص٥٦.

دُمْ عزيزاً ومجمعُ العزِّ حافلْ — أنتَ والله من جدود أماثلْ
القوافي على لساني غناءٌ — فاشدُ يا شعر واصدحي يا عنادلْ
ليسَ يهوى سوى الكمالِ وهذا — فعله رائع المحاسنِ كاملْ
نصف قرنٍ مع الفقير تعاني — ما يعاني من الزمان المخاتلْ
نصف قرنٍ مضى وأنت تناضل — في سبيل التقى ونشر الفضائلْ
أيّها الحَبرُ يا نجيُّ القوافي — أنت رمزُ الهدى وزينُ الأوائلْ
أنت أحنى من الحنان، وأبهى — من ندى الفجر في زهور الخمائلْ

وفي صباح يوم السبت ١٠ حزيران ١٩٩٥ أسلم المطران إدلبي وديعته بأمان واطمئنان. وسُجّي جثمانه مدّة ثلاثة أيّام في الكنيسة. ثمّ شُيّع جثمانه الطاهر في كاتدرائية الروم الكاثوليك برئاسة صاحب الغبطة البطريرك مكسيموس الخامس حكيم وعدد كبير من أساقفة الروم الملكيين وأساقفة حلب ورجال الإكليروس الموقّر والراهبات الفاضلات ورجال السلك الدبلوماسي وجمع غفير من رجالات العلم والفضل والأدب. وقد رثاه البطريرك حكيم والسفير البابوي بدمشق والشاعر أنطوان شعراوي وعدّدوا مناقبه الحسنة وخدماته الجلّى وما قدّمه للكنيسة والوطن.

(الضاد، العدد ٦/ ١٩٩٥، ص٣-٨)



حياة الأسقف المناضل إيلاريون كبّوجي
صفحات مشرقة

كانت الضاد في طليعة المجلّات التي أشادت ببطولة الأسقف العربي المناضل المطران **إيلاريون كبّوجي**[1]. فما كاد يُلقى القبض عليه في ١٨ آب ١٩٧٤، حتّى نوّهت هذه المجلّةُ بفضلـه، وقدّرت بطولتـه، وخشعت لجرأتـه وشجاعته وصلابة عزمه، وقوّة إيمانه بـالله

(١) إيلاريون: كلمة يونانية معناها الفرِح أو المبتهِج.

وبالعروبـة، وبحقٍّ أبنـاء فلسطين باستعادة ما اغتُـصِبَ مـن أرزاقهـم، ومـا سُـلب مـن أراضيهم.

ورافقت الضاد المطران الأبيَّ الباسل في جميع مراحل كفاحه. فتتبّعت أنباءَه في تلـك المحكمة اللاشرعية، وأُعجبت بردّه المفحم وبصرخته المدوّية في وجوه قـضاته المجـرمين. لقد صاح بهم: لا حقَّ لكم في محاكمتي، لأنّكم غزاة آثمون، ولأنّ هذه المحكمة أُقيمت علـى أرض عربية، وللقضاة العرب وحدهم، أن يجلسوا علـى هـذه المنـصة، الـتي دنّـستموها بغطرستكم وأحقادكم ومظالمكم.

ولمّا سار إلى سجنه، وأُغلقتْ عليه أبوابُ زنزانته الضيّقة المظلمة، كنّـا معـه بقلوبنـا وخواطرنا، وكان الله عزَّ وجلَّ، يمدّه بالصبر، وينفخ فيه روح الثبات الـذي لا يتضعـضع ولا يُقهر.

وصبر المطران **كبّوجي** على جور الجائرين، ووقف كالطود أمام الـصهاينة البغـاة، فما لانت له قناة، ولا ظهر فيه ضعف نفـسي، بـالرغم مـن إضـرابه مـراراً عـن تنـاول الطعام. وفي كلّ أسبوعين، كـان يُـسمح لـه أن يستنـشق الــهواء في باحـة سـجنه، وأن يستقبل أربعةً من أصدقائه ومحبّيه، لم يكن يرى سواهم طوال مدّة أسره.

وأمام الضغط المتزايد، والنقمة الدولية الكاسحة، اضطرّ الصهاينة إلى إطلاق سـراح أسقفنا المجاهد في سبيل الله والعروبة وفلسطين.

وخرج **الكبّوجي** من غياهب السجن، بعد أن بقي فيه، ثلاث سنوات وثلاثـة أشـهر، ضرب في خلالـها أروعَ أمثلة التضحية والفداء، وعلّم الناسَ كيف يفوز الـشهم وينتـصر الأبطال في معترك الواجب والنضال.

وتوجّـه الأسقـف المنتـصر إلى فنـزويلاً والأرجنـتين، حيـث اسـتُقبل استقبـالَ الفاتحين. ولا بـدعَ، فإخواننـا العرب المغتربـون يقدّرون الأحـرار الشرفاء العامـلين مـن أجل وحـدة أُمّتهم، وصون كرامـتها، والدفـاع عـن حقـوق أبنائهـا بمنتهـى الـصدق والتصميم والإخلاص.

وبدعوة من سيادة الرئيس **حافظ الأسد** والسيّد **ياسر عرفات**، جاء البطلُ **إيلاريون كبّوجي** إلى سورية مع إطلالة فجر يوم السبت ٢٠ كانون الثاني ١٩٧٩. وفـور وصـوله

إلى مطار دمشق، قبّل الأرض، أرضَ سورية العربية المناضلة، وحيًّا الجماهير الغفيرة المحتشدة للقائه وللترحيب بمقدمه الميمون.

وحلّ سيادته ضيفاً عزيزاً على حكومتنا الرشيدة، وشارك في أعمال المجلس الوطني الفلسطيني بصفته عضواً فيه. ثمّ قام بسلسلة من الزيارات الرسمية المهمّة فقابل سيادةَ رئيسنا **حافظ الأسد** وعانقه بشوق ولهفة، وعبّر له عن جزيل شكره لهذه اللفتة الكريمة السمحة التي خصّه بها.

وكان لأسقفنا الحبيب، لقاءٌ ودّي حارّ مع مجلس الشعب السوري، ومع سيادة رئيس مجلس الوزراء والسادة الوزراء ورجالات حزبنا القائد. وقد أعرب المطران العائد، عن فرحته بهذه اللقاءات الأخوية، وبهذه الزيارة الغالية لموطن الآباء والأجداد، وأكّد أنّ سورية ستبقى قلعةَ المواجهة والتحدّي والصمود في وجه المحاولات والمؤامرات الرامية إلى تمزيق الصفّ العربي.

وبعد أن أمضى سيادته عشرين يوماً في العاصمة السورية، توجّه منها إلى الشهباء مسقط رأسه، وملعب فتوّته، ومسرح صباه. وفي يوم الجمعة ٩ شباط ١٩٧٩، وعلى مشارف المدينة، استقبلته أفواج من محبّيه والمعجبين ببطولته وسموّ إبائه وروعة خلقه وفضله، وقدّمت لسيادته باقات الزهور، وعلت الهتافات ترحيباً به، وشكراً لمَن دعاه لزيارة وطنه.

وأُقيم له استقبال حافل في قاعة الاستقبال بمطرانية الروم الكاثوليك يوم الأحد ١١ شباط ١٩٧٩، احتشدت فيه الجماهير. وقد ألقيتُ في هذه المناسبة كلمة عنونتها "تحية وعهد لمطران القُدْس إيلاريون كبّوجي" قلتُ فيها:

الشهباء هذه المدينة الطيّبة، وهذه الأرض الخصبة المعطاء، الحافلة بكروم الفستق، والمعتزّة بقلعتها الشامخة الجبّارة، وبأبنائها المتحلّين بالكرم والشمم وسموّ الأخلاق، حلب التي أنجبت للعروبة **عبد الرحمن الكواكبي وإبراهيم هنانو**، كما أنجبت للعلم والفضيلة المطران **جرمانُس فرحات** والمطران **إيسيدورُس فتّال** ورهطاً آخَر من العلماء والأعلام، تستقبل اليوم بمجالي الحفاوة البالغة البطل المناضل المطران **إيلاريون كبّوجي** الذي دافع عن قضايانا العادلة.

عرفتهُ وأنا على مقاعد الدراسة ينبوعاً فيّاضاً بالمروءات والمكرمات، ورأيته يعمل بصمت واندفاع على زرع بذور الإيمان في القلوب والخواطر، وكان فوق ذلك مثالاً حيّاً في الوطنية والتواضع ونكران الذات. فقد آثر منذ حداثته أن يحذو حذو الفادي المجيد، وأن ينشر تعاليمه الرامية إلى البذل والمحبّة والتسامح والوئام.

وكانت العروبة إنجيله الثاني، ذاد عنها بكلّ ما فيه من قوّة واندفاع وإخلاص. وناضل عن الحقّ الفلسطيني نضالاً قاده إلى السجن، فكان أمام حاكميه طوداً شامخاً بالعزّة والكرامة. وكان في سجنه أسداً هصوراً عفّر جباه جلاّديه بغبار الازدراء والاحتقار. وبالرغم من التضييق عليه، وحبس النُور والهواء عنه، فقد كان شمساً ساطعة الأنوار في الآفاق العربية كلّها. وفي كلّ بلد فيه أناس يعرفون أبسط المعاني الإنسانية، ويقدّرون الأبطال الميامين المدافعين عن قضايا أُمّتهم ووطنهم.

كنتَ في سجنكَ أيّها الأسقف المناضل الكبير، تُعلّمنا الصبر على الشدائد، والوقوف بعزيمة صلبة أمام الأعداء الغاصبين. كنتَ نبراسنا المشعَ بالوطنية والفداء. لم تغبْ عنّا طلعتك النيّرة، ولم تمّحِ من أسماعنا تلك الدروس القاسية التي لقّنتها للطغاة الظالمين. لقد عشنا معك في سجنك وفي زنزانتك وفي منفاك، عشنا معك في الوطنية الراسخة والعروبة الصادقة، عشنا معك في رسائلك التي كنتَ ترسلها إلى أُمّك الحنون.

فأهلاً وسهلاً بك في حلب الشهباء، وأهلاً بك بين أهلك ومحبّيك وأبناء بلدك. أما تراهم اليوم يزحفون للترحيب بك ومشاهدة طلعتك البهية، واسمح لي أن أقول لك:

فإنْ ترى الشعب نشواناً ومبتهجاً … فالخمرُ خمرُكَ لا بنت العناقيدِ
سبحان مَن جمعَ الوزناتِ في رَجلٍ … راعٍ جليلٍ سموح الروح غرّيدِ
واقبلْ تحيةَ مَن يهديك أطيبها … فطيبها في أغاريد ابن داوُدِ

إنّنا نعاهدك أيّها البطل والمعلّم والراعي الصالح، أن نسير وراءك في طريق الحقّ والواجب. ونحن إذ نحيّيك اليوم، نحيّي فيك الإباءة والعزّة والروح العربية السامية، التي جعلتك بحقّ بطلاً قومياً نعتزّ به.

(الضاد، العدد ٣/١٩٧٩، ص٣٠-٣١)



ناجي جواد

عرفتُ الأستاذ ناجي جواد في بداية الستّينيات يوم زار والدي بغداد والتقى أدباءها وشعراءها ومفكّريها، وحدّثني عنهم وكان في طليعتهم الأديب الأستاذ ناجي جواد.

ثمّ شاءت الأقدار أن ألتـقيه في حلب ولبنان.

وفي لبنان قضيت معه أجمل الأوقات وقمنا بزيارة أدباء وشعراء لبنان أذكر مـنهم: الشاعر القروي رشيد سليم الخوري والشاعر شكر الله الجرّ.

كما زرنا زحلة والبيت المعلوفي والتقينا فيها الشاعر **رياض المعلوف** نجل **عيسى إسكندر المعلوف** وشقيقيه الشاعرين الكبيرين **فوزي وشفيق المعلوف**.

كما زرنا الفريكة بلدة الأديب والمؤرّخ **أمين الريحاني** واجتمعنا في منزله بشقيقه **ألبرت الريحاني** ونجليه **أمين ومي**.

والأستاذ **ناجي جواد** أديب بالفطرة، عرف في طفولته الضيق والحرمان، فاتّكل بعد الله على نفسه، وعرف أنّ الثقافة والنزاهة طريقان للنجاح. فتعلّم ونال شهادة الحقوق.

ولكنّه أحبّ الأدب والتجارة. وهما نقيضان لا يجتمعان، ولكنّهما اجتمعا في **ناجي جواد**، فكان تاجر ساعات ناجحاً [1]، وكاتباً مجيداً تلمس في كتاباته روحاً إنسانية سامية، ونزعة عربية صافية، ودفاعاً رائعاً عن الحقّ والعدالة والمنطق السليم.

وثمّة ناحية مهمّة في حياة الأستاذ الصديق، وهي ولعه الشديد بالأسفار. فقد زار كثيراً من البلاد العربية والأجنبية، وكتب عن بعضها بدقّة ووضوح وانسجام.

وها هو الأستاذ **ناجي** يجتاز البحار والمحيطات ليصل إلى جزر نيوزيلاند، ويزورها زيارة محقّق، مكحّلاً ناظريه بجمال طبيعتها وروعة جبالها وسهولها.. مسجّلاً انطباعاته، ومدوّناً مشاهداته، وواصفاً في أبدع وصف كلّ ما وقعت عليه عيناه من حجر وبشر ونبات في أثناء تنقّله بمدنها.

وشاء أديبنا الرحّالة، أن يشرك أصدقاءه وعشّاق أدبه في رحلته هذه. وأن يعرض عليهم صوراً فكرية ترتاح إليها قلوبهم، وتنشرح بها صدورهم، فوضع بين أيديهم كتابه (رحلتي إلى جزر نيوزيلاند) بأسلوب سهل ممتنع موشّى بالبيان الوضّاء، ومحلّى بصدق المؤرّخ النزيه، ومدعّم ببراهين وثائقية وبصور جميلة تدلّ على عادات أهل الجزيرة وآدابهم وفنونهم وصناعاتهم.

ولقد كانت مشيئة الأخ العزيز **ناجي جواد** أيضاً أن تقوم دار الضاد بطباعة كتاب

---

[1] قرأتُ مؤخّراً لقاءً أُجري مع الدكتور سعد أستاذ العلوم السياسية في جامعة بغداد، النجل الأوسط لناجي جواد (الساعاتي) يورد فيه أنّ والده كان مستورد الساعات (ماركة أولما) الأوّل في العراق من بين التجّار العراقيين المسلمين. وأنّ جدّه كان أوّل مَن أصلح الساعات من المسلمين في العراق.

(رحلتي إلى جزر نيوزيلاند) وتوزيعه على قرّاء مجلّتها ونصرائها في الوطن والمهجر، على نحو ما قامت به في العام ١٩٨٢ حين أصدرت للمؤلّف كتاب (رحلتي إلى الجزائر).

لقد أضاف ناجي جواد إلى المكتبة العربية أثراً أدبياً تاريخياً نفيساً في أدب الرحلات نفاخر به [٢].

(الضاد، العدد الخاصّ المزدوج ٧ و٨/ ٢٠٠٠، ص٧–٨)

[٢] غيّب الموت ناجي جواد يوم ١٨/٥/٢٠٠٩ في لندن. وكان لنعيه الأثر البالغ في نفوس الأهل والأصدقاء وقرّاء الضاد – رحمه الله (الضاد، العدد ٧/٢٠٠٩، ص٦٤).

ولقد أُثلج صدرنا حين قرأنا عن مسابقة في أدب الرحلات باسم "ناجي جواد الساعاتي" أُعلنت في بغداد. وخُصّصت لها جوائز سنوية تحت إشراف لجنة حفظ تراث الكاتب العراقي الراحل ناجي جواد الساعاتي، بالتنسيق مع الاتّحاد العامّ للأدباء والكتّاب في العراق. على أن تُعلن النتائج في ١٨ أيّار ٢٠١٠ يوم ذكرى رحيل جواد.



عبد اللطيف سعود البابطين
وإخوته الكرام

عبد اللطيف سعود البابطين من دوحة غنّاء عرفنا منها **عبد اللطيف** و**عبد العزيز** و**عبد الوهاب** و**عبد الكريم**. وكلّهم، والحمد لله، يتمتّعون بأرفع المزايا وأنزه الصفات، ولهذا غدوا منارات مضيئة في سماء الأدب والتراث والوطنية الحقّة.

عبد اللطيف سعود البابطين، هو **عبد اللطيف** الأديب، **عبد اللطيف** المحسن، **عبد اللطيف** الوفي.. حياة موفورة ملء هذا الوجود بحميد الخلال، ورفيع الخصال،

وجليل الأعمــال.

شبَّ مع إخوته في بيت شرف وكرامة، فعاش شريفاً كريماً. وســار في الحيــاة علــى نهج من قلبه الكبير، وعلى دليل من طبعه السمح. وقـد عركتــه الأيّــام فبقــي كمـا يبقــى الجوهر الحرّ، لا تترك فيه النار من أثر إلاّ البرهان القــاطع، والـدليل الـساطع، علــى أنّــه جوهر حرٌّ لا مظهر.

وجهه يطفح نُوراً، وأساريره تفيض بالبِشر، وعيناه يلمع فيهما بريق الذكاء. شــيب وقور، وحمرة تخضّب وجهه، فتزيده نضرة علــى نـضرة، وهالــة مـن الـشَعر الأبــيض تحيط هذا الوجه كإطار محكم الترسيم، كلُّ هذا يجتذبك لتقرأ وراء هذه الملامــح ســطوراً من سطور المجد، وصحائف من صحائف الجدّ.

له منطق عربي ينفث الـسحر الحــلال، ويجــود بالــدرر الغــوالي، وينثــر الجــواهر واللآلـئ، ذلك عفو خطابه، وبسيط حديثه. بحر زاخر تلتطم أمواجه أبداً وتصطفق أواذيُّــه بحديث اللغة والأدب والاجتمــاع والـدين، فتـضيع في آفاقهــا، وتـستجمع قــواك لتتبــيّن السبيل، فإذا أنت أمام شيخ يفيض عليك بحديثه، كما يفيض الينبوع صافياً عذباً، أو كمـا يغمر النُور مشعّاً خصباً. فاشربْ إذا كان مَن يعبُّ مــن الـشلاّل يـستطيع إلى الـشبع أو الاكتفاء من سبيل!

هذه عواطف نفسه ولسانه في مرحه وترحه. شهدته كذلك حين حـدّثني عـن اللغـة والآداب والمستشرقين وتراثنا العربي الخالد. والتقيتــه عـدّة مـرّات، فلمـست مـن طيـب معدنه، وروعة خلقه، وصدق وفائه، وسعة علمه واطّلاعه على أخبــار العــرب وطــرائفهم ونوادرهم. واستمعت إليه يوم تحدّث في تدشين حلمه الــذي حقّقــه بــسعي دؤوب وإرادة خارقة وعمل متواصل فكان "**مركز سعود البابطين الخيري للتراث والثقافة**".

ففي حفل الافتتــاح ألقى كلمة طيّبة تحدّث فيها عن فكرة إنشاء هــذا المركــز، وعمّـا عانــاه في سبيل تحقيقــه حتّى جــاء كمــا أراد ليفيـد منــه البــاحثون والمحقّقــون وطــالبو العلم والآداب.

لقد كان في نشأته الأُولى، كما هو اليوم، شغوفاً بالعمل والعلم والثقافة، جــاعلاً مــن وقته حقّاً معلوماً للبحث والدرس والاستقراء. وقد بدت منه ميول واعدة بالخير، مبــشّرة

بالمستقبل، ميول علمية أدبية تبحث عن التراث وتتطلّع إلى المفيد، فالتمس الجوهر في البحث والعمل لكلّ ما فيه خير الناس، ولو كان أكثر الناس لا يعلمون.

طاف البلاد العربية والأجنبية جميعها، وتنقّل من مدينة إلى مدينة، ليبحث عن تراثنا العربي وعن مخطوطاتنا المنتشرة هنا وهناك، وعن روائع الكتب المطبوعة على الحجر، حتّى اقتنى منها ما استطاع، فكانت نواة مكتبته الكُبرى. وتابع البحث والتحصيل حتّى تجمّع لديه ما تجمّع. فأخذ يفكّر في بناء مكان يليق بحفظ هذه النفائس الخرائد والأعلاق. فكان أن فكّر في بناء مركز يحتوي جميع ما لديه من كتب ثمينة ومن مخطوطات نادرة يضعه في خدمة الدارسين والباحثين، فكان هذا المركز الرائد "**مركز سعود البابطين الخيري للتراث والثقافة**".

لم تجتمع في رَجل معاني المروءة والإباء، والحرص على الكرامة كما اجتمعت في شيخنا **عبد اللطيف سعود البابطين**. وإنّ خلقه لم يتحوّل يوماً منذ أن حقّق أمنيته في الحفاظ على التراث العربي والإسلامي العريق.

فهو في خلقه كما كان – وكما سوف يكون – وفيّ للحق، قوّام عليه، لا يغريه الترف، ولا جاه المنصب. حفظه خلقه القويم حتّى في ما أنعم الله عليه من مال وثراء. ماضيه مَثَل عالٍ للرَّجل النزيه الأمين الذي يرقى إلى أسمى المراتب من طريق السمعة الطيّبة والعمل الجادّ الشريف. لم يتسابق إلى ميدان الحزبية والعصبية لأنّ نفسه السامية كانت تتّجه إلى ما هو أكرم من هذا، إلى خدمة أُمّته ثقافياً وأدبياً.

وقد اعترفت له الرياض خاصّة والمملكة عامّة بأنّ شخصيته هي المثال الرفيع للعمل الحرّ النزيه.

شخصيته هادئة، جذّابة، سمت فوق الشوائب في أدقّ الظروف، تمثّل الصفات البارزة التي يتجمّل بها الديبلوماسي المرن: لين الحديث وسرعة الخاطر. حاضر البديهة يؤنس الضيف بأرقّ الأساليب، ويتمتّع إلى جانب مكانته المحترمة في الوسط الاجتماعي بحظّ موفور من النشاط الديمقراطي. ولعلّ هذا الجانب الحيوي في شخصيته من أهمّ الأسباب التي أذاعت له صيتاً محموداً في الأوساط الأدبية والثقافية الراقية، ومنزلة جليلة

في نفوس رجال الفكر والثقافة والأدب والسياسة والمال. فهو أسرع الناس إلى الخير، وأكثرهم تلبية لدعاته. وذلك في رقّة وظرف لا يشعر الإنسان معهما بأنّه يهدف إلى أن يبرز برّه..

ولعلّ أسطع ما تجلّى في سيرته من ظواهر اللطف والمحبّة، ميله إلى البَساطة المتناهية. يستقبل الناس أفراداً وجماعات لا يفرّق فيهم بين كبير وصغير، وغني وفقير، ولا يؤثر منهم ذا مقال على غير ذي شأن. يكلّم هذا ويؤنس ذاك ويلاطف سواهما، ويمدّ يده إلى اليد التي تمتدّ إليه محيّية أو مصافحة.

إنّ هذه الديمقراطية الحلوة التي طُبع عليها والتي تصدر منه أصيلة عفوية غير متكلّفة وغير مصطنعة، نوع نبيل من الديمقراطية الصادقة التي تقول في كلّ حال من أحوالها، وكلّ لون من ألوانها، وكلّ ما نرى منها بأعيننا أو نسمع منها بآذاننا: إن كانت العظَمة بالمال، فإنّ محمّداً – صلّى الله عليه وسلّم – لم يكن يوماً من رجال المال. وإن كانت بالنفوذ والجاه، فإنّ محمّداً لم يعمل يوماً لجاه أو نفوذ. وإذا كان الله قد رزقه الجاه العريض والنفوذ الواسع فإنّه لم يشعر به لأنّه لم يطلبه، ولم يستعمله قطّ لغرض يعود على شخصه أو ذويه بنفع قلّ أو كثر. لكنّ العظَمة ليست في هذا أو ذاك أو فيهما معاً، وإنّما هي صفات كبيرة في النفس، وسموّ غير مألوف في الأخلاق، لأنّها من فعل الدم والنشأة.

الشيخ **عبد اللطيف سعود البابطين**، رَجل، بأوسع معاني هذه الكلمة وأعمقها وأجلّها شأناً، وأعماله الكثيرة واضحة من الدروس البالغة التي يحتاج إليها كلّ مَن يريد من رجال وشبّان الرياض أن يتعلّم كيف يفنى في خدمة قومه وتراثه، لا يبتغي بها جزاءً، ولا شكوراً إلاّ رضى الله ورسوله والمؤمنين والناس أجمعين.

رَبّى نفسه، وعلّمها. وهو على استغنائه عن الناس يخفض جناحه للأبعدين والأقربين. ولله ما أجمل تلك النفس في تواضعها ودماثتها! وما أجمل ذلك التواضع من رَجل لا يرى لامرئ عليه يداً! وهو لولا كرم عنصره ونقاء جوهره لكان جديراً أن يُدلّ بذلك وأن يزهى، وما الإنسان؟ أوَليس يطغى أنْ رآه استغنى؟

استغنى **عبد اللطيف سعود البابطين** بجدّه عن الناس، ولكنّه أحسن معاشرتهم، فقد رأوا من خلاله ما امتلك به قلوبهم. رأوا منه لين الجانب، وعذوبة الروح، وحلاوة اللسان، وسرعة اليد يمدّها إلى البائس والملهوف في كرم وإخلاص، وهو على كثرة برّه بالمستضعَفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، لا يبتغي على معروف جزاءً. وآنسوا منه حُسْن الملاطفة، ورقّة العاطفة، وشدّة الحياء. ومن أحبّ الأشياء إلى نفسه أن يرفع أصدقاؤه بينهم وبينه الكلفة، وأن تزداد بينهم وبينه الألفة، فهو يجالسهم ويسامرهم ويتبسّط لهم في القول، ويسترسل معهم في شتّى الأحاديث. وإنّ له في هذا كلّه لمتاعاً ولذّة لن يحسّها إلاّ مَن كان له مثْل قلبه.

تفتّحت نفسه للخير كما تتفتّح الزهرة وقد أحسّت دفء الربيع ونُوره وصفاءه! فهو يصطدم كلّ صباح ومساء بالحياة المادّية الجبّارة في قوانينها وفروضها ليصرعها ويلبّي نداء نفس عظيمة تبحث عن مَثَل أعلى، عن طمأنينة روحية لا لتستقلّ بها في أثرة، وإنّما لتنشرها على المحتاجين إليها، الذين ينتظرونها متلهّفين. ويحتفظ في قرارة نفسه بعد ذلك بطبيعته الخيِّرة وروحه الصافية. وهذا الجهاد اليومي في سبيل التطهّر الروحي، والكمال الباطني هو الذي يضفي على شخصية **عبد اللطيف** حلّة من المجد تفتن المرء وتملك عليه مشاعره.

ظلّ في الناس على رجاحة عقله وعلوّ همّته، وسموّ منزلته، واتّساع ثقافته، أحد الناس، لا يطيب له العيش إلاّ إذا استشعرتْ نفسه آمال الناس وآلامهم، وأحسّ هو إحساسهم فيشاركهم في عواطفهم، ولا يضيق بأحلامهم وإن صغرت حتّى يلمس فيها السبيل إلى هديهم وشفاء أنفسهم. فيبادلهم وداً وحباً، ويُسمعهم من طريق أحاديثه ما يبهجهم ويسرّي عن نفوسهم.

وكلُّ مَن عرفه أو عاشره، أو أتيح له أن يجالسه ولو ساعة، يقرّ بهذه الحقيقة البارزة، ويجهر بأنّ **عبد اللطيف سعود البابطين**، علم من أعلام الخير، تزدهر في قلبه الكبير، صفات الحَميّة والإباء والوفاء، وتجول في نفسه الحرّة، مزايا الكرم والإيثار والإصلاح والنجدة العربية الحقّة.

وخلاصة القول، إنّ شيخنا **عبد اللطيف**، وجيه نبيل، يمتّ إلى أسرة من أعرق الأسر السعودية شرفاً وفضلاً، وهو إلى سموّ فطرته، ووفرة شرفه، وكريم محتده، كثير الوداعة، غزير اللطف، رقيق الحديث، مخلص لأُمّته ووطنه إخلاصاً عظيماً، وتلك لعمري هي العظَمة الحقّة التي تعمر قلوب بعض البشر فتسمو بهم عن بشريتهم، وهم بين الناس يعيشون كما يعيشون بنبوغ الفكر، ورجاحة العقل وسلامة الطوية والإيمان العميق.

عبد العزيز سعود البابطين

أديب وشاعر. وهو صاحب مؤسّسة "**جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري**". وقد أصدر "معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين" في ستّة أجزاء [1].

وقام بمشروعاتٍ كثيرة وكبيرة، منها:

إقامة عدّة ندوات في مدن عربية متعدّدة، منها في القاهرة عن الشاعر **محمود سامي البارودي**، وعن الأخطل الصغير الشاعر **بشارة الخوري** في بيروت، وعن الشاعر التونسي **أبي القاسم الشابّي** في المغرب، وعن الشاعر **أحمد العدواني** في الكويت، وعن الشاعر النبطي النجدي **محمّد بن حمد بن لعبون**. وآخرها في مملكة البحرين عن الشاعر **ابن المقرّب** [2].

وقد طبع دواوين وأعمال أولئك الشعراء طبعات حديثة وأنيقة. كما تمّ الاحتفال بوضع حجر الأساس في الكويت **لمكتبة البابطين المركزية للشعر العربي**. واحتفل بتكريم الشاعر الكويتي **عبد الله الفرج** والشاعر اللبناني **أمين نخلة**. كما أنّه احتضن ما يقارب ستّمئة طالب من قازاخستان من مسلمي روسيا للدراسة على نفقته في مصر في جامعة الأزهر الشريف. وكذلك بنى مدرسة في جامعة اليكار في دلهي بالهند باسم والده **سعود البابطين** وكذلك بنى كلّية (**عبد اللطيف البابطين** في أذربيجان).

---

(1) كما أصدر مؤخّراً "معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين ١٩ و٢٠"، في ٢٥ جزءاً. وثمّة إصدارات كثيرة شائقة تصلنا تباعاً. (هناك حديث خاصّ عن عبد العزيز سعود البابطين في موضع آخَر من هذا الكتاب)

(2) بعد كتابتي هذه السطور عُقدت ندوات كثيرة.. نذكر منها ندوة "شوقي ولامرتين" التي جرت في باريس عام ٢٠٠٦ برعاية كريمة من مؤسّسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين، وقد شاركتُ فيها.

عبد الوهاب سعود البابطين

هو أيضاً أديب ورَجل أعمال كبير تبرّع بمبنى (**وحدة سعود البابطين لأمراض القلب**). وهو مبنى مؤلّف من ستّ طبقات في مدينة الدمام للعلاج المجّاني. ويعتبر هذا المبنى صرحاً شامخاً، افتتح العام ٢٠٠٢ وسدّ فراغاً كبيراً في هذا المضمار.

عبد الكريم سعود البابطين

وهو الأصغر سنّاً. أديب أريب ورَجل فضل وأعمال عديدة. فقد تبرّع عام ٢٠٠٢ بمبنى (**مركز سعود البابطين وبرج سعود البابطين**) لغسيل الكلى من ستّ طبقات. ووضع حجر أساسه في مستشفى الملك **فيصل** التخصّصي.

عبد الرحمن عبد اللطيف البابطين

أمّا السيّد **عبد الرحمن** وهو نجل الشيخ **عبد اللطيف** فهو المشرف العامّ على "**مركز سعود البابطين الخيري للتراث والثقافة**". شابّ وسيم يمتلئ حبّاً وعشقاً كوالده للتراث والثقافة.

ولقد تعرّفتُ إلى رجال **البابطين** جميعاً ولمستُ فيهم نِعْمَ الرجال الأماثل والكرام الأجاويد.

أيا إخوةَ الضاد

نظمتُها وألقيتُها في افتتاح مركز سعود البابطين الخيري للتراث والثقافة
١٠ آذار ٢٠٠٢ في مدينة الرياض

شَدَدْتُ رِحالي اليومَ نحوَ أحبَّتي ... ورُحْتُ أُمنِّي النَفْسَ بالقُبُلاتِ
وما حَمَلَتْني للأحبَّةِ ناقَةٌ ... ولا جُزتُ صحراءً ولا فَلَواتِ
وما كنتُ أبغي الدارساتِ ولم أقفْ ... على طَلَلٍ أذرو به عَبَراتي
ولم أخشَ عيناً للرقيبِ، فإنّني ... مُحِبٌّ عفيفُ الروحِ والرَغَباتِ
ركبتُ جَناحاً قد علا بي إلى السَما ... فكانَتْ على خَدِّ السُهى خُطُواتي

وقد كدتُ أجني باليدينِ كواكباً ... تُغازلني بالغَمْزِ والنَظَرات

ولكنّني ما كنتُ أبغي إقامةً ... على ثَغْرِ نَجمٍ نَيِّرِ البَسَمات

فَمِنْ حَلَبَ الشهباء قد جئتُ طائراً ... أُلبّي بعشقٍ أعطرَ الدعوات

فلي في بساتينِ (الرياض) كواكبٌ ... دَعَتْني إلى فَيضٍ منَ الكلمات

بَنو البابطينَ الزُّهْرُ في كلِّ مَشْرِقٍ ... لهمْ بارقٌ في أحرُف الصَفَحات

لقد حمَلوا للحَرفِ في العُرْبِ مشعلاً ... فكانوا به للعُرْبِ نَعْمَ هُداة

فكمْ مثلَ هذا الصرحِ للحَرفِ قد بَنَوا ... فكانوا لصرحِ العقلِ ذُخْرَ بُناة

أنا في (رياض) العلْمِ عاصمةِ الأُلى ... غَدَوا لكنوزِ العلْمِ حَشْدَ حُماة

فيا حبّذا هذي الربوعُ ثقافةً ... وأهلاً وأرضاً عَذْبَةَ النَفَحات

هنا في رِمالِ النَجدِ مَهْدُ عُروبتي ... وتُربةُ نَبْضاتي وجَذْرُ نَواتي

وإنّي لأفدي بالعيونِ جزيرةً ... تَنَزَّلَ فيها الوَحْيُ غَيثَ سُقاة

على عَرَبٍ صانُوا كتابَ إلهِهِمْ ... فكانوا بحفْظِ الذكْرِ خَيرَ ثقات

وما كانتِ الفُصحى لتخْبو نارُها ... وقرآنُنا يحيا مَعَ النَبَضات

إذا شتَّتَتْنا الحادثاتُ، فإنّما ... ضَمانَتُنا الفُصحى لجَمعِ شَتات

هي العروةُ الوُثقى وما كَدمائها ... بأعراقنا تجري دماءُ حياة

هي العروةُ الوُثقى وقلعتُنا التي ... تصونُ حمانا من سهامِ عُداة

هي النَغَمُ الأصفى على ثَغرِ بُلبُلٍ ... وما مثلَها غنّى لسانُ شُداة

وحسبُ حروف "الضاد" من شَرَف بأنْ ... تُرَدَّدَ في عُجمِ اللسانِ قُصاة

ستبقى حروفُ "الضاد" ما دامَ مُسْلِمٌ ... يُرتِّلُ آيَ الذكْرِ في الصلَوات

"بـإقرأْ" أتى التنزيلُ. كلُّ قراءةٍ ... لكلِّ غريقِ الجهلِ طوقُ نَجاة

ولم ترتوِ الأخلاقُ إلاّ بقَطْرِها ... وما قَطْرُها إلاّ كؤوسُ فُرات

وما هُذِّبَتْ نفسٌ بغيرِ قراءةٍ ... ولا عَرَفَتْ روحٌ شَذا الصبَوات

هُوَ العلْمُ يُحْيي ماؤهُ كلَّ مَيِّتٍ ... ويَبعثُ بعدَ الموتِ كلَّ رُفات

أيا إخوةَ الضاد الكرامَ تحيّةً ... مُعطَّرةَ الأنفاسِ والنَفَثات

أتيتُكُمُ والحُزنُ تَرتيلُ خافقي ... وفي مُقلَتي أُنشودةُ العَبَرات

علـى إخـوة في القُـدْسِ مـاؤهُمُ الـرَدى وخبـــزُهُمُ بحــــرٌ مـــن الوَفَيـــاتِ
قَـد انتقَـضُوا فــالموتُ أعــذبُ مَنْهَـلٍ علـــى شَـــفَةِ الأطفـــالِ والفَتَيـــاتِ
هو النـصرُ آتٍ سـوفَ تُـشرقُ شـمـسُهُ غـــداً، مـــن دمِ الأبطـــالِ والـــبَطلاتِ
هــو النـــصرُ مـــن عنـد الإلــه يمـدُّنا بجُنـــد وأنـــصارٍ مـــن الـــسمَواتِ
ســـتبقى بكَـــفّ الله رايتُنـــا إذا توحَّـــدَ منَّـــا القلـــبُ بالخَفَقـــاتِ

(الضاد، العدد الخاصّ ٢/٢٠٠٣، ص٧–١٣ و٢٩)



المجمعي شحادة الخوري

لؤلؤة جديدة تنضمّ إلى عقد مجمع الخالدين. فقد انتُخب الأستاذ شحادة الخوري عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بدمشق بتاريخ ٢٠ آذار ٢٠٠٢. وصدر المرسوم الجمهوري رقم ٣١٨ تاريخ ١٦ أيلول ٢٠٠٢ بتعيينه عضواً في المجمع المذكور. وأقام له المجمع حفل استقبال كبيراً في قاعة المجمع بتاريخ ١٨ كانون الأوّل ٢٠٠٢ أُلقيت فيه - بالإضافة إلى كلمته - كلمتان، الأُولى كلمة الدكتور شاكر الفحّام رئيس المجمع، والثانية كلمة الدكتور زهير البابا عضو المجمع.

وقد نوّهت الكلمتان بأخلاق العضو الجديد الأستاذ شحادة الخوري ومعارفه، وثقافته، وخبرته، وجهاده في ميدان الثقافة العربية عامّة، واللغة العربية خاصّة.

وقد جاء هذا الانتخاب وهذا التعيين ليضعا الرَجل المناسب في المكان المناسب ويعطيا الأستاذ الخوري حقّه، وليستفيد المجمع من جهوده وعلمه وخبرته.

فهو يحمل الإجازة في الحقوق واللغة العربية، ويتقن اللغتين العربية والفرنسية، ويلمُّ باللغة الإنكليزية. وعمل مديراً ومدرّساً للغة العربية في ثانويات القطر الرسمية والخاصّة. وشارك عام ١٩٥٠ في تأسيس "رابطة الكتّاب السوريين" التي تحوّلت إلى "رابطة الكتّاب العرب"، ثمّ صار عضواً في "اتّحاد الكتّاب العرب" منذ تأسيسه عام ١٩٦٩ حتّى اليوم.

وفي عام ١٩٦٠ انتقل إلى وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل، فعمل رئيساً لدائرة التسجيل التعاوني، ثمّ مديراً معاوناً للتعاون، ثمّ مديراً للعلاقات الدولية، ثمّ مديراً للتخطيط، ثمّ مديراً لإنعاش الريف.

وفي عام ١٩٦٩ انتقل إلى وزارة التعليم العالي مديراً للتأليف والترجمة والنشر. وكان له دَور بارز في إنجاح مشروع الوزارة الرامي إلى ترجمة أُمّهات الكتب من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية لتكون برهاناً على قدرة اللغة العربية على التعبير عن علوم العصر الحديث.

وقد شارك في هذه الفترة في لجان عديدة، وأسهم في النشاطات الثقافية المختلفة التي قامت بها وزارة التعليم العالي والمجلس الأعلى للعلوم والمجلس الأعلى لرعاية العلوم والآداب والعلوم الاجتماعية.

وفي عام ١٩٨١ اختير خبيراً لوحدة الترجمة بإدارة الثقافة في المنظّمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس. فصرف اهتماماته إلى شؤون الترجمة وقضاياها المختلفة، فوضع "الخطّة القومية للترجمة"، وأعدّ كتاب "دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي"، وأسهم في مراجعة وإعداد "المعجم العربي الأساسي"، ووضع دراسة جدوى لمشروعين قوميين أوّلهما: "المعهد العربي العالي لإعداد المترجمين" وثانيهما: "المركز

العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر". وشارك بمناقشة وصياغة "الخطّة القومية للتعريب" و"الخطّة القومية المحدثة للترجمة". وانتُخب في المؤتمر الأوّل للترجمة الذي عُقد في بيروت في بداية عام ٢٠٠٢ رئيساً لاتّحاد المترجمين العرب.

ومن كتبه المطبوعة:

"الأدب في الميدان"، "القُدْس في مواجهة الخطر"، "قصّة الأيّام والشهور والأرقام وتسمياتها"، "الترجمة قديماً وحديثاً"، "دراسات في الترجمة والحديث والمصطلح".

(الضاد، العدد ٢٠٠٣/١، ص٥٩-٦٠)



زكية حمدان

أعطـــني النـــايَ وغـــنِّ فالغنـــا ســـرُّ الخلـــودْ
وأنـــينُ النـــايِ يبقـــى بعـــدَ أنْ يفنـــى الوجـــودْ
أعطـــني النـــايَ وغـــنِّ وانـــســـَ داءً ودواءْ
إنّمـــا النـــاسُ ســـطورٌ كُتبـــتْ لكـــنْ بمـــاءْ

كم هو رائع أديبنا الكبير **جبران خليل جبران** بقوله هذه الأبيات في "مواكبه"! فهل هناك أبقى من الغناء في هذا الوجود وفي حياة الإنسان؟

لكلّ اسم تاريخ، ولكلّ أغنية ذكرى، وما أبهى وأجمل تاريخ حلب الشهباء في الغناء والطرب، وما أحلى الذكريات فيها يوم أصبحت هذه المدينة قبلة الفنّانين في الشرق، ومحطّ أنظار كبار المطربين والملحّنين العرب.

وزكية **حمدان**، هذه المطربة ذات الصوت الرخيم والحنجرة القوية، وهبت حياتها للفنّ والطرب، وانطلقت من حلب إلى بيروت بعد طلاقها من زوجها **عدنان بن حمدي الجلاّد** مدير الشرطة في سورية آنذاك.

وكانت **زكية** قد أمضت طفولتها وفتوّتها في بيروت، يوم كانت تلميذة في مدرسة العازارية وعمرها ١٤ سنة. وكانت المطربة **لور دكّاش** تأتي كلّ يوم لتصحبها إلى المدرسة لأنّها كانت تكبرها سنّاً. وكانت **زكية** مولعة بالفنّ منذ صغرها لأنّها عاشت في أجواء فنّية. فوالدها **حسن حمدان** كان صاحب فرقة تمثيل انضمّت إليها **نُور الهدى (ألِكسندرا بدران)** فتعرّفت **بزكية** التي كانت تصغرها بتسع سنوات. وزكية لا تنسى يوم التقت في مصر **نُور الهدى وصباح** عام ١٩٤١، ومشينَ معاً على الرصيف، فتجمّع الناس حولهنّ وأشاروا إليهنّ بالبنان وهم يقولون: هذه **صباح**، وهذه **زكية**، وهذه **نُور الهدى**!

ولزكية حكاية تعارف قديمة **بصباح**، يوم أتت إليها هذه الأخيرة برفقة والدتها إلى ضهور الشوير حيث كانت تغنّي **زكية**. وكان عمرُ **صباح** ١٧ سنة، فغنَّت لها ونصحتها **زكية** بالسفر إلى مصر. وأجابتها الشحرورة بأنّ المصريين لن يستسيغوا لهجتها اللبنانية، وخالفتها **زكية** في الرأي. وبالفعل كان **لصباح** انطلاقة كبيرة في مصر بعد ذلك.

ولزكية تاريخ عريق في دنيا الطرب، وباع طويل في عالم الفنّ، بدأته يوم كانت في الخامسة عشرة من عمرها عام ١٩٣٨، فغنّت الليالي والموشّحات والقصائد والطقاطيق.

وكانت حلب محكّاً لنجاح أيّ مطرب أو إخفاقه. وكان على كلّ مطرب أن يبدأ الغناء بالليالي أوّلاً، ثمّ ينتقل إلى الموشّحات، فالقصائد فالطقاطيق. ومن الأشياء التي كانت

تغنّيها زكية هذا الموشّح:

يـــا نحيــف القـــوامْ   التجـــافي حـــــرامْ

امـــــلا كــــاس المـــدامْ
واســــــقني بإيــــــدك
آه يـــا ليـــل يـــا لا للـــي

وهذا الموشّح من مقام سيكاه. ومن ثمّ يأتي دَور القصائد، فتغنّي من كلمات أمير الشعراء أحمد شوقي وألحان وغناء الأستاذ محمّد عبد الوهاب قصيدة:

يـــا ناعمــــاً رقـــدت جفونُــــهْ   مـــضناكَ لا تهـــداً شـــــجونُهْ
حمــــلَ الـــــهوى لـــكَ كلَّـــهُ   إن لم تُعنْــــهُ فمَـــــنْ يُعينُـــــهْ

ومــن ثــمّ كانــت تغنّــي "ليــه تلــوّعني" أو "إنــت فــاكرني ولاّ ناســيني" أو "افرحْ يا قلبي" لكوكب الشرق أُمّ كلثوم.

وبعد النجاح الذي حقّقته زكية في حلب مـن خـلال الحفـلات العديـدة الـتي كانـت تحييها في "اللونابارك" و"الشهبندر" وسينما الـشرقي، وكانـت أشـهر الأمـاكن علـى صعيد البرامج الفنّية، انطلقت إلى إسطنبول حيث أحيت عـدّة حفـلات، وإلى مـصر حيـث غنّت في كازينو بديعة مصابني الذي انتقل بعد ذلك إلى الراقصة ببا عزّ الدين.

وأخيراً عادت زكية إلى بيروت حيث لمع اسمها كمطربة أُولى في سمائهـا. مـن خـلال *حفلاتها في مطعـم "منـصور" وملـهى "الباريزيانـا" ومقهـى "طـانيوس"* و"بيـسّين عاليه"... وأصبح منزل زكية حمدان مقـصداً لكبـار الشخـصيّات في ذلـك الـزمن، بـدءاً برئيس وزراء لبنان الأسبق سامي الصلح، فكانت تغنّي وتعزف على العود بمهـارة تبـزُّ فيها أشهر عوّادي الشرق.

لم تكن زكية لتحقّق النجاح الذي حقّقته لو لم تكسر القاعدة التي كان يلتزم بها كلّ المطربين في عصرها، فيغنّون الليالي أوّلاً ثمّ الموشّحات ثمّ القصائد والطقاطيق.

وقرّرت أن تغنّي أغاني منفردة خاصّة بها، مع أنّهـا كانـت صـغيرة الـسنّ نـسبياً

(١٥سنة)، وكانت البداية مع **خالد أبو النصر** عام ١٩٣٨ الذي سمعها وهي تغنّي فأعجبه صوتها، فلحّن لها "ليلى" **لنوفل إلياس** و"في ذمّة الأوطان" و"المجد لك يا فيصل" القصيدة التي كتبها الشاعر **عمر أبو ريشة** راثياً فيها الملك **فيصل**. غير أنّ الأغنية التي اشتهرت بها آنذاك هي "أهواك" **لنوفل إلياس** والتي تقول فيها:

أهـــــواكَ لا أدري لـمـــــا أهـــــواكَ وســــواكَ لا أهـــوى ولـــو برضـــاكِ
لـــو خيَّرونــي بــينَ دينـيَ والــــهوى لتركـــتُ ديـــني واتّبعـــتُ هـــواكِ

لكنّ زكية تقول إنّها ندمت بعد ذلك لترديدها البيت القائل:

لـــو خيَّرونــي بــينَ دينـيَ والــــهوى لتركـــتُ ديـــني واتّبعـــتُ هـــواكِ

فهذا البيت فيه كفرٌ، وهي ترفض أن يتخلّى العاشق عن دينه من أجل حبيبته مهما بلغت قُدْسية الحبّ. ومن هنا فهي عدّلت في الشطر القائل: "**سُليمى مَن عبدتُك قبل ربّي**" عندما غنّت "**سُليمى**" **لنوفل إلياس** عام ١٩٥٠، وغنّته على الشكل الآتي: "**سُليمى مَن عبدتُك بعد ربّي**".

وقد غنّت زكية في حياتها لكثير من الشعراء والملحّنين. وكان لها معهم قصص كثيرة على صعيد العمل. فقد "زعل" منها الشيخ **إلياس خليل زخريا** لأنّها لم تستجب لطلبه وتغنّي أغنيته "جرعة العمر" التي نظمها لها ولحّنها **خالد أبو النصر اليافي** عام ١٩٥٥، وقاطعها. فما كان منها إلاّ أن ذهبت إلى **عاصي الرحباني** الذي كان عازف كمان آنذاك، فكتب لها قصيدة وقّعها باسم الشاعر المجهول. أمّا القصيدة فهي "هنانا" من نغم نهاوند، وقد لحّنها **خالد أبو النصر** ويقول في مطلعها:

يــا هنانـــا إنْ تلاقـــت شَـــفتانا وغنانـــا يمـــلأُ الليـــلَ افتتانـــا
نطلـــقُ الـــروحَ إلى أشــــواقها ونـــشيدُ اللحـــنَ مملـــوءاً حنانـــا
في فـــؤادي نغـــمٌ عـــذْبُ المنـــى ســـاحرٌ حلـــوٌ كأيّـــامِ لقانـــا
آهِ مـــا أحـــلاكَ يـــا عهـــدَ الـــهوى في جنـــانِ الـــوردِ في ظـــلّ ربانـــا

زكية حمدان وعبد الوهاب

وإذا كانت زكية حمدان لا تنسى يوم أتت أُمّ كلثوم إلى حلب عـام ١٩٤٠ لتغنّـي في سينما الشرقي، فدفعت لـها أجر ثلاثة أيّام كان من المقرّر أن تحيي خلالـها زكية ثـلاث حفلات في المكان نفسه، فهي لا تنسى تشجيع وتقدير وتوجيه المطرب محمّد عبد الوهاب لـها وخاصّة يوم مرضت في عالية – لبنان وارتفعت درجة حرارتها، وقـرّرت المكـوث في فراشها وعدم النزول لمواجهة الناس على المسرح. فما كان من عبـد الوهـاب إلاّ أن أخـذ العود وغنّى لـها "همسة حائرة" فـشعرت زكيـة بأنّهـا اسـتعادت عافيتهـا ونـشاطها، ونزلت إلى المسرح فغنّت للناس كعادتها.

وكان عبد الوهاب يصغي إليها من فوق شرفة غرفته بالفندق. وعنـدما انتهـت مـن وصلتها وصعدت إلى الفندق كان عبد الوهاب ينتظرها ليوضح لـها أيـن أصـابت وأيـن أخطأت في أثناء غنائها.

وتقول زكية حمدان إنّ أشدَّ ما كان يطربه ويـصفّق لـه كـثيراً، مقطـع مـن أغنيـة "خُلقتِ جميلة" يقول:

وكـمْ مـنْ مجـرمٍ قـد نـال عفـواً　　　وأنــت بــدونِ ذنــبٍ تقتلينــا
جَمالُــكِ ذاهــبٌ والحــبُّ بــاقٍ　　　ســتندَمُ إنْ صــددتِ وتنــدمينا

لذلك تعتزُّ زكية حمدان كثيراً بهذه الأغنية التي نظمها حمدي الجـلاّد والـد مطلّقهـا عدنان الجلاّد، ولحّنها خالد أبو النصر.

والطريف في الأمر، أنّ عبد الوهاب عندما سمعها أوّل مـرّة قـال: "ده لازم المؤلّـف بتاعها يكون مدير شرطة أو ضابط في الجيش!". وقد أصاب فعـلاً، لأنّ حمـدي الجـلاّد كان مدير الشرطة في سورية، كما ذكرنا.

أمّا أغنية "خُلقتِ جميلة" فهي تقول:

خُلقــتِ جميلــةً لتعــذّبينا　　　ولــسنا في غرامــك مجرمينــا
وإن كــانَ الــهوى والحــبُّ عيبــاً　　　فكــلّ معايــبِ العــشّاقِ فينــا

ومــــا نلـــت الجَمـــالَ لتمنعيـــه | ولا نهـــــواك إلاّ مخلـــــصينا
تعـــالي ننهـــبِ اللـــذات نهبـــاً | فنمـــــسي قـــدوةً للعالمينـــا
وننـــسى في الـــهوى قيـــساً وليلـــى | ونـــسبق في الغـــرام الأقـــدمينا
وكـــمْ مـــنْ مجـــرمٍ قـــد نـــال عفـــواً | وأنـــت بـــدونِ ذنـــبٍ تقتلينـــا
جَمالُـــك ذاهـــبٌ والحـــبُّ بـــاقٍ | ســـنندمُ إنْ صـــددت وتنـــدمينا
ولـــذّاتُ الحيـــاة لـــها حـــدودٌ | ولـــسنا في الحيـــاةَ مخلّـــدينا
إذن لا تحرمينـــا مـــن لقـــاءٍ | يـــسمى في الـــهوى وقتـــاً ثمينـــا

(الضاد، العدد ٢٠٠٢/١١، ص٣-٧)



عبد المقصود خوجه واثنينيته

"الاثنينية" عنوان مضيء، من عناوين السموّ الروحي، والرقيّ الخلقي، والتنزّه النفسي، والتحليق الفكري، والنبل الموضوعي، والحبّ الصوفي للخير والجَمال.

أملنا كبير في ألاّ يظنّ القارئ أنّ هذه الصفات "للاثنينية" صفات اقتنصها التجويد الإنشائي من المخزون اللغوي البعيد عن الحقيقة والنائي عن الواقع.

إنّ كلّ مَن يطّلع على "الاثنينية" ويعرف جذورها، ويتأمّل غصونها، وتبهره ألوان وعطور أزهارها، ويتذوّق ثمارها لا يملك إلاّ أن تتملّكه الدهشة، ويأسره الإعجاب غير المحدود بهذه الظاهرة: "الاثنينية".

نعم إنّها ظاهرة لا تلفت النظر فحسب، بل توجب علينا أن نُنعم النظر فيها، ونطيل التأمّل في جوانبها، ونواصل التفكير في كينونتها وإشراقها.

إنّ اليد الفاضلة الكريمة للسيّد **عبد المقصود خوجه** هي التي صاغت "الاثنينية" وعلّقتها في سمائنا قمراً مضيئاً يرسل إلينا على أجنحة شعاعاته خطابات خلقية ورسائل معرفية وأسفاراً جَمالية.

"الاثنينية" هي "الكلمة" الجميلة الممتعة التي عشقها صاحبها السيّد **عبد المقصود خوجه** وتعلّق بها منذ صباح حياته حينما كان والده **محمّد سعيد عبد المقصود خوجه** – رحمه الله – يلتقي في بعض الصباحات المشرقة في مكتبه في مبنى الصحيفة التي كان رئيساً لتحريرها نخبة من كتّاب وشعراء وأدباء المملكة العربية السعودية... وكذلك حينما كان هذا الوالد الأديب الفاضل يعقد الأمسيات على ضفاف مواسم الحجّ من كلّ عام على شرف أدباء وشعراء وكتّاب ومفكّري العالمين العربي والإسلامي.

كان العشق للكلمة قد وضع بذرته في قلب الطفل الصغير **عبد المقصود خوجه**. ولم تنطفئ شعلة هذا العشق مع إطفاء الأقدار شعلة حياة الوالد الذي كان في ريعان شبابه. وراح هذا العشق للكلمة يمدّ جذوره في نفسه صبيّاً وشابّاً ورَجلاً.

ولم تستطع ظروفه وأعماله أن تئد هذا العشق وأن تيبس أشجاره، وأن تكتسح رياحها أغصانه الخضراء. وعندما استقرّ في جدّة استيقظ الماضي الجميل، وراح عشق الكلمة يملي عليه ويلهمه هذه الخطوة النوعية التي شكّلت المنعطف الأكبر في ظاهرة الاثنينية.

فاستلهاماً لصباحات وأمسيات والده وتجاوباً مع ذلك العشق، واسترجاعاً لمشاعر البهجة التي كانت تغمره صغيراً، ثمّ احتفاء واحتفالاً بالمبدعين الذين غدوا رموزاً ومشاعل على دروب الأدب والفكر تستحقّ الالتفات والالتفاف حولها وعناق عطائها كان لقاء الاثنين الذي سمّته الصحافة "الاثنينية".

كانت "الاثنينية" الأُولى في ١٤٠٣/١/٢٢هـ – ١٩٨٢/١١/٨م. وتواصلت "الاثنينيات" حتّى غدت ظاهرة ثقافية، وأصبحت صالوناً أدبياً يختلف عن طبيعة

الصالونات الأدبية في الحوار المفتوح في القضايا الفكرية والإبداعية. ولكنّه يقوم على الاحتفاء والاحتفال بأحد مشاعل الفكر والثقافة الذين كان لهم حضورهم اللافت على الساحة الأدبية العربية. فكان لكلّ "اثنينية" ضيف هو فارس من فرسان العلم والفكر يوجّه الدعوة إليه صاحبها الشيخ **عبد المقصود خوجه** للاحتفاء به وتكريمه في صالة له فخمة وواسعة في جدّة.

ويحضر هذا الاحتفال عدد كبير من أرباب الفكر والقلم. ويقوم برنامج الاثنينية على تقديم ترجمة مختصرة من حياة فارسها المحتفى به، يتلو ذلك كلمة عريف الحفل، ثمّ كلمة المحتفي الشيخ **عبد المقصود خوجه**، ثمّ كلمات من بعض الحضور تتناول جوانب من عطاءات الفارس وجولاته في ميادين الإبداع، ثمّ كلمة الفارس المحتفى به.

ثمّ يقوم حوار بين الحضور وبين هذا الفارس تنجلي من خلاله تجاربه وبعض الجوانب في مواقفه من بعض القضايا الأدبية أو الفكرية أو الاجتماعية، وبعض جوانبه الإبداعية. وغالباً ما يُطلب إليه إنشاد بعض من نتاجه الشعري إذا كان شاعراً. وكثيراً ما يتخلّل هذه الاثنينيات إلقاء القصائد التي تشيد بفضل المحتفى به، وإنشاد بعض الأناشيد الدينية، ثمّ تأتي كلمة الختام. ثمّ يتوجّه المحتفى به إلى منصّة التكريم حيث يقدّم المحتفي إلى المحتفى به هدية هي لوحة "الاثنينية" تكريماً له ثمّ يُدعى الجميع إلى مأدبة العشاء التي تعبّر عن كرم المحتفي الشيخ **عبد المقصود خوجه** غير المحدود.

وتُقام هذه الاثنينيات بدءاً من أوّل الشتاء وانتهاءً بأواخر الربيع من كلّ عام. وظلّت تُوثَّق بأشرطة التسجيل حتّى عامها الثامن حين أشرقت فكرة توثيقها طباعة، في عقل صاحبها الذي رأى أنّ أفضل التوثيق هو الطباعة، لأنّه يكفل الانتشار الأسهل والأكثر لهذا المخزون الثقافي الذي حوته أشرطة التسجيل فقرّر طباعتها منذ عامها التاسع. ولكي يستدرك الأعوام الثمانية الأُولى قرّر طباعة مجلّدين في كلّ عام. مجلّد عن اثنينيات أحد الأعوام الثمانية السابقة ومجلّد عن اثنينيات العام ذاته.

تتجاوز صفحات كلّ مجلّد أو جزء خمسمئة، بطباعة أنيقة مزدانة بصور ملوّنة لبعض وقائع كلّ اثنينية وضيفها المحتفى به.

ومَن يتصفّح هذه الأجـزاء فسوف يرى أنّ الاثنينيـات لم تكـن وقفـاً علـى جـنس أدبي معيّن دون الأجنـاس الأدبيـة الأُخرى، ولم تكن وقفاً على فئة من قـادة الفكـر بـل فتحت صدرهـا للأدبـاء والشعراء والعلماء والمفكّرين والفنّانين والنابغين البارزين في كلّ حقول الحياة.

ثمّ إنّ هذه الاثنينيات لم تكن حكراً على المبدعين السعوديين، بل مـدَّت الجـسور إلى كلّ أقطار الوطن العربي والإسلامي والمهجر، فكرّمت الكثيرين من المبدعين العـرب. وقـد حضرنا شخصياً الاثنينية رقم ٢٤٣ التي كرّمـت العلاّمـة الأديـب الأسـتاذ **فهـد العلـي العريفي** بتاريخ ١٨ آذار ٢٠٠٢ وكان لنا فيها كلمة وقصيدة.

وعلى سبيل المثال لا الحصر كرّمت الاثنينية من المملكة العربية السعودية السـادة: الشاعر **عبد القدّوس الأنـصاري** والـشاعر **طـاهر الزمخـشري** والـصحفي **عبـد المجيـد الشيكشي**، والشاعر **عبد الله بلخير**، والشاعر **حسين علي عرب**. ومن مصر الدكتور **أنيس منـصور** والـشاعر **فـاروق شوشـة** والـدكتور **مـصطفى محمـود** والـدكتور **يوسـف القرضاوي** والدكتور **حسين مؤنس** والدكتور **زكي نجيب محمود**. ومن سورية الـشاعر **عمر أبو ريشة** والشاعر **عمر بهاء الأميري** والـدكتور **مـصطفى الزرقـا** والـدكتور **مـنير العجلاني** والدكتور **محمّد سعيد رمضان البوطي** والدكتور **شاكر الفحّام**. ومـن العـراق الشاعر **محمّد مهدي الجواهري** والشاعر **عبد الوهاب البياتي**. ومـن الـيمن الـشيخ **عبـد المجيد الزنداني** والأستاذ **محمّد أحمد العثمان**، ومن السودان القاصّ **الطيّب صالح**. ومـن لبنان الصحفي **ملحم كرم**. ومـن فلـسطين الـصحفي **نبيـل خـوري** والـدكتور **راضـي صدوق**. ومن تونس الدكتور **عبد السلام المزدي**. ومن المهجر الشاعر **زكي قنصل**. ومـن إيران الكاتب الصـحفي **جعفر الرائد**.

ومجلّدات الاثنينية أصبحت مرجعاً حيّاً موثّقاً عن حياة فرسانها المبدعين ومواقفهم وأفكارهم ونتاجهم الفكري والإبداعي، وبخاصّـة أنّ حـضور الاثنينيـات هـم مـن كبـار الكتّاب والشعراء، فكلماتهم وقصائدهم وحواراتهم هي مـن عيـون الأدب العربـي غنـى موضوع وعمق فكر وجَمال أسلوب.

ولم يقف سخاء صاحب الاثنينية عند حدّ إقامة هذه الاثنينيات ترتيباً واستضافة وتقديماً للهدايا وفرشاً للموائد العامرة وتسجيلاً وطباعة على نفقته الخاصّة، بل تجاوز كلّ ذلك إلى أنّه كرّم بعض الهيئات ذات الطابع الفكري.

كما ارتفع في سماء النبل على أجنحة كرمه غير المحدود، إذ طبع نتاج عدد من هؤلاء المبدعين كديوان الشاعر المهجري **زكي قنصل**، وديوان في ثلاثة مجلّدات "**حصاد الغربة**" للشاعر العراقي الدكتور **زاهد محمّد زهدي**، وديوان الشاعر التونسي **أبي القاسم الشابّي** في ثلاثة مجلّدات، والأعمال الشعرية الكاملة وأعمال نثرية للشاعر الأديب **أحمد بن إبراهيم الغزاوي** في ستّة مجلّدات، والموسوعة الكاملة لآثار الأديب السعودي الراحل **محمّد سعيد عبد المقصود خوجه**، وكتاب "**عبد الله بلخير شاعر الأصالة والملاحم العربية والإسلامية**" دراسة الأستاذ **محمود رداوي**، وكتاب "**البهاء زهير شاعر حجازي**" دراسة الشاعر **محمّد إبراهيم جدع**، وديوان "**عاصفة الصحراء**" للشاعر **محمود عارف**، وديوان "**الأربعون**" للشاعر **عبد السلام هاشم حافظ**، وكتاب "**سوانح وآراء في الأدب والأدباء**" للدكتور **بدوي طبّانة**، وكتاب "**جرح باتّساع الوطن**" نصوص نثرية وديوان "**قلبي على وطني**" للأديب الشاعر **يحيى السماوي**، وكتاب "**الشعراء في إخوانياتهم**" للأديب **خالد القشطيني**، وديوان "**زمن لصباح القلب**" للشاعر **فاروق منجر**، وديوان "**أوراق من هذا العصر**" للشاعر الدكتور **خالد محيي الدين البرادعي**، و"**الأعمال الشعرية الكاملة**" للشاعر **محمّد حسن فقي**، وكتاب "**عبد العزيز الرفاعي صور ومواقف**" تأليف **أحمد سالم باعطب**، وديوان "**قوس قزح**" للشاعر **مصطفى أحمد الزرقا**، وديوان "**حلم طفولي**" للشاعر **سعد البواردي**، وكتاب "**الغربال، قراءة في حياة وآثار الأديب السعودي الراحل محمّد سعيد عبد المقصود خوجه**" تأليف **حسين عاتق الغريبي**، وكتاب "**عبد الله بلخير يتذكّر**" حوار وإعداد **محمّد باطرفي**، ودراسة نقدية بقلم الأستاذ **محمود رداوي**.

أخذ المولى بيد الأخ الأديب الرائد **عبد المقصود خوجه** برعاية كبار المفكّرين والأدباء حفاظاً على لغتنا العربية وتراثنا الخالد.

اثنينية العرب

نظمتُها وأهديتُها إلى صاحب أكبر منتدى أدبي: "الاثنينية"

عـلــى مزاهــرِ "اثْنينيــةِ" العَــرَبِ ... قــد أســكرتنا لحــونُ الــشعرِ والأدبِ
بــدورُ فــنّ مــضى يجلــو محاســنَها ... على الورى "الخوجةُ" الميمون ذو النسبِ
دوافــقٌ مــن عطــاءات معطّــرة ... وكرمــةٌ وعناقيــدٌ مــن الــشُهبِ
الفكــرُ والفــنُّ والإبــداعُ تطلعُهــا ... شمــساً، وترفــعُ عنهـا سـترة الحُجـبِ
لآلــئٌ ضــمّها عقــدٌ تنظمُــهُ ... يـدا كـريمٍ علـى صَـفْحَاتها القُـشُبِ
ملاعــبٌ يتجلّــى المبــدعونَ بهــا ... كمــا تجلّــى بجيـدٍ بـارقُ الـذهبِ
قــد ارتــوى عنـدَ واديهـا أخـو ظمـأ ... وراحَ يهتــفُ بــالنعمى أخــو سَــغَبِ
مــلّى بمحرابهــا الإبــداعُ فابتــسمتْ ... لـها العروبـةُ مـن "فـاسٍ" إلى "حلـبٍ"
وازّيّنـتْ بـشذاها "الـضادُ" واكتحلـتْ ... وصـفقَ العُـربُ مـن بِـشْرٍ ومـن طـربِ
درّتْ علـى "الـضاد" نعماهَـا مُطيّبـةً ... كمــا تــدرُّ علــى الـدنيا يـدُ الـسُحبِ
خَطَــتْ إلى ضِــفّتي خُلْــدٍ ومــشعلُها ... مـن وقـدة الفكـرِ لا مـن وقـدة اللـهبِ
والفرحــةَ الفكــرِ إذ يــسمو فتحــضنُهُ ... أضــلاعُ سـفرٍ بـضوءِ الحُـسْنِ منتقـبِ
جمعتَ يـا "خوجـةَ" الآدابِ مـا بـسمتْ ... لــه الظمــاءُ إلى الأنــداءِ في الحقَــبِ
تبــاركَ الحــرفُ بابــاً للخلــودِ ومــا ... يُخلّــدُ الخَلْــقَ والإبــداعَ كالكتــبِ

(الضاد العدد ٤/٣/٢٠٠٣، ص٧-١٢)



عبد الله موصللي
أبو الدستور

الأستاذ **عبد الله موصللي** محامٍ كبير وقانوني قدير، له في مجال القانون باع طويل فهو أبو الدستور، كما لقّبه الرئيس الراحل **حافظ الأسد**، وسيّد التشريع. ولـهذا فقد اختير مجدّداً بالإجماع عضواً في مجلس الشعب للدَور التشريعي السابع (١٩٩٨). وقد انتخبه زملاؤه نائباً لرئيس المجلس. وهذه ثقة كبيرة وغالية من القيادة السياسية في سورية ومن زملائه الكرام.

عرفتُه رَجلاً عالي القامة، مرتفع الـهامة، بهيّ الطلعـة، مـشرق الجـبين، لا تفارقـه الابتسامة حتّى في أحرج المواقف وأشدّها حلكة.

يفيض قلبه بالحبّ، ولا يعرف معنى للبغض. يحبُّ الناس ويألفهم، ولا يتنكّر لأحـد عرفه، ولا يجحد معروف أحد، ولا ينسى مودّة أحد.

وهو والـد شفيق، ممتلئ القلب بالرحمة والحنان، أضعاف ما يمتلئ به قلب الوالـد في مَن عرفت. فـإذا شاكت أحـد أولاده شوكة، أو انتابته وعكـة رأيـت في وجهـه سمـات الألم ناطقـة، وأحسست به ضعفاً شديداً، هو ترجمان الرحمـة، وعنـوان دقّـة العواطـف ورقّة الشعور.

يتوشّح برداء التواضع، وينضح وجهه بالحياء. كريم النفس، سخيّ اليد، أحبّ بلده فأحبّه شعبه. يعرف للصداقة حقّها، ويحافظ عليها ويرى فيها ما رأيته في قولي:

إنّ الـــصداقة كنـــزٌ لــيس يقــدرهُ	إلاّ أمـــينٌ علـــى عهـــد وإيمـــانِ
ســــرٌ مــــن الله أولاه خليقتــــه	لينعمـــوا بمـــودّات وتحنـــانِ
ومـــسعدٌ في حيـــاة لا مـــذاقَ لـــها	إذا خـــلا منـــه يومـــاً قلـــب إنـــسانِ

عبد الله موصللي من مواليد حلـب ١٩٢٥. درس في مدرسـتَي "الفريـر – الإخـوة المـريميين" و"التيرسـانت – الأرض المقدّسـة" بحلـب. ثـمّ درس المحامـاة في الجامعـة اليسوعية ببيروت ونال منها إجازة في الحقوق عام ١٩٤٧. وانتـسب إلى نقابـة المحـامين بحلب منذ ذلك التاريخ. وقد عرفته نقابة المحامين بحلب وعرفه زملاؤه ومحبّوه محاميـاً ألمعياً وقانونياً بارعاً، يدافع عن الحقّ المهيض وعن البائس والمظلوم.

وإضافةً إلى عمله في حقل المحاماة، دخل في عهد الوحدة بين سورية ومـصر الحيـاة السياسية من أوسع أبوابها. فكان رئيس القسم الرابع للاتّحـاد القـومي بحلـب وعـضو المكتب التنفيذي فيه. ثمّ انتُخب عضواً في مجلس الأُمّة في أثناء الوحدة.

ثمّ أُعيد انتخابه في مجلس الشعب منـذ الـدَور التأسيـسي الأوّل (١٩٧١) والثـاني والثالث والرابع والسادس ثمّ الدَور السابع. ولقد مثّل سورية في الاتّحاد البرلماني الدولي كعضو مجلس تنفيذي منذ عام ١٩٧٣ وحتّى عام ١٩٩٨. وحـضر ٣٢ مـؤتمراً برلمانيـاً

دولياً. ولقد تسلّم مهامَ أُخرى، منها أمين سرّ جمعية الهلال الأحمر ما بين (١٩٦٠-١٩٧٣) ورئيس نادي الشبيبة (الجلاء) الرياضي في حلب عدّة سنوات، ورئيس نادي حلب العائلي منذ عشرين سنة. وقد أعيد انتخابه للمرّة الثانية عشرة كرئيس لهذا النادي لدورة ١٩٩٧-١٩٩٨. وهو اليوم الرئيس الفخري للنادي.

ويُطلق عليه زملاؤه الكثيرون: (دكتور النظام الداخلي- وأبو النظام الداخلي). ومردّ هذه الألقاب أنّه يحفظ موادّ الدستور وموادّ النظام الداخلي عن ظَهر قلب. وهو من القلائل في سورية الذين يحفظون تلك الموادّ.

وفور نجاح أبي جورج عام ١٩٩٨ أقام حفلة غداء هنّأتُه فيها قائلاً:

هنيئاً لعبد الله حاز المراتبا	وظلَّ عن الشهبا أميناً ونائبا
له حلبٌ قالت: نعم، أنت وجهنا	ونحن نؤدّي بانتخابك واجبا
عرفناكَ صوتاً في الملمّات مخلصاً	إذا قال رأياً، لا يهاب المصاعبا
فبوركَ عبد الله للشعبِ نائباً	وبوركَ عبد الله للحقّ طالبا

حلب تكرّم عبد الله موصللي كأقدم برلماني سوري

ومساء الثلاثاء ١٢ كانون الثاني ٢٠١٠ استضافت مديرية الثقافة بحلب في أمسية بعنوان "شخصية خاصّة" وبالتعاون مع الجمعية العربية المتّحدة للآداب والفنون بحلب المحامي **عبد الله موصللي**، الذي تمَّ تكريمه كأقدم برلماني سوري، ومنحه عضوية الشرف في الجمعية التي تحتفل بعيدها الخمسين.

حضر الأمسية الدكتور **رضوان حبيب** نائب رئيس مجلس الشعب والسيّد **أحمد الأحمد** أمين عامّ حركة الاشتراكيين العرب وسماحة الدكتور **أحمد بدر الدين حسّون** المفتي العامّ للجمهورية والسيّد **محمّد حاج حميدي** عضو قيادة فرع حلب للحزب والدكتور المهندس **معن الشبلي** رئيس مجلس المدينة والأستاذ **ربيع تامر** مدير الشؤون الاجتماعية والعمل وعدد من مطارنة حلب وأعضاء مجلس الشعب والقناصل المعتمدين ومدير الثقافة وحشد من أصدقاء الجمعية والمكرَّم والمثقّفين.

وقد بدأت الأمسية بعرض تقديمي بالصور عن حياة المحامي موصللي. ثمّ كانت لي قصيدة شعرية. وأعقب ذلك حوار مع الضيف، ثمّ أسئلة ومداخلات الحضور. وتناول الحوار أهمّ المواقف التي جرت مع الأستاذ عبد الله موصللي، ومنها المواقف السياسية والمهنية والاجتماعية ولقاءاته مع القائد الخالد حافظ الأسد الذي جعل بمواقفه المبدئية سورية في الطليعة. كما تعرّض الأستاذ موصللي لماهية الاتّحاد البرلماني الدولي وأعماله ونشاطاته. وتلا ذلك كلمات شكر وتقدير ألقاها سماحة مفتي الجمهورية ونائب رئيس مجلس الشعب، ومدير الثقافة، وعدد من الحضور.

وقبل التوجّه إلى حفلة استقبال أُقيمت في بهو المديرية قُدّمت للمكرَّم دروع دار الإفتاء ومديرية الثقافة واتّحاد عمّال محافظة حلب ودرع الجمعية العربية المتّحدة للآداب والفنون وقصيدة "في معصم الشهباء أنتَ سوار".

في معصمِ الشهباءِ أنتَ سِوارُ

نظمتُها وألقيتُها في تكريم المحامي عبد الله موصللي كأقدم برلماني سوري

بمدَى المفاخرِ تُحسَبُ الأعمارُ ... لا ما دَجَى ليلٌ وضاءَ نهارُ
ما العمرُ غصنٌ ظلَّ دوماً عارياً ... العمرُ غصنٌ توَّجَتْهُ ثمارُ
وإذا تطولُ على الفتى أيّامُهُ ... لا تَحملُ الأمجادَ... فهي قِصارُ
وإذا تَقُلُّ على الفتى أيّامُهُ ... وبها جنى الأمجادَ... فهي كِثارُ
أعظِمْ بأيّام تطولُ على الفتى ... وبكلِّ يومٍ وثبَةٌ وفَخارُ
ولقد قضى حقَّ الحياة معمَّرٌ ... أمجادُهُ وعطاؤُهُ أنهارُ
وكذاكَ "عبدُ الله" عمرٌ مُخصِبٌ ... وبكلِّ يومٍ هاطلٌ مدرارُ
ما كنتَ "عبدَ الله" يوماً بيننا ... إلاّ كما كانتْ لنَا الأقمارُ
مَنْ راحَ يسعى في حقولكَ، عطَّرَتْ ... خطواتِه الأنداءُ والأزهارُ
أنتَ المجلّي في المنابرِ كلِّها ... إمّا عَلاهَا السادةُ الأحرارُ

يـا أيُّهـا الخـلُّ الـوفيُّ وقلّمـا … جـادتْ بمثـلِ وفائـكَ الأخيـارُ
يـا أيُّهـا الخـلُّ الـوفيُّ وهـلْ يُـرى … للـشمسِ إلاّ الـدفءُ والأنـوارُ
يـا أيُّهـا الخـلُّ الـوفيُّ، ويومُنـا … مـا فيـه إلاّ الخـادعُ الغـدّارُ
مـا كـلُّ نبـت، زهـرةٌ فوّاحـةٌ … أو كـلُّ مَـنْ فـوقَ الغـصونِ هَـزارُ
والنـاسُ ألـوانٌ، فهـذا جـدولٌ … صـافٍ، وذا كـرْمٌ، وذاكَ قفـارُ
بعضُ الورى ضوءٌ، وبعـضهمُ نـدىً … يُحيي النفـوسَ، وبعـضهمْ أحجـارُ
وولجـتَ أبـوابَ الحقـوقِ فأنـتَ في … سـاحاتها المقـدامُ والمغـوارُ
وغدوتَ عن حـقِّ الـضعاف محاميـاً … فلأنـتَ للحـقِّ المُـبين مَنـارُ
أمضيتَ عمـرَكَ في الـدفاعِ عـنِ الأُلى … ظُـلموا، وأنـتَ الـصارمُ البتّـارُ
مـا منـزلٌ للحـبِّ في شـهبائنَا … إلاّ يـداكَ لـه غنـىً وجِـدارُ
فجّـرتَ مـنْ عطـرِ الوفـاء منابعـاً … حتّـى غـدتْ منهـا الكـرومُ تَغـارُ
يا صاحبَ الوعد الصدوقِ، وما شدتْ … بمثيـلِ صـدقكَ في المـدى الأوتـارُ
قـد صـارَ بيتُـكَ مَقدسـاً أو كعبـةً … فإليـه مـنْ كـلِّ الربـوعِ يُـسارُ
وعلى المَعـينِ العـذبِ يـزدحمُ الـورى … وعلـى البيـادرِ تنـزلُ الأطيـارُ

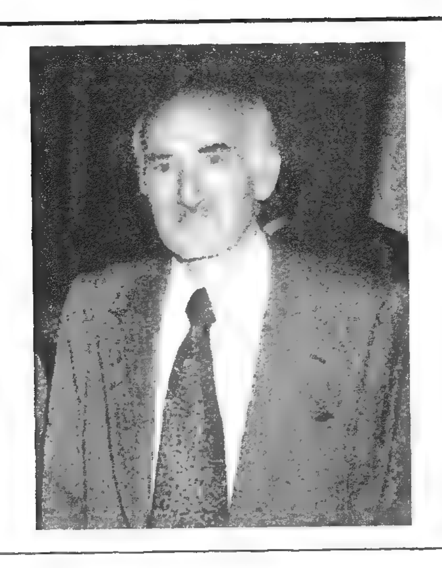
يـا نائـبَ الـشهباء كـمْ مـن مـرّةٍ … قـدْ كنـتَ مـنْ شـهبائنَا تُختـارُ
لقـد اصـطفاكَ الـشعبُ عنـهُ نائبـاً … في مجلـسٍ قـد جَـلَّ فيـه حـوارُ
قدْ كنتَ صوتَ الشعبِ فيه، ومَنْ يُرى … للـشعبِ ناضـلَ... حقُّـهُ الإكبـارُ
كم ضـاءَ مـن رأيٍ يُـصيبُ وحكمـة … لـكَ في الحـوارِ، فـأبهرت أنظـارُ
تُجري الوعـودَ سـحائباً حُبلـى.. وفي … هـذي الـسحائبِ تَـصدقُ الأمطـارُ

يـا واهبـاً للخـيرِ نـبضَ فـؤاده … الخـيرُ يَرعـى غرسَـهُ الأبـرارُ
أزهـرتَ في كـلِّ الحقـولِ، كأنّمـا … قـدماكَ في جنباتهـا آذارُ
هذي النـوادي كـم سـقيتَ غراسَـها … حتّـى أظلَّـتْ سـاحَها الأشـجارُ
يـا فـارسَ الـشهباءِ في سـاحِ الإخـا … غـذّى فـؤادَكَ روضُـها المعْطَـارُ

مـا مـِـزْتَ بـيـنَ محمـّـد ومـسيحهَا فكلاهُمَــا لــكَ كوكــبٌ ســيَّارُ
عيـسى إذا عَـرِيَ الرسـول إزارَهُ ومحمّــدٌ ثــوبٌ لــهُ وإزارُ
لم يـروِ هـذي الأرضَ غـيرُ أُخـوَّة أَعلــى وصــانَ لواءَهَــا بــشّارُ

يـا زينـةَ الـشهباء فـاخرْ، إنّمـا في معـصمِ الـشهباء، أنـتَ سـوارُ
مـا حَفْلُنـا الميمـونُ إلاّ لوحـةٌ أنـتَ الـضُحى فيهـا، ونحـنُ إطـارُ
إنْ نحـنُ جُـدْنَا، في المنـابرِ لم تكـنْ غـيرَ اللـسانِ وإنّـكَ الأفكـارُ
لسنَا سـوى المـرآة، يعكـسُ وجهُهَـا صُـوَرَ الجَمـالِ براحتيـكَ تُـدارُ
مـنْ نبعـكَ الـصافي ملأْنَـا كأسَـنَا تيهـاً، وهـذا الحفـلُ منـكَ يُنـارُ
مـا نَحـنُ كرَّمنـاكَ، بـلْ كرَّمتَنَـا نَحـنُ الـشراعُ وإنّـكَ البَحّـارُ
من حـقِّ رأسـكَ بعدَ طُهـرِ مـسيرة في أنْ يتوَّجَـهُ العُلـى والغـارُ
عـذراً "أعبـدَ اللهِ" أيـن لريـشتي أنْ تحتويـكَ.. وأنـتَ أنـتَ بحـارُ

(الضاد، العدد ١١ و١٢/١٩٩٨، ص٦٧-٦٩، والعدد ١/ ٢٠١٠، ص٢٦-٢٨)



فريد جحا.. وصِلته بالضاد

ومـــا الـــسبعون تحنيــه ولكــنْ   هـــي العظمـــات نـــدعوها ســـنينا

عرفتُ المربِّي **فريد جحا** في بداية الخمسينيات، أديباً أريباً وكاتباً لبقاً، وأستاذاً قديراً ومربّياً مرموقاً. غير أنّه عرف شقيقتي الكُبرى قبل أن يعرفني، ومن خلالـــها تعـرّف إلى والدي – رحمه الله.

عرف شقيقتي الكُبرى "**الضاد**" منذ عام ١٩٤٣ وكان عمرها ثـلاث عـشرة سـنة. وكان يومها في الصفّ الثالث من مدرسة التجهيز الأُولى في حلب، عندما حـضر زميلـه في

الدراسة وابن بلدته المرحوم الأديب **حسيب كيّالي** متأبّطاً مجلّة "الضاد" في عددها الذي نُشرت فيه ملحمة (على بساط الريح) ذات الأربعة عشر نشيداً للشاعر المهجري الكبير **فوزي المعلوف**.

ولمّا عاد إلى حلب عام ١٩٥٠ مدرّساً عرف والدي **عبد الله يوركي حلاّق** وقامت بينهما صداقة متينة امتدّت حتّى وفاة والدي سنة ١٩٩٦ واستمرّت معي حتّى اليوم.

وبدأ يهتمّ بأدب المهجر ويراسل أدباءه ويكتب عنهم الكثير وينشر المقالات. أمّا كتابه (الحنين واللقاء في شعر المهجر) فقد دفع به إلى صنّاجة الأدب المهجري الشاعر الخالد **جورج صيدح** ليكتبَ مقدّمته، فلبّى طلبه وطلب إليه أن يطبعه في مطبعة "الضاد" التي كان يملكها والدي.

ونضّدت الكتاب بأناملي (لأنّ صفّ الحروف كان في ذلك الوقت يدوياً). وبدأت محبّتي لهذا الأديب المبدع. وكنّا نلتقي في المطبعة والبيت لتصحيح الموادّ قبل طبعها. وعندما انتهى الكتاب ووصل إلى **جورج صيدح** كتب إليه رسالة في ١٥ تشرين الثاني ١٩٦١ جاء فيها:

"كتابك (الحنين واللقاء..) جميل جذّاب، توفّقت في إخراجه، رائع كمجلّة الضاد أناقةً في الحرف والورق وضبطاً في النصوص، فلا مجال للشكوى من مطابع حلب، بل احْمَدْ ربَّكَ على هذه النتيجة".

"إنّي لمعجبٌ بسعة اطّلاعك على الآثار المهجرية، إذ استشهدت بقصائد لأصحابي وعشرائي كنت أجهلها. أفادك الله وجزاك خيراً".

وكان يزور والدي في منزله. وفي هذا المنزل تعرّف إلى كبار أدباء الوطن العربي والمهجر الأميركي، أمثال: **المعالفة (عيسى إسكندر المعلوف** وأولاده الشعراء **فوزي وشفيق ورياض) وجورج صيدح وفارس الدبغي** الذي وصل حلب في ١٢ تشرين الثاني ١٩٦١ فاستقبله في مطار النيرب بحلب لفيفٌ من أدباء الشهباء ورحّبوا بمقدمه أجمل ترحيب ورافقوه إلى فندق بارون. ولم يبقَ **الدبغي** في حلب سوى يوم واحد إذ حضر خصّيصاً ليلتقي والدي.

وقد أقيمت لـه في هذا اليوم ثلاث حفلات:

الأُولى مأدبة غداء في منزل صاحب الضاد بحلب – حيّ التلل. والثانية حفلة شاي أقامها لـه أستاذنا فريد في نادي اللواء. والثالثة مأدبة عشاء في منزل الطبيب الأديب الدكتور عزّت بشخنجي. وقد حضرتُ هذه اللقاءات الثلاثة.

وكذلك تعرّف إلى ميشيل مغربي وميخائيل نعيمة وإلياس فرحات وشكر الله الجرّ والشاعر القروي رشيد سليم الخوري وشقيقه قيصر الخوري وإلياس قنصل ومريانا دعبول فاخوري صاحبة مجلّة "المراحل"، وموسى كريم صاحب مجلّة "الشرق"، وعبد المسيح حدّاد، وآخِر شعراء المهجر الشاعر زكي قنصل.

ومن الفنّانين سامي الشوّا أمير الكمان وجميل جوخدار وأنطوان زابيطا وخورشيد توما وغيرهم.

ومن مصر عبد الله شمس الدين صاحب نشيد "الله أكبر" ومحمّد مصطفى الماحي وشريفة فتحي وعادل الغضبان ووديع فلسطين والعوضي الوكيل وأحمد حسن الزيّات وعمر الدسوقي وشوقي ضيف وغيرهم.

ومن لبنان كرم ملحم كرم والأخطل الصغير وجورج مصروعة ووديع ديب وغيرهم.

ومن العراق ناجي جواد وهلال ناجي وصالح الألوسي وكوركيس وميخائيل عوّاد وحافظ جميل. لأنّ حلب كانت في الخمسينيات والستّينيات مباءة الأدب والطرب. فكان فيها الصالونات الأدبية، وفيها ثلاث عشرة جريدة وبعض المجلاّت الشهرية والأسبوعية.

في هذا الجوّ الأدبي الزاهر تعرّفت بأستاذنا فريد جحا. ولـه في مجلّتَي "الضاد" و"الكلمة" مقالات عديدة وبحوث كثيرة تحتاج إلى مجلّدات لجمعها.

أذكر حادثة واحدة، يوم حاضر في زحلة مدينة الشعراء وعروس الجَمال ومهبط الإلهام، التي شدا في بردونها عبد الوهاب أجمل أغانيه "يا جارة الوادي"... شِعر أحمد

شوقي. حاضر فيها بدعوة من الندوة الزحلية في صالة فندق أميركا وذلك مساء ٢٨ تمّوز ١٩٦٦.

وبعد تقديم موفّق لشاعرنا المبدع رياض المعلوف ألقى المعلوف هذه الأبيات ترحيباً بالأستاذ فريد جحا:

يا زحلتي هذا فتى الشهباءِ ... ما بيننا، تيهي من الخُيَلاءِ
بلقاءِ مَن في ظرفه وطباعه ... شيءٌ من الأطياب والأنداءِ
وهو الفريدُ ثقافةً ونباهةً ... ويراعه كالزنبق الوضّاءِ
أهلاً وسهلاً يا فريدُ ومرحباً ... في زحلتي الحورية الحسناءِ
يا مرحباً بك زائراً ومحاضراً ... بكَ يا فريدُ، أكارمُ الشهباءِ

إنّ مديرية الثقافة بحلب وتحت رعاية محافظها حين تكرّم المربّي الباحث فريد جحا، إنّما تحقّق بذلك أسمى مقاصدها وأنبل مراميها لأنّه يمثّل الأدب في أرفع نواحيه وأشرف معانيه.

وإذا أردنا الحقّ فإنّ مديرية الثقافة بحلب لا تكرّمه إنّما هو كرّمها بأدبه الوافر وسعة علمه وشمول فضله وسموّ خلقه.

كرّمته حلب بلد الشهامة والكرامة، وهو الذي وُلد في إدلب وترعرع في حلب الشهباء مدينة سيف الدولة والمتنبّي، ونشأ في بيت كريم نشأة صالحة أهّلته للتعمّق في الدراسة، ونيل شهادة الليسانس في الأدب العربي ثمّ شهادة التربية في علم النفس، وكانت مديراً لعدّة سنوات، ثمّ مفتّش الأدب العربي في محافظة حلب.

كلُّ هذا لم يثنه عن تأليف العديد من المؤلّفات القيّمة وهي:

(المرأة العربية في الجاهلية) و(مواقف إنسانية في تاريخنا وقوميتنا) و(ابن زيدون، حياته وتأريخ شعره) و(الحنين واللقاء في شعر المهجر)، وأخيراً (العروبة في شعر المهجر)، إضافةً إلى مئات المقالات والأبحاث.

إكليلُ المجـد

نظمتُها عربون محبّة ووفاء لعطاء فريد جحا الجمِّ
وطاقة زهر في يوم تكريمه

عـــانى وكَــدَّ ليــدركَ المـــأمولا ... ســـاعٍ يـــرومُ مـــن الحيـــاة جلـــيلا
يـشقى ليــبنيَ مــن عــصارة قلبــهِ ... أثـــراً يكـــونُ لـــسعيهِ إكلـــيلا
إكليـل مجـدٍ لا يفــوز بــه ســوى ... مَـــن أدركَ المحـــسوس والمعقـــولا

يــأبى الـضميرُ جحـودَ مـا كابدتَــهُ ... فأتيــتُ أمْحَــضُكَ الثنـــاءَ جــزيلا
فاهنأ بهـذا القـدْرِ يـا مَـن كـان قـد ... تَخِــذَ الجهـــادَ إلى الخلـــود ســبيلا
لتظــلَّ في الــضادِ العزيـــزة عــاملاً ... وتكـون مــن رُسْـل البيـانِ رســولا

(الاحتفال الذي دعت إليه مديرية الثقافة بحلب لتكريم
الأستاذ جحا: الضاد، العدد ٨/٢٠٠١، ص١٣-١٦)



الدكتور سامي القدسي

إذا عُدَّ العصاميون الأفذاذ من مغتربينا العرب، كان الدكتور **سامي القدسي** في طليعتهم ألمعية وإنسانية وثقافة عامّة عالية.

حدّثنا عنه قداسة **مار إغناطيوس يعقوب الثالث** بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس، وروى لنا بكثير من الإعجاب، قصّة هجرته وكفاحه وفوزه الباهر في معترك الحياة. وقال غبطته: إنّ الرَجل في منتهى الفضل والكرم، وإنّه يحبُّ المطالعة، فابعثوا إليه بمجلّة "الضاد". فهو رغم بعده الطويل عن بلادنا، ما زال متمسّكاً بالجذور العربية والسريانية، محافظاً على كلّ نافع وجميل من عاداتنا وتقاليدنا الشرقية.

وكان قداسته، قد عاد حديثاً من زيارة قام بها لأميركا الجنوبية، ولمس في خلال تلك الزيارة، من الدكتور **سامي القدسي**، أجزل المحبّة وأوسع الإكرام، واطّلع على ما يتحلّى به ذلك الإنسان المثالي، من نبل وفضل وأريحية عربية أصيلة.

وأرسلنا "الضاد" إلى الدكتور **سامي القدسي**، فتقبّلها كما يتقبّل بارتياح، عشرات الصحف، ولا سيّما التي تصدر عن بلادنا، والتي تعيد إليه ذكريات الفتوّة والصبا وبدء النضال في سبيل حياة أفضل.

وللدكتور **القدسي** سيرة مشرّفة حافلة بالجدّ والجهد والإخلاص في العمل. فهو رَجل الصناعة الأوّل في البرازيل، وصاحب نظريات اقتصادية وصناعية في غاية الأهمّية، ويعمل في مصانعه العديدة خمسة آلاف عامل يعيلون أكثر من ثلاثين ألف شخص.

ولن نحاول في هذه العجالة، أن نلمّ بجوانب تلك السيرة التي هي أشبه ما تكون بالأساطير، لما تشتمل عليه من صور نضالية رائعة، وتفوّق فكري نادر، وقدرة خارقة على الاستنباط والإبداع وخلق المشاريع الحيوية، والمؤسّسات الكُبرى، التي تحتاج إلى تنظيم دقيق، ووعي دائم، وإدارة حكيمة مبنية على التطوير المستمرّ، والمنافسة العملية الشريفة.

بل إنّنا نضع، أمام القارئ الكريم، في الوطن والمهجر، نبذة موجزة، عن حياة مغترب عربي يعدُّ بحقّ، في مقدّمة الصناعيين العرب همّةً وذكاءً وقدرةً على الإدارة وحُسْن التنظيم، فضلاً عن ثقافة رفيعة، وفكر خلاّق، وقلب كبير رحيم لا يكفُّ عن عمل الخير، ونشر الإحسان ونصرة العلم والفنّ والأدب.

وُلد الدكتور **سامي القدسي** في مدينة الموصل بالعراق عام ١٩٢٧، وتلقّى دروسه الابتدائية والثانوية في مدارسها. ثمّ توجّه إلى العاصمة العراقية، ودخل دار المعلّمين العالية في جامعة بغداد، وأخذ يدرس فيها صناعة الكيمياء الصناعية التي كان يحبُّها كثيراً. وكان أساتذته من خيرة العراقيين، الذين كانوا يعملون خلال حرب ١٩٣٩ – ١٩٤٥ في أشهر المصانع الكيماوية بألمانيا، فاستفاد منهم وراح يمارس دراسته بالطريقة العملية، ويلمُّ إلماماً واسعاً بصناعة المطّاط والبلاستيك ومزج المعادن.

وفي عام ١٩٤٩، غادر الدكتور **القدسي** العراق إلى لبنان، حيث استهوت مواهبه أحد أصحاب المصانع اللبنانية للمطّاط، فشاركه في العمل. وحالف الشريكين النجاح في أوّل الأمر، ولكنّ **سامي القدسي** كان يصبو إلى حياة أفضل. وكانت الهجرة إلى البرازيل تداعب عقول ذوي العزيمة والطموح، فركب **القدسي** البحر في صيف عام ١٩٥١ وحطّ رحاله في مدينة سان باولو، التي تُعدُّ قلب الصناعة والتجارة في البرازيل كلّها.

واستطاع المهندس الكيماوي الشابّ الدكتور **سامي القدسي**، أن يثبت كفاءته العالية في نطاق اختصاصه وأن يبرهن على ألمعية أصيلة في الصناعة والاستنباط. وكان يعمل بعزيمة لا تعرف الكلل والملل، ويضع القرش فوق القرش، ليستطيع بعد ذلك، أن يحقّق حلمه بإنشاء شركة للمطّاط يتولّى هو إدارتها بنفسه، ويصبُّ فيها كلّ مؤهلاته وتجاربه ومواهبه.

وما أطلّ عام ١٩٥٥، حتّى أسّس "شركة الأهرام لصناعة وتجارة المطّاط المحدودة". ثمّ دمج هذه الشركة بـ "شركة مشتقّات المطّاط - برازيليا المحدودة". وقد اتّخذت لها اسماً جديداً يُعرف اليوم باسم "شركة أهرام البرازيل المساهمة Pirâmides Brasilia" يتولّى الدكتور **قدسي** إدارتها منذ سنة ١٩٦٣.

والمعروف، أنّ الدكتور **القدسي**، قد شقّ طريقه في صناعة المطّاط بقوّة نادرة، إذ أدخل إلى الصناعة البرازيلية نظريات اقتصادية وصناعية أهمّها إنتاج السجّاد المطّاطي باستعمال الضغط الهوائي والفرامل المطّاطية في السيّارات الكبيرة والشاحنات.

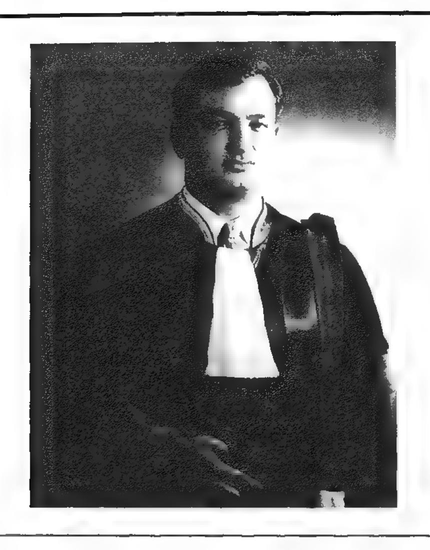
وللدكتور **القدسي** كثير من المبرّات والمكرمات، منها تبرّعه ببناء دار خيرية في قرية عطشانة – لبنان، لإيواء العجزة والمقعدين. وتعرف هذه الدار باسم "دار سامي القدسي للضيافة" بلغت نفقات بنائها وتأثيثها أكثر من ستّين ألف دولار. واحتفل بتدشينها في شهر تمّوز ١٩٧٠ برعاية الرئيس اللبناني الأسبق **شارل حلو** الذي منحه وسام الأرز، كما منحه قداسة البطريرك **إغناطيوس يعقوب الثالث** وسام "مار أفرام الذهبي من رتبة كومندور" لقيامه بتبرّعات كثيرة يضيق المجال عن تعدادها. وذلك إضافةً إلى وسام "نسر الشرق" من الجامعة الملكية العالية.

ومن أعمال الدكتور **القدسي**، أنّه تبرّع ببناء السفارة العراقية في برازيليا عاصمة البرازيل، وببناء النادي الثقافي السرياني البرازيلي، وأنشأ داراً للأيتام، تشرف عليها رفيقة حياته الغالية السيّدة **سيليكا حدّاد**.

وأمام ما أبداه الدكتور **سامي القدسي**، في سبيل الله والوطن والصناعة الحرّة، اجتمع في عام **١٩٧٣** مستشارو "مركز الصناعة" وعددهم **٢١** مستشاراً ومنحوه بالإجماع لقب "رَجل الصناعة الأوّل" في ولاية سان باولو لذلك العام، في حفل رائع حضره حاكم الولاية وعدد كبير من السفراء وكبار رجال الأعمال والفعّاليات الاقتصادية والتجارية. ثمّ عُيِّن الدكتور **قدسي** رئيساً للغرفة التجارية العراقية – البرازيلية، ورئيساً فخرياً للمؤسّسات السريانية في العالم.

هذه لمحة صغيرة عن حياة رَجل إنساني كبير، رفعته أعماله ومكرماته إلى مصافّ المحسنين الخالدين على الزمن.

(الضاد، العدد الخاصّ ٧ –١٠/ ١٩٨٠، ص٢١–٢٤)



القانوني نصرت منلا حيدر

كم أنت حزينة، أيّتها المدينة!!

كلَّ يوم تفقدين رجالاً ولكنَّ الذي تفقدينه اليوم، رَجلٌ لا ككلِّ الرجال.

لقد فقدتِ الرَجل الذي طالما تغنّى بك، وبأمجادك. لقد فقدتِ الرَجل الذي رفع منارة القانون والفكرَ الحرَّ في هذا القطر منذ خمسين عاماً.

لقد فقدتِ الرَجل الذي ألَّف وصنَّف الكثير من الروائع والبدائع القانونية والتشريعية، ووقَفَ في دُور القضاء، يدافع عن الحقّ، ويذود عن العدالة، بمنطقه الخلاّب

وجرأته النادرة، وموقفه في الدفاع عن المظلومين وإحقاق الحقّ.

هذا الرَجل الكبير بخلقه ومعرفته ووفائه لأصدقائه وأُمّته ووطنه، أغمض جفنيه ورحل عن هذه الحياة الدنيا، وأسلم وديعته الغالية لخالقه وبارئه، في ساعة مبكّرة من صباح يوم الجمعة الواقع في ١٤ آب ١٩٩٨.

وما كاد يُذاع نعيه، حتّى روّع الناس لفقد هذا القانوني الكبير القدير، الذي بذل كلّ أيّام عمره، في الدرس والتحصيل وإعلاء كلمة الحقّ ونشر ألوية المبرّات والمكرمات.

وحملت موجات الأثير، النعي الفاجع الأليم، إلى أربعة أطراف المعمور. فالراحل العزيز علم من أعلام القانون، وقطب من أقطاب التشريع، وركن من أركان العلم، ومفخرة بارزة من مفاخر الأُمّة. ومن حقّ الناس أن تنعيه، ومن حقّ القانون أن يرثيه، ومن واجب الأُمّة أن تبكيه وتشيد بذكراه.

وبكته الأُمّة. وسارت في موكب وداعه الشهباء. وسكب عليه أفذاذ المحامين والقضاة وكبار الأدباء ذوب قلوبهم. ونثروا على جثمانه زهور حبّهم وولائهم، لأنّه جدير بالحبّ والولاء، ولأنّه مثال رفيع، من أمثلة الودّ الأصيل والطبع الجميل.

وأعلنت دار العدل الحداد على نصير العدل وملاذ المستضعَفين. وأُغلقت أبواب المحاكم في هذا اليوم حزناً على قاضٍ ضحّى في سبيل رفع شأن القانون والعدل، بزهو شبابه، وإشراق صحّته، وصفو لياليه.

وحمله الشباب على راحاتهم، وساروا به مطرقين خاشعين، كأنّهم يحملون قلوبهم بأيديهم، ويشيّعون رجاءهم بأنفسهم. فاللوعة العميقة عضّت المهج، والأسى المرير عقد الألسنة وأطلق العبرات، والمصاب الفادح كوى بناره الجميع.

وتساءل بعضهم بدهشة بالغة: مَن يكون المحمول إلى مثواه! أهو ملك؟ أم فاتح؟ أم بطل من الأبطال الذين تُحدّثنا عنهم الأساطير؟

والحقّ أنّ فقيدنا لم يكن ملكاً ذا عرش وصولجان وجنود، ولا كان فاتحاً غزا الممالك وأخضع الأمصار وأذلّ الرقاب، ولا بطلاً عنيداً تنسج مدهشاته قرائح الخياليين والرواة. ولكنّه كان إنساناً رزيناً وادعاً، فتح القلوب بالخلق النبيل، ودحر الخصوم

بسيف العدل، وامتلك ناصية الشهرة، بسداد الرأي، وسعة العلم، وروعة التفكير.

وللشهرة الواسعة، والصيت البعيد، والذكر الخالد، ضريبة يؤدّيها النابغ من دم قلبه وعصارة لبّه. فهو كالشمعة الموقدة على هيكل الوجود، تشتعل وتذوب لتبدّد ما يكتنف أبناء الوجود، من ظلمات ينتشر في غياهبها الجهل والظلم والاستئثار.

لقد كان الأستاذ **نصرت منلا حيدر**، نابغاً بفطرته، عبقرياً بغريزته، غنياً بمواهبه، مخلصاً لمهنة ارتضاها لنفسه، وتعشّقها بكلّ جوارحه، لأنّها صوت الحقّ، ونداء العدالة، ولسان القسطاس النزيه القويم.

ولهذا كان الأستاذ **نصرت** القاضي الهائم بمهنته، والموله بالتشريع، المتمكّن من القانون، والساعي إلى دفع الجور وإعلاء راية الإنصاف، والمنكبّ على القوانين باحثاً منقّباً، يجلو غوامضها، ويمحّص دقائقها، ويقارن بين موادّها. ويستوعب بفكره النيّر، نصوصاً فيها الغثّ والسمين، فيأخذ المفيد ويطرح الزبد، ويطلع على الناس، مؤمناً بعلمه، واثقاً بقدرته، مطمئنّاً إلى النتيجة الحاسمة، والمعركة القانونية الفاصلة.

وسرعان ما عرف أعلام القضاء والقانون، قَدْر هذا الرَجل المتدفّق حيوية، والمتوقّد ذكاء وحماسة، والطالع على الحاكمين بآيات بيّنات، لم يعرفها أقطاب القانون، ورجال التشريع.

والذين عاشروا الأستاذ **نصرت منلا حيدر** وجالسوه أدركوا عظَمة الرجولة الكامنة في نفسه، وتبيّنوا بعض ما حباه الله من عبقرية تجتذب الجماهير، وتتلاعب بالمشاعر، وتقبض بيد العلم والقانون، على ما يبتغي من توفيق وما يصبو إليه من نجاح.

وعرف له قضاة القطر ومحاموه فضله ونبله وتواضعه، فأحبّوه واحترموه، واتّخذوه مرشداً وموجهاً ومعلّماً. فكان مثال المرشد والموجّه والمعلّم اللطيف. وكانت أعماله كلّها، متّسمة بطابع الجدّ ورافلة بحلل الاستقامة والإصلاح.

وشاءت الدولة أن تفيد من خبرته وحنكته وعلوّ ثقافته، فعرضت عليه الوزارة مراراً، وتسلّم رئاسة المحكمة الدستورية العُليا، وكان المستشار القانوني للقصر الجمهوري، وكان حجّة من حجج القانون ومرجعاً يُستأنس برأيه السديد وقوله المقنع.

عرفتُ الفقيد العزيز منذ ثلاثين سنة. وكان رحمه الله صديقاً لوالدي يزورنا في كلّ مناسبة لأنّه كان محباً للأدب ولرجال الفكر والقلم والصحافة، فأحببناه.

وكنتُ أزوره مع أبي في الأعياد والمناسبات في بيته بحلب، فأجد كبار القضاة والمحامين ورجال العلم والأدب في مجلسه يستمعون إليه ويستفيدون من علمه وآرائه وفتاواه. وكأنّي ألمح طيف والدي يحوم في سماء غرفتي متمنّياً لو أنّه شارك في تشييعه. لقد كنت كلّما شاهدته ازددت به محبّة لأنّه كان حركة دائمة قوامها العلم والقانون والدقّة والإخلاص والوفاء لله وللوطن ولمحبّيه. ولهذا سارت وراء نعشه حلب بأسرها تودّعه الوداع الأخير، مترحّمة على نفسه الزكية النقية المغتسلة بكوثر الفردوس، والمعطّرة بأريج النعيم.

ففي ذمّة الخلود، أيّها الراحل الكبير الغالي. لقد كنت عظيماً في حياتك ومماتك، وبليغاً في كلامك وصمتك، وها أنت ذا تعظنا اليوم أبلغ عظة، وتعلّمنا أنّ الحياة حلم، وأنّ المال وهم، وأنّ الصلاح غنم، وأنّ السماء للعاملين، وحُسْن العاقبة للمتّقين.

فانعمْ بموطنك الخالد بين الأبرار والصدّيقين. وانطلقْ نحو سدّة الشمس لتصل إلى سدرة المنتهى، وليبقَ وشاح النّور متلألئاً عليك.

(يوم التأبين: الضاد، العدد الخاصّ ٢/١٩٩٩، ص٣-٦)



الكَردينال مار إغناطيوس موسى الأوّل داود

رَجل سوري، نذر نَفْسه لخدمة الله والوطن، حتّى أصبح بطريركاً أنطاكياً على السريان الكاثوليك، وكَردينالاً شرقياً في الفاتيكان. ونعني صاحب الغبطة والنيافة البطريرك الكَردينال **مار إغناطيوس موسى الأوّل** داود.

هو من مواليد مسكنة – حمص في العام ١٩٣٠. تلقّى القراءة والكتابة في مدرسة البلدة. فتوسّم فيه راعي الأبرشية خيراً. وأرسله لمتابعة علومه في إكليريكية **مار أفرام** وفي دير **مار مبارك** في القُدْس العام ١٩٤١. ثمّ انتقل مع رفاقه الإكليريكيين إلى دير

الشرفة بلبنان العام ١٩٤٩. وفي العام ١٩٥٢ رُسم كاهناً وخدم أبرشيّته في مدينة حمص. وأُوفد إلى روما لدراسة الحقوق الكنسية العام ١٩٦٢.

وفي العام ١٩٧٠ عُيّن أمين سرّ البطريركية في بيروت. ثمّ نُصّب مطراناً لأبرشية القاهرة بعد أن انتخبه السينودُس العام ١٩٧٧.

وفي العام ١٩٩٤ نُصّب مطراناً لأبرشية حمص وحماة والنبك وتوابعها. وقد تمّ الاحتفال بالتنصيب في كنيسة سيّدة النجاة ببلدة زيدل التابعة لأبرشية حمص، هذه البلدة التي أعطت الكنيسة السريانية الكاثوليكية العدد الكبير من الكهنة والأساقفة.

وقد انتخبه السينودُس المقدَّس بطريركاً على السريان الكاثوليك في العام ١٩٩٨. وتمّ تنصيبه بطريركاً في كاتدرائية سيّدة البشارة – لبنان. وفي العام ٢٠٠٠ عيّنه قداسة البابا الراحل **يوحنّا بولس الثاني** رئيساً للمجمع المقدَّس للكنائس الشرقية. فأصبح أوّل شرقي عربي يرأس المجمع في القرن الحادي والعشرين. ثمّ نصّبه قداسته، في مطلع العام ٢٠٠١، كَردينالاً في الكنيسة الجامعة، بكلّ ما في هذه الرتبة من أمانة وفخار.

هذه المحطّات، المشرقة والمشرِّفة في آن، تدلّ على هذا السرياني الأصيل المتأصِّل في تاريخه العربي المشرقي، والمفعَم، منذ بداياته، نضارة ومحبّة. وإنّنا، من خلال تدرّجه في مناصبه، ومن الشعارات التي وضعها هدفاً أسمى في مسيرته [1]، نلمس أنّ غبطته كان، بحقّ، الأب الأكبر، والرأس المفكّر الفطن، والراعي الصالح المخلص لأبناء رعيّته، والقلب المنفتح على جميع مَن حوله. يستمع إليهم. ويلتقي معهم. ويواجه مشكلاتهم وهمومهم، فيحلّها بطريقة ترضي الناس، على مختلف فئاتهم. فتراه يدخل إلى قلوبهم، عن طريق المحبّة والصدق والإخلاص، ويقدّم لهم النصائح المفيدة المجدية والحلول المُرضية، ويشجّعهم على التآخي والمحبّة والتعاضد.

وكان يرعى أصحاب الحاجة والفاقة، ويساعد المعوزين والبائسين، بجمع التبرّعات من الموسرين ويقدّمها لهم. وإنّك لتراه أيضاً يهتمّ بالأشدّ فقراً وحاجة وعوزاً وبؤساً،

[1] "الحقّ بالمحبّة"، "الأب والرأس والراعي"، "صرتُ كلاً للكلّ".

ويلبّي العليل والمريض، فيسعى إلى دعمه ومساعدته وإبعاد شبح المرض عنه بالاهتمام والرعاية... ولهذا كلّه أحبّه الجميع، لأنّه كان محباً للجميع. فملك قلوب رعيّته وأبناء جلدته بالخدمة والمحبّة والرعاية. حتّى أضحى رَجل إيمان ومحبّة وتضحية ووفاء، رَجل دين ودنيا، في كلّ مراحل حياته، وفي المحطّات التي حطّ فيها.

كنتُ قد عرفتُ الكَردينال داود، يوم اعتلى السدّة البطريركية، وزار حلب زيارة راعوية، ما بين ٨ و١٤ تشرين الثاني ٢٠٠٠. فالتقيتُ غبطته، ورحّبتُ به في حلب الشهباء. وأجريتُ معه لقاءً صحفياً يوم الجمعة ١٠ تشرين الثاني، نشرتُه في مجلّة "الضاد"، العدد المزدوج ١١ و١٢ للعام ٢٠٠٠، ص٢١-٢٦، بعنوان: "البطريرك مار **إغناطيوس موسى الأوّل داود**".

تحدّثنا في اللقاء عن أمور كثيرة، أهمّها قضية فلسطين التي عاشها، وهُويّة القُدْس، وجيل الشباب الفلسطيني. فقال: "عشتُ مأساة القُدْس منذ بدايتها. لقد كنتُ موجوداً في القُدْس العام ١٩٤٨. وحضرتُ أوائل الحرب العربية - الإسرائيلية. وكنّا في قلب المعركة. وبعد إعلان دولة إسرائيل وتأزّم الوضع كنتُ شاباً ونُقلت إلى لبنان. والحقيقة أنّ المأساة تركت آثاراً منذ ذلك الحين في قلبي... عاصرتُها وعشتُ أحداثها. وحتّى اليوم لم نصل إلى حلّ، إلى سلام، رغم الجهود المبذولة... أنا متعاطف مع أولئك الشجعان إنسانياً واجتماعياً وعربياً. وقد حضرتُ كلّ المؤتمرات الأسقفية والبطريركية في هذا الشرق، وعلى مستوى كنائس الشرق الأوسط. وكنتُ أندّد بهذه التعدّيات، وأساند روح المقاومة، والحقوق الفلسطينية، والسيادة على القُدْس...

أيضاً الكنيسة ندّدت دائماً بهذه التعدّيات والعمليّات العدوانية، وطالبت بالاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني... إنّ الحقّ الذي يطالب به جيل الشباب الفلسطيني لا بدّ سينتصر. فلا يموت حقّ وراءه مطالب... وإنّ عيون العالَم بالنتيجة ستبصر وستعترف بالحقّ، ويصل هؤلاء إلى مطلبهم ويحقّقون النصر. وعندنا أمثلة كثيرة في التاريخ، حيث إرادة الشعب هي التي تنتصر في النهاية...

نحن نشارك وجهة نظر عالَمية. وهي أن تكون القُدْس محرَّرة ومفتوحة لجميع الأديان والشرائع، يُعترف بها دولياً كمدينة مقدّسة، وفوق كلّ هيمنة إسرائيلية. لأنّ

القُدْس لا تخصّ اليهود بقدر ما تخصّ المسيحيين والمسلمين، فمن الأفضل أن يكون هناك وضع خاصّ للقُدْس كعيش مشترَك معترَف به دولياً، وينظَم فيه الوجود والحياة، وتبقى مدينة محرَّرة ورمزاً إلى السلام بين الأديان والأُمم".

أمّا عن التراث السرياني ولمّ شمل السريان، فقال: "لستُ مهتمّاً بالنشر بنوع خاصّ. اهتمامي الأكبر، منذ توليتي السدّة البطريركية، هو لمّ الشمل وجمعه. لأنّ الكنائس السريانية والعالَم السرياني مقسّم ومجزّأ إلى ستّ أو سبع طوائف. وهذه الطوائف أصبحت صغيرة ولا تملك الإمكانيّات. فلو جمعنا شملها لأصبحت قادرة على إعادة ونشر التراث السرياني الثمين الذي سيكون مصدر غنى كبير للعالَم، وسيأخذ أهمّية كبيرة، وسيُقبل العلماء عليه. وربّما سيضطلع بدَور كبير بين الشعوب. لأنّه كان في القديم صلة الوصل بين الغرب والشرق. حيث تُرجمت كتب الثقافة والفلسفة من العربية إلى اللغات الأُخرى. وكانت أهمّ جسر عظيم بين الحضارات...".

وعن انطباعاته عن زيارته إلى مدينة حلب الشهباء قال: "أغادر حلب وفي قلبي ذكريات عذبة لن أنساها مدى الحياة. إنّني وجدت جوّاً رائعاً من التآخي الدِيني بين المسلمين والمسيحيين، وسلاماً وطمأنينة بين جميع المواطنين والمسؤولين من دون تفرقة...".

هكذا ترى، أيّها القارئ، أنّ غبطته يتمتّع بنظرة ثاقبة، ورؤية واضحة، ومبادئ صادقة نحو أُمّته السريانية العربية، ووطنه سورية، وأبنائه البررة - أينما وجدوا، سواء في الوطن أو في المهاجر الأميركية والأوروبّية، حيث زار معظم الجاليات - لأنّهم جزء من الوطن، يجب عليهم مساندته ودعمه بكلّ ما يستطيعون.

وغبطته، بهذه الزيارات التي قام بها إلى المغترب، زرع الفرحة في قلوب المغتربين جميعاً، من سوريين وعرب، وحثّهم على التواصل من بلاد الاغتراب. وهذه اللفتة الكريمة أكسبته مزيداً من المحبّة لأنّه اهتمّ بجميع المقيمين والمغتربين، وزار أماكن لم يزرها بطريرك منذ زمن طويل.

ولعلّ هذه هي رسالة مجلّتنا نَفْسها، مجلّة "الضاد"، منذ تأسيسها حتّى اليوم،

فهي الجسر الممتدّ بين الوطن وأبناء الجاليات فـي المغترب كافّة.

أمّا عن حياته الروحية، فهو يتحلّى بروح المحبّة والإيمـان الـصادق. وهـذا يتجلّـى بروح إيمانية. إذ يشجّع على الاستمرار فـــي مـسيرة الإيمـان، والمحافظـة علـى الـتراث السرياني وتقاليده، والتمسّك بالتاريخ العريق، وجـذوره الـضاربة فـــي الـشرق، مهـد الأديان والحضارات. وهذا ما قدّرتْه حاضرة الفاتيكان، فـي شخصيّته وإيمانه ومحبّتـه، فاختارته كَردينالاً فـي مقدّمة صفوفها، قادماً إليها من الشرق.

لقد أصدرت الضاد في العام ٢٠٠٩ هدية إلى قرّائها ونـصرائها في الـوطن والمهجـر ولمناسبة الذكرى لاعتلاء غبطته السدّة البطريركية (١٩٩٨-٢٠٠٨) عدداً خاصاً بعنوان: "القادم من الشرق الكَردينال مار إغناطيوس موسى الأوّل داود" بقلم الباحث **جوزيـف كحّالة** – باريس.

وفـي الكتاب فصول ممتعة. وجوانب محبّبة من تاريخ الأُمّة الـسريانية والعربيـة، إضـافةً إلى وجوه خيِّرة نيِّرة، أعطت الفكر، ومدّت الحضارة بالـشيء الكـثير، فكـان لـــها أثرها البارز والمميّز فـي إغناء العالَم بعراقة الشعب السرياني، روحيـاً وثقافيـاً وفكريـاً، ولا يزال هذا الأثر حتّى يومنا هذا.

لقد كان وفاء من أسرة "الضاد" أن اعتمدت هـذا الأثـر النفـيس والكتـاب الفنّـي، وأظهرته إلى النُور على نحـو خـاصّ، ليـستفيد منـه الجميـع، وفـــي مقـدّمتهم قرّاؤهـا ونصراؤها في الوطن والمهجر، ويتعرّفوا الأُمّة السريانية العربية بشخص الكَردينال **مـار إغناطيوس موسى الأوّل داود.**

(مجتزا: الضاد، العدد الخاصّ ٥ و٢٠٠٩/٦، القادم من الشرق، الكَردينال مار إغناطيوس موسى الأوّل داود)



المخرج العالمي السوري
مصطفى بكري العقاد

رفع رأس مدينته الشهباء عالياً في عالم الفنّ. وخدم أُمّته العربية بمنتهى الجدِّ والصدق والإخلاص. وأظهر لمئات الملايين من الأميركيين والأوروبّيين والآسيويين، أمجاد العروبة والإسلام. وسار في طليعة عباقرة المخرجين السينمائيين العالميين، بثقة واعتداد. وأخرج أفلاماً في غاية الروعة والعظَمة والإبداع، استوحى موضوعاتها من تاريخنا الحافل بالمفاخر والمآثر والبطولات، كفيلم "الرسالة" الذي شاهدناه في منزل

والده المرحوم **بكري العقّاد** عام **١٩٧٧**. وقد عُرض في باريس باللغة العربية، وببعض اللغات الأجنبية كالفرنسية والإنكليزية بضعة أسابيع متواصلة. كما تسنّى بعد ذلك لمعظم سكّان أوروبّا وغيرها من أقطار العالم، أن يروا سموَّ الرسالة التي قام بها النبيّ العربي **محمّد** (صلعم) وكيف حطم الأصنام، وهدى الناس إلى عبادة الله. ونشهد أنّنا أحسسنا بالخشوع والفخر والاعتزاز معاً، أنّ منتج ومخرج هذا الفيلم الخالد، عربي سوري من حلب، وأنّ بيت أبيه الرَجل الطيّب الفاضل رحمه الله **بكري العقّاد**، لا يبعد عن بيت والدي في حيّ المحافظة سوى مئة متر تقريباً.

وكان فيلمه الثاني "**عمر المختار**"[1] معجزة السينما في العصر الحديث، ورائعة النضال البطولي الخارق الذي قاده ذلك المجاهد العربي الليبي بوجه الاستعمار الإيطالي الغاشم. وقد امتاز هذا الفيلم، بأشرف مقوِّمات الإباء والفداء والتضحية، بالإضافة إلى قوّة الإخراج والتفنّن المُدهش بتمثيل المعارك الحربية الرهيبة، التي تخالها مشاهد حيّةً واقعية، لا أشعّة ملوّنة تعكسها آلة سينمائية على الشاشة البيضاء. **فمصطفى** من هذه الناحية، أستاذ كبير قدير، ذو خبرة عجيبة بأخبار العرب ووقائعهم وبسالتهم في القتال، وصبرهم الطويل على مقارعة الأعداء.

أهمّ مشاريع مصطفى العقّاد

التي كان ينوي إنجازها

فيلم "**صلاح الدين الأيّوبي**" ولو نُفّذ كان أعجوبة الأفلام السينمائية في العالم، من حيث الضخامة والتفنّن، وخصوصاً من حيث التشابه بين ما تعانيه أُمّتنا الآن، وبين ما كانت تعانيه في تلك الحقبة من التاريخ. ولكنّ القدَر شاء أن يرحل أمير الإخراج من هذه الديار الفانية إلى دار البقاء والاستقرار، دون تحقيق أمنيته في تصوير هذا الفيلم الرائد.

وكان **العقّاد** قد نفى الأنباء التي تردّدت عن فيلم جديد آخَر يقوم بالإعداد له ويتولّى بطولته المطرب المصري **عمرو دياب** باسم أمير الأندلس (**عبد الرحمن الناصر**).

---

[1] وُلد عمر المختار في برقة، وحارب الإيطاليين الذين أسروه وأعدموه سنة ١٩٣٢ شنقاً رغم كبر سنّه.

واستغرب العقّاد ما نشرته بعض الصحف عن هذا الفيلم المفترض وقال: "لا أفهم كيف تتمُّ صناعة الأخبار التي لا هدف لها سوى الإثارة، إلى درجة يبني فيها كاتب الخبر أوهاماً على لقاء سريع بيني وبين عمرو دياب على هامش مهرجان القاهرة السينمائي، ويخرج منها بميزانية لا تكفي أجوراً لبطل الفيلم، وبأسماء وأبطال من نسج الخيال الممزوج ببعض الأفكار التي تطرح لمجرد التسلية!".

هذا ما قاله لنا شخصياً عندما التقيناه به في أواخر العام الماضي، ونشرنا هذا النفي في العدد الأوّل من مجلّتنا "الضاد" الصادر عن شهر كانون الثاني ٢٠٠٥ في الصفحة ٣٢.

بقي أن نعرف أنّ هذا المخرج الفذّ، أبصر نُور الوجود في حلب الشهباء عام ١٩٣٠، ودرس فيها العلوم الابتدائية. وعندما أُغلقت المدارس الفرنسية بعد الاستقلال، انتقل إلى الكلّية الأميركية بحلب ونال شهادة "الصوفومور". وكان والدي يدرّسه مادّة اللغة العربية. ثمّ نال الشهادة الثانوية. وكان مولعاً منذ صغره بالفنّ والإخراج السينمائي بنوع خاصّ. وقد أخرج في الكلّية المشار إليها مسرحية "شعلة من الصحراء" فأحرزت أكبر قدْر من النجاح والاستحسان.

وقد دفعه حبّه الوافر للفنّ إلى السفر عام ١٩٥٥ إلى الولايات المتّحدة بقصد دراسة الإخراج السينمائي في هوليود، حيث فاز بشهادة "الدبلوم" ثمّ بشهادة "الماجستير". وهناك أسّس شركةً للإنتاج السينمائي، وله أفلام عديدة من إنتاجه وإخراجه وكلّها ذات مستوى فنّي رائع.

لمصطفى العقّاد شقيق وشقيقة أصغر منه سنّاً. أمّا الشقيق فهو الأستاذ زهير العقّاد الذي كان بين عامي ١٩٦٧ – ١٩٦٨ وزيراً للثقافة والإرشاد القومي. ثمّ عُيّن سفيراً للجمهورية العربية السورية في نيقوسيا بين ١٩٦٨ – ١٩٧١. ثمّ أصبح سفيرنا في البرازيل بين ١٩٧٣ – ١٩٧٩. ثمّ عاد إلى دمشق ليشغل منصب مدير الإدارة القنصلية في وزارة الخارجية السورية بدمشق إلى أن تقاعد. ويتمتّع السيّد زهير بمزايا إنسانية ووطنية عالية، وبخلق كريم نبيل يحلّيه علمٌ واسع وتواضع جمّ يشدُّ إليه القلوب، ويجعله ذا مكانة محترمة عند جميع أصدقائه وعارفيه وقاصديه.

وأمّا شقيقته فهي الدكتورة **ليلى العقّاد**. درست علومها الابتدائية والثانوية في مدارس حلب، وتخصّصت بالإعلام في مدينة لوس أنجلوس حيث نالت "الدبلوم" و"الماجستير". ثمّ حصلت من جامعة القاهرة على شهادة الدكتوراه في حقل الجامعة المفتوحة، وعملت في جامعة حلب حتّى يوم تقاعدها.

إنّ حلب الشهباء تفاخر وتباهي بأسرة السيّد **بكري العقّاد**، الذي أنجب لحلب وللعرب أبناء بررة أوفياء، أثبتوا للعالم أجمع كيف تتألّق العبقرية العربية إذا أُتيحت لها وسائل العلم والرعاية والتشجيع.

ولقد أصدر السيّد الرئيس **بشّار الأسد** مرسوماً جمهورياً بمنح المخرج العربي السوري الكبير **مصطفى العقّاد** وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة تقديراً لإبداعه وخدمة وطنه وأُمّته بكلّ إخلاص ونزاهة وتجرّد وصدق انتماء.

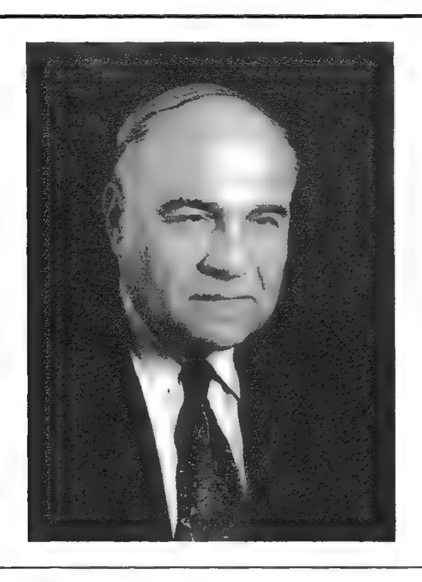
كما منحه الرئيس اللبناني **إميل لحّود** وسام الأرز الوطني من رتبة كومندور، تقديراً لإبداعاته وفنّه التراثي الأصيل.

كما ودّعه الشاعر السوري **سليمان العيسى** بهذين البيتين لدى سماعه نبأ استشهاده:

عمرُ المختار.. هل راعكَ ما راعني.. والليلُ يَروي النّبأ؟
أنتَ مثلي.. لهفةٌ جازعةٌ عبقريٌّ من بلادي.. انطفأ

رحم الله المخرج الكبير **مصطفى العقّاد**، الذي سيبقى حيّاً في ذاكرة وطنه وأُمّته بعطائه وإبداعه الفنّي. لأنّ فقده خسارة كبيرة ليس لحلب وسورية فقط، بل للأُمّة العربية جمعاء وللعالم بأسره، بأعماله العالمية التي جسّدت قضايا عربية وقومية وإنسانية.

(الضاد، العدد ١١/٢٠٠٥، ص٣-٧)



محمود فاخوري
منحة العاصي

هيهات أن يكون في وسعنا في وقفة يسيرة أن نتناول معاً الفاخوري الأديب، والفاخوري الثائر، والفاخوري المربّي، والفاخوري الوطني.

وأنّى لكلمة وجيزة أن تبرز صورة جلية عن لطفه وتسامحه، أو عن دماثة طبعه، وحلاوة معشره وكرم ضيافته ونبل أخلاقه وصدق وفائه وحبّه للجميع، ولهذا أحبّه الجميع.

لقد عرفتُ الأستاذ **محمود فاخوري** منذ خمسة عقود تقريباً عندما جاء إلى حلب مدرّساً وكان يزور والدي باستمرار. وعندما أصدر والدي – رحمه الله – ديوانه الثالث "عصير الحرمان" كلّف أديبنا الكبير **الفاخوري** بكتابة مقدّمته، فكتب مقدّمة رائعة تشهد له بقدرته الأدبية وسعة علمه وقوّة سبكه وجَمال تعبيره. فأحببته وبدأت بالتقرّب منه.

وعندما شكّلنا لجنة تحرير "الضاد"، كان في طليعة العاملين بجدّ وإخلاص. والحقّ أنّني استفدت كثيراً من علمه وخبرته في تنقيح المقالات والقصائد. وكان يبرهن لي موثّقاً كلّ تصحيح قام به. ولهذا فإنّني أعتمد عليه كثيراً، بالتعاون مع هيئة التحرير، وله فضل كبير على صدور مجلّة الضاد خالية من الأخطاء. فهو ركن أساسي من أركانها. نعتمد عليه ونراجعه في كلّ شاردة وواردة.

وإذا ما بادرت مجموعة أصدقاء اللغة العربية، بالتعاون مع مديرية الثقافة بحلب، في تشرين الأوّل ٢٠٠٩ إلى تكريمه إنّما لأنّه يمثّلُ الأدب في أرفع نواحيه وأشرف معانيه... يمثّل أدب النفس والروح والضمير والقلب واليد واللسان، وقد لا يشاركه في هذه المزايا الساطعة سطوع الشمس إلاّ أفذاذ في الشرق والغرب آثرهم الله بكرامته وجمّلهم بنعمته.

وهذا الأدب الذي حباه الله به وأضفاه عليه هو الأدب الحقّ الذي يكرّم نفسه في كلّ موطن يحلُّ به، أمّا ما سوى ذلك فوهم ينهض بجناحين من تنويه وتمويه.

لقد سبق وتنادت جامعة حلب واتّحاد الكتّاب العرب وجمعية العاديّات ونادي التمثيل العربي ووحدة كلّية الآداب في نقابة المعلّمين إلى تظاهرة تكريمية **للفاخوري** في العام ٢٠٠٠.

الأعوام التي نسج الأستاذ **محمود فاخوري**، خلالها كلّها، من الحروف كلمات، ومن الكلمات مقالات وخواطر، هي أعوام للعمل الذي به الموهبة تصقل وتتجلّى، وتورق وتثمر، ويأتي ثَمرُها مباركاً لأنّه ابن الجهد يُدعى، وهذا الجهد كان له اتّجاه، به اهتدى، ومعه، نقلة نقلة، سار مكرّساً سهر الليالي، ونُور العيون، في سبيل الإنسانية، وتقدّم البشرية ونصرة هذه الأُمّة ووحدتها.

ومن الكلمة وراء الكلمة نصنع سطراً، ومن السطور صفحات، ومن الصفحات كتباً. غايتها أن تساعد الإنسان على أن يغدو أفضل، وأطهر نفساً. وأن تثير فيه محبّة السعي والنضال. من أجل هذا كان المربّي والأديب والكاتب إنساناً متميّزاً. متفرّداً مناضلاً، دأبه أن يستأنف ضدّ الواقع، ليجعله واقعاً آخَر. أجمل، أصدق، أكثر دفئاً ومحبّة. ودأبه أن يرتاد، لأنّ موقعه في الطليعة.

الفاخوري في ساح المعركة منذ نصف قرن وأكثر. وقد أُوتي من الصبر والجلَد في أداء رسالته الأدبية والفكرية، ما يستحقّ عليه التهنئة الحارّة، وما يستأهل من أجله كلّ حمد وثناء، وكلّ دعاء صادق في أن يمدّ الله في عمره، ويثري في قلمه، ويبارك في عمله، حتّى يعطيَ ويزيد في العطاء ما امتدَّ به العمر واتّسعت فسحته.

وهذه فرصة للتعبير عن شعور يأبى إلاّ أن يترجم عن ذاته، وأن ينتقي من الكلمات طاقة زهر، تحية لَمن علّم الشباب الصاعد لغة الضاد، ولَمن كتب الكثير عن أدبنا العربي، قديمه وحديثه، وأفعم دنيانا بالطيب والعطور كلَّ هذه السنوات الطوال.

يا منْحَةَ العاصي

نظمتُها تحية صادقة من قلب محبّ وفيّ
يكنّ للأستاذ محمود فاخوري كلّ تقدير وإعجاب

مَن ذا ينازعُكَ المعالي والرتبْ … ولقد ولجتَ الخُلدَ منْ بابِ الأدبْ
لو سطَّر التاريخُ مجدَكَ ما ارتضى … للخطِّ من حِبْرٍ سوى ماءِ الذهبْ
ما أنتَ إلاّ في الربيعِ ربيٌّ، إذا … ما كنتَ فوّاحَ العطورِ فلا عجبْ
ما العمرُ في طولِ الزمانِ على الفتى … لكنْ بما منْهُ الزمانُ قد اكتسبْ
كلُّ السيوفِ إلى أُفولٍ مجدُها … إلاّ اليراعةَ مجدُها يطوي الحقبْ
مَنْ كانَ يُبحرُ في شراعِ يراعةٍ … بلغَ المُنى مجدافُهُ، وقضى الأربْ
ما وحَّدَ الأعرابَ كالفصحى وما … قوّى كحبلِ الضادِ بينهمُ النسبْ

إنْ كانتِ الفُصحى مُحجَّبةَ الغنى ... فلقدْ هتكتَ بريشةٍ ليلَ الحُجُبْ
وغدتْ جواهرُهَا الغوالي معرِضاً ... فيما نقشتَ من الصحائفِ والكتبْ
الضادُ بعدَ البيتِ عندكَ كعبةٌ ... وترى إليها الحجَّ أوجبَ ما وجبْ
ما كانَ حبُّ الضادِ غيرَ عبادةٍ ... ترجو بها حسبَ الإلهِ المرتقبْ
يا قلعةَ الحرفِ الأصيلِ وحصنَهُ ... من كلِّ سهمٍ منْ عدوٍّ أو لهبْ
أفنيتَ عُمركَ في الحياةِ مجاهداً ... تُعلي إلى شُمِّ الذُرا لغةَ العَربْ
لو تنشدُ الأيّامُ كأساً لم تذقْ ... إلاّ حروفَكَ فوقها يزهو الحببْ
مَنْ للبلاغةِ وهْيَ خلفَ حجابِها ... إلاّكَ يكشفُ من شذاها ما احتجبْ
مَنْ للعَروضِ سواكَ ينحتُ صخرَهُ ... ويصوغُ من جلمودِهِ وترَ الطربْ
(وسفينةُ الشعراءِ) كم قد أنقذتْ ... من عائمٍ غرٍّ إذا البحرُ اضطربْ
والنحو مَنْ للنحوِ شاكَ مَسائلاً ... تُجريهِ خمراً دونَهُ خمرُ القُرَبْ
يا مجمعيُّ ونعْمَ منْ لَقبٍ تُرى ... مَنْ منكُما بأخيهِ حلّقَ باللقبْ
يا مكتباتٍ حَيَّةً يُروى بها ... ظمأُ الألى ظمئوا إذا عزَّ الطلبْ
ما ندوةٌ إلاّ وكانَ خطيبَهَا ... ولكلِّ مؤتمرٍ تراهُ يُنتدبْ
ما مهرجانٌ لم يكنْ تاجاً لهُ ... ولهُ إذا صدحتْ بلابلُهُ الغَلَبْ
ولهُ رياضُ المكتباتِ اليفةُ ... عن صدرِهَا الريّانِ يوماً لم يغبْ
ضحَّيتَ بالأعمارِ إذ أحببتَها ... وبكلِّ غاليةٍ يُضحّي مَن أحَبْ
وغرائبُ الكتبِ النفيسةِ جاورتْ ... في بيتِهِ الكتبَ الحديثاتِ النَّسبْ
وترُ الخليلِ مجاورٌ (سيَّابَنا) ... ما ضاقَ صدرٌ للخليلِ ولا اصطخبْ
يتعايشانِ على رفوفِ خزانةٍ ... كتعايشِ الأبناءِ في أضلاعِ أبْ
زانتْ خزائنَهُ قلائدُ فكرِنا ... ماساتُها من كلِّ عصرٍ تُنتخَبْ
خُلُقٌ كأنفاسِ الربيعِ ضياؤُهُ ... ما غابَ عن شفتيهِ يوماً أو غربْ
وكأنّما هو من سماحٍ نَسْجُهُ ... ما ضاقَ منهُ الصدرُ أو عَرَفَ الغضبْ
الصبرُ والعملُ الدؤوبُ فراشُهُ ... وبذلكَ العلماءُ قد رفعوا القببْ

خلّفتَ أجيالاً ترامى غَيثُها ... يُنمي الزهورَ على المدى حيثُ انسكبْ
كم من نسورٍ حلّقتْ فوق الذُرا ... منكَ القوادمُ والخوافي والزغبْ
وتناثروا كالشُهْبِ في دُورِ النُهى ... من نَسْجِ كفِّكَ ما تلألأ من شُهُبْ
إنْ تحملِ الرُطَبَ الجنيّةَ أغصنٌ ... فالجذرُ أبدعَ طيبَهُ تلكَ الرُطَبْ
أنتَ الذي أطلقْتَهُمْ سُحُباً، فمنْ ... كفّيكَ ما جادتْ به تلكَ السُحُبْ
أينَ الغرابةُ من دوالينا إذا ... حملتْ دوالينا قناديلَ العنَبْ
ولكم أديبٍ ضاءَ كَانَ خيالَهُ ... في خيرِ ما ألقى، وأجملِ ما كتبْ
لو رحتَ تنظرُ في صحائفِ عصرِنَا ... لرأيتَهُ في كلِّ ما فيها انتصبْ
في كلِّ ساحاتِ البراعةِ لن ترى ... قلماً لهُ ما صالَ فيها أو وثبْ

محمودُ عفوكَ إنْ كبا قلمي، فما ... يُدني من الأفلاكِ في الأرضِ الخببْ
يا أيُّها الحَمَويُّ يا درّاً، وما ... وَلَدَتْ حماتُكَ غيرَ درٍّ مُنتخَبْ
يا منْحَةَ العاصي لشهباءِ العُلى ... بكَ قد سقى العاصي على ظمأ حلبْ

(الضاد، العدد ١٢/٢٠٠٩، ص٤٢-٤٦)



الفنان صباح فخري
صاروخ يحمل النغم الشجي

الصواريخ العابرة للقارّات زادت واحداً.. ولكنّه صاروخ مختلف يحمل النغم الشجي، والكلمة الحلوة والأغنية الشرقية الأصيلة التي لم تتأثر إطلاقاً بالموجة الجديدة التي سادت ساحة الغناء وطبعت معظم الأغاني الجديدة بطابعها، فلم يعد المستمع قادراً على التمييز بين أغنية وأخرى.

صاحب هذا الصوت العابر للقارّات المطرب الكبير صباح فخري امتاز على الدوام

بمواقفه الفنّية المتّزنة التي تؤيّد التطوّر، ولكنْ بشرط أن يكون تطوّراً حقيقياً يشكّل خطوة إلى الأمام وليس إلى الوراء.

ويوماً بعد آخَر كان **صباح فخري** يقطع أشواطاً على الطريق المؤدّية إلى آذان الناس وقلوبهم حتّى أصبحت أغانيه تتردّد في كلّ مكان وعبر القارّات الخمس. فخلال ستّة أشهر من العام ٢٠٠٤ كان المطرب الكبير نجم حفلات غنائية أقيمت في عدد من الدول الأجنبية، في أميركا وباريس واليونان، إضافةً إلى أنّ مفكّرته زاخرة بعقود عمل كثيرة في كثير من البلدان التي توجد فيها جاليات وأندية عربية كبيرة.

أمّا على الصعيد العربي فقد وزّع نشاطه الفنّي بين القاهرة ودبي والإمارات ولبنان والأردنّ... وكان كبير المطربين العرب، فدخل موسوعة "غينيس" الأميركية المعروفة للأرقام القياسية بعد أن غنّى لمدّة ١٤ ساعة متواصلة محطّماً بذلك جميع الأرقام القياسية السابقة.

وُلد **صباح فخري** في حلب عام ١٩٣٣. درس في معهد الموسيقا العربي في حلب ثمّ في معهد دمشق، الذي تخرّج فيه عام ١٩٤٨. سافر إلى مصر ودرس على أيدي كبار ملحّنيها ثمّ عاد إلى سورية ليبدأ تقديم الحفلات في حلب. وسرعان ما ذاع صيته في سورية وانتشر ليعمّ العالم العربي.

عندما كان طالباً في المدرسة الابتدائية شعرت إدارة المدرسة بجَمال صوته وبدأت تُظهره في حفلاتها المدرسية. وصادف أن زار حلب الأستاذ **سامي الشوّا** عازف الكمان الشهير وسمعه وأُعجب بصوته وقرّر اصطحابه إلى مصر موطن الفنون الموسيقية. ولكنّ دمشق بعد أن اكتشفت مواهبه تمسّكت به. وكان آنذاك راعي الموسيقا المرحوم **فخري البارودي** الذي أصرّ على بقائه ولا سيّما أنّ الحكومة السورية كانت على أبواب تأسيس الإذاعة السورية في ٣ شباط ١٩٤٧.

وهكذا تعاقدت الإذاعة معه. وبدأ يقدّم حفلاته الغنائية في كلّ أسبوع. وكان للإذاعة معهد موسيقي تابع لها فدخله **صباح** ليزيد معلوماته الفنّية. فأخذ عن **عمر البطش** الموشّحات والإيقاع وأغاني رقص السماح. كما أخذ عن **مجدي العقيلي** القراءة الموسيقية

والموشّحات. وأخذ بعض الموادّ الأُخرى عن أساتذة المعهد الآخَرين.

كان صوته وغناؤه في إذاعة دمشق فريداً في نوعه وأدائه. لقد تمسّك بالطابع الكلاسيكي العربي المطرب، وساعده على سلوك هذا الطريق مرونة صوته وقوّة صنعته خلافاً للمطربين المعاصرين الذين يعجزون عن أداء هذا الطابع العربي الأصيل لأنّه يحتاج إلى حنجرة قوية صافية وصنعة متينة وصوت مرن يؤدّي الحركات الغنائية العربية المطربة دون تكلّف أو عناء. فخلف صباح في مسلكه هذا المطربين الأوائل وكان فريداً في هذا المسلك.

في عام ١٩٥٦ استدعته إذاعة حلب لتتزوّد منه ببعض التسجيلات من صوته الرخيم العذب، فأخذ بعض الألحان عن بكري الكردي ونديم الدرويش ومجدي العقيلي وبعض ملحّني الإذاعة السورية بحلب.

وعندما تأسّس التلفزيون السوري عام ١٩٦٠ كان صباح أوّل مَن شارك بغنائه في حفلاته. كما اشترك في كثير من البرامج التلفزيونية التي صاحب فيها الغناء.

ولم يكن صباح فخري مطرباً محلّياً بل تعدّى نطاقه الحدود السورية، فسافر إلى مصر وروسيا وغنّى في الأردنّ ولبنان والسودان وأميركا الجنوبية... وأنتج الكثير من الأسطوانات الغنائية التي راجت بشكل كبير. من أجمل نماذج غنائه الموشّحات القديمة والحديثة (ابعتلي جواب، خمرة الحبّ، صيد العصاري، عالروزانا، عالهيلا الهيلا، قدّك الميّاس، قُلْ للمليحة، ما لك يا حلوة، هات كاس الراح، يا طيرة طيري، يا مال الشام، يا شادي الألحان).

عرفناه منذ بداية الستّينيات مطرباً قديراً، غنّى فأجاد وملك ناصية الفنّ العربي الأصيل. وهو يعمل الآن على جمع تراثنا الغنائي العربي البعيد عن التشويه وصرعات جيلنا الجديد.

ولقد قلنا في صباح فخري قصائد كثيرة منها هذه الأبيات:

نغمٌ حلوٌ وصوتٌ يسحرُ ... لحنُهُ بنتُ الدوالي فاعصروا

واشربوا الآهات من أكوابه ... إنّ في الفنّ خموراً تُسكِرُ

هــو "فخــري" إن شــدا في محفــلٍ عربــدَ الكـــأسُ وجـــنَّ الـــوترُ
عنـــدليبٌ صـــفّقَ القلـــبُ لـــه وانتـــشى البـــدرُ وتـــاه القمـــرُ

أدام الله مطربنا الغرّيد الأستاذ **صباح** ليتحفنا دائماً بصوته العذب الشجي وحفلاته المتعة المتميّزة وأصالته العربية المتألّقة [1].

(الضاد، العدد ١١/٢٠٠٤، ص٦٣-٦٤)

---

(١) لقد سُررنا أيّما سرور حين كرّم رئيس البلاد الدكتور بشّار الأسد فنّاننا القدير بوسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة في شباط ٢٠٠٧، وذلك تقديراً لإنجازاته الكبيرة والميّزة في خدمة الفنّ العربي السوري الأصيل وإسهاماته في إحياء التراث الفنّي الذي تزخر به سورية والمحافظة عليه.
كما تابعنا باعتزاز وغبطة جهود صباح فخري في المعهد الموسيقي بحلب حيث تمّ في تشرين الأوّل ٢٠٠٨ افتتاح "معهد صباح فخري للغناء والموسيقا العربية" كأوّل معهد في العالم يُعنى بتعليم أنواع فنون الغناء والأداء والموسيقا وتعليم العزف على الآلات الموسيقية الشرقية. والتسجيل فيه متاح لجميع الطلبة العرب. وهذا حلم كبير لصباح فخري ولسورية قد تحقّق.



عبد العزيز سعود البابطين

- معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين -

إنّها شجرة طيّبة مباركة جذوراً وفروعاً وثماراً. تلك هي أسـرة "البـابطين" الـتي أصبحت علماً للخير، والثقافة العربية، ومروداً يكحّـل عيـون الأدب العربـي بعطـاءات لا ينجزر مدّها، وبمصابيح لا يخبو ضوءها.

وهل من مثـقّف عربي معاصر يجهل أيادي "البابطين" البيض على الثقافة العربية

قديمها وحديثها، تالدها وطريفها؟

وإذا كان لكلّ حيّ قَدَره فقدَر هذه الأسرة العطاء والتضحية بلا حدود.

ومن مشاعل هذه الأسرة الكريمة عرفنا السيّدين **عبد اللطيف** و**عبد العزيز**. والسيّد **عبد اللطيف** هو مؤسّس "**مركز سعود البابطين الخيري للتراث والثقافة** ". أمّا السيّد **عبد العزيز** فصاحب "**مؤسّسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري**" التي تفصح بتسميتها عن حبّ صاحبها الكبير للشعر ومبدعيه.

ف**عبد العزيز سعود البابطين** يرى أنّ الشعر أبو الفنون وقمّة الإبداع العربي. فهو لا يتعامل مع معشوقته القصيدة تعاملاً بارداً حيادياً. إنّه العاشق المتيّم الذي لا يبخل على معشوقته برغيبة، ولا يضنّ عليها بغالٍ، ولا يمسك عنها نفيساً، بل يجود حتّى يتجاوز جوده حدود كلّ جود.

وقد بلغ من هيامه بالشعر وتعلّقه به أن حلم بتأليف "معجم للشعراء العرب المعاصرين". وقد استطاع أن يحقّق هذا الحلم المعجزة الذي طالما راوده، وأن يحيي هذا الأمل العملاق الذي كان يخالج نفسه حينما يخلو بها، وسمّاه: "**معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين**".

وهذا المعجم لم تنبت فكرته من فراغ. فباعثه هو هذا الحبُّ الصوفي للشعر العربي عند **عبد العزيز سعود البابطين**. ويبدو هذا الحبّ في إهداء المعجم الذي جاء فيه: "إلى أُمّتي العربية... الحلم والواقع... وإلى الشعر العربي ضميرها الحيّ.. وإلى معلّمينا الأوائل أصحاب المعاجم والمختارات... وإلى الشعراء العرب رسل التنوير والثقافة والتقدّم.. أهدي هذا المعجم".

فهو يهديه إلى أُمّته العربية. ولم يحصر إهداءه بقيود قطرية، لأنّ عمل المعجم عمل قومي يفترش الوطن العربي من محيطه إلى خليجه، ويخدم شعر الأُمّة العربية أيّاً كان الشاعر. سواء كان يسكن القصور أو يقيم تحت الخيام، وسواء ارتدى قبّعة الغرب وسراويله أو ارتدى عباءة العرب وعقالهم، وسواء كان يلعب بمحار البحر أو يغمس قدمه في رمال الصحراء.

وهو يرى أنّ الشعر العربي ضمير الأُمّة العربية الحيّ الذي ترتسم على نبضاته قيم الأُمّة العربية، ومُثُلها، وآمالها، وأشواقها.

وكذلك يرى أنّ الشعر رسالة. وحملة هذه الرسالة هم الشعراء، هم رسل تنوير وثقافة وتقدّم، فعلى جناح الشعر تحلّق الأُمّة في سماء التقدّم، وتمضي في مدارج الرقيّ.

ثمّ إنّ **عبد العزيز سعود البابطين** أراد لهذا المعجم أن يكون امتداداً لمؤلّفات المعلّمين الأوائل أصحاب المعاجم والمختارات، أمثال: "طبقات فحول الشعراء" **لابن سلاّم الجُمحي**، و"الشعر والشعراء" **لابن قتيبة**، و"طبقات الشعراء" **لابن المعتزّ**، و"معجم الشعراء" **للمرزباني**، و"الأصمعيات" **للأصمعي**، و"المفضّليات" **للمفضّل الضبّي**، و"الحماسة" **لأبي تمّام، والبحتري**، و"الأغاني" **لأبي الفرج الأصفهاني**.

إنّ هذا المعجم موسوعيّ. فقد قدّم لنا ١٦٤٥ شاعراً معاصراً حيّاً مع صورهم، وسيرهم، وعناوينهم، وعناوين أعمالهم، وعناوين الدراسات التي كتبت عنهم، ونماذج من شعرهم، ونماذج من خطوطهم. تعايشوا فيه فنّياً على اختلاف اتّجاهاتهم ومذاهبهم الفنّية، وانتماء شعرهم إلى الشعر العمودي، أو شعر التفعيلة، أو قصيدة النثر. وتجاوروا تجاور الألفة على تباين أقطارهم وجنسيّاتهم ودولهم، إذ كانت الغاية من هذا المعجم – منذ كان حلماً وخاطراً في رأس صاحبه – رسم خريطة كاملة للشعر العربي، والتعريف بشعراء الوطن العربي، وتسجيل المشهد الشعري العربي المعاصر بكلّ ملامحه وتضاريسه وألوانه واتّجاهاته. وذلك يخدم التواصل بين أجيال الشعراء، وكلُّ ذلك يصبّ في صالح الحركة الشعرية العربية، وفي صالح الشعراء العرب، والمهتمّين بقضايا الشعر العربي ونقده، إذ يوفّر لهم الزاد الأشمل والأغنى، ويقدّم لهم المادّة الأوّلية البكر، ويفتح أمامهم أبواب المصادر والمراجع على مصاريعها. ولعمري ليس هناك غاية أنبل من غاية هذا المعجم، وهدف أسمى من هدفه.

وإنّنا لننحني إعجاباً وتقديراً وإكباراً لما بذل في هذا المعجم من جهد مضنٍ، ووقت، ومال. ويكفي أن نذكر معاناة الوصول إلى الشعراء، والاتّصال بهم، وشرح الغاية والهدف من المعجم ومحاورتهم لكي يقدّموا صورهم الشخصية وسيرهم الذاتية

ونماذج من شعرهم وخطّهم لتكون مادّة المعجم. ويكفي أن نذكر وسائل إعلامهم في مواقع إقامتهم على امتداد الوطن العربي وخارجه، المرئية والمسموعة والمكتوبة، وعن طريق الاتّصال بالمؤسّسات والهيئات الثقافية.

ويكفي أن نذكر وسائل الاتّصال الحيّ المباشر بهم من طائرات وقطارات، وسيّارات أو درّاجات، وحيوانات. ويكفي أن نذكر جهد مَن خطّط للمعجم، وحرّك شبكة هذا الجيش العامل الذي قطع كلّ فرد من أفراده في كلّ الاتّجاهات آلاف الأميال ليعود من أزهار الشعر بالرحيق إلى الخلية المركز، التي انكبّ فيها المستشارون والمغربلون والمصحّحون والمنظّمون وفق منهجية صارمة يتساوى في ميزانها كلّ شعراء المعجم: مشهورهم ومغمورهم، صغيرهم وكبيرهم، ذَكَرهم وأنثاهم، قاصيهم ودانيهم، شهيرهم وخاملهم. يكفي أن نذكر ما زُوِّد به هذا المعجم من فهارس متنوّعة تضمّنت: فهرس الأعلام والإحالات، وفهرس الشعراء، وفهرس الدواوين الشعرية، وفهرس الشعراء حسب بلدانهم، وفهرس السنوات والعقود.

وتُوِّج كلّ ذلك بتوطئة نقدية عن الشعر العربي الحديث جاءت في المجلّد الأوّل، وببحوث ودراسات أُلحقت بالمعجم بمجلّد خاصّ بها، كتبها لفيف من كبار النقّاد ومؤرّخي الأدب في الوطن العربي، رصدوا من خلالها الملامح المشتركة لتجلّيات حركة الشعر العربي المعاصر عبر البيئات المحلّية القطرية الإبداعية المختلفة. وبذلك أُضيئت الخلفية التاريخية لهذا الشعر، ورُسم الإطار العامّ للظروف الثقافية والفنّية التي أرهصت به، وصُوِّرت الأرضية التي درجت عليها حركة الشعر العربي المعاصر.

إنّ "معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين" عمل استثنائي فذّ قال عنه أحد وزراء الثقافة العرب: "إنّه لو اجتمعت الدول العربية ربّما لا تستطيع إصدار مثل هذا المعجم".

(الضاد، العدد ١٢/٢٠٠٢، ص٣-٧)



الأديب فوزي عطوي

تعود بي الذكريات، إلى ذلك البلد الوادع الأمين المطلّ على البحر الأبيض المتوسّط، والرافل بحلل الزهو والبهاء.

في ذلك البلد الخيِّر، المطوَّق بسلسلة مهيبة من الجبال الشاهقة، سمعتُ أعذبَ الشعر، ورشفتُ أطيبَ الخمر، ولمستُ صوراً فتّانة خلاّبة، تتعانقُ فيها عذارى الحبِّ، وعرائسُ الإلهام.

هناك، تحت أفياء لبنان الحبيب، رأيتُ الفنَّ بأجلى معانيه، وعرفتُ التجديد بأسمى مبانيه، وتعرّفتُ إلى كبار الشعراء والأدباء والكتّاب والصحفيين وكان في طليعتهم المغفور له الدكتور **فوزي عطوي**.

تعود معرفتي به إلى السبعينيات من القرن الماضي. وكنت ألتقيه كلّما سافرتُ إلى لبنان الشقيق، وكنّا نتجاذب أحاديث الأدب والشعر العربي الأصيل لأنّنا من مدرسة واحدة تدعو إلى الحفاظ على النَظم حسب أوزان **الخليل**. وكنّا نعطّر مجلسنا بذكر أدباء الوطن العربي والمهاجر الأميركية.

ولم يكن الدكتور **فوزي عطوي** سوى واحد من تلك الأجنحة المصفّقة في سماء العبقرية والنبوغ. فالرَجل الظامئ إلى الإصلاح، والراغب في توطيد كيان لغة الآباء والأجداد والساعي بكلٍّ قواه، إلى نشرها وإظهار محاسنها ومفاتنها، أبى إلاّ أن يضحّي في سبيلها، بمتع الصبا، ولذائذ الشباب، ومواقف الوله والحنين. فكان منذ مقتبل العمر، وبسمة الحياة، لا يبرح غرفته، ولا يفارق كتبه، ولا يرضى غير المحبرة واليراع والقرطاس، مؤنساً وعشيراً.

وأتاح له هذا الدأب المستمرّ، أن يُنتج من المقالات والمؤلّفات والدواوين، ما يثير العجب، ويدعو إلى التساؤل، أهذا إنسان من لحم ودم؟ أم هو آلة لا يدانيها الملل، ولا يدركها التعب والنَصَب؟

ولكنّ هذه الآلة البشرية، التي كتبت في كلّ موضوع، وأبدعت في كلّ فنّ، وجالت في كلّ حلبة أدبية، ما لبثت أن أرهقها طول العمل، وتتابع السهر، فأخلدت إلى الراحة، بعد جهاد عنيف، دامَ نصف قرن، أدّت خلاله رسالتها.

في إحدى زياراتي له طلبت إليه أن يكون عضواً استشارياً في أسرة "الضاد". فضحك قائلاً لي: "بكلٍّ سرور يا أخي **رياض** إنّ هذا الطلب يشرّفني أن ألبّيه لأنّني مغرم بلغة الضاد ومجلّة الضاد التي هي مجلّة كلٍّ عربي مخلص في الوطن والمهجر". ومنذ ذلك الوقت كان اسمه الكريم يزيّن الصفحة الأُولى من مجلّتنا "الضاد". كما أنّ مقالاته وأشعاره تتصدّر صفحات الضاد وتزيّنها.

وكان على صداقة متينة وحميمة مع والدي، رحمه الله. الرسائل لا تنقطع بينهما. وكتب له مرّات ومرّات يثني في رسائله على أدبه وشعره المتّسم بالجزالة والرقّة. وممّا كتبه صاحب الضاد مرّة أقتطف هذه الفقرة:

عندما كنتُ في أوروبّا، كنتُ أجدُ متعة كبيرة في قراءة مقالاتكم وقصائدكم الجليلة الفائدة، وكنتُ أترقّب بكثير من الشوق كبريات المجلاّت العربية التي تصدر هناك، وفيها آثاركم الأدبية الرائعة التي تشدُّ إليها القرّاء برفق، وتغريهم بذلك الألق الوجداني والإنساني المنبعث من كلّ كلمة يخطُّها قلمكم المبدع السيّال. فأنتم لا تغمسون ريشتكم بالمداد، بل تغمسونها بذوب القلب والعقل معاً، فتأتي مقالاتكم آيةً في السموّ والإشراق والابتكار، حتّى بتنا في حلب، نسمّي أسلوبكم "الأسلوب **العطوي**" لأنّه يُعطي النفس والفكر أحسن وأبلغ ما يتوقان إليه من ذخائر الأدب، وطرائف الفكر والشعر والقصص.

عبد الله يوركي حلاّق صاحب مجلّة الضاد ورئيس تحريرها [1]

وفي لقاء لي معه كنّا نتحدّث عن الشعر العربي الأصيل. وأطلعته على ديواني المعدّ للطبع. فقال مشكوراً: سأكتب لك المقدّمة إن شاء الله. فشكرته وسلّمته الديوان. وفي لقاء آخَر دفع إليَّ بالمقدّمة مكتوبة بخطّ يده. وإنّني أعتزّ بها لأنّها صادرة عن أديب كبير خبير بالشعر العربي. وقد صدر جزء من الديوان تحت عنوان "من حصاد السنين" من منشورات دار نعمان للثقافة (٢٠٠٩) في إطار جوائز **ناجي نعمان** الأدبية الهادفة، وفيه مقدّمة الدكتور **فوزي عطوي**، المؤرّخة في ١٦ أيلول ٢٠٠٥ وقد كتبها في بيروت.

ومؤخّراً في احتفالية حلب عاصمة الثقافة الإسلامية، مثّل الدكتور **فوزي عطوي** لبنان، إذ حضر حفل الافتتاح، وأسعدني أنّني فزت به مع عائلته وعائلة شقيقه في لقاء أخوي على العشاء.

والحقّ، إنّ الدكتور **فوزي عطوي**، كان مثال الإنساني الصادق، والمعلّم المخلص لواجبه، والحريص على أداء رسالته. وها هم طُلاّبه وطالباته، يشيدون بذكراه،

---

[1] نُشرت في مجلّة "الضاد" حلب، العدد ١١ لعام ١٩٨٥، ص١١، ونُشرت في كتاب فوزي عطوي "في مرآة الشعر والنقد الأدبي"، ص١٩٢، الصادر عن الأكاديمية اللبنانية للكتاب عام ٢٠٠٠.

ويجاهدون بفضله، ويؤكّدون أنّه أفنى نفسه، في سبيل تنشئتهم وتثقيفهم وتزويدهم بأوسع المعارف، وأرفع المبادئ، وأنبل الصفات.

والذين عرفوا فوزي عطوي معرفتي إيّاه، يقدّرون فجيعة الأدب به، ويستعظمون مصاب الأمّة العربية بوفاته. فقد كان لأُمّته ووطنه، قبل أن يكون لنفسه ولأسرته، وكان يستهون الصعب، ويستعذب النضال، ويأبى إلاّ أن يكون على مذبح الواجب، شمعة تحترق، لتبدّد حلكة الجهل، وعتمة الفاقة والمسكنة.

وظلّت هذه الشمعة تذوب رويداً رويداً، حتّى فنيت ذبالتها. ولكنّ نورَها لم ينطفئ، ولن ينطفئ إلى الأبد، لأنّ ألوفاً من الشموع قد قبست اللهب الحيّ، وحملته بفخر واعتزاز، لتجلو به ما قد يعترضها من ظلمات، في دروب الحياة.

(الضاد، العدد ٢٠٠٨/٣، ص١٤-١٦)



الدكتور عصام الزعيم

فقدت حلب، رَجلاً من كبار رجالاتها، علماً وفكراً ورأياً سديداً، عمل بمنتهى الجدّ والاندفاع، في سبيل إعلاء شأن بلاده وطنياً واقتصادياً واجتماعياً وتنموياً، ونعني به الاقتصادي الكبير الدكتور **عصام الزعيم**.

هو ذا فارس آخَر من فرسان الفكر والقلم، يطبق جفنيه، ويسلم الوديعة الغالية، ويغيب عن عالم فانٍ، يموج بالألم، ويعجّ بالتعب والسقم.

هو ذا البلبل الغريد، والاقتصادي المثالي، يترك قيثار وحيه، وينام عن محبّيه،

ويسير في مواكب الخالدين، شامخ الرأس، عاليَ الجبين، وملء إهابه، الرفقُ والصدقُ والحقُّ المبين.

هو ذا اقتصادي الجيل الجديد، آثرَ بعد الجهاد الطويل العنيف، أن يهجع في ظلال الراحة الدائمة. فسار إلى موطن الأبرار والصدّيقين، وهو يؤدّي رسالته أحسن تأدية، إذ كان يحاضر في المركز الثقافي بدير الزور عن التنمية في المنطقة الشرقية ومراحل التحديث والتطوير في الاقتصاد لخير البلاد والوطن. وبعد أن أنهى محاضرته وردَّ على أسئلة الحاضرين، وبعد أن زرع في القلوب، محبّة الله والعروبة والفضيلة الشاملة والأخلاق الحسنة، وافته المنيّة إثر نوبة قلبية.

كان **عصام الزعيم**، اقتصادياً كبيراً، وخطيباً قديراً، عرفته المنابر جريئاً فصيحاً، يقول كلمته بقوّة، ويعلن رأيه بصراحة، ويطلق الأسس السليمة للاقتصاد القويم، ببلاغة وحماسة تخلبان الألباب، وتثيران كوامن الإعجاب.

وكان الدكتور **عصام الزعيم** قد ترك أهمّ المناصب التي كان يشغلها في الخارج وخاصّة في النمسا وفرنسا، وآثرَ أن يعود إلى وطنه ليخدمه بكلّ محبّة وإخلاص. فتسلّم منذ عودته منصب وزير الدولة لشؤون التخطيط ثمّ وزيراً للصناعة بين أعوام ٢٠٠٠ و٢٠٠٣. وهو اقتصادي سوري بارز عمل باحثاً في المجلس الوطني للبحث العلمي في باريس ثمّ رئيساً لفريق البحث ومديراً لمركز التوثيق المؤتمت والدراسات الاقتصادية عن الصناعات الغازية والبتروكيميائية في معهد البحث الاقتصادي والتخطيط بجامعة غرنوبل. كما ترأس إدارة جمعية العلوم الاقتصادية واتّحاد الاقتصاديين العرب. وكان المدير العام للمركز العربي للدراسات الاستراتيجية حتّى وفاته، وله العديد من الدراسات والأبحاث والمؤلّفات الاقتصادية.

عصام الزعيم ابن حلب البارّ هو مَن وزّع بياناً يعرّي الإجرام الإسرائيلي في فلسطين المحتلّة، قرأه في المؤتمر الصناعي الأوروبّي المتوسّطي الذي عُقد عام ٢٠٠٢ في مالقا في إسبانيا، ثمّ انسحب احتجاجاً على مشاركة "إسرائيل". وكان للبيان فعله الكبير في الوزراء الأوروبّيين.

عصام الزعيم هو مَن أعدَّ أوراق عمل مؤتمر وزراء الصناعة الأوّل الذي عُقد في دمشق عام ١٩٨٤. وهو مَن ألغى ما فرضته منظّمة الأُمم المتّحدة للتنمية الصناعية لقاء استراتيجية الصناعة السورية، وقت جاء إلى وطنه كخبير من المنظّمة دون أجر.

عصام الزعيم هو مَن خطّط في وزارة التخطيط وحضّر للاستراتيجية في الصناعة وقت كان وزيراً في كلّ منهما. وهو مَن اشتكى الأوروبّيون من عناده وشدّة مطالبه لسورية عندما كان رئيس الجانب السوري في مفاوضات الشراكة.

عصام الزعيم عرفه قرّاء "الضاد" من خلال مقالاته الاقتصادية والأدبية التي كان يرسلها باعتزاز لتُنشر في المجلّة. وكان آخرها عن المخرج العالمي **مصطفى العقّاد** الذي كان يعتزُّ ويفتخر به. و**عصام الزعيم** هو مَن وضع الإصبع على جراح التنمية والقطاع العامّ وتطوير الصناعة السورية. آخر ما قاله للصحفي **عدنان عبد الرزّاق**: سأنشر بحثاً في جريدة البعث عن الاستثمار في سورية. وحينما أعود من دير الزور نلتقي ونحكي.

كان **عصام الزعيم** رَجلاً بكلّ ما في الرجولة من معنى، وكان حرّاً أبيّاً يغضب للحقّ الطعين، ويثور للكرامة المهيضة الجناح، ويقول ما يعتقده صواباً، لا يخاف غضبة ناقم، ولا سطوة ظالم غاشم.

كان رمز المروءة، ومثال النجدة وعنوان النخوة العربية الحقّة. أحرزَ ثقة الناس وحبّهم وإجلالهم، فراحوا يحتكمون إليه فيحكم بينهم بعدل، وينصف المظلوم، ويخفُّ إلى عون المحتاج وصاحب الحقّ. كان للجميع، ولم يكن لنفسه. وكان صدره الرحب ومكتبه الواسع مفتوحين لكلّ قاصد، ووجهه الرزين باشّاً لكلّ وافد. وما كان يرتاح إلاّ إذا تفانى في خدمة القاصدين والوافدين، وأوصلهم إلى حقّهم أعزّاء مكرّمين.

عرفتُه معرفة وثيقة. ولمستُ من حبّه وعطفه على مجلّة الضاد عطفاً لم ألمسه من غيره ممّن تولّوا المسؤولية، وهذا ما أفاخر به وأعتزّ. فرأيته عفّ اللسان، صادق الجنان، طاهر الوجدان، لا يماري ولا يحابي، ولا يعلن إلاّ ما يؤمن به إيماناً وثيقاً.

توفّاه الله في مدينة دير الزور صباح يوم الجمعة ١٤ كانون الأوّل ٢٠٠٧. وشُيّع جثمانه الطاهر في مدينته حلب عند عصر يوم السبت ١٥ كانون الأوّل ٢٠٠٧

بموكب حفل بحشد من رجالات حلب ومسؤوليها وعلمائها وشيوخها ومطارنتها وفضلائها وأدبائها.

وبتكليف من السيّد الرئيس **بشّار الأسد** عزّى محافظ حلب الدكتور المهندس **تامر الحجّة** أسرة الفقيد والوطن السوري بفقد الدكتور **عصام الزعيم**.

وفي كلمته أشار السيّد المحافظ إلى مناقب وخصال ومآثر الفقيد في شتّى المجالات الاقتصادية والحيوية والتنموية، حيث استطاع الفقيد خلال مسيرته وإلى ساعة وفاته تقديم خبراته الاقتصادية وبذل أقصى الجهود لإنجاح المسيرة الاقتصادية والتنموية. وبيَّن السيِّد المحافظ أنّ الفقيد كان من ألمع وأكفأ الخبراء الاقتصاديين على المستوى الوطني والدولي. وختم كلمته قائلاً: "وإن كان الموت قد خطف الدكتور **الزعيم** وهي إرادة الله، فإنّ عطاءاته ومناقبه وأعماله التي خلّفها للأجيال ستكون ماثلة أمامنا".

ولقد تنادى المعهد الفرنسي للشرق الأوسط بحلب، وجمعية العلوم الاقتصادية فرع حلب، وأصدقاء الفقيد الراحل إلى إقامة ندوة فكرية بعنوان "قراءة في مسيرة الدكتور عصام الزعيم" في دار الكتب الوطنية بحلب مساء الاثنين ١١ شباط ٢٠٠٨ حضرها جمهرة من رجال الفكر والثقافة والأدب وأصدقاء الفقيد وأهله.

افتُتحت الندوة بالوقوف دقيقة صمت على روح الفقيد. كما عُرض فيلم وثائقي عن حياة الراحل، ثمّ تتالت الكلمات فتحدّث كلّ من السادة: **محمّد ظافر محبّك** عن جمعية العلوم الاقتصادية فرع حلب – **محمّد جَمال باروت** عن المعهد الفرنسي للشرق الأوسط (حلب) – **محمود عكّام** مفتي حلب – **عبد الهادي نصري** (وكيل جامعة القلمون) عن أصدقاء الفقيد – الشاعر **رياض عبد الله حلاّق** صاحب مجلّة الضاد – **إدوار مكربنة** نائب رئيس غرفة صناعة حلب وعضو مجلس الشعب عن غرفة صناعة حلب – **كامل قطّان** مدير الثقافة في حلب – **خليل نيازي** عن أصدقاء الفقيد – **عبد المؤمن علبي** عن زملاء الفقيد – الشاعر **شوقي بغدادي** عضو اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق – **مجد الزعيم** نجل الفقيد الراحل – **خالد سعيد الزعيم** عن آل الزعيم – السيّدة **كارمن الزعيم** عن أسرة الراحل.

وقد تحدّث الجميع عن مناقب الراحل الحميدة وصفاته الحسنة وفكره النيّر وتطلّعاته لتطوّر الاقتصاد السوري وتحديثه، وعن حبّه لوطنه سورية وعشقه لمدينته حلب وتعلّقه بالتراث الثقافي والموسيقي ومحاضراته الكثيرة التي ألقاها في ربوع الوطن، وكان آخرها محاضرته في دير الزور حيث وافته المنيّة بعدها.

الطيبُ طيبُكَ يا عصامُ!

نظمتُها وألقيتُها في تأبين المغفور له الدكتور عصام الزعيم

مهما تُنِرْ أعمارَنا الأيّامُ ... فمآلُنا تحتَ التُّرابِ ظلامُ

ما هذه الدنيا إذا عاينْتَها ... إلاّ سَحابٌ غيثُهُ أوهامُ

نأتي فنمضي للقبورِ كأنّما ... لم تسعَ في دربٍ بنا الأقدامُ

ما بينَ ميلادٍ وموتٍ ساعةٌ ... تمضي، كما تتبخّرُ الأحلامُ

ما تَحملُ الأرحامُ ليسَ مخلَّداً ... فإلى الردى ما تَحملُ الأرحامُ

يبكي الوليدُ على الفقيدِ، وفي غدٍ ... يبكي عليه وليدةٌ وغلامُ

من ليلِ أرحامٍ لليلِ مقابرٍ ... والعمرُ بينهما رؤىً ومَنامُ

عِشْ ما تشاءُ على مصابيحِ الغنى ... لكَ في دياجيرِ القبورِ ختامُ

لا يَسلَمُ القصرُ المنيفُ من الردى ... أو من مخالبه تُصانُ خيامُ

كم من مليكٍ حلّقتْ أعلامُهُ ... طُويتْ له بيدِ الردى الأعلامُ

ما خلَّدتْ كسرى جحافلُهُ، وما ... صانته من سهمِ المَنونِ سهامُ

لم ينجُ في يومٍ جبانٌ، أو نجا ... من نابه طولَ الزمانِ هُمامُ

الموتُ آتٍ لا محالَ، ويستوي ... في قبضتيه أكارمٌ ولئامُ

سيعبُّ أكوابَ الردى ذو صحّةٍ ... أو مَنْ سَقَتْ أيّامَهُ الأسقامُ

بالحبِّ عشْنا أو بنارِ خصومةٍ ... فإلى الردى الأحبابُ والأخصامُ

لو يذكرُ الأقوامُ مقصلةَ الردى ... ما كانَ بينهمُ قلىً وخصامُ

أينَ الفراعنةُ الأُلى شهدتْ لهمْ / بعلوِّ ما قد شيَّدوا الأهرامُ
أينَ القياصرُ والأكاسرُ والورى / لهمُ بخوفٍ سُجَّدٌ وقيامُ
أينَ النبيّونَ الكرامُ، وأينَ مَن / عشقوا رسالاتِ السماءِ وحاموا
بل أينَ أينَ محمَّدٌ، ومحمَّدٌ / عندَ الإلهِ على الوجودِ وسامُ
وجميعُنا تحتَ الترابِ سننتهي / ما لامرئٍ فوقَ الترابِ دوامُ

إنْ آلمَتْ قلبي الخطوبُ فإنّهُ / ما بعدَ فَقْدِ أحبّتي إيلامُ
أرحلتَ؟ كيفَ وأنتَ وَعْدٌ بالضحى / ولكلِّ ظامئةٍ ندىً وغَمامُ
والشامُ ما زالتْ على أهدابها / أطيافُ لقيانا، أتنسى الشامُ؟!
كيفَ السلوُّ وأنتَ فينا بسمةٌ / وخطىً وحسٌّ دافئٌ وكلامُ
يا (مجدُ) ما أنتَ الوحيدُ يتيمُهُ / فجميعُنا أبناؤهُ الأيتامُ
وعزاؤنا بكَ يا عصامُ، فتىً به / كأبيه حُبٌّ للعلا وغرامُ
معذورةٌ إمّا بكتكَ فضائلٌ / عن كأسها جُلُّ الخلائقِ صاموا
والصدقُ بالروحِ الكريمةِ صُنْتَهُ / والناسُ في بحرِ المكاذبِ عاموا
بمقالكَ الأدبُ الرفيعُ تَوَلُّهٌ / وبفعلكَ الخُلُقُ القويمُ هيامُ
فعلى شفاهكَ ما نما إلاّ الشذى / وبراحِ كفِّكَ رقّتِ الأنسامُ
وجعلتَ من ذهبِ المكارمِ رايةً / قد ظلّلتْنا، حقُّها الإكرامُ
ولقد سهرتَ على الوفاءِ وقد غفا / عنهُ الشراةُ البائعونَ وناموا
وبكلِّ حفلٍ أنتَ أنتَ على الذُرى / وبكلِّ نادٍ أنتَ فيهِ السهامُ
ولأنتَ في كلِّ المنابرِ فارسٌ / وسلاحُهُ القرطاسُ والأقلامُ
ما الفحلُ ذا الصَمصامِ، لكنْ مَنْ غدا / في كفِّهِ من عزمهِ صَمصامُ
العِلْمُ عندكَ رائدٌ إمّا نُرِدْ / زحفاً لدنيا النُورِ، فَهْوَ أمامُ
لن نرتقي إنْ لم يكنْ للعلمِ في / راحاتنا قبلَ الحسامِ حُسامُ
لو كانَ يزهو بالرجالِ شمائلٌ / لَزَهَتْ بكَ الأعرابُ والأعجامُ
شرقاً وغرباً كانَ بسطُ جناحِهِ / وبكلِّ نجمٍ كانَ فيهِ مَرامُ

المهجـرُ النـائي، أينـسى أعينـاً | لـكَ في سـبيلِ العُـربِ لـيسَ تنـامُ
ولقـد وثبـتَ لحقّهـمْ في مهجـرٍ | ومراكـبُ المتوثّـبِ الآلامُ
وسـعيتَ في كـلِّ المهـاجرِ أنْ يُـرى | لبلادنـا مـستقبلٌ بَـسّامُ
وتركـتَ سـيلَ المغربـات، إلى ثـرى | وطـنٍ يُـراد بـه الأذى ويُـرامُ
ترجـو وتجهـدُ أن يكـون معـزّزاً | صـعبَ المنـالِ، ولـيسَ فيـه مُـضامُ
تجـري بـه الأنهـارُ شـاديةً، فمـا | يبقـى بغـصنٍ في رُبـاهُ أُوامُ

آلَ الـزعيم وحـسبكمْ مـن مَفخَـرٍ | أنْ كـانَ مـن آلِ الـزعيم عـصامُ
رضـعَ التـسامحَ والمحبّـةَ أصـلُهُ | وسمـا بـه الأخـوالُ والأعمـامُ
في دوحـةِ الـشهباء إذْ آخـى بهـا | ديـنَ المـسيحِ وأهلَـهُ الإسـلامُ
يهـوى بهـا النـاقوسُ شـدوَ مـآذنٍ | وبهـا تَعـانقَ راهـبٌ وإمـامُ
الطيـبُ طيبُـكَ يـا عـصامُ، وهـل دَرَتْ | بمثيلـه الأزهـارُ والأكمـامُ
قَـدَرٌ رحيلُـكَ مـا لنـا إلاّ رضـىً | بقـضاء ربِّـكَ فيـكَ واستـسلامُ
فعليـكَ مـن ربٍّ غفـورٍ رحمـةٌ | وعليـكَ منّـا مـا نعـيشُ سـلامُ

(الضاد، العدد ٢/٢٠٠٨، ص٣-٥، والعدد ٣/٢٠٠٨، ص٢٨-٣٠)



الدكتورة سعاد الصباح
وجولة سريعة في مؤلفاتها

الدكتورة سعاد الصباح أديبة وشاعرة، وباحثة اقتصادية من الكويت الشقيق. تحمل بكالوريوس اقتصاد من جامعة القاهرة ١٩٧٣، ودكتوراه في التنمية والتخطيط من جامعة ساري – إنكلترا. وهي عضو في المنظّمة العربية لحقوق الإنسان وعضو في منتدى الفكر العربي في عمّان، وكذلك في مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، والمجلس العربي للطفولة والتنمية، والمنظّمة العالمية للنساء المسلمات، ومركز الدراسات العبرية في

جامعة اليرموك. لـها مشاركات في الكثير من الأنشطة الاقتصادية والسياسية، والثقافيـة في الوطن العربي.

ولقد أهدت إلينا الأديبة الفاضلة والشاعرة المطبوعـة المحلّقـة مؤلّفاتهـا مـن نثريـة وشعرية (في البدء كانت الأنثى – قصائد حبّ – فتافيت امـرأة – هـل تـسمحون لـي أن أحبّ وطني – إليك يا ولدي – آخر السيوف).

فعكفتُ على قراءتها مثنـى وثـلاث وربـاع، فلـم أشـف غليلـي منهـا. فعرفـتُ أنّ الدكتورة **سعاد الصباح** الأديبة والشاعرة التي تمرُّ بك، فتترك في نفـسك شـعوراً غريبـاً يجرّك إليها ويأسرك، هي أديبة من الطراز الأوّل، وهي ذات اطّلاع واسـع علـى مـسيرة الشعر العربي منذ نشأته حتّى اليوم. ومن نافلة القول إنّ مؤلَّفات الدكتورة **سعاد** يجب أن تحتلّ المكانة الأُولى في المكتبـات العربيـة وأن تـدخل كـلّ بيـت ليـستفيد منهـا الكـبير والصغير، وخاصّة المرأة والشابّات.

هل نصفها بشاعرة المرأة، الحبّ، الوطنية، الحداثة، الرثاء، الثورة؟! إنّها سـيّدة هـذا كلّه مجتمعاً، وغيره الكثير الكثير ممّا سنحاول بحثه...

إنّ جلّ كتابات الدكتورة **سعاد الصباح** الشعرية والنثرية التي وقعـت بـين أيـدينا، وإنّ نشاطاتها الكونية التي تناهت إلينا، يحفزه دافع إنساني وجداني متـألّق هـو الحـبّ. فقد أدركت أديبتنا الملهَمة أنّ الحبَّ هو الحلّ الأوحـد لمـشكلات البـشرية جميعهـا، ذلـك الشعور النُوراني الساري في دمائها، المستريح في فؤادها، وعينيها وأنفاسها، وفي كلّ نأمة من نأماتها، سواء كان حـبّ الـوطن، أو الرَجـل الابـن، الأب، العـشيق، الـزوج، أو حـبّ بنفسجة زاهية تراءت لـها وسط صحراء قاحلة. وحتّى في هجومها على الرَجل الحجري، أو العدوّ الذي احتلّ وطنها، في تمرّدها، وفي ثورتها، وغضبها وفي أحلك لحظات حياتهـا لا يغيب الحبّ عنها، يرافق خطواتها، ويزخرف كلماتهـا، ويهدهـد أحزانهـا، ويمطـر وابـلاً رقيقاً سخيّاً من الإشراق والتفاؤل. تقول عن الظلام [1]:

سنتحدّاهم بكلّ طاقاتنا عن الحبّ

---

[1] ديوانها "في البدء كانت الأنثى"، ص١٤٢.

لأنّ الحبَّ وحده..

هو الذي سيطرد جحافل البرابرة

ويوقف هجمة عصور الانحطاط

وإنّها لا تستشعر الحرج في البوح بمكنوناتها، ولا العار في اتّخاذ صديق لا تريده أن يبتاع لها يختاً أو يهديها قصوراً، أو يمطرها عطراً فرنسياً [٢]:

وطموحي.. هو أن أمشي ساعات.. وساعات معك

تحت موسيقا المطر

وطموحي أن أسمع في الهاتف صوتك

عندما يسكنني الحزن..

ويبكيني الضجر..

وهي لا يضيرها أن تعلن ارتياحها إلى يدي رَجل قوي يحميها فتسكن بين جانحيه وفي كنفه [٣]:

أحتمي بيديك القويتين

عندما لا أجد مَن يحميني

وهي تريد في فلسفة الحبّ التي تنتهجها وتتبنّاها أن تلقّن بنات عصرها التائهات، أخلاق الحبّ ومثاليته. لكأنّها الأنثى تتمرّد على الأنثى الخنوعة القابعة في الأنثى [٤]:

لكنّي خنتُ قوانين الأنثى

واخترتُ مواجهة الكلمات

وتدعو إلى مواجهة طغيان الرَجل بكلّ نفور وإباء خلال عقود مغرقة في الاستعباد [٥]:

لن تُدخلني بيت الطاعة

---

(٢) "في البدء كانت الأنثى"، ص١٢.

(٣) "قصائد حبّ"، ص١٢٢.

(٤) "في البدء كانت الأنثى"، ص٢٣.

(٥) "في البدء كانت الأنثى"، ص٣٢.

فأنا امرأة

تنفر من أفعال النهي

وتنفر من أفعال الأمر

وهذا يقودنا بعد قليل إلى تحليل ظاهرة التمرّد البادية في أدب الدكتورة سعاد الصباح. وجهدنا الآن أن نتابع الحديث عن الحبّ وسلوكيته عند شاعرتنا فنرى جرأتها في مغازلة الحبيب بعفوية وانطلاق [٦]:

أسمّيكَ

– رغم اقتناعي بأنّك لست تسمّى –

"حبيبي"

– أسمّيك رغم احتجاج قريشٍ –

"حبيبي"

وماذا يمنعها، ويمنع المرأة أن تجاهر بحبّها، وبأثر هذه العاطفة؟ فلنستمع إلى هذا البوح الأسير في صدرها [٧]:

حين تكون حبيبي

يذهب خوفي

يذهب ضعفي

أشعر بين نساء الأرض الأقوى

وتقول في الصفحة التالية:

وأخبر حتّى النمل

وحتّى النحل

وحتّى قطط الشارع

انّي أهوى – انّي أهوى – انّي أهوى

---

(٦) "في البدء كانت الأنثى"، ص٢٦ و٢٧.

(٧) "في البدء كانت الأنثى"، ص٤٢.

وهي تريد الديمقراطية في إبداء رأيها في الحبّ [8]:

الديمقراطية أن تقول المرأة

رأيها في الحبّ

دون أنْ يقتلها أحد!!

وإنّها بأشعارها ترسم مثالية نظرية لعلّها تغدو يوماً ما منهجاً عملياً يمارَس بكلّ حريّة [9]:

لا تضايقني الإشاعاتُ

التي يروونها عنكَ وعنّي

وتقول في القصيدة نفسها:

إنّ إشاعات الحبّ في بلدي

عصافير جميلة

وأنا أرفض قتل العصافير

وهي ترفض أن يكون الرَجل سجّانها [10]:

لأنّني أريدك حبيبي

لا سجّاني

وإنّها المتمرّدة على الأعراف غير المقبولة والتقاليد، وتدعوها الخرافة [11]:

أنا الخنجر البحري الأزرق

الذي لن يستريح

حتّى يقتل الخرافة

وإنّ تمرّدها وثورتها يتعدّيان إلى القبيلة، والمجتمع العربي المتزمّت الذي: "رغم كلّ مظاهر الحداثة والانفتاح الثقافي، والحضاري على العالم، لا يزال يضع (الفيتو) على

---

(8) "في البدء كانت الأنثى"، ص٥٢.

(9) "في البدء كانت الأنثى"، ص٨٤.

(10) "في البدء كانت الأنثى"، ص٨٨.

(11) "فتافيت امرأة"، ص٥٥.

المرأة العاشقة. ويعتبرها امرأة ناشزة يشكّل كلامها عن الحبّ خدشاً للحياء العامّ وخطراً على الأمن القومي" [١٢].

وما على الشاعرة إلاّ أن تبثّ أفكارها ومعتقداتها الثورية الأخلاقية وتقرن الفكر بالقول والكتابة ووسائل التعبير [١٣]:

أريد أن أكتب
لأدافع عن كلّ شبرٍ من أنوثتي

وتنشد الحرّية حتّى الجنون [١٤]:

أريد أن أذهب معك
إلى آخر الجنون
وإلى آخر التحدّي
وإلى آخر أنوثتي

وإنّ جرأة الشاعرة آلتها على نفسها، لتخرج ببنات جنسها من القمقم الذي حُبسنَ فيه، ومن الخجل القاتل الذي أخزاهنّ طويلاً وحرمهنّ حرّية الإفضاء بخلجات النفس، وألق الشعور، وتركنَ ذلك وقفاً على الرَجل الذي خال أنّه استملكهنّ واحتلّهنّ كما يستملك الزارع بقرة حلوباً أو شاة بضّة، أو كما يحتلّ المستعمر وطناً جميلاً ويستبدّ به.

وها هي ذي تلقّن بنات جنسها كيف يبحنَ بمشاعرهنّ إلى مَن يحببنَ "دون أيّ شعور بالنقص، أو باضطهاد، أو بالخروج على قواعد الأخلاق العامّة" [١٥]:

يا أيّها القدّيس الذي علّمني
أبجدية الحبّ..
ولغة البحر الزرقاء..
أحبّكَ.. أحبّك.. أحبّك

---

(١٢) مقدّمة ديوانها "قصائد حبّ"، ص١٣.
(١٣) "قصائد حبّ"، ص٢٨ وما بعدها.
(١٤) "قصائد حبّ"، ص٥٢.
(١٥) انظر مقدّمة ديوانها "قصائد حبّ"، ص١١ وما بعدها.

وهي لا تخفي حبّها عن الرّجل [١٦]:

إنّ من أعظم أعمالي التي حقّقتها كامرأة

أنّي أحبّك

وتصرخ بكلّ جرأة وعفوية [١٧]:

أصرخ: أحبّك

فيترك القمر بيته.. وزوجته.. وأولاده..

ويندسّ تحت شراشفي..

وإنّها لتهيب بالفتيات عدم الاحتفال بعيون العابسين، أو همهمة الزاجرين، وأنفاس الحاقدين السامّة النتنة من دون وجه حقّ أو إنسانية أو دين من جهة، وتدعو الرّجل من جهة أُخرى لأن يتقبّل هذه الفكرة، فتحرّضه على حبّ واحترام هذا الصنف من الفتيات المتحرّرات [١٨]:

سأبحث لك عن كلّ الأشياء

التي تحرّضك على مراسلتي

وتحرّضك على مغازلتي

إنّها جرأة تحثّ على الحرّية وتدعو إلى الانطلاق، ولكنْ في حدود المنطق والخلق والطبع مع الرّجل ولأجله. وهي ترى أنّ الهروب منه ليس هو الحلّ ولا الخلاص [١٩]:

عندما قرّرت أن أعاقبك

وأسافر إلى باريس وحدي

لم أكن أعرف أنّي سأعاقب نفسي

وارتكب أكبر حماقات عمري

فالمرأة بدون الرّجل – الذي ستتهجّم عليه كما نرى بعد قليل – لا تحسّ بأنوثتها

---

(١٦) "في البدء كانت الأنثى"، ص٤٧.

(١٧) "في البدء كانت الأنثى"، ص١٠١.

(١٨) "قصائد حبّ"، ص١٣٩.

(١٩) "قصائد حبّ"، ص٧٢.

كاملة، بل تشعر بأنّها بدونه فاقدة التوازن، ومكسورة الجناحين [٢٠]:

فأنا بدونك عصفورة مكسورة الجناحين
ومركب يغرق..

فهي، إذاً، وصمته بالرجعي [٢١]:

مشكلتك الكُبرى
أنّك رغم كلامك عن الحداثة
لستَ حديثاً
ورغم كلامك عن المعاصرة
لستَ معاصراً

وإذا وصفته بالإقطاعي، والنرجسي، والسطحي، والجاهل بالمرأة وكيفية حبّه في قولها [٢٢]:

مشكلتك الكُبرى
أنّ جميع معلوماتك عن الحبّ
مأخوذة من كتاب (ألف ليلة وليلة)..

فإنّني أقول: رغم حملتها عليه فهي تحبّه كعاشق يمكن للمرأة أن تجد السكينة تحت جناحيه، تريد عشقه وتكره تسلّطه الغاشم. وهي سعيدة بإيلائه قدره، وحقّه ورجولته التي لا تقوى المرأة على العيش بدونها، مع بداهة أنّ قسوة الرّجل ورجولته ممّا يزيد في كثير من الأحيان في تعلّق المرأة به، وهيامها. ولنسمعها أحياناً تقول [٢٣]:

تبقى أنت صانع وقتي
وسيّد أيّامي

وكأنّ المرأة بحبّها وعطفها بل وأمومتها تغفر لرَجلها زلاّته وهفواته، بل جرائمه

---

(٢٠) "قصائد حبّ"، ص٩١.
(٢١) "في البدء كانت الأنثى"، ص١٣٤.
(٢٢) "في البدء كانت الأنثى"، ص١٣٨.
(٢٣) "قصائد حبّ"، ص١٣٥.

العاطفية وتنحاز إليه [٢٤]:

يحكون عن المعجزات السبع
وينسون أنّك معجزتي
وعن عصر المأمون
وينسون
أن لا عصر ذهبياً إلاّ عصرك
ولا قيد أجد فيه حرّيتي
إلاّ قيدك..

وفي مثل هذه الـهمسات والنجاوى عودة الشاعرة إلى طبيعتها وأنوثتها وأمومتها. تقول مخاطبة الرَجل [٢٥]:

ومن إيقاعات صوتك
ومن شرايين يديك
أولد أنا

وما أسعد المرأة وهي في حمى الرَجل! [٢٦]:

نعمة أن تشعر الأنثى بإنسان يغطّيها
ويحميها.. ويعطيها مفاتيح الغيوب..

وما أسعدها وهي أسيرة حبّه وجنونه! [٢٧]:

يا أيّها الرَجل الذي أدخلني عالم الجنون
واقفل الباب عليَّ
اتركني كما أنا
فأنا سعيدة بالاستلقاء

---

[٢٤] "فتافيت امرأة"، ص١٠٦.
[٢٥] "فتافيت امرأة"، ص٨٦.
[٢٦] "في البدء كانت الأنثى"، ص٣٥.
[٢٧] "في البدء كانت الأنثى"، ص٧٤.

تحت شـمس جنونك

وكي لا يُشتبه بأنّ الدكتورة **سعاد** تتبـرّأ من سمات المرأة الشرقية أو تبتعـد عنهـا فهي تبدي غيرتها على الرَّجل واهتمامها به وخوفها عليه من كلّ شيء ومن كلّ خطر.

فسعاد الشاعرة، المرأة، المفكّرة، حين تـدعو المـرأة إلى التحـرّر بجـرأة وإلى التمـرّد، والانعتاق والسموّ، فإنّ النصيب الأوفر من هذه الدعوة سيجني الرَّجل ثمراتـه، ويـسعد ويرتقي في قابل أيّامه.

وكان هذا شعورنا وحوارنا ونحن في مطالع شبابنا (٢٨):

لماذا يقيمون هذا الجدار الخرافي

ما بين أنثى الغزال، وبين الذّكَر؟!

لكنّنا لم نكن نحسُّ التمرّد لأنّ أُمّهاتنا نشأنَ على الخنوع والخضوع فلقمْنـا مـنهنّ الإذعان ورُبينا على حبِّ المرأة والتسلّط عليها في آنٍ معـاً، حـين راقبنـا أُمّهاتنـا ينـصعنَ طائعات، وشبه راضـيات لعنجهيـة آبائنـا.. وتـواري أخواتنـا وبنـات حيّنـا في قمقمهـنّ الساحر الغامض.

وهكذا نخلص إلى القول:

– إنّ الدكتورة **سعاد** لم تكسر بشعرها جدار الفضيلة.

– فهي لم تدعُ إلى الانفلات، بل دعت إلى التطبّع والعفوية.

– ولم تشجّع على الخطيئة، بل حثّت على السموّ والتساوي.

– ولم تدفع بنات جنسها إلى العهر، بل حذّرتهنّ منه، وعلّمتهنّ كيف يكون الحبّ.

– ودافعت عن المرأة، وهاجمت الرَّجل ولم تنكر رجولته.

– وأرادت "الاشتراكية العاطفية"، ولم ترد الإقطاع والاحتكار.

– وانتهجت الشفافية في الحبّ، وشاعت البوح والتصريح من كلا الطرفين.

– وضعت المرأة في نسق واحد مع الرَّجل في بثّ الشعور.

---

(٢٨) "فتافيت امرأة"، ص١٩.

– وأحبّت رَجلها حبّاً ليس يعرفه الحبّ.

– وتمرّدت وتجرّأت وثارت، لكنّها عفّت، وأبانت.

– وصفَتْ صفاء الماس واللؤلؤ في الماء الرائق الزلال.

– حسرت الحجاب ولم تنافق، وأسفرت ولم تراوغ.

– وإنّ الإسراف في الفضيلة يقود إلى التهاون والفتور، والتوغّل في الزهد قد يوصل إلى الإلحاد والإنكار، فكلّ شيء بقدْر.

– وإنّ الإمعان في الردع والحجب والكبت نهايته التشوّش والحقد واللاإنسانية والتخلّف.

– فالحجاب لا يحجب عن الفسق، والسفور لا يقود إلى الفجور.

– وإنّ إكراه المرأة على التقوقع – في نظرها – شجب أبله لدَورها الأنثوي المؤثّر المبارك، أُمّاً وأختاً وزوجاً وحبيبة.

– وسعاد المرأة في تمرّدها النهم، وجرأتها الأثيرة، وعفّتها الرقيقة تدعو الرَجل أن يتمنّى المرأة كما شاءتها سعاد، بل أن يجدّ في طلبها ليعشقها أكثر فأكثر، ويشتهي لو رَمَتْه الأقدار بشبهها، ولا سيّما رَجلنا الشرقي المهيض الجناح، المغلول اليدين، أسير شبقه الجنسي، المتنائي به عن لذّة حواسّ سامية عفيفة تُدرَك بغير حواسّ الجسد.

– وشعرها لسان حال المرأة التي انحبس لسانها منذ زمن بعيد حتّى الآن. وها هي ذي تزيّن لها أن تفتح قلبها الموصد على الأسرار والحكايا الدفينة، المثخنة بجراحات الحبّ الذبيح.

– لا تريدها بثينة أو عزّة أو عبلة، تريدها أنثى تحبّ رَجلها كما حبّ الأُمّ وليدَها، وهل تقوى الأُمّ على خنق ترانيم الحبّ عن ولدها في صدرها؟ وهل تقوى على كبح جماح قلبها وشفتيها عن وجهه وقلبه وعينيه؟

– وتريد أن تُعتق من أَسْر الرَجل فلا تقوى، ولا تزداد إلاّ تعلّقاً وتشبّثاً به [٢٩]:

---

[٢٩] "فتافيت امرأة"، ص٤٣ وما بعدها.

أيّها السيّد
اخرجْ من جهازي العصبي
من كتاباتي وحبري
وسطوري
وشرايين يدي
أيّها السيّد
اخرجْ من ملاءات سريري..

– وهل أدرى من المرأة بالمرأة؟ فقد كشفت الدكتورة سعاد في أشعارها كثيراً من غوامضها وأسرارها للرَجل. فكأنّ حديثها كان موجّهاً إلى الرَجل أيضاً، وكأنّ دعوتها إلى الحداثة هي دعوة إلى الرَجل هو الآخَر والشرقي خاصّة. فيتخلّص، ولو قليلاً، من أوهامه المتوارثة عن غموض المرأة وأنّها السرّ المكنون والمخلوق الرهيب الجميل الذي لا سبيل إلى إدراكه ولا مجال لسبر أغواره إلاّ في قهره وإذلاله حتّى قيل عنها: "المرأة شرٌّ، وشرُّ ما فيها أنّه لا بدَّ منها"؟! في حين أنّها خير، بل منبع الخير والحبّ كلّه إن شاء الرَجل..

(الضاد، العدد ٢/ ١٩٩٥، ص١٧–٣٠)

الدكتورة سعاد الصباح والوطن

الرَّجل عند الدكتورة سعاد الملاذ والوطن، وله خالص الحبّ وخالص الهوى والحرص. اسمع الشاعرة تتمزّق لما آل إليه حال وطنها الكويت بعد اكتشاف النفط في جوفه [١]:

ثمّ حلّت لعنة النفط علينا

فاستبحنا كلّ ما ليس يُباح

وإنّ حبَّ الشاعرة وطنها مثيل حبّها المطلق، الرَّجل المطلق وشبيه به. ولذا تريده مثالياً، ثائراً، عربياً، عريقاً لا ينسى أصوله أو يشيح عن عظَمته التي كانت قبل أن يكون النفط [٢]:

اغضبي أيّتها الأرض التي أسكرها المال

وأعماها البطر

إنّني أرفض أن أعتبر النفط قدرْ

ولا تنسى أن تسأل بلادها الخروج من دائرة العملات والأسهم وأن تنضمّ إلى جيوش العرب تشاركهم أحزانهم وتغضب لغضبهم، مشاركة وجدانية ووحدوية تمتّ إلى الأصول المشتركة القديمة والحديثة بصلة وثيقة، وتأسى لعربي في الكويت غريب وحيد لا يحمل جوازاً فتقول [٣]:

كلّما استجوبني بوليس قطر عربي

عن تفاصيل جوازي

عدتُ من حيث أتيت...

وتبكي ما آل إليه عرب اليوم من فرقة وتنابذ. وتتعرّض بأسىً للعربي يطلق النار

---

[١] "فتافيت امرأة"، ص١٢١.

[٢] "فتافيت امرأة"، ص١٢٧.

[٣] "فتافيت امرأة"، ص١٣١.

على العربي ويغزوه. ويذبحها ما انتهت إليه الكويت لحظة احتلّتها جيوش جارتها العربية الشقيقة، فراحت تكتب بكلّ جدارة ووطنية بقلمها ملحمة البطولة الحقّة ضدّ الغزاة الذين احتلّوا وطنها واستباحوه، وتصبّ جام غضبها عليهم، تقارعهم الحجّة وتفضح نيّاتهم، وتكشف زيفهم، وتتحدّث عن إجرامهم [٤]:

الإخوة الأعداء مرّوا من هنا — كي يملؤوا تاريخنا تزويرا
عبثوا بأجساد النساء ودنّسوا — قبر الحسين، ودمّروا تدميرا

ثمّ تروي في مقالات مفعمة بالوطنية الموضوعية في كتابها "هل تسمحون لي أن أحبّ وطني" الكارثة التي تعرّض لها وطنها ثمّ نجا منها بإذن الله. تحلّلها، تناقش، تنتقد، تشخّص الداء، تقترح الدواء، تعرض المشكلات والحلول بكلّ ثبات وموضوعية، وبأسلوب جاذب يأسر الأفئدة والعقول معاً بطرافته النادرة، وابتكاراته الرائعة المزيّنة بالسلاسة والوضوح، يزيده جَمالاً الخيال المتوثّب الموزون، والصدق البادي اللصيق بوجدان القرّاء العرب والأعاجم معاً. والذي يمزج بين وثبات الحسّ ورصانة العقل، وبين توهّجات العاطفة وجدّية الموضوع وخطورته، وفي كلام جميل مرن أدبي قلّما يقوى عليه الآخرون.

وإنّها لتندب عشق الحكّام تهاليلَ الجماهير، والشورى وحرّية الرأي، والحدود الفاصلة بين دول العرب. ولكنّ الأمل سرعان ما يهدهدها بغد عربي أفضل [٥]:

سوف أبقى دائماً
أنتظر الورد
يطلع من تحت الخراب

فالشاعرة، إذاً، لم تقف في تحدّيها من لجم عقال لسان المرأة عند أحاديث الحبّ والهوى التقليدية، بل تعدّته إلى هوى وطنها. فتحدّثت عن مثالبه، ودعت إلى إلغائها، ووصفت مشاعرها الفيّاضة نحوه، ونحو العرب أجمعين الذين مزّقتهم الفرقة والخصام

---

(٤) "آخر السيوف"، ص١٩ وما بعدها.
(٥) "فتافيت امرأة"، ص١٣٢.

والجمود، بل الحروب في ما بينهم أحياناً. وخصّت وطنها الكويت بخالص مودّتها وعميق مشاعرها وآمالـها [٦]:

ويسعدني أن تظلّ بلادي

ملاذ العصافير من كلّ جنس

وبيت المغنّين والشعراء

وهكذا تمزج شاعرتنا بين عاطفتهـا الوطنيـة الثـائرة، وبـين عقلـها المفكّـر، المنـوَّر بالحكمة، الخبير بألاعيب السياسة والسياسيين، الحاضر لإبداء الرأي باللـسان والقلـب، بالسلاح والقلب، بالسلاح إن دعا الداعي [٧]:

"قد نكون في مرحلة طفولتنا الثورية، ولكنّنا مع الوقت سـنكبر، وننـضج، وتزيـد معرفتنا القتالية، وسنتخرّج من جامعة المقاومة بدرجة جيّدة جداً".

قد ملكت الأديبة الدكتورة سعاد الصباح حسّاً متوفّزاً رائعاً شفّافاً، ودراية واسـعة بصنوف العلوم كالاقتصاد وشؤون الـبترول والبيئـة والاجتماعيّـات وغيرهـا، وجعلـت هدفها الأساس هو التغيير للعبور نحو الأفضل، كما تقول لإحدى المجلاّت العربية:

"هدفي الأساس يكمن في هـذا الالتـزام، وأنـا مقتنعـة أنّ لـدينا مـسؤوليّات تجـاه الآخَرين، وأُولى واجباتنا كأناس هي في احترام هذه المسؤوليّات".

وما دام الأمر كذلك، فما أجدرها، إذاً، بالتصدّي والتمرّد والإفهام.

الرثاء في شِعر الدكتورة سعاد الصباح

ويبلغ الشعور الصارخ الذبيح ذروته في ديوانها "إليك يا ولدي". فإنّ امرأة ثكلـى لم تبلغ من عمق التعبير والبوح والتواصل بتصدّع القلب، وانشطار الروح بفقـد ولـدها، ما بلغته شاعرتنا الأُمّ السيّدة سعاد [٨]:

لا تسلْ عن لون مأساتي ومجرى عبراتي

---

[٦] "فتافيت امرأة"، ص١٥٥.

[٧] "هل تسمحون لي أن أحبّ وطني"، ص٨١.

[٨] "إليك يا ولدي"، ص٥٩.

لوعةٌ لم تدرِها قبلي ثكالى الأُمّهات

لقد نثرتْ في صفحات الديوان ذوب ألمها، ودم قلبها وعصارة كبدها على ولدها الفقيد ما لم تدركه أُمّ مات ضناها على الرغم من عظيم فجيعتها حتّى اليوم [٩]:

ليت أُمّي ولدتني في زمان الجاهليهْ

بين قوم يئدون البنت في المهد صبيه

قبل أن تصبح أُمّاً ذات أزهار نديه

وتذوق الثكل والسقم، وألوان البليه

لقد بكت الشاعرة السيّدة صباح وأبكتنا، بل اعتصرت الدمع والدم من أكبادنا في رثائها ولدها، ومن أكباد الأُمّهات اللواتي "شابت من عيونهنّ الدموع" [١٠]. واسمعوا صراع أُمّ واختناقها وهي ترى ابنها يختنق بين يديها ولا تملك إلى إنقاذه وسيلة [١١]:

صاح بي طفلي المفدّى وهو مخنوق الأنين

ويكِ أُمّي أدركيني.. ويكِ أُمّي أنقذيني

وانصتْ إليها تناجي السماء [١٢]:

ونوحي معي بعد فقدان مَن

نذرتُ لـه طول عمري البكاء

الولد قتيل والأُمّ مثله القتيلة فما على الشمس إلاّ أن تنتحر حزناً عليهما [١٣]:

وتنتحر الشمس حزناً علينا، وتبكي المصيرا

وتسقط في البحر هوناً، وتجمد دفئاً ونُورا

وأيّ حال هي حال الشاعرة بعد فقد الولد الحبيب [١٤]:

---

[٩] "إليك يا ولدي"، ص٤٨.

[١٠] انظر أوّل الديوان "إليك يا ولدي".

[١١] "إليك يا ولدي"، ص٢١.

[١٢] "إليك يا ولدي"، ص٣٠.

[١٣] "إليك يا ولدي"، ص٣٥.

[١٤] "إليك يا ولدي"، ص٣٩.

رحماك ربّي.. ومتى يكون يومي المنتظَرْ
فقد غدا فوق احتمالي عيش أيّام أُخر
رفقاً بقلبي، فهو لولا عمقُ إيماني كفرْ

والأُمّ الثكلى لا تكاد تصدّق موت قلبها بموت الوليد [١٥]:

إنّ قلبي لك في صبوته.. أكرم دار
إنّه روض زكيُّ الزهر، قُدْسيُّ الثمار
إنّه يحيا على حلم لقانا في انتظار

وتدعوه إلى لقائها:

فالبدار الآن يا روحي إلى اللقيا البدارْ
فالبدار الآن يا روحي إلى حضني.. البدار

وإنّ رثاءها ممضٌ نادر فاجع [١٦]:

غرفة تبكي على سيّدها بالحسرات
لُعَبٌ تبحث عن لاعبها دون أناة

وتتلامح هنا وهناك في سطور رثائها رؤى ضبابية تمزج بين رثاء الولد ورثاء الوطن: الكويت، حين دكّها الغازي وشوّه شبابها، لكنّها عادت قوية من جديد، ما ماتت وتبقى روح ولد الشاعرة قوية حيّة عنيفة في نبض سعاد وروحها لا تموت هي الأُخرى ولا تغيب.

الطرافة والابتكار في أدبها

حفل أدب الدكتورة **سعاد الصباح** بالمعاني المبتكرة، والأفكار المستطرفة فأتحفتنا بالجديد والحديث، منها جدّة دعوتها وحداثة تطلّعاتها. وهذه – لعمري – ثورة في المضمون تتألّق فيه، بَلْه ثورتها الأسلوبية التي سنعاود الكلام فيها، فهي تنشد في

---

(١٥) "إليك يا ولدي"، ص٤١.
(١٦) "إليك يا ولدي"، ص٦٠.

قصيدتها "الحمل الأبدي" [١٧]:

أحملك تسعة أشهر

تسعين شهراً

تسعين عاماً

وأخاف أن ألدك

حتّى لا تضيع في الغابة..

واستمعْ إلى تعريفها الجديد للعالم الثالث [١٨]:

لأنّ الحبَّ عندنا

انفعال من الدرجة الثالثة

والمرأة مواطنة من الدرجة الثالثة

وكتبُ الشعر، كتب من الدرجة الثالثة

يسمّوننا شعوب العالم الثالث..

حتّى إنّها سبقت الولادة والنبوءة في مثْل قولـها [١٩]:

وشــمتكَ أُمّي على ذاكرتي

قبل أن أولدْ

وتنبّأت بأن تكون لي..

فاستعملت الولادة..

إنّها تمتح من الروح العصرية، وتمازج بينها وبين العواطف، وتوجد علائق مقبولـة مريحـة [٢٠]:

في المقاهي الأوروبّية

أقرأ جريدتي وحدي

---

(١٧) "في البدء كانت الأنثى"، ص٤٨.

(١٨) "في البدء كانت الأنثى"، ص٦٠.

(١٩) "في البدء كانت الأنثى"، ص٦٦.

(٢٠) "في البدء كانت الأنثى"، ص٧٨.

وفي المقاهي العربية

يقرأ كلّ الجالسين جريدتي معي

وفي المقطوعات القصيرة التي تحفل بها أشعارها دفق شعوري عميق الأثر وجديد [٢١]:

لو رميتُ نفسي من قمّة هذا العالم

لاتخلّص من أفيون حبّك..

لوجدني الناس

ممدّدة بين ذراعيك..

وإنّه من نافلة القول ونحن نتحدّث عن الطرافة والابتكار في أدبها أن نشير إلى التوهّج والعشق الهائلين في شعرها، ذاك الذي يذكّر بالحبّ الأوّل لمراهق أو مراهقة فلا ينسيانه. ولا يشبهه عشق أو تعلّق أو إحساس إلاّ إحساس الأمومة وغريزتها الطاغية التي أفلحت شاعرتنا في تصويرها وبثّها بكلّ شفافية ورهافة في قلوبنا، فأعطت القيمة العُظمى للحبّ، والحبّ وحده [٢٢]:

إنّهم يحاولون أن يغتالوا القصائد

ويحرقوا غابات الحبّ الخضراء

ولكنّنا...

سنتحدّاهم بكلّ طاقاتنا عن الحبّ

لأنّ الحبّ وحده

هو الذي سيطرد جحافل البرابرة

ويوقف هجمة عصور الانحطاط

خاتمة ورأي

لن أخوض في رأي النقّاد حول رضاهم عن "الشعر المنثور" أو "النثر المشعور" أو

---

[٢١] "في البدء كانت الأنثى"، ص٨٢.

[٢٢] "في البدء كانت الأنثى"، ص١٤٢.

"الشعر الحديث" المستورد، وغير ذلك من المسمّيات أو رفضهم إيّاه، لكنّني أرى أنّ نثرنا العربي صالح كلّ الصلاح، كما الشعر، لاحتواء العواطف والتجلّيات العالية، بل لعلّه يكاد يكون أرحب وأوسع للشعور والمعاني مع فارق الإيقاع الذي يمتاز الشعر العربي به. ممّا يدفع سامعه وقارئه إلى التطرّب فضلاً عن الانفعال. والنثر – وإن جاز التشبيه – موسيقا هادئة ناعمة شديدة تأسر المواجد وتثير الإحساس، لكنْ إذا رافقها الإيقاع – الوزن، حرّكت النفس وأجّجت الخواطر، وزادت خفقات الفؤاد حتّى يصل الانفعال بالمرء إلى الأوج والذروة فرحاً أو ترحاً، عشقاً أو كرهاً، نأياً أو حنيناً أو رثاء.. إنّه الشعر...

وبعد، فإنّ السيّدة الدكتورة **سعاد الصباح** شاعرة رائدة فاعلة من روّاد النهضة العربية المعاصرة، وأديبة ذات طريقة مميّزة جاذبة، ومن أنضج المدافعات عن المرأة العربية الشرقية والمسلمة في العصر الحديث، والداعيات إلى توعيتها وتحريرها وإعتاقها. ممّا سيكون له أثر بالغ، ونتائج باهرة ملموسة في تحريرها، وإعتاق رَجلها، هو الآخَر، من جاهليته وسباته، في سبيل وطن عربي ناهض مشرق، أساس رقيّه المرأة الأمّ أوّلاً، والرَجل ثانياً، في زمن وطئ الإنسان أرض القمر، وتطلّع إلى سُكنى زحل والمريخ، وصارت الأخدار والهوادج والخيام رسوماً حلوة في الخيال والوهم.. وزمن تولّى..

(الضاد، العدد ٣/ ١٩٩٥، ص١٣– ٢٢)



المطران بطرس مراياتي
رَجل الصلاح

وُلد المطران بطرس مراياتي في مدينة حلب عام ١٩٤٨ وتلقّى دروسه الابتدائية والإعدادية في معهد الإخوة المريميين، ثمّ دخل إكليريكية دير بزمار حيث تابع دراسته الثانوية في جونية – لبنان.

انتسب إلى المعهد الحبري الأرمني في روما عاصمة إيطاليا عام ١٩٦٤. وبعد ثلاث سنوات نال شهادة الليسانس في الفلسفة من الجامعة الرومانية البابوية الغريغورية في روما. ثمّ تخرّج عام ١٩٧١ في الجامعة نفسها بروما مجازاً في علم اللاهوت. كما حصل

على دبلوم في الدراسات الأرمنية الأدبية والتاريخية والطقسية من المعهد الحبري الأرمني في روما عام ١٩٧١. ثمّ عاد إلى الوطن حيث رُسم كاهناً في حلب في ٤ تمّوز ١٩٧١ على يد المثلّث الرحمات المطران جورج لاتق. وعُيّن في حلب حيث عمل في الحقلين الديني والتربوي. وتسلّم إدارة ثانوية الإيمان الخاصّة، فأدارها بفكره النيّر وعلمه الغزير، وتخرّج فيها على يده عددٌ كبير من الطُلاّب أصبحوا الآن من كبار الأطبّاء والمحامين والمهندسين وتبوّؤوا مراكز مهمّة. كما عُيّن قاضياً في المحكمة الروحية المشتركة الكاثوليكية. ولم يكتفِ بذلك بل تابع دراسته، رغم مهامّه الكثيرة، فدرس الأدب العربي الذي شُغف به وتخرّج في جامعة حلب مجازاً باللغة العربية وآدابها عام ١٩٨١. وعُيّن نائباً أسقفياً عامّاً، ونال درجة (ورتبيت) عام ١٩٨٣. كما انتُخب عضواً في لجنة الترجمة العربية – الأرمنية تحت رعاية اتّحاد الكتّاب العرب في حلب ١٩٨٧ [1]. ثمّ عُيّن مدبّراً بطريركياً على أبرشية حلب.

وفي ٢١ آب ١٩٨٩ انتخبه سينودُس الطائفة المنعقد في روما رئيساً لأساقفة حلب وتوابعها على الأرمن الكاثوليك [2]. وأُعلن قرار الانتخاب مع بَرَكة قداسة البابا في ٢١ كانون الأوّل ١٩٨٩. وهرع المواطنون بحلب لتهنئته بهذا المنصب الذي ناله عن جدارة واستحقاق. وفي الرابع من شباط ١٩٩٠ نال الدرجة الأسقفية في حلب على يد غبطة البطريرك يوحنّا بطرس الثامن عشر كسباريان.

---

[1] للمطران مراياتي دراسات ومقالات وترجمات وتحقيقات نُشرت في مختلف المجلاّت والكتب باللغات: العربية والأرمنية والفرنسية، وذلك في أهمّ المواضيع التالية: الكتاب المقدّس، المسكونيات، الرعائيات، الأدبيات، التاريخ الكنسي، الليتُرجية. وقد صدر له بالعربية: "أنشودة الحياة الخالدة" للشاعر فاهاكن تافيتيان (١٩٩٤)، منقول عن الأرمنية، طبعتان، دار الحوار للنشر – اللاذقية. "هَل أنتَ معي؟" (١٩٩٧)، طبعتان، دار المراد – لبنان. "أبحرْ إلى العمق" (٢٠٠٣)، طبعتان، دار نعمان للثقافة – لبنان. "ثورة الحلبيين على الوالي خورشيد باشا العثماني ١٨١٩ – ١٨٢٠، يوميّات المطران ابراهام كوبليان"، تحقيق وتقديم مع مهران ميناسيان، (٢٠٠٨)، منشورات مطرانية الأرمن الكاثوليك بحلب.

[2] إضافةً إلى مهمّته راعياً لأبرشيته بحلب يشغل سيادته حاليّاً المناصب الكنسية التالية: مُدبِّر رسولي على أبرشية الجزيرة والفرات (سورية). عضو اللجنة التنفيذية في مجلس كنائس الشرق الأوسط مُمثِّلاً العائلة الكاثوليكية وعضو في لجنة "الإيمان والوحدة". عضو السينودُس الدائم في بطريركية الأرمن الكاثوليك. رئيس اللجنة المسكونية البطريركية للأرمن الكاثوليك. عضو المحكمة الكنسية العُليا في البطريركية الأرمنية الكاثوليكية. عضو لجنة الحوار المسكوني اللاهوتي المشترَكة بين الكنيسة الكاثوليكية والكنائس الأرثوذكسية الشرقية. رئيس لجنة الكتاب المقدّس الكاثوليكية في سورية.

كان يوم الأحد ٤ شباط يوماً مشهوداً في تاريخ حلب، فقد هرع المواطنون إلى كنيسة اللاتين لحضور حفل ارتقاء المطران **بطرس مراياتي** السدّة الأسقفية. وكان فعلاً حفلاً رائعاً منظّماً تنظيماً جيّداً. وخلال الطقوس الدينية تُلِيَ المرسوم البطريركي بانتخاب المطران **مراياتي** مطراناً على حلب وتوابعها. كما ألقى المطران الجديد كلمةً بليغة حدّد فيها برنامج عمله الأسقفي.

وبعد انتهاء المراسم الدينية توجّه جميع المدعوّين من رسميين ومدنيين إلى صالة الكنيسة الواسعة حيث تقبّل التهاني بحضور غبطة البطريرك **كسباريان** وعدد كبير من مطارنة الطائفة الأرمنية الذين اشتركوا بالرسامة الأسقفية وجميع الطوائف بحلب وعدد كبير من رجال السلك الدبلوماسي ووجهاء المدينة ورجالات الأدب والفضل والتجارة والصناعة.

وفي اليوم التالي ٥ شباط أقامت مطرانية الأرمن الكاثوليك بحلب مأدبة عشاء رائعة في نادي حلب العائلي تحت رعاية البطريرك **كسباريان**. وامتازت المأدبة بتنظيمها الدقيق. وبعد أن أخذ جميع المدعوّين أماكنهم اعتلى المنبر الأديب البليغ والمفكّر الأستاذ **ديمتري حاتم** فافتتح الحفل بكلمة ترحيبية ارتجالية كانت قطعة أدبية رائعة رحّب بها باسم الأبرشية بالحضور، وبهذه المناسبة الجميلة التي كان أهل حلب ينتظرونها منذ أمد بعيد.

وكان للأدب نصيب وافر، فقد تكلّم الأستاذ **إلياس قصبجي** عن الطائفة الأرمنية، وتبعه عدد من الأدباء تكلّموا باللغتين الأرمنية والعربية مهنّئين المطران **مراياتي** بمنصبه الجديد. ثمّ توالى الشعراء والأساتذة: **عبد الله يوركي حلاّق وأنطوان شعراوي وعصام مرجانة وجورج مراياتي** شقيق المحتفى به. **ورياض عبد الله حلاّق** فألقوا جميعاً قصائد بديعة بهذه المناسبة الخالدة.

لقد عرفتُ المطران **مراياتي** رَجُلَ دِين ودُنيا وأديباً كبيراً وواعظاً بليغاً وصديقاً صدوقاً.

وكانت لي قصيدة "رَجلُ الصلاح" في هذه المناسبة الخالدة. وأنا لا أزال أتغنّى بأبياتها إلى اليوم:

رَجلُ الصلاح

هـات البلاغـةَ منـكَ كـي أتكلَّمـا
أنا في الوهـاد، وأنـتَ نـسرٌ في الـسما

رُدتَ المجـرَّةَ بالخيـالِ وبـالنهى
حتّـى لمـستَ براحتيـكَ الأنجمـا

مـذْ كنـتَ طفـلاً كنـتَ بلبـلَ أيكنـا
باسـمِ المـسيح لكـمْ شـدوتَ مرنِّمـا

مذ كنتَ طفـلاً سـرتَ في درب التقـى
وقـضيت أيّـامَ الـشباب مُعلِّمـا

وزرعـتَ في كـلّ القلـوب محبّـةً
وبنيـتَ جـيلاً واعيـاً متقـدِّما

هـذا محيّـاكَ الـصبيحُ منـوَّرٌ
بأجـلَّ مـا وشّـى الـصباحُ ونمنمـا

شـعَّتْ عيونـكَ بالـذكاء ولاحَ في
شـفتيكَ لطـفٌ كـالربيعِ تبـسُّما

إنّـي عرفتـكَ المعيـاً حازمـاً
وعرفـتُ فيـكَ الأريحـيَّ الأكرمـا

وعلمـتُ أنّـكَ بـالغٌ قمـمَ العُلـى
مَن كـان مثلـكَ لـن يخيـبَ ويُحجمـا

هـذا صـليبُكَ بـاليمين حملتـهُ
وبكفِّـكَ اليُـسرى حملـتَ البلـسما

لمّا وعظتَ خـشعتُ في كنـف الـهدى
ووددتُ لـو قبّلـتُ صـوتَكَ والفمـا

المنـبرُ الرانـي إلى فرسـانه
يرنـو إليـكَ يريـدُ أن تتكلّمـا

ناجيتُ أحلامي، وقلتُ لـها افرحـي
غيـثُ الـهناء علـى مرابعنـا همـى

عانقـتُ آمـالي وجئـتُ مهنّئـاً
وأتيـتُ ناديـكَ الرحيـب مُـسلِّما

حلـب أتتـكَ لكـي تهنّـئ نفـسها
بكَ، يا حبيبَ الكلّ، يـا فخـرَ الحمـى

فاجلسْ على عـرشِ الـصلاح مـؤزَّراً
وبنعمـةِ البـاري العظـيم مُنعَّمـا

(الضاد، العدد ٢/ ١٩٩٠، ص١٣-١٦)

رياض عبد الله حلاّق

- السيرة -

* وُلد في مدينة حلب بتاريخ ١٩٤٠/١٢/٢٤.
* درس المرحلة الابتدائية في مدرسة المعهد الفرنسي العربي "اللاييك".
* تابع دراسته الإعدادية والثانوية في معهد الأخوّة بحلب "الفرير ماريست".
* درس الحقوق في جامعة حلب.
* دَرَّسَ اللغة العربية في عدة مدارس رسمية وخاصّة بحلب، ومنها مدرسة نيقولاوس للروم الكاثوليك من عام ١٩٦٣ حتّى ٢٠٠١.
* نظم الشعر العربي الأصيل منذ يفاعته، وألقى العديد من القصائد الوطنية والوجدانية والغزلية والإخوانية في مناسبات عديدة وفي مؤتمرات كثيرة.
* بدأ حياته الأدبية بكتابة القصّة والمقالة والقصيدة العمودية، ونشر إنتاجه في المجلاّت والصحف العربية وفي مجلّتَي "الضاد" و"الكلمة".
* في عام ١٩٦٢، ترأس إدارة مجلّة "الضاد" التي يصدرها والده عبد الله يوركي حلاّق منذ عام ١٩٣١، ولا تزال تصدر حتّى الآن. وفي عام ١٩٩٢ نقل عميد الضاد امتياز المجلّة إليه.
* عضو في "جمعية مشاريع الكلمة الخيرية" منذ عام ١٩٦٢.
* رئيس تحرير مجلّة "الكلمة" التي تصدرها "جمعية مشاريع الكلمة الخيرية" بحلب (١٩٩٦).
* عضو في جمعية "العاديّات" منذ عام ١٩٦٢ واضطلع فيها بمهمّة عضوية مجلس الإدارة وأمانة السرّ لمدّة سبع دورات.
* عضو في "اتّحاد الصحفيين العرب" منذ تأسيسه في سورية عام ١٩٦٩.
* عضو في "جمعية الجغرافيين" في سورية.
* عضو في معظم الجمعيات الثقافية والفنّية والخيرية في حلب، والقطر العربي السوري.
* في عام ١٩٩١، انتُخب عضواً في مجلس محافظة حلب، وجُدِّد انتخابه للمرّة الثانية عام ١٩٩٥ ولمدّة أربع سنوات.
* شارك في عدّة مؤتمرات أدبية وفكرية، وألقى عدداً من الأمسيات الشعرية والمحاضرات

الأدبية والفكرية في سورية والوطن العربي والمهجر الأميركي.

* دُعي لزيارة الصين والبلاد الأوروبّية وروسيا وأرمينيا وقبرص وكندا وأميركا وفنزويلا وموريتانيا ومعظم البلاد العربية للاشتراك في مؤتمراتها، وألقى في معظمها المحاضرات عن سورية ومدينة حلب.

* قابل معظم رجالات السياسة والدين في الوطن العربي والمهجر.

* كرّمه مجلس مدينة حلب في إطار الاحتفال بحلب عاصمة للثقافة الإسلامية (٢٠٠٦) ولمناسبة مرور ٧٥ عاماً على تأسيس المجلّة في مدينة حلب. وحاز جائزة الأديب متري نعمان للدفاع عن اللغة العربية وتطويرها (لبنان – ٢٠٠٩). كما حاز الجائزة الأُولى في مسابقة عكاظ الشعرية الثالثة عشرة (سورية – ٢٠٠٩).

* يتابع إصدار مجلّته "الضاد" التي دخلت عامها الثمانين بجهود فردية، وله فيها مئات القصائد والمقالات والقصص. وهو يحرص على أن تبقى الضاد ودارها محجّة الأدباء وموئل المفكّرين وملتقى المغتربين والإعلاميين والأصدقاء، لما يربطهم به من علاقات مودّة وتقدير.

* طُبع له ثلاثة كتب: الأوّل "دراسة نقدية في أدب الدكتورة سعاد الصباح" عام (١٩٩٤)، والثاني "من نوادر الضاد" عام (١٩٩٥)، والثالث "ثمار الضاد في رحلة العمر" في مناسبة مرور ٧٥ عاماً على انطلاقة الضاد (٢٠٠٧)، والرابع "عبد الله يوركي حلاّق في معابر الذكرى والوفاء" (٢٠٠٧) في المناسبة نفسها ولمرور ١٠ سنوات على رحيل والده عميد الضاد، والخامس "من حصاد السنين" من منشورات جوائز ناجي نعمان الأدبية، دار نعمان للثقافة – لبنان، سلسلة الثقافة بالمجّان (٢٠٠٩).

* له تحت الطبع ديوان شعري كامل بعنوان "حصاد السنين". وهو مجموعة قصائد عمودية في الوطنية والغزل والرثاء والوجدانيات والمناسبات. وكتاب نثري بعنوان "قطاف الأربعين" وهو مجموعة مقالات اجتماعية وأدبية وفكرية ووطنية. و"رحلة العمر" وهو في أدب الرحلات يتحدّث فيه عن رحلته إلى المهجر الأميركي وما لقيه هناك واتّصاله بالجاليات العربية والحلبية.

* ما زال يتابع مسيرته الأدبية والفكرية والاشتراك في المؤتمرات الأدبية، وآخرها مؤتمر البابطين في الرياض، ومئوية كرم ملحم كرم في الأونسكو ببيروت، ومؤتمر ابن زيدون في قرطبة – إسبانيا، ومؤتمر شوقي ولامَرتين في باريس، ومهرجان الشعر العالمي في نواكشوط بموريتانيا ممثّلاً الشعراء العرب، ومؤتمر الشباب العربي في المهجَر في عمّان – الأردنّ، وزيارة إلى بروكسل بدعوة من الرابطة السورية في بلجيكا. كما ألقى في هذه المؤتمرات الكلمات الافتتاحية والبحوث والمحاضرات المفيدة والقصائد الرائعة.

المحتويـات

تتألّق في آفاق الزمان أسماء اعتلى أصحابها قمم المجد والشهرة، حتّى غدوا أعلاماً. وكثيراً ما يلجأ رجال الفكر والأدب إلى ترجمة هؤلاء الأعلام، فيتحدّثون عن حياتهم وآثارهم وبيئتهم ومؤلّفاتهم، فيصيبون كبد الحقيقة حيناً، ويدورون حولها حيناً آخَر، بحسب المصادر التي استقوا منها معلوماتهم.

في (وجوه عرفتُها) اقتحمتُ هذا الميدان على نحو مختلف، فترجمتُ لأناس عظام عرفتهم عن كثب، وشاركتُ بعضهم في الحياة الفكرية والأدبية والنضالية... فكتبتُ عنهم من خلال لقاءاتي المتكرّرة معهم، معتمداً على شِعرهم ونثرهم وأعمالهم الإنسانية والأدبية والفنّية والثقافية.. وكتاباتهم التي زيّنوا بها صفحات مجلّتنا (الضاد) عبر مسيرتها التي بلغت الثمانين عاماً، عاشتها شامخة كالطود، عالية كالسروة الماردة، لا تزيدها الرياح الهوج، إلاّ رسوخاً في أعماق الأرض، وارتفاعاً في كبد السماء.

يحتوي هذا الكتاب على إحدى وستّين إطلالةً على شخصيّات، رتّبتُها بحسب سنة ميلادها. وقد عرفتُ منها سبعاً وأربعين، والبقية عرفتُها من خلال آثارها التي بين أيدينا. رحم الله مَن رحل عنّا وأمدّ في عمر الأحياء. إنّهم، والحقّ، رجال شجعان، وأدباء كبار، أعطوا أمّتهم والعالَم عصارة فكرهم وفنّهم لتحيا الشعوب عزيزة كريمة.

إنّ هذا الكتاب، لم يتّسع لجميع مَن عرفتُهم وصادفتُهم وأُعجبتُ بهم وكتبتُ عنهم، من أصحاب القرائح الخصبة، ورافعي ألوية المحبّة الفكرية والإنسانية والقومية. وغاية ما أرجوه وأصبو إليه، أن أتمكّن في أقرب وقت، من طبع مؤلّف ثانٍ، أوفّي به حقّ أدباء ومفكّري[illegible] واجتماعيين أعزّاء، وزملاء وخلاّن كرماء.. أنسى أجمل ذكريات الصبـ[illegible] وأطيب عهود الصغر، ولا أنسى ما قدّموه للوطن والإنسان، من خدما[illegible] جليلة، ومآثر خالدة.

رياض[illegible]

1931
80
2010